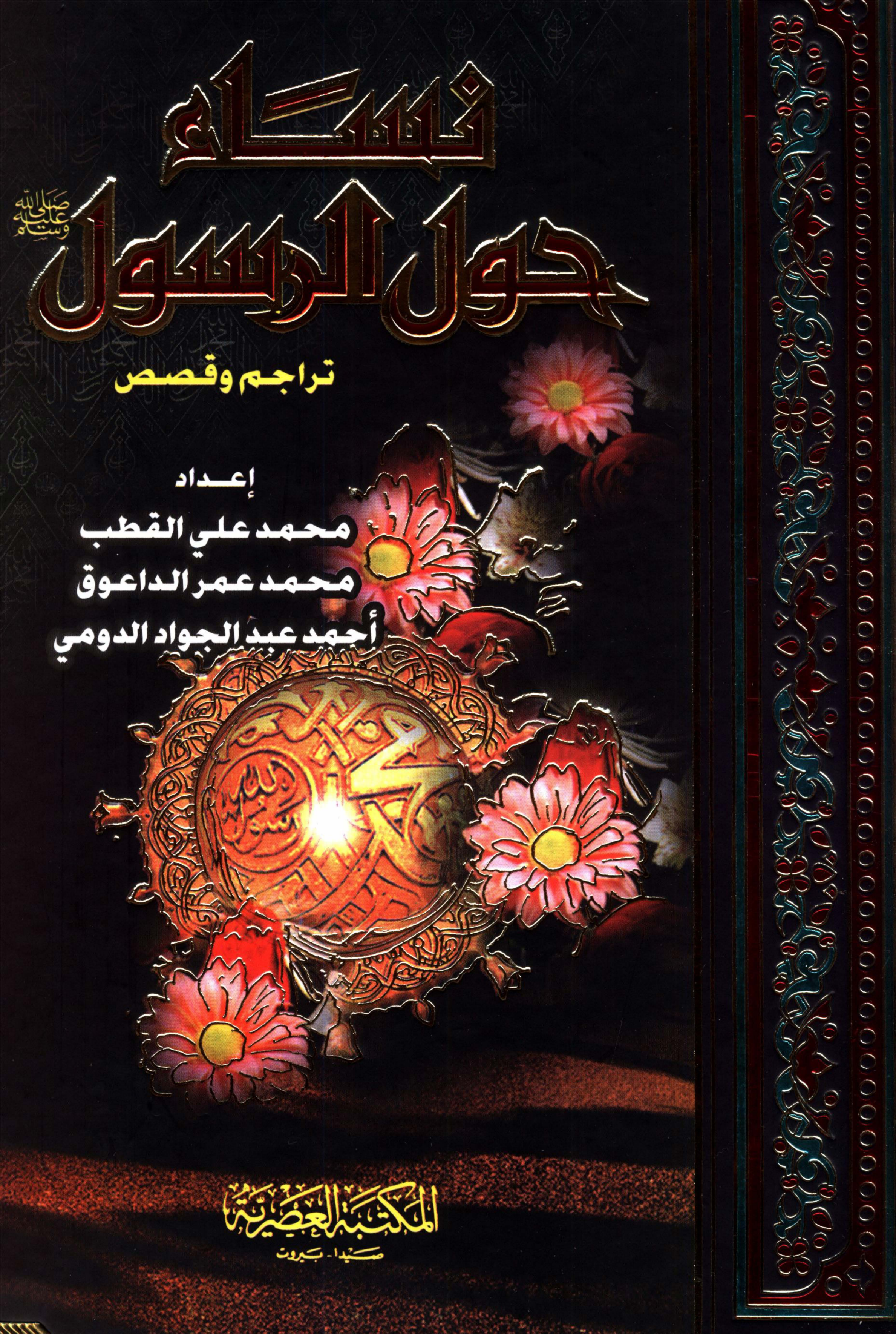

نساء حول الرسول صلى الله عليه وسلم
تراجم وقصص
إعداد
محمد علي القطب
محمد عمر الداعوق
أحمد عبد الجواد الدومي
المكتبة العصرية
صيدا - بيروت



تراجم وقصص

إعداد

محمد علي القطب   محمد عمر الداعوق

أحمد عبد الجواد الدومي





شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/8355
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 00961 7 729261
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا جزين
00961 7 230841 - 07 230195
تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875
صيدا - لبنان

2015 - 1436 هـ

E. Mail alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

ISBN 9953-34-219-9



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

اللهم أعن ويسر يا كريم

إنَّ الحمد للَّه نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدي اللَّه فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وأشهد أنَّ محمَّداً رسول اللَّه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 102].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: 1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: 70، 71].

أمَّا بعد: فإنَّ أصدق الحديث كتاب اللَّه، وأحسنَ الهدي، هديُ محمَّدٍ ﷺ. وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٍ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ [الأحزاب: 21]، فهو عليه الصلاة والسلام القدوة وهو الأسوة لكل مؤمن ومؤمنة وكل مسلم ومسلمة، وهو المنار المحتذى لكل من انقاد قلبه للَّه واستسلم بجوارحه لشريعة العزيز الوهاب.

فمن كان متأسياً فليتأسى برسولِ اللَّه ﷺ ومن كان مُقتدياً فليقتدي بمحمد رسول الهدى ونبي الرحمة صلّى اللَّه عليه وعلى آل بيته وصحبه الأطهار.

وها هو بيت النبي ﷺ بأزواجه الأطهار وبناته الأبرار يسمو فوق كل

البيوت.. ومع تواضعه والتصاقه بالتراب يعلو فوق كل الدور والقصور.. إنه بيت النبوة إنه بيت سيد الخلق إنه بيت رسول الحق.. إنه بيت السعادة الأُسرية.. إنه النموذج الفذ.. إنه الطريق إلى القناعة والرضى.. إنه الوسيلة لبلوغ المُنى.. إنه السيرة النبوية في بيوتات خير البرية.. إنه السجل الناصع في صفحة التاريخ.. إنه الحضارة المشرفة والتي قضت على الحضارات المزيفة إنها الحقيقة مجسدة برسولِ اللَّه ﷺ وآل بيته الأطهار.

وهذا الكتاب.. صفحة من صفحات هذا التاريخ المجيد.. جاء ليروي لنا شذى وعبير الحياة النبوية في بيوتات سطرت للأمجاد تاريخاً وللتاريخ أمجاداً.

جاء هذا الكتاب ليحكي لنا بأسلوب سهل مبسط عيش النبي ﷺ مع زوجاته الفاضلات.. وليحكي لنا قصة الزوج النبي - ﷺ - مع أمهات المؤمنين والمؤمنات.. جاء ليحكي لنا قصص الصبر والتضحيات جاء ليحكي لنا صناعة الأُسر الصالحة والمكرُمات.. قصصاً مفصلة تروي لنا دقائق الأمور وعظائمها..

جاء هذا الكتاب ليروي لنا قصص النبي ﷺ مع بناته الأطهار.. قصة الأب الرسول ﷺ مع أفضل ذرية تحت ظل السماء... إنه بحق قصة الحضارة البشرية.

إنها السيرة المشرفة متمثلة برسول اللَّه ﷺ زوجاً وأباً ونبياً بدأ بطفولته بين أحضان أمه ومرضعاته.. ثم شاباً يافعاً.. ثم زوجاً للسيدة خديجة رضي اللَّه عنها. وبعد وفاتها زوجاً للسيدة سودة بنت زمعة رضي اللَّه عنها. ثم بعد هجرته زوجاً للسيدة عائشة رضي اللَّه عنها.. ثم زوجاً لابنة الفاروق السيدة حفصة رضي اللَّه عنها. ثم زوجاً للسيدة زينب بنت خزيمة رضي اللَّه عنها. ثم زوجاً للسيدة أم سلمة رضي اللَّه عنها بعد وفاة زوجها. ثم زوجاً للسيدة زينب بن جحش رضي اللَّه عنها. ثم زوجاً للسيدة جويرية بنت الحارث رضي اللَّه عنها. ثم زوجاً لرملة بنت أبي سفيان بعد رجوعها من الحبشة ووفاة زوجها. ثم زوجاً لصفية بنت حيي رضي اللَّه عنها بعد مقتل زوجها

وإسلامها. ثم زوجاً لميمونة بنت الحارث رضي اللَّه عنها. ثم زوجاً لريحانة بنت زيد رضي اللَّه عنها. ثم زوجاً متسرياً بجاريته مارية القبطية أم ولده إبراهيم ـ رضي اللَّه عنها وأرضاها. . .

رحلة زواج ملؤه الإيمان. . ورحلة إيمان في بيوتات خير الأنام. . إنها قصة الحضارة. . وإنها الحضارة في قصة!

ثم ينتقل الكتاب إلى حياة النبي ﷺ مع بناته الأطهار. . كيف سماه أباً حنوناً ومربياً مشفقاً. . وصدراً واسعاً. . كيف عشن ـ رضي اللَّه عنهن في كنف النبوة والرسالة الإلٰهية. . كيف كانت حياتهن. . كيف هجرتهن. . كيف كان زواجهن؟ وكيف كان مماتهن! إنها قصة الصبر الطويل. .

سوف يعيش القارئ الكريم عبر سطور هذا الكتاب رحلة الزمان الحي في عصر الموات. . ورحلة الحياة المشرفة في زمن ضاعت فيه أكثر القيِّم!!!

عرفان



أمهات الرسول ﷺ

آمنة بنت وهب (*)

إن رحم **آمنة بنت وهب** أشرف الأرحام وأسماها وأعلاها[1]، إذ استقرت فيه نطفة كريمة عظيمة، ما زالت تتقلب في الأصلاب ـ أصلاب الرجال ـ بتدبير وتقدير من الباري عزّ وجلّ حتى استفرغها **عبد اللَّه بن عبد المطلب**، فتى قريش، الذي فاق أقرانه دلالاً وجلالاً وجمالاً. . ، والذي كان نور النبوة يتلألأ بين عينيه، ويشع من ناظريه، ويسري في كيانه. . .، والذي كانت فديته من الذبح ـ براً بقسم والده ـ أغلى ما عرفه وعهده العرب.

وذلك من أجل أن يبقى الاصطفاء الإلهي حقيقة قائمة، راسخة في قلب التاريخ البشري، شاهدة على الإرادة الربانية المطلقة، لا تبديل لكلماته ولا راد لقضائه.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 33، 34].

* * *

وانصرف **عبد اللَّه** مع أبيه **عبد المطلب** بعد الافتداء من الذبح وقد ازداد إشراقاً. . .، فلقيته عند الكعبة امرأة من بني أسْد بن عبد العزىٰ فقالت له حين نظرت إلى وجهه الذي يتلألأ بنور النبوة: لك مثل الإبل التي نحرت عنك وَقَعْ عليَّ الآن. . .!؟

فقال:

أمَّا الحَرَامُ فالمماتُ دونَهُ ... والحِلُّ لاَ حِلٌّ فأسْتَبِينَهُ

---

(1) لأنه حمل خاتم النبيين، وإمام المرسلين، مع إيماننا وإقرارنا باصطفاء «مريم ابنة عمران» ـ عليها السلام ـ على نساء العالمين.

(*) ترجم لها الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (220) وابن الأثير في «أسد الغابة» (390).

يَحمِي الكريمُ عِرضَهُ ودِينَهُ فكَيْفَ بالأمرِ الذِي تبغِينَهُ

ثم وقع اختيار **عبد المطلب** على آمنة بنت وهب ـ الزهرية، من بني زهرة، زوجة لوليده عبد اللّه وهي يومئذٍ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً. ولقد رأت عبد اللّه أيضاً كاهنة من **تبالة**، كانت قد قرأت الكتب يقال لها: **فاطمة بنت مر** ـ الخثعمية ـ، وكانت من أجمل نساء العرب وأعفّهن، فرأت في وجهه نور النبوة، فعرضت نفسها عليه، فأبى. . .،

فقالت:

إنِّي رأيتُ مخيلة نشأتْ فتلألأت بخاتم القطرِ
فسما لها نورٌ يضِيءُ به ما حولَهُ كإضاءَةِ الفجرِ
ورأيتُ سُقْياهَا حيا بلدٍ وقعت به وعمارة القَفْرَ
ورأيتُها شرفاً ينوءُ به ما كل قادحِ زندَه يُورى
للَّه ما ـ زهرية ـ سلبت منك الذي سلَبت وما تَدْرى

كانت الإرهاصات بنبي من ولد **إسماعيل** ـ عليه السلام ـ تنتشر بين العرب جميعاً من أقصى الجزيرة إلى أقصاها، استقاءً مما عُرف من أهل الكتاب وعلمهم وما ورد في توراتهم تصريحاً أو تلميحاً، وكذلك ما كان يردده الكهان والمنجمون.

ولقد أحاطت بـ **عبد اللّه بن عبد المطلب** ظروف في النشأة والشباب وبهاء الطلعة وروعة الإطلالة، وعفة النفس، وسموّ الخلق، والنور غير المعهود والمألوف. .، ما كان يدعو بعض النساء والفتيات إلى أن يكنَّ أصحاب الحظوة منه. وتم الزواج. . . واقترن **عبد اللّه** بـ **آمنة**. . .

واستقرت النطفة الشريفة في رحم **آمنة**.

وأدّى رسالته التي خصه اللّه تعالى بها، وكفى. . .؛ والقدر في يد من يصرف القدر ـ سبحانه.

فبعد أشهر من الحمل، قام **عبد اللّه** برحلة إلى الشام[1]، وفي أثناء

---

(1) الشام في المصطلح الجغرافي عند العرب: فلسطين والأردن وسوريا ولبنان. . .؛ وكانت غزة على الساحل الفلسطيني من أكثر المدن التي يؤمها تجار قريش.

أَوبته وقع فريسة المرض، فأقام عند أخواله في **يثرب**، من **بني النجار**، يرعونه ويكلؤونه.

لكنه ما لبث أن توفاه اللَّه تعالى إليه، فتأيمت **آمنة**، وحزنت أشد الحزن على **عبد اللَّه** الذي ما أقامت معه إلا أشهراً قلائل.. معدودة؛ وبكت أعظم البكاء، وانتحبت أقسى النحيب...،

لقد كان الفراق صعباً..، وأصعب منه حركة الجنين في بطنها..!؟ إنه يتيم من قبل أن يولد وتتفتح عيناه على الحياة!! ذلك مبلغها من الألم النفسي والقهر الوجداني لكنها كان لها عزاء..! من ذاتها، فقد كانت جلدة صابرة...

ومن **عبد المطلب** الذي كان يرعاها ويحنو عليها، ويعطف...، ولا يفارقها إلا لشأن خاص.

وأعظم العزاء لها كان في الجنين، فما كانت لتجد ثقلاً، ولا اضطراباً ولا انزعاجاً، بدنياً أو نفسياً..، بل على العكس من ذلك... كانت تجد الراحة والهناءة، وتحس بأنها كيان آخر، فيه ارتفاع وسموّ عن مادية البشر ودنياهم، كأنها الطيف يحلق ويحوم.

أتاها آتٍ في المنام يقول لها: «أنتِ حملتِ بسيد هذه الأمة ونبيها».

وأتاها مرة أخرى قبل الولادة فقال لها:

- قولي إذا ولدتيه: أعيذه بالواحد من شرّ كل حاسد، ثم سمِّيه **محمداً**.

وهكذا توالت الرؤى على **آمنة**، ولأكثر من مرة، تبشرها وتثبتها وتصبرها، وتعزيها، وتواسيها، وترفع من شأنها، وشأن ما تحمل في بطنها وكان يوم الوضع مشهوداً... كان ليلة الثاني عشر من ربيع الأولى، ومع الفجر...!

وهذا الأوان والوقت له دلالته ومغزاهُ ومعناه، وأبعاده في آفاق الزمان، إنه فجر الإنسانية يسفح ظلمة الجهل، وظلام التراكمات الانحرافية عن الصراط المستقيم، وظلم البشر لأنفسهم ولبعضهم...!

وإنه **الربيع**..، بعد زمهرير الشتاء وزوابعه وقصفه ورعوده، وقتامة

سحابه وغيومه، وبعد جفوة الصيف بقيظه وحره ولفحه..، وبعد جفاف الخريف وتعري الطبيعة... وتقلبها...

تقول: **آمنة**.

- لما وضعته خرج معه نور أضاء ما بين المشرق والمغرب، فأضاءت له قصور الشام وأسواقها، حتى رأيت أعناق الإبل بـ **بصرى**.

ورأيت ثلاثة أعلام مضروبات: علماً بالمشرق وعلماً بالمغرب، وعلماً على ظهر الكعبة.

وحضر عبد المطلب **جده** ﷺ فحمله وخرج به إلى الكعبة، يطيفه بها ويردد:

الحمد للَّه الذي أعطاني هذا الغلام العظيم الشأن

أعيذه باللَّه والأركان

بعض الرواية التي قدمنا كانت على لسان **آمنة** لـ **حليمة السعدية** مرضعته وظئره، وسنعرض لها في حياتها - إن شاء اللَّه تعالى -.

وهنا تدخل **حليمة بنت أبي ذؤيب** أماً ثانية في حياته ﷺ.

وقبل الحديث عنها وعن دورها لا بدّ من الإشارة السريعة إلى أول ثدي التقمه ﷺ وأول لبن دخل جوفه الشريف.

إنها **ثويبة** مولاة عمه **أبي لهب - عبد العزى بن عبد المطلب** محباً لأخيه **عبد اللَّه** ولقد حزن وتألم لفقده، فلما بشرته **ثويبة** مولاته بمولد محمد ﷺ فرح وطرب وأعتقها..، وكان ذلك شأن السادة والأشراف من العرب، ومدعاة اعتزاز وفخار عندهم. ويبدو أن **ثويبة** لازمت **آمنة** بعد وضعها أياماً؛ وكانت حديثة عهد بولادة أيضاً...، فألقمت ثديها **لمحمد** ﷺ فامتصه وشرب من لبنها... حتى جاءت **حليمة** وأخذته معها.

ودور **حليمة** في طفولته الأولى ﷺ دور أساسي ومهم، وقد حفلت فترة إقامته عندها في ديار **بني سعد** بالشأن الخطير...، وكان ذلك على مرحلتين.

***

حليمة السعدية(*)

الرضاع من غير الأمهات، والنشأة في البادية من سمات الشرف والمكانة عند العرب في جاهليتهم. يقصدون بهما تنويع التغذية للنّجابة، وشبوبيّة النشأة وفتوّتها.

ولقد حضرت **حليمة** مع نسوة من **بني سعد** إلى مكة يلتمسْن الرضعاء، فكل امرأة أخذت رضيعاً إلا **حليمة**.

تقول **حليمة**: فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول اللّه ﷺ فتأباه إذا قيل لها: يتيم، وحين تركناه قلنا: ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه؟ إنما نرجوا المعروف من أبي المولود، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا فواللّه ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما لم نجد غيره، وأجمعنا الانطلاق قلت لزوجي الحارث بن عبد العزى: واللّه إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه.

فقال: لا عليك أن تفعلي فعسى أن يجعل اللّه لنا فيه بركة، فذهبتُ فأخذته. . ، فواللّه ما أخذته إلا أني لم أجد غيره.

وتمضي **حليمة** في روايتها فتقول: فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلي، فأقبل عليه ثدياي بما شاء اللّه من لبن، فشرب حتى روى، وشرب أخوه[1] حتى روى، وقام صاحبي إلى شارفنا[2] تلك، فإذا بها لحافل فحلب ما شرب وشربت حتى روينا، فبتنا بخير ليلة فقال صاحبي حين أصبحنا: يا **حليمة** واللّه إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه. . ، فلم يزل اللّه عز وجل يزيدنا خيراً.

(*) ترجم لها الحافظ ابن الأثير في «أسد الغابة» برقم (427).

(1) أي: ولدها الذي في مثل سنه ﷺ.

(2) الشارف: الناقة المسنة.

ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا فواللّه لقطعت أتاني[1] بالركب حتى ما يتعلق بها حمار، حتى إن صواحبي ليقلن: ويلك يا بنت أبي ذؤيب!!! هذه أتانك التي خرجت عليها معنا؟؟ فأقول: نعم واللّه إنها لهي، فيقلن: واللّه إن لها لشأناً.

حتى قدمنا أرض بني سعد، وما أعلم أرضنا من أرض اللّه أجدب منها، فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعاً لبناً، فنحلب ما شئنا، وما حوالينا ـ أو حولنا ـ أحد تبضّ له شاة بقطرة لبن، وإن أغنامهم لتروح جياعاً، حتى إنهم ليقولون لرعيتهم، أو لرعيانهم: ويحكم أنظروا حيث تسرح...، فتروح أغنامهم جياعاً ما فيها قطرة لبن، وتروح أغنامي شباعاً لبناً، نحلب ما شئنا فلم يزل اللّه يرينا البركة نتعرفها.

حتى بلغ سنتين...

فكان يشب شباباً لا تشبه الغلمان. فواللّه ما بلغ سنتين حتى كان غلاماً جفراً[2] فقدمنا به على أمه ونحن أَضَنُّ شيء به مما رأينا فيه من البركة فلما رأته أمه، قلت لها: دعينا نرجع بابننا هذه السنة، فإنا نخشى عليه وباء مكة.

فواللّه ما زلنا بها حتى قالت: نعم فسرحته معنا، فأقمنا به شهرين أو ثلاثة.

فبينما هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة في بُهْم لنا جاء أخوه يشتد فقال: ذاك أخي القرشي جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فَأضجعاه فشقا بطنه فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه، فنجده قائماً مُنْتَقِضاً لونه، فاعتنقه أبوه وقال: يا بني ما شأنك؟ فقال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، أضجعاني وشقا بطني، ثم استخرجا منها شيئاً فطرحاه، ثم ردّاهُ كما كان.

فرجعنا به معنا، فقال أبوه: يا **حليمة** لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب فانطلقي بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف.

قالت **حليمة**: فحملناه، فلم تُرِعْ أمه إلا به، فقدمنا به عليها فقالت ما

---

(1) الأتان: أنثى الحمار.

(2) الجفر: الغليظ الخشن في بدنه.

ردكما يا ظئر[1]؟ فقد كنتما عليه حريصين!؟ فقالا: لا واللّٰه، إلاّ أن اللّٰه قد أدى عنا، وقضينا الذي علينا، وقلنا: نخشى الاتلاف والأحداث، نرده إلى أهله.

فقالت: ما ذاك بكما..، فأصدقاني شأنكما..، فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره، فقالت: أخشيت عليه الشيطان؟! كلا واللّٰه.. ما للشيطان عليه من سبيل، واللّٰه إنه لكائن لابني هذا شأن، ألا أخبركما خبره؟ قلنا: بلى قالت حملت به فما حملت حملاً قط أخف منه، فأريت في النوم حين حملت به كأنه خرج مني نور أضاءت له قصور الشام، ثم وقع حين ولدته وقوعاً ما يقعه المولود، معتمداً على يديه، رافعاً رأسه إلى السماء... فدعاه عنكما.

ثم كان الفراق بين **حليمة** ورضيعها العظيم، ولكن إلى حين.

هذه الطفولة المميزة التي وعى فيها الرسول اللّٰه ﷺ على الأشياء والصور والمسميات وعياً غير عادي، وهو مقيم في مضارب بني سعد ومنازلهم حدّث بها من بعد في مرحلة متأخرة من حياته الشريفة، ورويت عنه، رواها غير واحد من الصحابة الكرام ـ رضوان اللّٰه عليهم ـ.

لما كان يوم **حنين** وكانت موقعة **هوازن**..، قد أصاب النبي ﷺ من أموالهم وسباياهم، أدركه وفد **هوازن** بـ **الجعرانة** وقد أسلموا فقالوا: يا رسول اللّٰه إنا أهل عشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا منَّ اللّٰه عليك. وكانت بين الأسرى والسبايا أخته **الشيماء**، فجاءته ﷺ تسترحمه، وتذكره بما كان من عضه لها في ظهرها... فبسط لها رداءه وأجلسها إلى جانبه...

وقام خطيب القوم **زهير بن صرد** يقول: يا رسول اللّٰه إن في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللائي كن يكلفنك، فلو أنَّا ملحنا **ابن أبي شمر**[2] أو **النعمان بن المنذر**، ثم أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك رجونا عائداتهما وعطفهما، وأنت خير المكفولين..،

---

(1) أصل الظئر الناقة التي تعطف على ولد غيرها فتدر عليه ثم أطلقوه على المرأة التي ترضع ولد غيرها.

(2) ملحناً: أرضعنا، و«ابن أبي شمر» هو: «الحارث الغساني» من ملوك الشام المتحالفين مع الروم.

وكان مما أنشد:

أُمنن على نسوةٍ قد كنتَ ترضعها إذ فُوكَ يَمْلَؤُه من محضِها درزُ
أُمنن على نسوةٍ قد كنت ترضعها وإذ يزينك ما تأتي وما تذرُ
لا تجعلنَّا كَمَنْ شالتْ نعامتهُ واستبق منَّا فإنا معشر زهرُ
إنا لنشكر للُنعْمَى وإن كفرت وعندنا بعد هذا اليوم مدخرُ

فقال له رسول اللَّه ﷺ:

ـ أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو للَّه ولكم..!

فقالت الأنصار: وما كان لنا فهو للَّه ورسوله ﷺ.

لقد كان اليوم يوم وفاء وبر، وكان الموقف موقف خلق عظيم!!!

وعاد محمد ـ ﷺ ـ إلى دفء حضن أمه **آمنة**، وإلى رعاية جده **عبد المطلب**، وقد غدا صبياً في وجهه الشريف إشراقات، وفي طلعته سناء وبهاء، وفي قلبه آيات من الهدى والشّفافية، وعلى لسانه رقة وعذوبة، يصنعه اللَّه تعالى على عيْنه ويؤدبه.

كانت **آمنة** تحضنه وتضمه فتحس بما كانت تشعر به أثناء الحمل، من دفء غريب يسري إلى كيانها ولا تدري كنهه.

وكان جده **عبد المطلب** ـ شيخ قريش ـ لايطيق فراقه، ولا يشبع من النظر إليه، يأتيه في بيت **آمنة** صباحاً ومساءً، وفي كل حين، ويسأل: كيف ابني **محمد**؟ ثم يشبعه ضماً ولثماً، ويرى فيه إلى جانب صورة ولده **عبد اللَّه** الذي مات عريساً، فكان حزنه عليه شديداً...، يرى في **محمد ـ ﷺ ـ مخايل غير مألوفة ولا معهودة، تزيده عليه حنواً واقتراباً وشغفاً**.

ولما بلغ ﷺ السادسة من عمره، استأذنت **آمنة** عبد المطلب في القدوم على **يثرب** ومعها وليدها، لزيارة قبر الحبيب **عبد اللَّه**، والإقامة إلى حين في ديار الأخوال من **بني النجار**، فأذن لها، ووصاها خيراً بنفسها وولدها.

وخرجت **آمنة** بـ **محمد** ـ ﷺ ـ ومعها جارية اسمها **بركة**، تقوم على خدمتها ورعاية الطفل؛ وكان **محمد** ـ ﷺ ـ متعلقاً بها، محباً لها ويراها بينه وبين ذاته الشريفة عنصراً من أهل البيت، وواحدة من الأسرة.

ولقد كان من أشد المواقف ألما وحزناً على قلب **آمنة**، حين بلغت **يثرب** وحطت الرحال، موقفها على قبر الزوج الحبيب **عبد اللَّه**، تذرف الدمع السخين، وتطلق التنهدات والزفرات حرى لاهبة، وتكاد تتقطع أنفاسها و**محمد** ـ ﷺ ـ إلى جانبها تنحدر عبراته كالجمان على خديه الشريفين رحمةً بأمه، وأسى على الأب الذي لم يره.

ويبدو أن حُمَّى **يثرب** قد تناولت **آمنة** وأصابتها، وما شعرت بذلك إلا وهي في طريق العودة إلى **مكة**، فازدادت حالتها سوءاً على سوء، وعند قرية تدعى **الأبواء** سقطت **آمنة** فريسة للمرض والحمى، ثم لفظت أنفاسها.

وبكى **محمد** ـ ﷺ ـ بكاءً حاراً شديداً، ونشج. . . ، وضجَّت ملائكة السماء لبكائه[1] وحزنه، ويتمه، في أبويه، وهو ما يزال في سن الطفولة إنه ـ ولا شك ـ أبلغ اليتم وأقساه على النفس.

وانطوت صفحة الأم **آمنة بنت وهب**!!.

وتلقفت الطفل الصغير فتاة في عمر الزهور أسن منه ـ ﷺ ـ بأعوام قليلة معدودة، هي **بركة** مولاة كانت لأبويه.

(1) جاء ذلك في بعض الروايات.

بركة (أمّ أيمَن)(*)
حاضنة رسول اللَّه ﷺ

قال ٱللَّه تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ * فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: 1 ـ 11].

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾.

كان رسولُ ٱللَّه ﷺ لا يزالُ جنيناً في بَطْنِ أُمّهِ **آمنة بنتِ وهْبٍ** حينَ مات أبوهُ **عبدُ ٱللَّه** في أَثناءِ رِحْلَةٍ تجاريّةٍ إلى ٱلْشّام.

فَتَفَتَّحَتْ عيناهُ ـ ﷺ ـ على ٱلدُّنيا مَحْروماً من عَطْفِ ٱلأبِ وحَنانِهِ، ولمّا يكدْ يَبْلُغُ السّادسةَ من عُمرِهِ حتّى وافتْ **آمنةَ** المنون، فَأضْحى يتيمَ ٱلأَبِ والأُمِّ.

وكان فيما ورِثَهُ عَنْ أبيه **عبدِ ٱللَّه** خَمْسةُ جِمالٍ، وعَددٌ قليلٌ من ٱلْغَنَمِ وجاريةٌ يُقالُ لها **بَرَكَة**.

كانتْ هذه الأمةُ ٱلحبشِيّةُ، حينَ ظهرَ اليتيمُ على هذه ٱلأرض فتاةً في رَيْعانِ ٱلْشّباب، وكانتْ تَحِنُّ إلى وطِنها القديم، وتَضيقُ ذرعاً بوَطَنِها الجديد، وبهذا الرِّقِّ الذي ابتُلِيَتْ به وهي في مطلَعِ حياتها.

تَطمئن نفسُها حيناً عندما تجِدُ نفسَها بين قوم أَعزَّةٍ كرام، يُحسِنُون معاملتَها، ولا تَرى منهُمْ إلاّ كلّ رِقَّةٍ وحنان.

ولكنها من ناحيةٍ أُخرى تضطَرِبُ اضطِّراباً عنيفاً حينما تشعُرُ بهذهِ الحَياةِ

(*) ترجم لها ابن عبد البر في «الاستيعاب» برقم (243) وابن الجوزي في «صفوة الصفوة» برقم (272) والإمام الذهبي في كتابه «سير أعلام النبلاء» (2/ 224 ـ 225 ـ 226).

الذّليلةِ، حياةِ ٱلرِّقِّ والعبوديةِ التي سيقتْ إليها سَوْقاً من دونِ أن يكونَ لها في ذلك أيُّ اختيار، ولا تسْتطيعُ أنْ تُغيِّرَ منه شيئاً.

وإزاءَ هذا كلِّه لم تَرَ بُدًّا من الرِّضى بما آلت إليه، خاشعةً، خاضِعةً، مُذْعِنةً، مصمِّمةً على أنْ تكون أمَةً طيِّعةً تخدُم سادتَها بما وسعِها من تفانٍ وإخلاص.

وٱستمرَّت هذه حالُها، مُعَلِّلةً النفسَ بأنَّ سادتها لن يتخلَّوْا عنها لأَيدٍ قد تكونُ بطّاشةً قاسيةً لا تعرف الرَّحمةَ ولا ترثي لمخلوقٍ أطبق ٱلرِّقُّ عليهِ بمخالبِه.

إلى أنْ أذِن ٱللَّه تبارك وتعالى بإشراقِ نورِ ذلك اليتيم ٱلذي ما إن نعِمتِ ٱلأَرض بوجوده حتّى تبدَّل في نفسِها كلُّ شيءٍ، وألقى ٱللَّهُ في قلبِها حبًّا له هيْهاتَ أن يكونَ حبُّ ٱلأُمِّ أعمقَ منه جذوراً، وأكثرَ منه تغلغُلاً في حبّاتِ القلوب.

لقدِ ٱبتسمتْ لها ٱلحياةُ بعدَ عُبوس، وغشيَها النورُ بعد حالكِ الظّلام.

ووجَدتْ في الوليدِ اليتيمِ أكبرَ عزاءٍ لها عن شقاءٍ كانت تُعانيه، فأفرغت كل ما في طاقتِها من عنايةٍ به وحدْبٍ عليه، حتّى ودَّت لو تستأثرُ وحدَها بشؤُونِ تنشِئتهِ وتربيتِهِ وفاءً له بما بدَّلَ من حالِها، وأَسبغَ عليها وجودُهُ من بهجةٍ وإيناس.

ولكنْ شاء ٱللَّهُ وشاءتِ التقاليد أنْ ينقطِعَ هذا السَّيلُ من طُمأْنينة النفس وارتياحِها فإذا بالمرضِعِ تُقبِلِ لانتزاعِ هذا ٱلْطفلِ اليتيم من حِضنِ أُمِّهِ وحِضنها، فاستَولى عليها من الغمِّ لهذا الرحيلِ ٱلمفاجيء ما زلزلَ كيانَها وغمرَها بكثيرٍ من ٱلحزنِ وٱلأَسى.

لكنَّها عزَّتْ نفسَها بما شهِدتْهُ من أُمِّه من صبرٍ وجَلَدٍ على هذا الفِراقِ الأَليم.

ويُقيم الطفلُ عند المُرْضع ما شاء اللَّهُ أن يُقيم. وكان يزورُ أمَّه وحاضنتَه، الفينةُ بعد الفينة، ولكنَّها زياراتُ خاطفةٌ، لا يلبثُ أن يعودَ بعدَها إلى مرضعتِهِ في البادية.

وما أنِ انقضتْ فترةُ الرَّضاعة حتى عاد إلى كَتَف جَدِّه وأُمِّهِ وحاضنتِهِ فلقيَ من العطفِ والرِّعايةِ ما تَقَرُّ به عينُ الطفلِ اليتيم.

ثمَّ رَحَلتْ أمُّ الطُّفلِ إلى يثربَ لزيارة أخواله من بني النجَّار مَعَهما ٱلحاضنة، فأَقاموا مدَّةً قصيرةً عزموا بعدها على العودةِ إلى مكَة. ولكن إن ابتعدوا قليلاً من يثربَ حتَّى المَّتْ بالأمِّ علةُ الموت فقضتْ كما قضى أبوهُ من قبلُ وأضحى يتيماً قد فقدَ أُمَّهُ كما فقدَ أباه.

وخلص الطفلُ لحاضنتِهِ، فوقفتْ نفسَها لرعايته، وغمرتْه بحبها وإخلاصها وحنانها.

وقد بلغ من إعجابها به أَنها سُئِلتْ مرَّةَ عنه في صباه فأجابتْ بما فحواه: كان الرسولُ ﷺ، في مدَّةِ كفالة عمِّه مثالَ القناعةِ، والبُعدِ عن السَّفاسفِ التي يشتغلُ بها الأَطفالُ عادةً.

فكان إذا أَقبلَ وقتُ الأكلِ، جاء الأَولادُ يختطفون، وهو قانعٌ بما سيُيَسِّره ٱللّه له.

كانت **بَرَكةُ** حاضِنَةُ رسولِ ٱللّه ﷺ تقُومُ على خِدْمَتِه ورِعايَتِهِ، والاعتناء به صغيراً وٱلحَدْبِ عليْه، وكان يجِدُ لَدَيْها الصَّدْرَ ٱلحنون، والكلِمَة الطيِّبَةَ والحُبَّ الكبير، فَشَبَّ في بَيْتِ عمّه «أبي طالب» وهو يناديها: يا أمّه، إذْ كانت رضيَ ٱللّهُ عنها بمثابةِ ٱلأمِّ لَهُ، تقومُ على شؤونِهِ وتدبيرِ أُمُورِهِ.

وكان كُلّما نَظرَ إليها تَذكّرَ طُفولَتَه، وذكرَ مَعَها ما رافقَ تلكَ الطفولَة من أَحْداثٍ، فيضَعُ يَدَهُ عَلَيْها مُرَبِّتاً قائلاً:

ـ هذه بَقِيَّةُ أَهْلِ بَيْتي.

بـركـة الحـرة

وعِنْدما تَزَوَّج رسُولُ ٱللّهِ ﷺ من **خديجةَ بنْتِ خُوَيْلِدٍ** أَعْتقَ حاضِنَتَهُ **بَرَكَةَ**، فتزوَّجَتْ من **عُبيْدِ بنِ زيد** وولَدَتْ مِنْهُ ولَدَها **أَيْمن** وظلَّتْ تتردَّدُ على رسُولِ ٱللّه ﷺ، كما أَنَّه ﷺ كان يزورُها وفاءً مِنْه لِمنْ كانَتْ له أمّاً بعد أُمّهِ، يزورُها ليطمئنّ علَيْها، ويَأْنَسَ إليها.

ولما نُبِّئ رسُولُ ٱللّهِ ﷺ ودعا إلى الإسلامِ كانَتْ **أُمُّ أَيَمْن** مِن السّابقاتِ

إلى ٱلإستجابةِ وٱلانْخِراطِ في مَوْكِبِ ٱلإيمان، لكنَّ زَوْجَها عُبيْدَ بنَ زَيْدٍ أبى أن يُسْلَم، فَفرَّق الإسلامُ بيْنها وبَيْنَهُ.

فَزَوَّجَها رسُولُ ٱللَّهِ ﷺ من مَوْلاهُ زَيْدِ بنِ حارثةَ ذلك الشابُّ الذي رفضَ أن يعُودَ مَعَ أَبيهِ وعَمِّه، وآثرَ أَنْ يَبقى إلى جانِبِ رسُولِ ٱللَّه ﷺ، مفضِّلا أُخُوَّةَ الإيمانِ ونَسَبَ الإسلامِ على ما عداه.

أم أسامة

حَمَلَتْ بَرَكَةُ من زَيْد فَوَلَدَتْ له ٱبْنَهُ أُسامةَ، وكلاهُما له من تاريخِ الدّعْوةِ نصيبٌ، ومَعَ ٱلجهادِ في سبيلِ ٱللَّهِ حَيِّز.

ولِزَواجِ زَيْدٍ من بَرَكَة أُحْدوثَةٌ لطيفةٌ جديرةٌ بالذّكْر والبيان، إذ كانتْ أُمُّ أيمن ـ كما قُلْت ـ تأْتي بَيْتَ رسُولِ ٱللَّهِ ﷺ زائرةً مُتَفَقِّدةً ساعِيَةً، تتلطّفُ إليه وتقومُ على خِدْمتِهِ، ومَرَّةً كان زَيْدٌ في البيْتِ فَسَمِعَ رسُولَ ٱللَّهِ ﷺ يقول:

ـ «مَنْ سَرَّهُ أَن يتزوّجَ امرأَةً من أَهْلِ ٱلجنّةِ فلْيتزوَّجْ أُمَّ أَيمْن».

فما أَسْرعَ ما وقَعَتْ كلمةُ النبيّ ـ ﷺ ـ مَوْقعَ القَبولِ وٱلرِّضى من نَفْسِ زيْد، . . . وتزوَّجَ أُمَّ أيمن.

أسامة بن زيد الحب ابن الحب

ولقد كان رسولُ ٱللَّهِ ﷺ شديدَ ٱلمحبَّة لـ زيدِ بنِ حارثةَ حتّى لَقَدْ دعاهُ زيدُ بنَ مُحمّد ولولا أَمْرُ ٱللّه تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: 5] لَظَلَّ يُدعَى بهذا الاسم.

ولقد أَوْلى النبي ﷺ أُسامَةَ بنَ زَيْد نفسَ الحُبّ الذي كان يُوليه لأَبيه، رَغْمَ أَنّه كان أَفْطَسَ أَسْودَ، والنبيّ عليهِ ٱلسلامُ هُو القائلُ: «إنّ ٱللّهَ تعالى لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُم ولكنْ يَنظُرُ إلى قلوبِكم».

ولقَدْ تبدّى هذا الحُبُّ في كثيرٍ من تصَرُّفات النبيّ ﷺ نحو أُسامة قَوْلاً وفِعْلاً.

❋ ❋ ❋

المهاجرة المبرورة

وإذا ما صَدَق القَوْلُ بأَنّ لِبَعْضِ النّاسِ مِنْ أَسْمائِهم نصيباً فإِنَّ **بَرَكَة** كان لها كلُّ ٱلْنصيب.

فهِجْرتُها رضيَ ٱللّهُ عنها وما لقِيتْهُ في رِحْلتِها إلى اللّه، بين مكّةَ والمدينة، هي خيْرُ مثلٍ وأبينُ دليلٍ على ما نقول، ولقد جاء في **طَبَقاتِ ابنِ سعدٍ** ما نصُّه (ص224) (ج8):

- أخبَرنا أبو أُسامةَ، يعني حمّادَ بنَ أُسامة، عن جريرِ بنِ حازمٍ قال: سَمِعْتُ عثمانَ بنَ القاسمِ يُحدِّثُ قال:

- لما هاجَرَتْ **أُمّ أيمن** أَمْسَتْ بالمُنْصَرَف دون ٱلرَّوْحاء فعطِشَتْ وليس مَعَها ماء، وهي صائمة، فَجَهَدَها ٱلعطشُ، فَدُلِّي عليها من ٱلْسَّماء دَلْوٌ من ماءٍ برِشاءٍ[1] أَبيضَ، فشربَتْ مِنْهُ حتى رَوِيَتْ فكانَتْ تقولُ: ما أصابني بعد ذلك عطشٌ، ولَقَدْ تَعَرَّضْتُ للعطشِ بالصومِ في الهواجرِ فما عطِشْتُ بعد تلْك الشُّربة، وإن كُنْتُ لأَصومُ في ٱلْيَوْمِ الحارّ فما أَعْطَشُ.

❊ ❊ ❊

وكان من شأْنِ النبيّ ﷺ مَعَ أُمِّ أَيمْن الممازحةُ البريئة، إذ كان يَمْزَحُ ولا يقولُ إلاّ حقًّا.

جاءت إِليه **أُمُّ أَيمْن** قَبْل ٱلهجرةِ تقول:

- احْملْني يا رسُولَ ٱللّه.

أي تطلُبُ إليه ﷺ أن يُدبّرَ لها رَكُوباً، فقال لها توْريَةً:

- أَحْمِلُك على ولَدِ ٱلْنّاقة.

فقالتْ:

- يا رسُولَ ٱللّهِ إنّهُ لا يُطيقُني ولا أُريدُه!!! ظانّةً أَنَّهُ ﷺ سيُقَدِّم لها جَمَلاً صغيراً حديثَ الوِلادةِ، وهُوَ يَعْني أَنّ الْجَمَلَ حتّى ولَوْ كان مُسِنًّا، فَهُوَ ولَدُ النّاقة.

---

(1) الرّشاء: الحبل.

فقال لها:

ـ لا أَحْمِلُك إلاّ على ولَدِ ٱلنّاقة.

فكان ﷺ يُمازِحُها، مُتَلَطِّفاً مُتَحَبِّباً مُتودِّداً.

* * *

وهُنا نُحِبُّ أن نُورِدَ خاطِرَةً مَرَّتْ بالذِّهنِ تتعلَّقُ بما نَحْنُ بصَدَدِه من ٱلحديثِ عن ٱلْبَرَكةِ في **بركة**، إذ سَمَّتْ ولَدَها من زَوْجِها **عُبَيْدَ بنَ زيد أَيْمن** وبه اشتَهَرتْ، وبَيْنَ **البَركةِ** و**اليُمْنِ** كما هو معروفٌ في اللغةِ تجانُسٌ في ٱلمعنى، فلا غرابَةَ إذاً في قوْل ٱلْنبيّ ﷺ:

ـ من أرادَ أن يتزوّجَ ٱمْرأةً من أَهْلِ ٱلجنّةِ فليتزوّجْ **أُمّ أيمْن**.

عسراء اللسان

كانَتْ رضيَ ٱللَّهُ عَنها تَنْطِقُ الكلمةَ أَحْياناً فَيَتَلَجْلَجُ بها لسانُها، فَتَنْحَرِفُ عن معناها، وقد تنقلبُ العكْس، تَدْخُلُ ـ مثلاً ـ على رسُولِ ٱللَّهِ ﷺ فتقول: لا سلام، أو تقول: لا سلام عليكم، وقَدْ رخّصَ لها النبيُّ ﷺ أن تقول: السّلام. وتكْتَفي مِنْها بذلك.

وكما حَدَثَ يَوْمَ **حُنيْنٍ** إذ وقَفَتْ تَدْعُو للمسلمين قائلةً:

ـ سبّت ٱللَّهُ أَقْدامَكُم.

فَسَمِعَها النبيُّ ـ ﷺ ـ فقالَ لها:

ـ أُسكُتي يا: أُمَّ أَيمْن فإنّك عَسْراءُ ٱللّسان.

المجاهدة

كانتْ رضيَ ٱللَّهُ عنها تَخْرُجُ مَعَ النبيِّ ﷺ في أكثرِ غَزَواتِه، مُحْتَسِبةً نفسَها عندَ اللَّهِ تعالى، وأَجْرَها عليه سُبْحانه، وكانتْ مُهِمَّتُها في تِلْك الغَزَواتِ أَنْ تقُومَ على سِقايَةِ الماءِ لِلْعِطاشِ من ٱلمجاهدين، ومُداواةِ جراحِهِم والاعْتناءِ بهم.

فَشهِدَتْ **أُحُداً** و**خَيبر** و**حُنيناً**، وكان النّبيُّ ﷺ يَخُصُّها بِبَعْضِ العَطاء، تَعْويضاً لها ومكافأَةً على ما تُقَدِّمهُ من جُهدٍ وجِهادٍ.

وداع الرسول ﷺ

مَرِض النبيُّ ﷺ فكانَتْ **أمُّ أيمَن** تَعُودُهُ وتُواسيهِ وقَدْ تَذْرِفِ بعضَ الدُّموعِ ولكنْ بِمَنأَى عَنْهُ ﷺ.

فلما فاضَتْ رُوحُهُ الطاهِرَةُ ولَحِقَ بالرفيقِ الأعْلى بَكَتْ رضيَ ٱللَّهُ عنها بكاءً حاراً، وأَرْسَلَتْ عَبَراتِها سخيَّةً مِدْرارة، فقيل لها:

ـ أَتَبْكين؟؟

والسؤَالُ هنا منَ النّاسِ لَيْس من قَبيل التعَجُّبِ، ولكنّه سؤَالُ المؤْمنين بقَدَرِ ٱللَّهِ وقضائِه.

فأَجابَتْهُم رضيَ ٱللَّهُ عنْها:

ـ إي وٱللَّهِ، لقَد عَلِمْتُ أَنَّ رسُولَ ٱللَّهِ ﷺ سيمُوت، ولكنِّي إنما أَبْكي على الوَحْيِ إِذِ انْقَطَعَ عنّا مِنَ ٱلسماء.

* * *

إن ٱلدّافعَ إلى البكاءِ يَخْتلِفُ عِنْدَ النّاس باختلافِ الصِّلةِ التي تربِطُهُم بِمَنْ فقدوه، ولقد فَقَدَتْ أُمُّ أَيمَن رضيَ ٱللَّهُ عنها بِمَوْتِ رسولِ ٱللَّهِ ﷺ: ابْناً، ووَلِيًّا، ورسُولاً.

ابْناً ربَّتْهُ وحَضَنَتْهُ ورعَتْهُ وتَولَّتْهُ، ووَلِيًّا كانَ يرْسُمُ لها حُدودَ ٱلحياةِ والظّروفِ ٱلمعيشيَّة، ورسُولاً هداها إلى الصّراطِ ٱلمستقيم، وأَنارَ لها دروبَ ٱلحياة، وحَرَّرها من عُقْدةِ ٱلرِّق، ووصَفَها بأَنّها من أَهْلِ ٱلجنّة.

أم الأمـيـر

في ذلك ٱلحينِ، حينِ لُحوقِ ٱلنبيّ ﷺ بالرفيق ٱلأَعلى، كان لواءُ المسلمين مَعْقوداً لِوَلَدِها **أُسامَةَ بن زيد** في جَيْش ضَمَّ كبارَ ٱلصَّحابةِ وأَجلائِهم، ويتهيّئون للمسيرِ إلى أَطرافِ ٱلشّام حَيْثُ ٱسْتُشْهد زوجُها **زيْدُ بنُ حارثَةَ** في **مُؤْتة** هو **وعَبْدُ ٱللَّه بن رُواحة وجعفرُ بنُ أبي طالبٍ** رضيَ ٱللَّهُ عَنْهم.

ولَقدِ ٱعْتَرضَ بَعْضُ ٱلنّاسِ على تأْميرِ **أُسامة** وهُوَ في سِنٍّ مُبَكرَّةٍ على شيوخِ المسلمين وكبارِهم، وفيهم من القادةِ والعسكريين مَنْ يفُوقُ هذا

ٱلْحَدَثَ خِبْرَةً ودرايةً في نَظَرِهِم، فتناهَتْ إِلى سَمْعِ النبيِّ ﷺ وهو يعالِجُ شِدَّةَ المرضِ، فقال:

ـ وٱللَّهِ إنّه ـ أَيْ **أُسامة** ـ لجديرٌ بالإِمارة، كما كان أَبُوه جديراً بها.

وسَكَتَ النّاسُ، فَقَدْ قالَ ﷺ القوْلَ الفَصْل.

وقَرَّتْ عَيْنُ **أُمّ أَيْمَن** بِوَلَدِها **أُسامةَ** يقودُ جيشَ ٱلْمُسْلِمينَ إِلى ٱلشامِ ثأراً لأَبيهِ ٱلشَّهيدِ، وزوْجِها ٱلحبيب.

* * *

ومضى ٱلجيشُ إِلى وُجْهتِهِ بعد أَنْ رابطَ في ضاحيةِ المدينةِ أيامَ مَرَضِ النبيِّ ﷺ ووفاتِهِ، واسْتِخْلافِ **أَبي بكْرٍ** ولم يحلَّ **أبو بكْرٍ** لواءَ **أُسامةَ** وَودَّعَ ٱلجيشَ حتى ٱبْتَعَدَ طويلاً عنِ ٱلمدينة.

كان **أبو بكْرٍ** يمشي، و**أُسامةُ** يَرْكبُ، فحاوَلَ **أُسامةُ** أَدَباً مِنْه أَن يَنْزِلَ ويرافقَ خليفةَ رسُولِ ٱللَّهِ ﷺ في المشي، فقال لَهُ **أبو بكر**:

ـ وٱللَّهِ لا تَنْزِلُ، ولَيْس عليَّ من بأْسٍ أَنْ أُغَبِّرَ قدميَّ ساعةً في سبيل ٱللَّه.

وصَل **أُسامةُ** إِلى مقصِدِه، وقامَ بتنفيذِ ٱلمهمَّةِ التي أُوكَلتْ إِليْه، وعاد ظافراً مُنْتصراً، فاستقْبلتْهُ **أُمُّ أَيْمَن** دامِعَةَ العيْن، دَمْعَةَ الفرح، وقلبُها يخفِقُ خَفْقةَ ٱلحُبِّ والحَنان، شاكِرَةً لِلَّهِ تعالى فَضْلَهُ ومَنَّه، وٱسْتَذْكَرَتْ في مَوْقفِها هذا اسْتِشْهادَ ٱبنِها **أَيمنَ** في غزوةِ **حُنيْن**، فإِنّه لم يَبْقَ لها من الدُّنيا سوى **أُسامةَ** أَمَلاً ووَلداً.

أم أيمن وخلفاء النبي ﷺ

وكان خُلَفاءُ رسُولِ ٱللَّهِ ﷺ **أبو بكرٍ** و**عمرٍ** يعرفان منزلتَها ومكانتَها عندَ النبيّ، فكانوا يَحْترمونَها ويُجلُّونَها، ويُقَدِّمونها.

وكانتْ رضيَ ٱللَّهِ عنها تُبادِلُهم هذا ٱلشُّعورَ وذلكَ التقدير.

فلما قُتِلَ **عُمرُ بنُ ٱلخطاب** رضيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بَكَتْ وقالتْ:

ـ اليوْمَ وَهى (أي ضَعُفَ) الإِسلام.

الـوفــاة

تَقَدَّمَتِ السِنُّ بـ **أُمّ أيمنَ** وبَلَغَتْ من ٱلْكِبَر عِتِيّا.

فلما وَلِيَ ٱلخلافةَ **عثمانُ بنُ عفّانَ** رضيَ ٱللَّهُ عَنْه، مَرِضَتْ مَرَضاً شَديداً، ثم تَوفّاها ٱللَّهُ تعالى إِلَيْه.

مـنـزلـتـهـا

يُروى أنّ **ٱبْن أَبي ٱلْفُرات** خاصَمَ **الحسنَ بنَ أُسامةَ بنِ زيدٍ** حفيدَها في زَمَنِ خِلافةِ **عُمرَ بنِ عبدِ العزيز** رضيَ ٱللَّهُ عنه، فقال **ابنُ أَبي الفرات** لحفيدِها **الحسن**:

ـ يا ابنَ **بَرَكة!!!**.

يُريدُ جَدَّتَه **أُمّ أيمن**، وكأنّه يُعَيِّرُهُ بها إِذْ كانتْ مَوْلاةً رقيقاً.

فقال **الحَسنُ** لمن حَضَرَ:

ـ اشْهدُوا.

ثم رَفَعَ شكواهُ إِلى **أَبي بكرِ بنِ حَزْم** قاضي المدينةِ، وقصّ عليه قِصّتَهُ، فقال: **أبو بكرِ بنُ حزم لابن أَبي الفُرات**:

ـ ما أَرَدْتَ إِلى قوْلك: يا ابنَ بركة؟

فقال **ابنُ أَبي الفرات**:

ـ سمّيْتُها بٱسْمِها...

فقال القاضي:

ـ إنمّا أَردْتَ بهذا ٱلتّصْغيرَ بها، وحالُها في الإِسلامِ حالُها، ورسُولُ ٱللَّه ﷺ يقولُ لها: يا أُمّه، ويا **أُمّ أَيمن**، لا أقالني ٱللَّهُ إن أَقلْتُك. وضَرَبَهُ سبعين سَوْطاً.

* * *

رضيَ ٱللَّهُ عن حاضنةِ رسُولِ ٱللَّهِ ﷺ ومَوْلاتِهِ، وأُمّه بعد أُمّه، وأُمِّ حِبِّ رسُولِ ٱللَّهِ **أسامةَ بنِ زيد**.

وأُمّ ٱلْشهيدِ **أَيمن** وزوجةِ ٱلْشهيد **زيدِ بنِ حارثةَ**، وَبَوّأَها من لَدُنْهُ مَقْعَدَ صِدْقٍ.

* * *

فاطمة بنت أسد(*)

وانتقلت **بركة** مع محمد ـ ﷺ ـ إلى بيت عمه **أبي طالب** الذي كفله بوصيَّةٍ من **عبد المطلب**، وهنا تدخل أم رابعة في حياته ـ ﷺ ـ هي زوجة **أبي طالب**: **فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف**، أم علي وإخوته.

كان عمر محمد ـ ﷺ ـ في ذلك الحين ثماني سنوات، فهو ما يزال بحاجة إلى حضن دافئ يأوي إليه، وصدر حنون يبثه آلامه وآماله، ويد حانية تسعفه في احتياجاته، وحاجاته؛ فكانت ـ رضي اللّه عنها ـ نعم الأم الصالحة، لا تفرق بين محمد ـ ﷺ ـ وبين أبنائها، وتغدق عليه من فيض خلقها وما جبلت عليه من طيب الأمومة وكرامة العنصر، وأصالة المعدن.

واستمرت في أمومتها له إلى أن شب عن الطوق، وكفى نفسه، واستقل بحياته، ثم تزوج من **خديجة بنت خويلد**...

لكنه ـ ﷺ ـ وهو معدن الوفاء والبر ـ كفنها يوم وفاتها بقميصه، وقال في حقها: ـ لم نلق بعد **أبي طالب** أبرّ بي منها.

وهنا ـ أيضاً ـ تتداخل الأمومة لـ محمد ـ ﷺ ـ بين **بركة** **وفاطمة بنت أسد**، كما أن **أبا طالب** ـ عمه ـ أفاض عليه من حبه وعطفه الشيء الكثير..، مما عوضه ـ ﷺ ـ مرارة اليتم..، وعزاه خير العزاء، وصدق اللّه العظيم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى: 6].

والراجح من الروايات التاريخية أن **فاطمة بنت أسد** أسلمت وهاجرت وكانت وفاتها بالمدينة على حياة رسول اللّه ـ ﷺ ـ، وقد تقدمت بها السن وبلغت من الكبر عتياً.

(*) ترجم لها ابن سعد في «الطبقات الكبرى» برقم (222) وابن الأثير في «أسد الغابة» برقم (517).

فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ، وأمّها فاطمة بنت قيس بن هرم بن رواحة بن حجر بن عبد بن بغيض بن عامر بن لؤيّ، وهي ابنة عمّ زائدة بن الأصم بن هرم بن رواحة جدّ خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصيّ زوج رسول اللَّه ـ ﷺ ـ من قِبَل أُمّها. وكانت فاطمة بنت أسد زوج أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ فولدت له طالباً وعقيلاً وجعفراً وعليًا وأمّ هانئ وجمانة وربطة بني أبي طالب، وأسلمت فاطمة بنت أسد، وكانت امرأة صالحة، وكان رسول اللَّه، ﷺ، يزورها ويقيل في بيتها.

وهي أم علي قال الشعبي أم علي فاطمة بنت أسد أسلمت وهاجرت إلى المدينة وتوفيت بها وروى الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البحتري عن علي قالت قلت لأمي فاطمة بنت أسداً كفى فاطمة بنت رسول اللَّه ﷺ سقاية الماء والذهاب في الحاجة وتكفيك الداخل الطحن والعجن وهذا يدل على هجرتها لأن عليًا إنما تزوج فاطمة بالمدينة قال الزهري هي أوّل هاشمية ولدت لها شمس وهي أيضاً أوّل هاشمية ولدت خليفة ثم بعدها فاطمة بنت رسول اللَّه ﷺ ولدت الحسن ثم زيلعة امرأة الرشيد ولدت الأمين لا نعلم غيرهنَّ ثم إن هؤلاء الثلاثة لم تصف لهم الخلافة فأما علي فإنه كان من اضطراب الأمور عليه إلى أن قتل ما هو مشهور وأما الحسن والأمين فجلعا أخبرنا أبو الفرج بن أبي القبسي حدّثنا يحيى بن إبراهيم بن هانئ أخبرنا حسين بن زيد بن علي عن عبد اللَّه بن محمد بن عمر بن علي عن أبيه أن رسول اللَّه ﷺ كفن فاطمة بنت أسد في قميصه واضطجع في قبرها وجزاها خيراً وروي عن ابن عباس نحو هذا وزاد فقالوا ما رأينك صنعت بأحد ما صنعت بهذه قال أنه لم يكن بعد أبي طالب أبرّ بي منها إنما ألبستها قميصي لتكسى من حلل الجنة واضطجعت في قبرها لهون عليها عذاب القبر قال الزبير أنقرض ولد أسد بن هاشم إلا من ابنته فاطمة بنت أسد أخرجها الثلاثة.

1 ـ أخرج «الطبراني» في «الكبير» و«الأوسط» ورجالٌ إسناده ثقاتٌ غير روْح بنِ صلاح ـ وقد وثَّقه ابن حبّان، و«الحاكم» عن أنس قال: لما توفيت فاطمة بنت أسد بن هاشم ـ أمّ عليّ ـ دخل عليها رسول اللَّه ـ ﷺ ـ فجلس

عند رأسها فقال: «رحمكِ اللَّهُ يا أمِّي، كُنت أمِّي بعد أمِّي تجوعين وتشبعينني وتعرين وتكسينني، وتمنعين نفسك طيبها وتطعمينني، تريدين بذلك وجه اللَّه والدّار الآخرة».

وذكر غسلها وأن النبي ـ ﷺ ـ صب الماء فيه الكافور عليها بيده وخلع قميصه فألبسها إياه وكفنها بِبُرد فوقه.

وفي هذا الحديث أنه لما حُفر قبرها وبلغوا اللَّحد حفر رسول اللَّه ـ ﷺ ـ بيده، وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ دخل رسول اللَّه ـ ﷺ ـ فاضطجع فيه ثم قال:

اللَّه الذي يُحيي ويميت وهو حيٌّ لا يموت، اللهم أغفر لأمّي فاطمة بنت أسد، ولقّنها حجَّتها، ووسِّع عليها بحقّ نبيِّك والأنبياء اللذين من قبلي فإنَّك أرحم الراحمين».

وكبَّر عليها أربعاً، وأدخلوها اللَّحد؛ هو والعباس وأبو بكر الصديق.

2 ـ وأخرجه ـ أيضاً ـ «الطبراني» في «الأوسط» مختصراً، ورجال إسناده ثقات ـ إلاّ سعدان بن الوليد، فلم يُعرف.



زوجات
الرسول ﷺ

خديجة بنت خويلد (أم المؤمنين)

رضي اللَّه عنها

تـوطـئـة

ما أَحْوج مسلمات اليوم **فتياتٍ ونساءً** أَن يَقْرأن سيرة **زوجات النبي** ﷺ ليُدْركْن البَوْنَ الشاسع بينَهُنّ وبين الرعيل ٱلأَوَّل الذي تحمَّل مسؤُوليته في حياة ٱلأُمة كاملةً، وأَدَّى قسطَه من الواجب كاملاً، والذي ما كان يُلهيه عن جدِّيَّة الحياة زُخْرُف أو بَهْرَج، بل اضطلع بالعِبْءِ يجاهد الفتنة والزَّيغ والضّلال.

فكانت حياتهنّ ـ رضي اللَّه عنهن جميعاً ـ مصابيحَ تشعُّ هُدًى ونوراً فتضيء الكون كلَّه، وتعطِّره شذًى طيّب النَّشْر يلفُّهُ من أقصاه إِلى أَقصاه أزلاً وأَبداً.

لقد كُنّ في ميدان ٱلإِيمان أَصْلَبَ من شُمِّ الجبال.

وكُنّ في بيوتِهِنَّ **زوجاتٍ وأُمهاتٍ** أخلدَ من التاريخ.

وكُنَّ في مرافق العلم والمعرفة أساطين لصروحٍ شامخة.

وكُنّ في ساحاتِ النضال والوغي فارساتٍ فُقْنَ الرجالَ إقداماً.

فإليكِ يا فتاتي نَسوقُ المثَلَ والعِبْرة، وما يعتبر إلا أولو ٱلأَبصار.

قالت خديجةُ **رضيَ اللَّهُ عَنهَا** تُخاطبُ رسولَ اللَّهِ ﷺ:

«واللَّهِ لن يُخزِيَكَ اللَّهُ أبداً؛ إنّك لَتَصِلُ الرَّحِمْ، وتصدُقُ الحديث، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتُكْسِبُ المعدوم، وتَقْري الضَّيْف، وتُعينُ على نوائبِ الدَّهر».

نـسـبـهـا

كان **خويلدُ بنُ نوفل** زعيمُ بني **أَسَدِ بنِ عبدِ العُزّى** شقيقَ **عبدِ مناف** وحليفَهُ، إليه ينتهي الفضلُ والكرمُ والسيادةُ بين قومِهِ وعشيرتِهِ، يُطيعونَهُ ويهَابُونه، ويحترمون رأْيَهُ ويُقَدِّرونه.

ولقد حفظتْ قريشٌ له شجاعتَهُ عندما تصدّى لِـ **تُبَّع** ملكِ اليمنِ حينَ أراد أن يحملَ معه الحجرَ الأسودَ إلى بلاده ومَنَعه من ذلك؛

فنصبتْه قريْشٌ عليها زعيماً ورئيساً لا ينازعُه في ذلك أحَدٌ.

وكان له أخٌ اسمُهُ **وَرَقة**؛ اشتهر بين الناس بالحكمةِ وسَدادِ الرّأْي، وهو أَحَدُ أربَعَةٍ خاصموا قريشاً في وثنيّتِها وعبادتِها للأصنام، ولمّا لم تَسْتَجِبْ لهم اعتزلُوها وما تعبُدُ من دونِ اللَّه[1].

ولادتها

تزوَّج **خوَيْلدُ** من **فاطمةَ** القُرَشيَّةِ أجملِ سيداتِ مكَّةَ وأكثرِهنَّ صباحةَ وَجْهٍ، وروْعةَ حُسْنٍ فولدتْ له **خديجة** رضيَ اللَّهُ عَنْهَا فكانتْ صورةً عن والدتِها؛ فقد ورِثتْ عنها الجمالَ الرائعَ والحُسْنَ الفتّان؛ كما ورِثتْ عن والدِها **خُوَيْلد** الحزمَ والذكاء؛ وعن عمّها **ورقةَ** العلمَ والحكمة.

نشأتها

نشأت **خديجة** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ في بيْتٍ طاهرٍ كريمٍ مُتْرفٍ، ولمَّا بلغتِ الخامسةَ عشرةَ من عمرِها خطبها **أبو هالةَ بنُ زُرارةَ التميميّ** فتى قومه **بني تميم** وأكثرُهم مالاً وأوْسعُهم ثراءً، فعاشتْ معه تقدّرُهُ ويُقدِّرُها وولدتْ له بنتينْ هُما **هالةُ وهند**، ولكنَّ القَدَرَ عجّل بوفاةِ الأبِ قبلَ أن تَشُبَّ الطفلتان عن الطَّوْق، وخَلَّف لأُسرتِهِ ثروةً طائلةً، وتجَارةً رائجةً رابحة.

الزواج الثاني

لما عُرِفَ عن **خديجة** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ من حُسْنٍ وخُلُقٍ، تنافسَ فِتيانُ العربِ على الاقتران بِها، وفاز من بيْنِهم **عتيقُ بن عائذٍ فتى بني مخزوم**.

وكان القَدَرُ بالمِرصاد أيضاً، فَلَمْ يَدَعِ الزَّوْجينْ يهنئان وينعمَان، فاختطفتْ يدُ المنونِ **عتيقاً** دون أن يتركَ ولداً.

في ميدان التجارة

انتقل **عتيق** إلى الدارِ الآخرةِ وقد ترك لزوجته مالاً وفيراً، وثروةً

---

(1) ذكر لها نسبها ابن حجر في «الإصابة» (7/ 60) والإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (2/ 11) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 434).

عريضة؛ وتجارةً واسعةً؛ فقامت على إدارتها وتوجيهها بما أُوتيته من خِبرةٍ ومعرفةٍ وذكاء.

واستطاعتْ أن تمضيَ في دُروب الحياة وتشقَّها بمنتهى الحكمةِ والفِطنة. وكانت كلَّما تقدم إليها خاطبٌ ردّتْهُ بأدبٍ ولياقة، عازفةً عن الزَّواج، لأنّها قد مَرّتْ من قبلُ بتجربتيْن مريرتيْن.

لقد عملتْ **خديجة** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ في ميدانِ التجارةِ، واستطاعتْ أن تؤسِّس في **مكة** بيتاً ماليًّا تجاريًّا ضَخْماً أصبح من بَعْدُ عَلَماً عليْها تُعْرَفُ به، وراحتْ قوافلُها تمضي مُصَعِّدةً نحوَ الشام، أو هابطةً شطرَ اليمن، تغزو الأسواقَ، وتحملُ منها ما يَدِرُّ عليها الربحَ الوفيرَ والمالَ الكثير.

الطاهرة سيدة قريش

لكنّ شهرتَها ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ لم تقفْ عند حَدّ المالِ والجمال؛ بل تعدّتْ ذلك إلى سيرتها التي كانت نِبْراساً لكُلِّ فتاةٍ ولكُلِّ أُمٍّ فعُرفتْ بين القاصي والداني بلقَبَيْ **الطاهرة**، **وسيّدة قريش**.

وكانت يدُ العناية الإلٰهية هي التي تُدَبِّرُ وتُصَرِّفُ وتوجّهُ وتُعِدُّ **خديجة** لأن تكونَ بعد زمنٍ يسيرٍ **المسلمة الأولى** و**أُمَّ المؤمنين الأولى** وسيّدةَ نساءِ العالمين؛ والزوجةَ المجاهدةَ الصابرة.

الأمين على تجارة خديجة

كان **الأمين** ﷺ حديثَ الناسِ في مكة، يقدّر الجميعُ ـ بلا استثناء ـ صفاتِهِ وأخلاقَهُ، ويحترمون أمانَتَهُ وَوَرَعَهُ، ويُكْبِرون صِدْقَهُ وصوابَ رأيهِ.

ولقد ترك كلُّ ذلك في نفوسِ القُرَشيين عموماً والمكيّين خصوصاً إنطباعاً عميقاً في تقديره وتقديمه ﷺ.

وكانت **خديجة** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ مِمَّنْ يستمِعون إلى أخباره وأنبائِهِ بإعجابٍ مشوبٍ بِلَهْفةٍ، وكثيراً ما حدَّثها بذلك **خُزَيْمَةُ** ابنُ عمّها، صديقُ محمَّدٍ ﷺ ورفيقُه.

فَوَجَدَتْ نفسَها يوماً تُرسِلُ رَسُولَها إلى **أبي طالبٍ** تعرِضُ عليْه عرضاً سخيًّا

مقابلَ أن يتولَّى محمدٌ ﷺ أمْرَ تجارتِها وقوافِلها المحمّلةِ بمختلِفِ البضائع.

ورضيَ محمَّدٌ ﷺ بذلك واستبشر خيراً بأُفقٍ جديدٍ ينفتحُ له من آفاق الحياة الرَّحْبة؛ وتهيّأ للرحيل.

لكنَّ **أبا طالبٍ** كان شديدَ القلقِ على ابنِ أخيه الذي وصّاه به خيراً الراهبُ **بُحَيْرا**، فأتى إلى **مَيْسرة** غلامِ **خديجة** يحذِّرُهُ، ويُوصيهِ بمحمَّد.

وإزاءَ ذلك تركّز اهتمامُ **مَيْسرة** على محمَّدٍ يُراقبُهُ احتراماً وتنفيذاً لوصيَّةِ **أبي طالب**.

ولقد رأى **ميسرة** من أمر محمَّدٍ العجبَ العُجاب: شخصيةٌ خارقة، وخُلقٌ دَمِثٌ، وكلمةٌ متّزِنَة، ومشيةٌ كلُّها الوقار، وحديث كلُّه عذوبة، وأمانةٌ ما بعدها أمانة، وصِدْقٌ بالغ، وحنكةٌ ودِرايةٌ يعجِزُ عنها فُحول التجارة.

ورأى ما لا يمكنُ أن يُستهانَ به، أو يُمَرَّ به مرورَ الكرام، رأى السماء تُظِلُّهُ بظلِّها حين يشتدُّ لهيبُ الشمس، وغمامةً تتبعُهُ في تنقُّلاتِهِ وتحرُّكاتِهِ لتحميَهُ من القيْظِ الشديد.

وعندما آوى مرةً إلى شجرةٍ ليستريحَ في بَعْض ظلِّها أوْرَقَتْ واخضرَّت وَزَهَتْ.

لقد كان ما يراهُ **ميسرة** من أمر محمد ﷺ غيرَ مألوفٍ بالنسبة إلى الناس، فازداد حِرْصُهُ عَلَيْه ورعايتُهُ له في الحِلِّ والتِّرحال[1].

العــودة

عادتِ القافلةُ إلى البلدِ الحرام، وقد نَفَقَتْ بضاعتُها، وكثُرت غلَّتُها وكان ربحُها كثيراً وفيراً.

وعندما أذّنَ مؤذّنُ العِيرِ بالوصول قامت **خديجة** على غيرِ عادتها إلى سطح دارها تَرْقُبُ القافلة واللهفةُ باديةٌ على وجهها، وبكلماتٍ وجيزةٍ وأدبٍ جمّ ووقارٍ باسم، أفضى محمَّدٌ إلى **خديجة** بوقائعِ الرِّحلة.

ولدى انصرافِهِ ﷺ من عندِها، أقبل **ميسرة** غلامُها يحدّثُها، ويُصفّي شؤونَ القافلة الماليَّة.

---

(1) ذكرها بلفظ قريب الإمام الطبري في كتابه «تاريخ الملوك والأمم» (2/ 367 ـ 368).

وكان ما ربحتْهُ، خديجة من مالِ هذه المرّةَ يفوقُ أضعافَ ما كانت تكسبهُ في المرَّاتِ السابقة.

ولا يفوتُ **ميسرة** أن يحدّثَها الحديثَ الطويلَ عن فَضْلِ محمدٍ في ذلك، ثم يُفيضُ في سَرْد ما رآه من أمره..

وخديجة في كل ذلك سمّاعةٌ له، مُصْغِيةٌ بأُذُنَيْها وجوارحِها وعواطِفها إليه...، ثم تستزيدُهُ فيزيدُها.

بعد هذا، أغرقت **خديجة** في تأمُّلاتِها وتطلُّعاتها، وكان قلبُها يزدادُ خفقانُهُ كلَّما أمعنتْ في التفكيرِ والتأمُّل.

وما كانت لتنسى أبداً وهي في حالتها هذه ما رأته في منامها منذ أمَدٍ إذ رأت شمساً عظيمةً مضيئةً أشدَّ ما يكون الضوءُ جمالاً وجلالاً وسُطوعاً تهبطُ إلى دارها من سماء **مكّة** فيغمرُ ضوؤُها ما يُحيطُ به من أماكنَ وبقاع. وإنها على أثرِ ذلك سَعَتْ إلى ابن عمها **ورقة ابن نوفل** العابدِ الزاهد، حكيمِ قريشٍ وعالمها تقُصُّ عليه الرؤيا فيقولُ لها:

ـ لك البشرى يا **خديجة**، يا ابنةَ العمّ فهذه الشمسُ المضيئةُ علامةٌ على قُرْبِ مجيءِ النبيّ الذي أطلَّ زمانُه، ودخولُها في دارِكِ دليلٌ على أنكِ أنتِ التي ستتزوجين منه.

فكَّرتْ في ذلك مليّاً، ثم استقرّ رأيُها على قرار...

مضت إلى دار ابنِ عمِّها **ورقة** وحدَّثَتْه بحديث **ميسرة** عن **محمّد** والغمامِ الذي كان يظلِّله في تنقُّلاتِهِ يحميه وَهَجَ الشَّمْس وأذاها، فهتف **ورقة**:

ـ قُدُّوس قُدُّوس... لقد قَرُبَ الأوان، واستدار الزمان، وآن لمكّةَ أن تشهدَ الآية الكُبرى.

ثم أَبْدت رغبتَها في الاقترانِ من **محمد** فوافقها **ورقة**، وعادت إلى دارِها وأرسلت **نفيسة بنت مُنَبِّه** إلى **مُحمَّدٍ** تذكُرُها عنده وتعرِضُ عليه نَفْسها.

فقال ﷺ لنفيسه ـ بعد أن رغّبَتْهُ في الزّواج:

ـ ما بيدي ما أتزوَّجُ به؟

فقالت نفيسة:

ـ فإن كُفيتَ ذلك، ودُعيتَ إلى الجمالِ والمالِ والشرف، ألا تُجيب؟

قال:

ـ فمن هيَ؟

قالت:

ـ خديجة...

قال:

ـ بنتُ خُوَيْلد؟

قالت:

ـ نعم.

فقال في ابتهاج:

ـ وكيف لي بذلك؟

قالت:

ـ فأنا أفعل.

فقال:

ـ وأنا قد رضيتُ(1).

الــزواج

عمّت الفرحةُ بيوتَ الهاشميين، وتناقلَ الناسُ النبأ العظيم، وتقدم **أبو طالبٍ** يفتتح الحفلَ فقال:

الحمد للّه الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وَزَرْعِ إسماعيل وضئضيء(2) مَعَدّ وعُنْصرِ مُضَرَ، وجعلنا حضينةَ بيته، وسُوّاس مريهِ(3)، وجعل لنا بيْتاً محجوباً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحُكّامَ على الناس، ثم إن ابن أخي هذا **محمد بن عبد اللّه** لا يوزَنُ برجُلٍ إلا رجح به شرفاً ونُبلاً وفضْلاً وعقلاً، وإن كان في المال قلَّ فإن المال ظِلٌّ زائل وأَمْرٌ حائل، و**محمد** مَنْ قد عرفتم

(1) الضئضئي: الأصل والنسل. (2) المريّ: الناقة.

(3) ذكرها ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (1/ 130 ـ 131).

قرابتَه، وقد خطب **خديجة بنت خُوَيْلد** وبذل ما عاجلُهُ خمسُمائةِ درهم، وهو واللَّه بعد هذا له نبأ عظيم. . . وخطرٌ جليلٌ جسيم. . .

ثم تكلم **ورقةُ بنُ نوفل** فقال:

الحمد للَّه الذي جعلنا كما ذَكَرْتَ وَفَضَّلَنا على ما عَدَدْت، فنحن سادةُ العرب وقادتُها، وأنتم أهلُ ذلك كُلِّه، لا تُنْكِرُ العشيرة فضلكم، ولا يردّ أحدٌ من الناس فخْرَكُم وشَرَفَكُم، وقد رغبنا في الاتصال بحبلِكم. وشرفِكم. فاشْهَدوا عليَّ معشر قريْش بأني قد زوَّجْت **خديجة بنت خُوَيْلدِ** من **محمد بن عبد اللَّه** على الصِّداق المسمى».

ثم سكت. . .

فقال له **أبو طالب**:

ـ قد أحببْتَ أن يشركك عمُّها. . .

فقام عمّ خديجة **عمرو بن أسد** فقال:

ـ اشهدوا عليّ معشر قريشٍ أني قد أنكَحْتُ **مُحمدَ بن عبد اللَّه خديجة بنت خويلد** فهو واللَّه الفَحْلُ الذي لا يُقْرع أَنْفُه.

واحتُفل بالزفاف، وأمَرَتْ **خديجة** مواليَها أن يضربنَ بالدُّفوف ويُغَنِّين.

فقال **أبو طالب**:

ـ الحمدُ للَّه الذي أذهبَ عنا الكربَ، ودفع عنا الغموم.

وتأسَّسَ البيتُ النبويُّ المبارك، وكانت **خديجة** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ يومذاك في الأربعين من عُمُرِها والنبيُّ ﷺ في الخامسة والعشرين.

في بيت خديجة

مرّت أيامُ الحياة بمحمدٍ وخديجة على أهنأ ما تكون، فقد كان الزَّواج في حقيقته زَواجَ عقلٍ راجحٍ إلى عقلٍ راجح، وأدبٍ جمٍّ وطِيبِ خلقٍ إلى مثله.

وإليك ما قاله الأستاذ العقّاد[1] ـ رحمه اللَّه في وصف ذلك:

---

(1) فاطمة الزهراء ص221.

لم يجد **محمد** إلى جانبه فتاةً عزيزةً تفزع ولا تدري ما تصنع، بل وجد إلى جانبه قلباً كريماً ورُوحاً عظيماً وسكَناً تهدأُ عنده جائشة ضميره وتطمئنُّ إليه خشيةُ فؤاده».

رياحين قلب النبي ﷺ

وبعد مرور عام وبعضِ عام أنجبت **خديجة** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ **زينب** كُبرى بناتِ النبيّ ﷺ فملأتِ البيتَ بالحركةِ والحيَوية.

وبعد ذلك بعامٍ وضعت **رُقَيَّة** فكانت محلَّ الحبِّ والإعزاز، ثم عقبتها **أمُّ كُلثوم** ثالثة النجوم.

وتهامس الناسُ في أندية قريش بأن محمداً لا يلد إلا البنات، وحين دخل العامُ العاشرُ من الزَّواج الميمون كانت قد حملت **خديجة**، وتمنّى المحبّون أن يكونَ المولودُ ذكراً.

وحلَّت في ذلك العام بقريش كارثةٌ، إذ احترقت أستارُ الكعبة، ومرَّ بها سَيْلٌ جارفٌ فصدَّع جوانبَها وأسقط بعضَ جُدرانها، وتنافس النّاسُ في البناء بعد رهْبَةٍ وفزَع، وشمّر الجميعُ عن ساعدِ الجدِّ، وحينما بلغوا موضعَ الحجرِ الأسودِ تطلَّعتْ كلُّ قبيلةٍ لأنْ تحظى بشرف إعادتِهِ إلى مكانِه من الرُّكْن، ثم اشتدَّ النزاعُ وامتدَّتِ الأيدي إلى مقابضِ السيوف، ولولا كلمةٌ صدرتْ عن **أُميَّة بن المغيرة** المخزومي فحجزتهم، لَفَتَكَ بعضُهم ببعضٍ إذ قال لهم:

ـ يا معشرَ قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوّلَ من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم.

فقبلوا جميعاً، ثم تعلَّقتْ عيونهُم بالباب تنتظرُ المجهول، وبينما هم كذلك إذ أقبل وجهٌ يضيءُ كأنه البدْر، يعلوه الجلال، ويكسوه الوقار، مُتَّزِنُ الخطى من غيرِ تكلُّف، رزينٌ من غيرِ فُتورٍ فصاح الناسُ جميعاً:

هذا الأمين، هذا **محمدُ بنُ عبدِ اللَّه** رضِينا بحكمهِ واستبشرْنا بطلعتهِ.

الحكمة البالغة

ثم حكَّموه فيما هم فيه من خِلاف، وبحكمتهِ البالغةِ طلب ثوْباً

طويلاً وضع في وَسَطِهِ الحجرَ الأسود ثم طلب إلى الكُبَراءِ منهم أن يُمْسِكَ كلٌّ بطرفٍ ثم أعاد الحجرَ إلى مكانِهِ بيدِه الشريفة، وحقنَ برجاحةِ عقلِهِ وسُمُوِّ حكمتهِ دماءَ العرب.

ثم غادرهم إلى بيْته قَلِقَ البال على زوجته التي تعاني من آلامِ الوضع، دونَ أن تأخذَه أو تهُزَّه نشوةُ الشِّعر الذي أخَذَ يردِّدُهُ النّاس:

تشاجرت الأحياءُ في فَصْل خُطّةٍ	جرت بينهم بالنحسِ من بعدِ سَعْدِ
تلاقَوْا بها بالبُغضِ بعد مودَّةٍ	وأوْقد ناراً بينهم شَرُّ موقِدِ
فلما رأينا الأمرَ قد جَدَّ جِدُّهُ	ولم يبقَ شيءٌ غيرُ سَلّ المهنّدِ
رضينا وقلنا: العدلُ أوّلُ طالع	يجيءُ من البطحاءِ من غيرِ مَوْعِدِ
ففاجأنا هذا الأمينُ محمَّدٌ	فقلنا: رضِينا بالأمينِ محمَّدِ

وعلى مشارفِ البيتِ الكريم تلقَّى البُشرى، لقد وضعت خديجةُ الوليدةَ الجديدة **فاطمة الزهراء**.

لقد وُلِدَتْ ـ رضيَ اللّهُ عَنْهَا ـ في اليوم الذي أنقذ اللّهُ فيه قريشاً على يدِ **محمد** ﷺ، وجاءت **الزهراء** مع البُشْرى.

فجر الإسلام

أخذت **خديجة** تلاحظُ سِماتٍ جديدةً تعلو وَجْهَ النبيّ الكريم، وصمتاً طويلاً عميقاً يلازمه؛ وتأمُّلاً شديداً يَسْرحُ به، وهو مع هذا يزدادُ تألُّقاً وصفاءً ويشِعُّ نوراً وبهاءً.

فأحسَّتْ بقرارة نفسها وبِصِدْقِ حَدْسِها أنَّ الأمْرَ جَلَل..، فقامت خيرَ قيام بما يُمْليه عليها منطقُها وأدبُها، فوفَّرت للنبي ﷺ كلَّ أسبابِ الصَّفاء، وما عكَّرت عليه أبداً خلواتِهِ وتأملاتِهِ.

وتتابعت الرُّؤى يردِفُ بعضُها بعضاً، وإنّها لرؤى صادقة، فأخذ يحدّثُها بكلِّ ما يراه وما يعتريه فتستمعُ إليه بنفسٍ مبتهجة وصدْرٍ منشرح، لا تفارقُ الابتسامةُ العذبةُ فمَها، ثم تثبّتُه على ما هُو فيه، وتبعثُ في ذاته الشريفة العزمَ والتصميم.

الخلوة

وعندما أهلَّ هلالُ **رمضان** من ذلك العام، كان انصرافُ النبي ﷺ إلى ربّه وخلواتُهُ وتأمُّلاتُهُ أشدَّ وأبلغ، وقامت **خديجة** بتهيئةِ زاده، وتُشرِفُ على السكينةِ والاستقرار تغلِّفان حياتَه.

وأرجف الناسُ بأن **محمداً** قد عشِق ربَّه... فما زادته أقاويلُهم إلا رغبةً عنهم، وبُعداً عن مجتمعهم وأنديتِهم، كما رأى كثيرٌ من القوم بعضَ الخوارقِ والمعجزات فكانت مثار تكهُّناتهم ومَدْعاةَ إرهاصاتهم.

وكان ﷺ حينَ يمضي إلى غارِ حِراءٍ لما حُبِّبَ إليه الخلاء تودِّعه **خديجة** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ خاشعةَ النفسِ، والهةَ القلب، آملةً راجية، ضارعةً إلى اللَّه تعالى أن يحققَ آمالَهُ وتطلعاتِه.

ليلة القدر

وفي يوم خالدٍ كريم، وفي ليلةٍ مباركةٍ هي **ليلة القَدْر** أَشرقتِ الأرضُ بنُورِ ربّها واصطَفّ الملأ الأعلى وازّيَنَتِ السماءُ ونادى المنادي:

ـ هذا يومُ البُشرى...

ثم هبط **جبريل** ـ عليه السلام ـ بالأمرِ المبين إلى الرسول الأمين قائلاً له:

ـ اقرأ...

فقال النبي ﷺ:

ـ ما أنا بقارئ...

ـ فأخذه **جبريل** وغطّه[1] حتى أجهده ثم أرسله وقال:

ـ اقرأ...

ـ فقال ﷺ:

ـ ما أنا بقارئ...

فأخذه وغطَّهُ ثانيةً وثالثةً ثم قال:

---

(1) ضمّه وعصره.

ـ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1 ـ 5].

بعد هذه البُشرى... وبعد هذا اللقاءِ العظيمِ عاد النبيُّ ﷺ إلى الصَّدْرِ الحنون والقلْبِ الكبير، والنفسِ المواسية، عاد إلى **خديجة** واجفاً قلبُه يحدّثُها بما رأى وبما سمع وهو يقول:

ـ زمّلومي، زمّلوني.

فانصاعت لطلبه وزمّلته في دِثاره وهي تقول:

ـ أبْشر يا ابن عمي واثبُتْ، فقد أُريدَ بك الخيرُ العظيم، وإنّك واللّهِ لأهلٌ لكلِّ خير، واللّهُ لا يُخزيك أبداً، إنك لَتَصِلُ الرحِمَ وتصدُقُ الحديثَ وتحمِلُ الكلَّ، وتَقْرِي الضَّيْف، وتُعينُ على النوائب. وما زالت به حتى طَعِمَ وشربَ وضحك، وذهبَ رَوْعُه.

ثم اجتمع الزوجان بـ **ورقة بن نوفل** فحدّثه النبيُّ ﷺ بحديثه وشأنِه، وما أن فرغ حتّى هتف **ورقة**:

ـ قُدُّوس، قُدُّوس؛ والذي نفس **ورقة** بيده لقد جاءك النّاموسُ الأعظمُ الذي كان يأتي موسى، وليْتَني أكونُ حيًّا إذ يُخْرِجُك قومُك.

فقال النبي ﷺ:

ـ أَوَ مُخْرِجيَّ هُم؟

قال **ورقة**:

ـ نعم، لم يأتِ رجُلٌ قطُّ بمثلِ ما جئتَ به إلاَّ عُودِيَ، وإن يدركْني يومُك فأنصرك نصراً مؤزَّراً[1].

المسلمة الأولى

أسلمت **خديجة** وآمنتِ الزوجة الوفيَّة؛ ولم تقف في إيمانها عند حدٍّ معين بل انطلقت في سبيل اللّه مثبّتةً رسولَهُ داعيةً لدينه، باذلةً الغالي النفيسَ لأجله.

ثم تتابع الوحيُ على رسولِ اللّه ﷺ يأمره أن يقومَ فينذرَ عشيرته

(1) ذكرها بلفظ قريب البخاري (3) ومسلم (160).

الأقربين، فترك فراشَه ودِثارَه وأمْنَهُ وراحتَه وقام فقالت **خديجة**:

- يا أبا القاسم عُدْ إلى فراشِك فلا بُدّ لك من الراحة، فلماذا لا تنام؟

فيقول ﷺ:

- انقضى زمنُ النومِ والراحةِ يا خديجة. . .

وتتابع دخولُ المؤمنين في موكِبِ الأيمان، وأخذت المسيرةُ طريقَها إلى اللّهِ فأسلم **عليٌ بنُ أبي طالب** وزيدُ **بنُ حارثة** و**أبو بكرِ الصديق** و**عثمانُ بنُ عفان** و**سعدُ بنُ أبي وقّاص** و**أبو عبيدةَ عامرُ بنُ الجرّاح** و**الزبيرُ بنُ العوّام** و**عبدُ الرحمن بنُ عوْف**.

الجهر بالدعوة

ومكث ﷺ يدعو إلى اللّه سرّاً ثلاثةَ أعوامٍ حتى أمره اللّهُ سبحانه أن يجهَرَ بدعوته إذْ أَوْحى إليه:

- ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: 94].

وفي هذه المرحلة بدأ الصِّراعُ العنيفُ الحادُّ من قِبَلِ قريش لدعوة الحق، وأخذ صناديدُها يُناصبونَ رسُولَ اللّه ﷺ وأصحابَهُ العِداءَ فلم يضعفْ ولم يهِنْ ولم تلِنْ قناتُهُ.

وأمعن **أبو لَهَبٍ** في إيذاء النبيّ ﷺ فأمر وَلَدَيْه **عتبة** و**عُتَيْبة** أن يُطلّقا ابْنَتَيْ رسولِ اللّه ﷺ: **رُقيّة** و**أم كلثوم** نكايةً وتَشَفِّياً، ولكنَّ رحمةَ اللّه أَوسعُ وأعظم، فلم يتركِ الأمرَ يبلغُ مداه وغايتهَ، إذ جاء **عثمانُ بنُ عفّان** ـ رضيَ اللّهُ عَنْهَا ـ أكثرُ شباب قريشٍ مالاً وأرفعُهم محتداً وأكرمهُم نسباً يخطبُ **رُقيَّة** إلى نفسه فكان العزاءَ الكبيرَ للنبي ﷺ ولزوجته **خديجة** ـ رضيَ اللّهُ عَنْهَا ـ ولرُقيَّةَ نفسِها.

أيام الشّدائد والمحن

وامتدت يدُ قريشٍ إلى تجارة **خديجة** تنالُ منها، فتُصادرُ الموارد، وتقطعُ السُّبل، وتحرّض الأتباع، وترشو المساهمين، وتخطَفُ الأولاد. . فكانت ـ رضيَ اللّهُ عَنْهَا ـ تتقبلُ كلَّ ذلك راضيةً مرضيَّة.

وكثيراً ما كان يأتي رسولُ اللّه ﷺ إلى منزله معفَّر الجبين، وقد أصابه

سُفَهاءُ القوم بالأذى، فتتلقَّاه **خديجة** بحَنانها وحُبّها، فتمسحُ جِراحَه، وتغسلُ وجهَه، وتُطَمْئِنُ قلبَه، ولا تزالُ تُواسيه حتى يبتسمَ ويتناولَ طعامه.

الـجـزاء

ويأتي **جبريل** عليه السلام من السماء حاملاً البشرى إلى المؤمنةِ الصابرة، والمسلمةِ المجاهدة، والزوجةِ الوفيَّة، فيخبرُها رسُولُ اللَّه ﷺ بذلك قائلاً:

ـ لقد أمرني جبريلُ عليه السلام أنْ أُقرِئَكِ السلام، واللَّهُ تعالى يبشّرُكِ ببيتٍ في الجنة من قصب ذهب لا صَخَبَ فيه ولا نَصَب[1].

وحين أَذِن النبيُّ ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة فراراً من أذى قريش وظلمها، وَدَّعَتْ **خديجة** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ ابنتَها **رُقيَّة** المهاجِرةَ بصُحبةِ زوجها **عثمانَ بن عفَّان** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ وهي تكبِتُ في أعماقِ ذَاتها نوازعَ الأُمومة، محتسبةً فِلْذةَ كبدِها وبَضْعةَ فؤادِها أمانةً بين يدي اللَّهِ تعالى.

في شعب أبي طالب

لم تُفلح وسائلُ قريش أبداً في فَلّ عزيمةِ النبيّ ﷺ وصَحْبِه، فلجأت إلى سلاح جديدٍ هو سلاحُ المقاطعة، فلا مجالسةَ، ولا مبايعةَ، ولا شراءَ، ولاَ مزاوجةَ، ولا مخاطبةَ مَعَ الهاشميين وأنصارِهم حتى يسلّموهم رسُولَ اللَّه ﷺ فيقتلوه.

وكتبوا بذلك وثيقةً علَّقوها في الكعبة، واعتزل المسلمون في شِعْبٍ من شِعاب مكة ثلاثةَ أَعوامٍ يقاسون من الشدائدِ والمتاعبِ والمصاعبِ ما تنهارُ له الشُمُّ الرواسي، وتتنفَّرُ له أقسى القلوب وتتزلزلُ معه أَصْلَبُ النفوس.

وكان لخديجة في سنواتِ المحنةِ فَضْلٌ كبيرٌ، كانت تواسي نساءَ المسلمين بنفسِها ومالها، وتُغدِقُ عليهم من فيْضِ حَنانها ومحبَّتها وإيمانها وتُنفقُ إنفاقَ من لا يخافُ فقراً ولا شُحّاً.

ثم انهارتْ مقاومةُ قريش؛ وعاد المسلمون إلى مكَّة، وهم أصلبُ عوداً وأشدُّ مضاءً.

---

(1) ذكره البخاري بنحوه برقم (3820) ومسلم (2432).

عـام الـحـزن

توالى الوحي، وأخذ أَمْرُ الرسالة يقوى، ورايتُها تعلو، والصِّراعُ بين الإيمان والكفر يشتدُّ، وأخذتْ وفودُ العربِ تتعرَّفُ إلى محمد ودعوته.

وفي عامٍ واحدٍ أُصيب رسُولُ اللَّه ﷺ بحادثيْن جَلَلين جعلاه يسمي ذلك العامَ **عامَ الحُزْن**.

فقد تُوُفِّي عمُّه **أبو طالب** الذي كان دِرعَهُ الواقيَة، يدفع عنه الأذى ويحميه من سَفَهِ السُّفهاء، تهابُهُ قريشٌ لمكانتهِ فيها وتحترمُه لرجاحةِ رأيه.

انطفأ السراجُ اللامع؛ وذرفَ رسُولُ اللَّه ﷺ الدموعَ الغزيرةَ، لقد مات **الرَّجُل** الذي كفله صغيراً، ورعاه يافعاً، وحماهُ نبيًّا.

ثم لحقتْه **خديجة**...

لقد أَوْهَنَتْ سَنَواتُ الحِصارِ والمقاطعةِ بقسوتها وشدَّة وطأَتِها جسدَ النبيلةِ الطاهرة والمجاهدةِ الكريمةِ الصابرة، فسقطتْ صريعةَ المرض.

وأحسَّ النبيّ ﷺ بالحُزْن والأسى؛ كما أحاطتْ بالفراشِ الطاهر **زينب ورقيَّة** و**أم كلثوم** و**فاطمةَ** يبكين أغلى الأمهات، وأكرمَ المجاهدات.

ثم دنا منها رسُولُ اللَّه ﷺ باكياً وهو يقول:

ـ ما أَمَرَّ الفراقَ يا **خديجة**، سيكونُ اللقاء في الجنَّة، في قصرك يا **خديجة** الذي أَعَدَّه اللَّهُ لك في لؤلؤٍ مُضيء.

فتجيبُه الصدِّيقة مع آخرِ نَسْمةٍ من نَسَماتِ الحياة:

ـ إن شاء اللَّه...

ويبكي النبيُّ ﷺ، وتبكي بناتُه، ويخلو البيتُ الكريمُ من الشُّعلةِ الإيمانيَّة التي أضاءت حياتَهُ وآفاقَه ثمانيةً وعشرين عاماً.

ولحقت **خديجة** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ بالرفيقِ الأعلى، مَعَ الذين أنعم اللَّهُ عليهم من النبيين والصِّدِّيقينَ والشهداءِ والصالحين وحَسُن أولئكَ رفيقاً.

سَوْدة بنت زمعة
رضي اللّه عنها

أيّام المحنة

بعد الخروج من الشِّعْبِ بسببِ المقاطعةِ التي فرضتْها قريشٌ على بني هاشم والتي استمرَّتْ طيلةَ ثلاثِ سنواتٍ لقي فيها المسلمون عَنَتاً شديداً، وإرهاقاً ما بعدَهُ إرهاق.

كانت **خديجة** ـ أمُّ المؤمنين ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ تُقاسي من المرضِ والضّعف، ثُمّ ما لبثتْ أن لحقتْ بالرفيق الأعلى، فوَجدَ عليها رسولُ اللَّه ﷺ أشدَّ الوجْد، وحزِن بالغَ الْحُزْن، وبكاها بكاءً عظيماً.

وكذلك بناتُها الأربع، الزّهَراتُ الناضراتُ في بَيْتِ النبوّة، زينب، ورقية، وأمُّ كلثوم، وفاطمة.

ثم تبعها في الوفاةِ **أبو طالب** الذي كان لابنِ أخيه نِعْمَ العشيرُ والنصير؛

كما جاء **أبو لهب** يرُدُّ على رسول اللَّه ﷺ خطبةَ ابنتيه: **رُقَيّة** وأمِّ **كلثوم** لِولَدَيْه، بسبب ما نزل فيه منَ وحْي ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: 1].

وَقَصَدَ النبيُّ ـ ﷺ ـ إلى **الطائف** لعلّه يجدُ في بني ثقيفٍ تفهّماً وقبولاً للدعوة، وهي العشيرةُ التي طبّقَتْ أرجاءَ الجزيرة عِلْماً ومعرفةً.

فَرَدَّهُ أهلُها أقْبحَ رَدٍّ، وجفوْه أشنعَ جَفاء، حتى إنهم أَغْرَوْا صبيانَهم وسفهاءهم بقذفِهِ بالحجارة.

تلك الأيامُ... وتلك الحقبةُ... كانت أقسى ما مرَّ به ـ ﷺ ـ من مِحَنِ الدعوةِ إلى اللَّه، والشدّةِ في تحمّلِ أعباءِ الرسالة.

بين القبول والتردُّد

وبيْنا هو ذاتَ يَوْمٍ في بَيْتِهِ يلفُّه الحُزْنُ والكآبة، جاءته إحدى السيّدات

المسلمات، **خَوْلَةُ بنتُ حكيم** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ، تُحدِّثُهُ حديثاً عَجَباً.

لقد كان المسلمون جميعاً يشعرون بما يُقاسي ـ ﷺ ـ من آلامِ المحنة، فقد خلا البيتُ النبويُّ من أطهرِ الزَّوجات، ومات العَمُّ المُدافعُ عن ابن أخيه، وردَّهُ أهلُ ثقيفٍ ردًّا قبيحاً مُنكراً، . . . فكان المسلمون يحُسُّون بذلك؛ ويُحاولون أن يخفِّفوا عن رسُولِ اللَّه ﷺ ألمَ المصاب، وشِدَّة النازلة، ويتداولون بهذا الأمر فيما بينهم، حتى تَشَجَّعتْ **خَوْلَةُ بنتُ حكيم** ـ وكانت أكثرَ المسلمات جُرأةً وشجاعةً أدبية، وحملت عن الآخرين، رجالاً ونساءً، مسؤوليَّة الحديثِ مَعَ رسولِ اللَّه.

وحدَّثَتْه **خولةُ** في أمر وَحْدتِهِ في بَيْتِهِ، وحاجة ذلك البيتِ إلى سيِّدةٍ كريمةٍ ترعاه، وحاجته هُوَ إلى من يقومُ على شؤونه، ويدبرُ له أمورَ البيت. وبعد تردُّد، ونَظَراتٍ بعيدةٍ إلى الماضي تسترجعُ ذكرى **خديجة** ـ رضيَ اللَّه عنها ـ قَبِلَ الرسولُ ﷺ باقتراحِ **خَوْلة**؛

فقالت رضيَ اللَّهُ عنها:

ـ إن شئتَ بكراً فأمامَكَ **عائشةُ** بنتُ **أبي بكر الصدّيق** وإن شئتَ ثيِّباً فهناك **سَوْدةُ بنتُ زمْعة** التي آمنتْ بك وتبعتْ دينك، وهاجرتْ إلى الحبشة، وتُوُفِّيَ عنها زوجُها وتركها وحيدة.

فقال ﷺ في دهشةٍ ممزوجةٍ بالاستغراب والعَجب:

ـ سَوْدَةُ بنتُ زمعة؟!!

وردّد الاسمَ أكثرَ من مَرّة، ولم يأتِ على ذكر **عائشة**، وأخيراً قبلَ بالزواج من **سَوْدة** لأنَّها مؤمنةٌ مجاهدةٌ قد ترمَّلَت، فمن الوفاءِ أن تنالَ جزاءَ ما قدّمت وأسلفت للدّعْوة.

وكانت **سَوْدةُ** امرأةً مُسنّة، فارعةَ العود طويلةَ القامة، ضامرةَ الجسم، نحيلةَ العود، ليست على شيءٍ من الجمال، ولا مطمعَ فيها للرجال.

أَضِفْ إلى ذلك أَنَّها كانت ثيباً، قد تَزَوجَتْ من ذي قَبْلُ ومَرّت بتجربة زواجٍ، ومات زوجُها عَنْها وكان من المصدّقين الأوائل، والمسلمين السابقين الذينَ آمنوا باللَّه ورسوله[1].

(1) ذكره بنحوه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» برقم (53).

نسبها ونَشْأَتُها

هي: **سَوْدةُ بنتُ زمعةَ بنِ قيس** من بني **عبدِ شمس**، وأمّها: **الشموسُ بنتُ قيسِ بنِ عمرو** من **بني النجّار** من أهل المدينة.

نَشَأَتْ بـ **مكّة** وفيها تَرَعْرَعَتْ حتى بَلَغَتْ مبلغَ الصِّبا والفُتُوّة؛ فتقدَّمَ لخطبتها والزَّواجِ منها: **السكرانُ بنُ عمرو** فقبِلَ به أبوها وزوّجَها مِنْه.

ولا ندري ـ عزيزي القارئ ـ سبباً لانتقال **سَوْدة** مع أَهْلِها من **يثرب** ـ المدينة المنوّرة ـ إلى **مكة**،

فهي في الوطن مدنيّة ـ مكيّة، هكذا يصحُّ نسبُها تاريخيًا(*).

إسلامهما

حينَ أَشْرَقَتْ شَمْسُ الدعوةِ المحمديةِ والرسالةِ الإسلاميةِ على **مكة**، استضاء بها قَلْبُ الزّوْجَيْنْ: **السكرانُ وسَوْدة**، فأعلنا إسلامَهما وإيمانَهما، وانضويا تَحْتَ اللّواءِ الشريف.

وعندما ضاق المؤمنون القلائلُ ذَرْعاً بأذى قُرَيْشٍ وتعرُّضِها الدائمِ لَهم بالإكراه والتعذيب والضَّغط، أَذِنَ النبيُّ ـ ﷺ ـ لمن أراد منهم، في الهجرةِ إلى الحبشة، فإنَّ فيها ملِكاً لا يُظْلَمُ عندهُ أحدٌ، حتى يقضي اللَّهُ أمْراً كان مفعولاً.

فهاجَرَت **سَوْدة** مَعَ زوجِها **السكران** في جملةٍ من هاجر من المسلمين، وهناك أقاموا مُدّةً من الزّمنِ بعيداً عن الأهلِ والوَطن، في شوقٍ دائم إلى الأخبار والأنباء، وعلى الخصوص أنباءُ رسُول اللَّه ﷺ وتطوُّرُ الأحداث وتقلّبُ الأيّام[1].

ولا يفوتنا أن نَتَحدَّث عن ظروف إقامة المسلمين في ديار النجاشي ـ ملك الحبشة ـ وكيفيّتها،

فقد يَسرَّ لهم ذلك المضيف العظيم كل أسبابِ الراحة والهناء، وفَتَح

(*) ذكر لها نسبها ابن حجر في «الإصابة» (8/ 117) وابن سعد في «الطبقات الكبرى» برقم (52).

(1) ذكره بلفظ قريب ابن هشام في «السيرة النبوية» (1/ 352).

لهم آفاق العمل، وتحبّبَ إليهم، ولم يمنعهم عن بلاطه حتى لا يشعروا بالغربة والوحشة.

لكن الوطن عزيز وغالٍ، فكانوا في شَوْقٍ دائم، وحنين مُسْتَمر، خصوصاً إلى رسُول اللَّه ﷺ.

العوْدة من الحبشة

وبإسلام **عُمَر بنِ الخطاب** و**حمزةَ بن عبد المطلب** ـ رضيَ اللَّهُ عنهما تشجّع بعضُ المهاجرين إلى الحبشة بالعوْدةِ إلى مكّة، وآثرَ الآخرون البقاء.

وكانت **سودةُ** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ مَعَ زَوْجها مِمّن أسرعوا في **العَوْدة**.

وتعودُ أسبابُ السُّرعةِ إلى ما كان قد أُصِيبَ به زوجُها من أمراضٍ وعِلَل في غربته الموحِشة، وبُعده عن الأهل والأحباب، وتغيُّر المُناخ.

الأرمـلــة

ومَعَ وصول الزوجَين إلى **مكة** فوجئا بأن قريشاً ما تزالُ على مَوْقِفها من العِداءِ الشديدِ للإسلام والمسلمين، بل زادَتْ في حِدَّةِ الصرّاع، ولَمْ تَرْعَوِ عن غيّها وكُفْرِها وعنادِها.

ولازم الزوجُ **السكران بن عمرو** الفراش بسبب العلّةِ والضعف المتناهي؛ وقامت **سَوْدةُ** على تمريضه ومداواته ومساعدتِه، ولكنْ لم تمض أيّام على وصولِهِ حتى اشتدَّ بِهِ المرض، ومَنَعَهُ عن الكلام والحركة، ولم يلبث أن فارق الحياة، وترمَّلَتْ **سَوْدَةُ** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ وأَمْضَتْ أيامَها الباقيةَ في **مكّة** حزينةً آسفةً، صابرةً على قضاءِ اللَّه وقدره، معتصمة بإيمانها، متمسكةً بإسلامها، تستمدُّ من الباري عَزّ وَجَلّ العوْنَ والرحمة.

سودة بنت زمعة

ثُمّ كانت البُشْرى السعيدةُ التي أثلجتْ قلبها، وعَزَّتْها من حُزْنها ومُصابها، وأزاحت عن صَدْرِها كابوسَ المحنة، بُشرى خطبتها لرسولِ **اللَّه** ﷺ.

وكان ما سبقَ وعلمْتَ من كيفيةِ حُدوثِ الخطبة، . . .

فلمّا حلَّتْ، وانقضَتْ عدَّتُها، أرْسل إليها رسُولُ اللَّه ﷺ يقول:

ـ مُري رجُلاً من قوْمِك يُزَوِّجُكِ.

فَأَمَرتْ **حاطب بن عمرو**، فزوّجها، فكانت أوّلَ امرأةٍ تزوّجها رسُولُ اللّه ﷺ بعد **خديجة** ـ رضيَ اللّهُ عنها ـ، وكان ذلك في شهر رمضان سنة عشرٍ من النبُوَّة، ودَخَلَ بها ـ ﷺ ـ في **مكة**.

وبهذا الزَّواجِ المباركِ عليها، أضحت **سَوْدَةُ بنتُ زمعة** أمًّا للمؤمنين بعدَ **خديجة** ـ رضيَ اللّهُ عنهما[1].

وكانَتْ ـ رضي اللّه عنهما ـ تَقُوم خَيْر قيامٍ على رعاية شؤون بَيْتِ النبُوَّة، من خِدْمةٍ، وحَدْبٍ على الفتيات الطاهراتِ اللواتي فجعْن بالسيّدة العظيمة **خديجة** وهُنَّ في سِنٍّ مُبكّرة.

وكذلك قَدَّرتْ وجُودَها، واختيار النبي ﷺ لها، فأكْبَرَتْ ذلك، واعْتَبَرتْهُ تكريماً عظيماً، فاحْتَرَمت الإرادة النبويّة السامية وأجلَّتْها وأَنْزَلتها من نفسها وقلبها أسمى مقام.

يَوْمها لـ عائشة

قامت **سَوْدة** ـ رضيَ اللّهُ عنها ـ على شؤون بَيْتِ رسُول اللّه ﷺ قياماً حسناً طيِّباً، وأدّتْ ما عليها من واجبٍ تجاه النبيّ العظيم وهي تحاولُ جهدَها أن تحظى برضاه وعطفِه وحُبِّه.

ثم جَرَت الأقدارُ بما دَبَّرتْ من حكيمِ التنظيم، فجاء **جبريل** عليه السلام ذاتَ ليلة يحملُ قطعةً من حريرٍ عليها صورةُ فتاةٍ صغيرة السن، ليُخْبَر رسُولَ اللّه ﷺ أن صاحبةَ الصورة هي زوجتُه المنتظرةُ، ورفيقتُه في الآخرة.

وتكرّرتِ الزيارةُ في ليالٍ ثلاثٍ متواليات، وكانت الصورةُ لـ **عائشة بنتِ أبي بكرٍ الصدّيق** ـ رضيَ اللّهُ عنها ـ.

وتَمَّتِ الخطبةُ في **مكة** ولم يَبْنِ بها رسُولُ اللّه ﷺ لأنها كانت صغيرةَ السن،

---

(1) ذكر لها زوجها برسول اللّه ﷺ ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (53).

وبَعْدَ الهجرةِ إلى المدينة، تمَّ الزَّواج، ودخل رسُولُ اللَّه ﷺ بـ **عائشة**. . .

أما **سَوْدةُ بنتُ زمْعة** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ فكانَتْ من المهاجرات إلى المدينة، المرافقةَ لرسول اللَّه ـ ﷺ ـ الدائمةَ المواظبةِ على رضاه وحُبِّه.

ولقد أَدْرَكت **سَوْدةُ** شغفَ النبيّ ـ ﷺ ـ وإيثاره لـ **عائشة**، فكانَتْ تَشْعُر بالْحَسَد، ولكنَّها في نَفْسِ الوقت كانت حريصةً على استمراريّةِ بقائِها زوْجةً للنبي الكريم، وأُمًّا للمؤمنين.

وتُحَدِّثُنا **عائشة** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ **في ذلك** فتقول:

كانت **سَوْدَةُ بنت زمْعة** قد أَسَنّت، وكان رسُولُ اللَّه ﷺ لا يستكثُر منها، وقَدْ عَلِمَتْ مكاني من رسول اللَّه ـ ﷺ ـ وأَنَّه يستكثر منِّي، فخافت أن يفارقها، وضَنَّت بمكانها عِنْدَهُ فقالت:

ـ يا رسول اللَّه، يوْمي الذي يُصيبُني لـ **عائشة**، وأَنْتَ مِنْه في حِلٍّ، فقبله النبي ﷺ وفي ذلك نزل قَوْلُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ [النساء: 128].

ويُروى أن رسُولَ اللَّه ﷺ بَعَثَ إلى **سَوْدة** بطلاقها، فلما أتاها الخبرُ حَزِنَتْ وبكتْ وتألّمت، ثم جلست في طريقه إلى بَيْتِ **عائشة**، فلما رأتهُ ـ ﷺ ـ قادماً قالت:

ـ يا رسُول اللَّه. . . أَنْشُدكَ بالذي أَنْزَلَ عليْك كتابَهُ، واصطفاك على خلقه لِمَ طلّقتني، ألْمَوْجدةِ وجدتَها فيَّ؟

فقال ـ ﷺ ـ:

ـ لا. . .

فقالت:

ـ فإني أَنْشدك بمِثْلِ الأولى أَما راجعتني وقد كَبِرْتُ ولا حاجة لي في الرِّجال، ولكنّي أُحِبّ أن أُبْعَثَ في نسائك يَوْمَ القيامة.

فراجعها النبي ﷺ.

ومَنْ أَجْدَر وأَحَقّ من رسولِ اللَّه ﷺ في العطف والمحبّة للمسلمين وللمؤمنين؟!

أَلَمْ يَقُلْ فيه الكتابُ الكريم:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: 128، 129][1].

شهادة رسُول اللّه ﷺ في سَوْدة

كانت رضيَ اللّهُ عنها ـ كما قدّمنا ـ تَحْمِلُ بعضَ الحسد في قلبها، ومَبْعَثُ ذلك غيرةُ النساء القاتلة، ولوْ كُنّ كبارَ السّن.

وكان فيها دُعابَةٌ وتُحِبُّ الضّحِك.

ولقد رُوي عن رسُولِ اللّهِ ﷺ قوْلُه:

ـ «ما مِنَ الناسِ امرأةٌ، أحبُّ إليّ أن أكونَ في مِسْلاخها[2] من سودة بنت زمعة إلاّ أنها امرأةٌ فيها حَسَد».

ورُوي أنها قالت ذاتَ يوْم لرسُولِ اللّه ﷺ:

ـ صَلَّيْتُ خلفَكَ البارحة، فَرَكَعْتَ بي حتى أمسكْتُ بأنْفي مخافة أن يقطُرَ الدم،

فضحك ـ ﷺ ـ وكثيراً ما كانت تُضحِكُهُ بالقوْلِ أو الفعل.

فقد كانت ـ رضي اللّه عنها ـ خفيفة الرّوح والظّلّ، صاحِبَةَ فكاهةٍ ومُزَاحٍ صادق، لا ثقيلةً تُشْعِرُ بالملل، ولا تَفْتَعِلُ الحركة أو تصطنع الكلمة فتبدو سمجَةً غَيْرِ مرغوبٍ فيها.

المتصدّقة الكريمة

وَرَوتْ **عائشة** ـ رضيَ اللّهُ عنها ـ فقالت:

ـ اجتمع أزواج النبيّ ﷺ ذاتَ يَوْم، فَقُلْنَ:

ـ يا رسول اللّه أيّنا أَسْرَعُ لحاقاً بِكَ؟

فقال ﷺ:

---

(1) ذكرها بنحوه البخاري (2593) ومسلم (4163) وأبو داود (2135).

(2) المسلاخ: الإهاب، الجلْد.

ـ «أَطْوَلكُنَّ يَداً».

فأَخَذْنا قصبةً نَذْرَعُها، فكانَتْ **سَوْدةُ بنت زَمْعة بن قيس** أطْوَلنا ذراعاً.

قالت **عائشة**:

وتُوفيَ رسُول اللَّه ﷺ فكانت **سَوْدَة** أَسْرَعنا بِهِ لحاقاً، فعرفْنا بعد ذلك إنّما كان طُولُ يَدِها الصَّدَقة؛ وكانت امرأةً تحبُّ الصَّدَقة.

الوفيَّة بالْعَهْد

حَدَّث **أبو هريرة** ـ رضي اللَّه عنه ـ فقال:

ـ حَجّ رسُولُ اللَّه ﷺ بنسائه عام حَجّةِ الوَداع، ثم قال:

ـ هذه الحجَّةُ ثُمّ ظُهُورُ الحصر.

وكان كُلّ نساءِ النبي ﷺ يحْججنَ بعده، إلا **سَوْدة بنت زمعة وزينب بنت جحش**... قالت:

ـ لا تُحَرِّكُنا دابّةٌ بعد رسُولِ اللَّه ﷺ.

ورُوي عن **سَوْدة** قوْلُها:

ـ حَجَجْتُ واعْتَمَرْتُ، فأنا أقرُّ في بَيْتِي كما أَمَرني اللَّه عَزّ وجَلّ.

المأذون لها من رسول اللَّه ﷺ

رَوَتْ **عائشة** ـ رضي اللَّهُ عنها ـ فقالت ـ

ـ استأذَنَتْ **سَوْدة** رسُولَ اللَّه ﷺ ليْلَةَ المزْدلفة أن تَدْفع قَبْلَهُ وقبلَ حَطَمةِ الناس أي أن تمضي في السير، وكانت امرأةً ثَبِطة، والثبطة: الثقيلة البطيئة، فأذِن لها، فَخَرَجَتْ قَبْلَ دَفْعَة النّاس، وحُبسْنا حتى أَصْبَحْنا فَدَفَعْنا بدَفْعِهِ، وَلَئِنْ أكون استأذنْتُ رسول اللَّه ﷺ كما استأذَنَتْهُ **سَوْدة**، فأكونَ أَدْفعُ بإذْنِهِ قَبْل الناس، أَحَبُّ إليّ من مفروحٍ به.

وهذا الإِذْنُ ترخيصٌ من رسول اللَّه ﷺ لـ **سَوْدة**، لأن عادةَ الجاهليّين قبْلَ الإسلام، أن يتقدّمَ الأشراف على العامة، ولقد ألْغى الإِسلامُ هذه العادة وسوى بَيْنَ النّاسِ جميعاً لا فرقَ بين أميرٍ أو حقير.

وما جاء الإِسلام إلا لُيُرْسي دعائم العدْل وليرْفَعَ عن المجتمع العربي،

وغيره من المجتمعات كابوس الظلامة في التّفْرقة بَيْن خَلْقِهِ وعباده، فالناس جميعاً كما قال ﷺ: «سواسيةٌ كأسنان المشط، لا فَضْل لعربيٍ على عجميّ، ولا لأَبْيَضَ على أسود إلاّ بالتقوى».

المقسومِ لها يَوْم خَيْبر

ولقد قَسَم لها رسُولُ اللّه ﷺ يَوْمَ خيبر من الفيء كما قسم لكُلّ أزواجه، فنالت من التمْرِ ثمانين وسْقاً، ومن القمْح عشرين، ولكنّها ـ رضيَ اللّهُ عنها ـ لم تدّخرْ ذلك، ولم تَخْتَزِنْهُ، ولم تَجْعَلهُ فِي بَيْتها، بل فرّقَتْهُ قبلَ وصوله.

وأيضاً. . .

روى **محمد بن عمر** أن **عُمَر بنَ الخطاب** ـ رضيَ اللّهُ عنه ـ أرسل إلى **سَوْدة** زمنَ خلافته، كما كان يَفْعَلُ مع باقي أمهات المؤمنين، غِرارةً من دراهم. فقالت:

ـ ما هذه؟

قالوا:

ـ دراهم، من أمير المؤمنين.

قالت:

ـ في الغرارة مثْلُ التّمْر.

ثُمّ نَادَتْ على جاريةٍ لها، وطلبت إليها أن توزّعَ ما في الغرارة على المحتاجين والمساكين؛ ودَعَتْ ربّها سبحانَهُ وتعالى أن يثبّتها على القناعة والإكتفاء.

وهكذا دأْبُ أم المؤمنين **سَوْدة بنتُ زمْعَةَ** ـ رضي اللّه عنها، فهي لا تريدُ لعُنْصرِ المالِ أن يَدْخُلَ في حَوْزتها أبداً، فأشْرَف لها وأكرَم وأَعْظَم أن يَبلّغَ به فقير جائع، أو مسكينٌ مُحْتاج أو صاحب فاقَةٍ، من أَنْ تنفقه على دنياها، فالآخرة خَير وأبقى، والحسنة أو الصّدَقة بِعَشْرِ أمثالها.

وصَدَق اللّه العظيم إذ يقول:

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 110].

حُلُمٌ قديم صادق

وروى **ابنُ عباسٍ** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال:

ـ كانَتْ **سَوْدةُ بنتُ زمعة** عند **السكران بن عمرو** أخي **سهيل بن عمرو**، فرأتْ في المنام كأنَّ النبيّ ﷺ أقْبل يمشي حتى وَطئ على عُنُقها، فأَخْبَرتْ زَوْجَها بذلك فقال:

ـ وأَبيكِ لئن صَدَقَتْ رؤياكِ لأموتَنّ وليتزوَّجنَّكِ رسُولُ اللَّه ﷺ. فقالت:

ـ حجْراً وسِتْراً أي أنها تنفي عن نفسها ذلك.

فاشتكى **السكران** من يَوْمِهِ ذلك، فلم يَلْبَثْ إلا قليلاً حتى مات، وتزوّجها ـ كما أسلفنا ـ رسولُ اللَّه ﷺ.

الـوفـاة

هُناك اختلافٌ في تاريخ وفاتها ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ، فمن المؤرخين من يقولُ كانت أوّلَ نساء النبيّ ﷺ لحاقاً به كما قدّمنا حسبَ رواية لـ **عائشة** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ.

ومنهم من يقولُ؛ إن أول اللاحقات به هي **زينب بنت جحش** ابنةُ عَمّتِهِ، وأن **سَوْدة** توفّاها اللَّه بَعدها وقد كان ذلك في العام الرابعِ والخمسين من الهجرة في زمنِ خلافة **معاوية بن أبي سفيان**، واللَّه أَعلم. رضيَ اللَّهُ عن **أُمّ المؤمنين سَوْدةَ بنتِ زمعة** المسلمةِ المهاجرة، والمؤمنةِ الصادقةِ المتصدّقة، والوفيّةِ المحبّة[1].

وأنزلها منازلَ الأبرار والصالحين في جَنّاتِ النعيم، وألحقنا بها في الطائعين التائبين من عبادِه.

إنّه أكرم مأمولٍ وخَيْر مسؤول، وآخرُ دعوانا أَنِ الحمدُ لِلَّهِ رب العالمين.

---

(1) ذكر لها وفاتها ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (57) وابن حجر في «الإصابة» (331) والإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (2/ 267).

عائشة بنت أبي بكر(*)

أمّ المؤمنين

رضي اللَّه عنهما

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «لا تؤذونني في عائشة فإنه واللَّه ما نزل عليَّ الوحيُ وأنا في لحافِ امرأةٍ غيرِها».

وقال:

«عائشةُ زوجتي في الجنّة».

وسألتْ عائشةُ رسولَ اللَّه ﷺ:

«قالت: يا رسولَ اللَّه مَنْ مِنْ أَزواجِكَ في الجنة؟ قال: أنتِ منهنَّ».

تـوطـئـة

بعد أنْ لحقتْ **خديجةُ بنتُ خويلد** رضيَ اللَّهُ عَنْها ـ بالرفيقِ الأعلى، واختارها اللَّهُ إلى جواره؛ أصبح بَيتُ رسول اللَّه ﷺ خالياً من الصدْرِ الحنون والقلبِ الرؤوفِ الذي كان يبثُّه همومَهُ ومتاعبَهُ وما يلقاهُ من عَنَتِ المشركين وصدودِهم وأذاهم.

فجاءتْهُ يَوْماً **خَوْلةُ بنتُ حكيم** زوجةُ **عثمان بن مظعون** قائلةً: يا رسُول اللَّه ألا تتزوّج؟

فقال: وَمَنْ؟

فقالت: إن شئتَ بِكْراً وإن شِئتَ ثَيِّباً.

قال: فَمَنِ البِكْرُ؟

قالت: بنتُ أَحبِّ الناسِ إليْك **عائشةُ بنت أبي بكر**.

(*) ترجم لها ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (58) والإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء» برقم (14).

قال: ومَنِ الثيّب؟

قالت: **سَوْدَةُ بِنْتُ زمْعَة** آمنْتْ بكَ واتَّبعتْك. وهاجرت إلى الحبشة مَعَ زوجها الذي مات عنها وتركها وحيدةً...

فقال لها بَعْد تفكُّرٍ وتأمُّلٍ وتروٍّ....: اذهبي فاذكريني عندها.

ثم أرسل في طلب **سَوْدة** وحدّثها بأمْرِ زَواجهِ بها؛ فسُرّتْ بذلك وقالتْ جَذِلَةً.

ـ أمري إليكَ يا رسولَ اللّه...

ـ مُري رجُلاً من قومِكِ يُزوِّجُكِ...

ثم بنى بها.

الـرؤيـا

مضت فترةٌ على زَواج النبيّ ﷺ من **سَوْدة**؛ ثم استيقظ صبيحةَ يومٍ مسترجعاً في مخيّلته ذكرى حُلُم رآه؛ فقد جاءه **جبريلُ** عليه السلام بقطعةٍ من قماشٍ حريريٍ عليها صورةُ **عائشَةَ بنتِ أَبي بكر** وقال له:

ـ إنها زوجتُك في الدُّنيا والآخرة[1].

فأخذ ﷺ يفكّرُ في أمر هذه الرؤيا...؛ ثم صرفَ ذهنَهُ عنها معتبراً إيَّاها أضغاث أحلام، ولم يولِها عنايَتهُ واهتمامَهُ، فقد كانتْ مشاغلُ الدَّعوةِ وأعباءُ الرسالةِ أكبرَ من هذا الخاطرِ وأعظمَ منه.

لكنَّ الرؤيا تكرّرتْ ليومين على التوالي، فأدرك النبيّ ﷺ أنَّها أمرٌ من اللّهِ سبحانه وتعالى....، ولا بُدَّ من تنفيذِ أمْرِ اللّه.

ثم بكّر في الذهابِ إلى دار **أبي بكرٍ الصديق** رضيَ اللّهُ عَنْه، فاستقبله مُرحبًا مؤهّلاً.

ولما استقرّ المُقامُ بالنبي ﷺ قصَّ على **أبي بكرٍ** رؤياه، فأصغى الصدّيقُ وقد أدرك أنَّ النبيّ ﷺ قد جاءَ خاطباً.

---

(1) الحديث رواه الترمذي برقم (3880) وغيره بإسناد صحيح.

ثم التفت إلى النبيِّ وقال:

ـ إنها ما زالت صغيرةً يا رسولَ اللَّه، وسأُرسلِها إليْكَ لتراها. . .

ثم غادَرَ النبيُّ دارَ **أبي بكرٍ**.

كانت السعادةُ والفرحةُ تغمرُانِ نفسَ الصدّيق، وإنه لشرفٌ ومنزلةٌ ساميةٌ أن يصاهِرَهُ النبي ﷺ.

ثم دخل حَرَمَ أَهله ونادى **عائشة** التي كانت تدرُجُ نحوَ التاسعةِ من عمرها، والتي كانت منهمكةً في اللَّهوِ بدُميتها، ثم حمّلها إناءً فيه تمْرٌ وطلبَ إليها أن تُوصِلَهُ إلى بيتِ رسولِ اللَّه ﷺ وتقول له:

ـ هذا كلُّ ما عندَنا يا رسولَ اللَّهِ فهل يوافقُك؟؟

فعل **أبو بكرٍ** ذلك بعد أن حدَّثَ زوجتَهُ **أمَّ رومان** بالأمرِ وأخذَ رأيَها.

الزائرة في بيت رسول اللَّه ﷺ

أسرعتْ عائشةُ الطفلةُ إلى بيتِ رسولِ اللَّه، فهشَّ لها وحيَّاها ثم قدّمتْ له ما أُرسلَتْ به، وقالتْ له ما علّمها أبوها، ثم عادت ثانيةً إلى والدِها فسألها:

ـ ماذا قال يا بُنَيَّة؟

فأجابت:

ـ نَعَمْ، وعلى بركةِ اللَّه.

لقد ذَهَبَتْ **عائشة** إلى بيت النبيّ ﷺ تنفيذاً لأمر أبيها وهي لا تدري من أَمْرِ هذه الزيارة شيئاً، ولا الغايةَ منها، إذ كانتْ في سنٍ لا تُدرِكُ مَعَها مُنْطَوَياتِ هذه الأمور، وأهدافَ هذه التحرُّكات.

ارتَاحتْ نفسُ الصِّدِّيق ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وسُرَّ غايةَ السرورِ لجوابِ النبي ﷺ.

ولكنْ. . .

ما بَالُ الأسى يغمرُ وجهه، والكآبةُ تعلو مُحَيّاه؛ فجأَةً لقد تذكّر أن **عائشة** مخطوبةٌ إلى ابنِ صديقٍ عزيزٍ عليه، إنه **جُبَيْر بن مُطْعِم بن عديّ، فما العمل؟ وما الحيلةُ للخروج من هذا المأزِقِ الحرِجِ؟**

فكّر رَويّاً في الأمر، ثم هداه تفكيرُهُ إلى الطريقةِ التي تخلَّص بها من وَعْده الذي قطعهُ لصديقه **مُطْعم**.

الخطبة

خُطبتْ **عائشة** لرسول اللّه ﷺ وهي بنتُ تسعِ سنين، وبقيَ أمرُ هذه الخطبة مكتوماً لا يعلم بها أحدٌ سوى رسول اللّه ﷺ وأبو بكرٍ وزوجتُه **أمُّ رومان**[1].

وكان رسولُ اللّهِ ﷺ كثيرَ الترددِ على دار **أبي بكرٍ** فيوصي بعائشةَ خيراً، إذ كانت طفلةً ساذجَةً لا تفقهُ من شؤونِ الحياة إلا القليل، وكانت كأترابها تقضي معظمَ أوقاتِها لاهيةً لاعبة، تأخذ دُميتَها في حِجرِها فتسرّحُ لها شعرَها، أو تُلبسُها، خِرَقاً تُسمِّيها ثياباً، أو تُهَدْهِدُها لتغفو.

لقد وثّقت هذه الخطبةُ أواصرَ المحبةِ والصداقةِ بين رسولِ اللّه ﷺ وصديقه **أبي بكر** رضيَ اللّهُ عَنْهُ، وزادتْها متانةً وقوّةً، وتمتّنَتْ عُرى الأخوَّة بينهما إلى أقصى الحدود.

ومرَّت السنَوات. . .

سنواتُ كفاح وجِلادٍ وجهاد، حتى كانتِ الهجرةُ إلى يثرب، وبعد أن استقرَّ المقامُ بالمسلمين في المدينة المنوّرة، إذ آخى بينَ المهاجرين والأنصار وجمعَ بين **الأوْس** و**الخزرج** على طريقِ الإيمان والإسلام، وعاهدَ يهودَ المدينة أن لا يغدِرُوا.

بعد ذلك، جاءه **أبو بكرٍ** رضيَ اللّهُ عَنْه مذكّراً.

الزواج

جاءه في ساعةٍ من صفاءٍ وراحةٍ قائلاً بحياءٍ:

ـ ما الذي يمنعُك أن تبنيَ بأهلك يا رسولَ اللّه؟

فالتفت النبي ﷺ إلى **أبي بكرٍ** وكأنه تَنَبَّه إلى نفسه، وفكّر في خطبة **عائشة** التي مضى عليها سَنوات، فعائشةُ اليومَ قد اكتملتْ أنوثةً، وهي أصلحُ ما تكونُ لإتمامِ الزِّيجة، إذ أتمّت الثالثةَ عشرةَ من عمرها.

---

(1) ذكره ابن سعد في «طبقاته» (8/ 78 ـ 79).

وأجاب **أبا بكرٍ** بالإيجاب، والابتسامةُ الرقيقة لا تفارقُ ثغرَه الكريم.

في بيت رسول اللَّه ﷺ

دخلت **عائشة** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْها ـ بيتَ رسولِ اللَّه ﷺ تحملُ ضمن جهازِها الدُّمى إذ كانت رغمَ اكتمال أنوثتِها ساذجَةَ التفكير، يغلبُ على تصرُّفاتها طابَعُ الطفولة.

دخل يوماً رسول اللَّه ﷺ بيتَه فوجد **عائشة** قد صفَّتِ العرائسَ وجعلت لبعضِها أجنحةً فسألها عمَّا تصنعُ فقالت:

ـ إنهُنَّ خيولُ **سليمان**.

فتبسَّم النبيُّ ﷺ، وعادَ يسألُها:

ـ وما هذه الأجنِحة؟

فقالت:

ـ ألم تكنْ لسليمانَ خيولٌ ذاتُ أجنِحةٍ يَطْرِنَ بها؟ فضحك رسول اللَّه ﷺ كثيراً حتى بدت نواجذُه.

لقد كانت طفوليَّة **عائشة محبَّبَةً إلى رسول اللَّه، ولم يكنْ ليتضايقَ منها أو يتألَّم، أو يبدي ضَجَراً أو اشمِئزازاً، ولكنَّه كان يرعاها رعايةَ الأبِ الحنون أو الوالدِ العطوف.**

كيف لا؟ وهو نبيُّ الرحمة، وهو الذي يقولُ:

ـ **استوصوا بالنساءِ خيراً.**

وفي ذات يوم دخل الدارَ فرأى **عائشة** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْها ـ قد غلبها النومُ والشاةُ تأكلُ الخبزَ الذي أعدَّتْه، فتبسَّم من ذلك، ثم أيقظها برِفْقٍ وواساها حين أَبْدَتْ نَدَمَهَا وحُزْنَها على ما فرَّطَتْ وأَهْمَلَتْ.

لقد كان ﷺ معلّماً عظيماً، وأباً كريماً، وزوجاً وفيّاً، وبهذه الصّفات التي تحلّى بها والمبادئِ التي بشرّ بها انتصرَ على الجهلِ والشِّرْكِ.

أليس هو القائل:

ـ «المعرفةُ رأسُ مالي، والعقلُ أصل ديني، والحُبُّ أساسي،

والشَّوْقُ مركبي وذكْرُ اللَّهِ أنيسي، والثقةُ كنزي والحُزْنُ رفيقي، والعلمُ سلاحي، والصَّبْرُ ردائي، والرضى غنيمتي، والفقرُ فخري، والزُّهدُ حِرفتي، واليقينُ قوتي والصدقُ شفيعي، والطاعةُ حَسبي والجهادُ خُلُقي، وقُرَّةُ عيني في الصلاة».

الـزوجة الـوفـيـة

كبِرْت **عائشة** ونضِجتْ واسْتَوَتْ عقلاً وفهماً وإدراكاً، فكانتْ سيّدةَ بيتِ رسولِ اللَّه ﷺ، ترعى شؤونَهُ، وتدبِّر أمورَه، وتواسيه حينَ تجبُ المواساة، وتطيعُهُ في توجيهاته، وتحفظُ عنه الكثيرَ من أقوالِهِ وتتأسّى بأفعاله، وتقومُ بأمورِ بيتِ الزوجيَّةِ خيرَ قيام.

وعرفَ رسولُ اللَّه ﷺ لها ذلك الفضلَ، فكانت أحبَّ نسائِهِ إليه، وعرف فيها الذكاءَ والوفاء، والوعْيُ والفهمَ؛ فقال مُوصِياً أصحابَهُ وأهلَهُ:

ـ **خذوا نصفَ دينِكم عن هذهِ الحُميراء.**

ذلك لما كانتْ تتحلَّى به من الفِقه، وما كانت تستوعبُهْ من العلمِ.

لكنَّ **عائشةَ** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْها ـ لم تكُنْ لتفارقَها طِباعُ النساء من غَيرْةٍ وغيرِها، فقد حدث مرةً أن خرج رسولُ اللَّه ﷺ في إحدى الغَزَوات واصطحبَ مَعَهُ من نسائِهِ **عائشة وحَفْصة**، وفي الطريق رأتْ **حفصةُ** كثرةَ اقترابِ النبي ﷺ من هَوْدَجِ **عائشة** يكلّمُها ويحدّثُها فخطر لها خاطرٌ، فما أن ابتعدَ النبي ﷺ عن هودج **عائشة** حتى اقتربتْ منها **حفصة** وأسرَّت إليها بكلامٍ تضاحكتا بعده، ثم استبدلتا ركوبهَما، **عائشة** في هودج **حفصة** و**حفصة** في هودجِ **عائشة**.

ثم أقبل رسولُ اللَّه ﷺ إلى هَوْدج **عائشة** يُكَلّمُها وهو لا يعلمُ أنَّ **حفصة** بداخله، فكلمته وحدَّثَتْه على أنها **عائشة** وعندما أقبل المساءُ وتوقّف الرَّكبُ عن المسير وقصدَ النبيُّ ﷺ خِباء **عائشة** فوجئ بحفصةَ داخلَهُ، لكنَّه لم يُبْدِ انزعاجاً وقضى ليلتَه عندَها؛ وكانتْ ليلةً ليلاء على **عائشة** التي حُرمت من رسولِ اللَّه ﷺ، وأضاعتْ فيه نصيبهَا، وأرقَتْ طَوال ليلها، ولم يعرفِ النَّوْم سبيلاً إلى عينيها، ولامتْ نفسَها إن عادت إلى مثل ذلك.

الزوجة الغيور

وفي ذاتِ ليلةٍ خرج رسولُ اللَّه ﷺ إلى البقيع حيثُ مدافنُ المسلمين، وكثيراً ما كان يخرجُ إليه ليلاً يزورُ أهلَ البقيع ويُسَلِّمُ عليهم، ويدعو للمؤمنين، ويتذكَّرُ الموتَ والآخرة. . .

فاستفاقتْ **عائشة** فلم تجدْه بجوارِها فقلِقتْ وتحيّرتْ في أمْرها، وظلّت على حالِها تلكَ حتَّى عادَ رسولُ اللَّه ﷺ ورأى ما هي عليه من الهمِّ والأرقِ فأنكرَ ذلك منها وقالَ لها:

ـ إذاً فقد غلبكِ شيطانُكِ يا **عائشة**. . .

فسألْتُه:

ـ ألي شيطانٌ يا رسولَ اللَّه؟

فقال:

ـ نَعَمْ، لكُلّ إنسانٍ شيطان.

فأردفتْ: وحتى أنْتَ؟!!:

فقال ـ ﷺ ـ:

ـ نعم، ولكنّ اللَّه تعالى أعانني عليه فطردتُهُ[1].

ولقد وصل حُبّ النبيّ ﷺ لـ **عائشة** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْها، إلى حدٍّ جَعَلَ باقيَ نسائِهِ ـ ﷺ ـ تشتدُّ غَيْرَتُهُنَّ منها، وتدفعهُنَّ تلك الغيرةُ أن يُرْسِلْنَ **فاطمة الزهراء** ـ رضيَ اللَّهُ عَنها إلى رسولِ اللَّه يطلبْنَ إليه العدْلَ بينَهُنّ.

فجاءَتْ أباها تنقلُ إليه احتجاجَ أزواجِهِ، فغضِبَ ﷺ وأَعْرَض عنها بوجْهِهِ، مع حُبّه الشديد لها.

لكنَّ **فاطمة** أعادَتِ الحديث، وكرّرَتِ الطلب، فقال لها النبيُّ ﷺ:

ـ أولَسْتِ تحبّين ما أُحبّ؟!

فَرَدَّتْ:

ـ بلى يا رسُولَ اللَّه. . .

---

(1) رواه الإمام مسلم برقم (2815).

فقال لها:

ـ إذاً أَحبِيّ عائشة.

فسكتَتْ **فاطمة** بُرْهَةً، أضاف بَعْدَها ﷺ قائلاً:

ـ فَليتقينَ اللَّه في **عائشة**، فَوَاللَّهِ ما نَزَل عليّ الوحْيُ وأنا في فراشِ واحدةٍ مِنْهُنّ غيرها.

وفَتَن الشيطانُ يوماً نساءَ النبي ﷺ ووسْوَسَ إلَيْهِنّ أن يطلبْنَ زيادةَ النفقة والتَّوْسِعةَ عليهن. فَغَضِبَ لذلك غضباً شديداً وأَقْسَمَ أن لا يدخُلَ بيوتَهُنَّ شَهْراً.

كما خيَّرهُنّ بَينْ مُتْعَةِ الحياةِ وزُخرُفِها وزينتِها، وبَين العيشِ في كَنَفِ النُّبُوَّة.

ولمّا آثَرْنَ البقاءَ بجانبه ﷺ، كان أوّلَ بَيْتٍ يدخلُهُ من بيوتِ أزواجهِ هو بَيْتُ **عائشة**.

وكان مما قالته رضيَ اللَّهُ عَنها لرسولِ اللَّه ﷺ معتذرةً:

ـ بأبي أنْتَ وأُمي يا رسُولَ اللَّه، أفي هذا تُخَيِّرُني؟!! بَلْ أختارُ اللَّه ورسوله.

وعاد الصفاءُ والوُدُّ إلى بيتِ رسولِ اللَّه ﷺ، وانْزاحتِ السُّحُبُ والغيومُ التي تلبَّدَتْ في سمائهِ فترةً من الزمن.

حديثُ الإفْك

خَرَج النبيّ ﷺ، مع قوات المسلمين من المدينة لِتَأْديبِ ومعاقبةِ يهودِ بني المصطلق، وكان سَهْمُ الخروج من نصيبِ **عائشة** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ من بَيْن أزواجه.

وحين تمّ النّصرُ للمسلمين على اليهود الذين لقُوا جزاءَ غدرِهم ونِفاقهم، وُزّعَتِ المغانمُ والأسلاب، كما التقى عند حَوْضِ الماء الذي كان يَسْتَسْقي منه المسلمون، أَحَدُ الأنصار وأَحَدُ المهاجرين، فتزاحما وتنافرا، وكادَ تزاحمُهُما يؤدِّي إلى اشْتباكٍ بين المؤمنين.

ومما زاد في إلْهاب وتأجيج نارِ الفتنةِ ما قاله رَأسُ المنافقين، من يهود المدينة الذين أسلموا ظاهِراً، **عبدُ اللَّه بنُ أُبَيّ بن سَلُول**.

ـ لئنْ رَجَعْنا إلى المدينة ليُخْرِجَنّ الأعزُّ منها الأذَلّ.

سَمِع أَحَدُ المسلمين تلك المقالة، ورأى بوادرَ الفتنة، فأسْرَع إلى رسُول اللَّه ﷺ ينقُلُ لَهُ خَبَر الشِّجار، ونَصَّ قول **ابن سلُول** المنافق، فرأى ـ ﷺ ـ أنَّ من الحكمة أن يَشْغَلَ النّاسَ عن الفتنةِ بالمسيرِ على الفوْر، بعد أن أقاموا للاستراحة.

في أثناءِ ذلك، كانَتْ **عائشةُ** رضيَ اللَّهُ عنها ـ قد خَرَجَتْ من خيمتِها لقضاءِ حاجةٍ بعيداً عن مُعسكر المسلمين، وهي لا تدري من أمرِ ما يَحْدُث شيئاً، وابتعدتْ كثيراً.

وحين رَحَلَ المسلمون، رُفع هَوْدجُها من مكانِهِ ظناً من قائده بأنَّها في داخله؛ ومضى المسلمون في طريقهم باتجاه المدينة.

عادتِ **عائشةُ** مما ذهَبَتْ إليه، وافتقَدَتْ غيرَ بعيدٍ عِقداً كانت تُزيّن به جيدَها فلم تجدْهُ، فرجعت سريعاً إلى حيث كانتْ ولَمْلَمَتْ حبّاتِ العِقد المتناثرة، وعادت على جناح السُّرعة.

وحينَ بلغت طرفَ المعسكر، ومكانَ الهودج، لم تجدْ أثراً لبشرٍ، فارْتاعَتْ وجَزِعَتْ، وأَلَمّ بها خوْفٌ شديد، ثُمَّ لبثتْ في مكانِها لا تدري كيفَ تتصرَّفُ، وماذا تفعل.

وكان من عادة رسولِ اللَّه ﷺ، القائِد الظافِر الخبير، أن يُرسلَ إثرَ كلِّ غزوةٍ رجُلاً من أصحابه إسْمُهُ **صَفْوَانُ بن المعطّل** يَسْتَدْرِكُ ما فاتَهُ المسلمون عند رحيلهم.

وفوجئتْ **عائشة** ـ رضيَ اللّه عنها ـ بخيالِ فارسٍ يأتي حَيْث تقفُ فأرْخَتْ حجابهَا، وعندما لمحها **صَفْوان** غَضّ بصرَه وقال في عَجَب ودهشة:

ـ ظعينةُ رسول اللَّه؟ ما خَلَّفَكِ رحمَكِ اللَّه؟ وما الذي أخّرَك؟

ثم نزل عن بعيرِه، وتأخّر حتى ركبت، ثم تقدَّمَ وأَمْسَكَ بالمِقْوَد.

وشُغِلَ بالُ رسُولِ اللَّه ﷺ على **عائشة** بعد أَنْ افتقدها فلم يجدْها، واهتمَّ لأمرِها.

وحينَ أَطَلَّ موْكبُ **صفوان** و**عائشة** على مداخل المدينة المنوّرة، ولمحه **ابنُ سلول** المنافقُ الذي كان جالساً مع بضعةِ نَفَرٍ من أتباعه ومَنْ هُم على شاكلته، استيقظ الحقْدُ في قلبه، ووَجَد المادّة التي يتسلَّى بها، والسُّمَّ الذي ينفثه، لينفّسَ عن خُبثه وحقدِه وحسدِه على رسولِ اللَّه ﷺ وعلى المسلمين؛ فقال:

ـ أيُّها الناس.. ظعينَةُ نبيِّكم عادَتْ في رِكاب رجلٍ، واللَّهِ ما نَجَتْ مِنْهُ، ولا نجا منها.

وسرتْ أكذوبةُ **ابنِ سلولٍ** بَيْنَ الناسِ مسرى النارِ في الهشيم، وتناقلتْها الألسنةُ تصريحاً وتلميحاً.

لكنَّ **عائشةَ** دخلتْ منزلَها خاليةَ الذِّهنِ لا تدري من أَمْرِ هذا الإفكِ والافتراء شيئاً.

ثم وصل الهمسُ إلى أُذُن رسولِ اللَّه ﷺ، فعاش فَتْرةً من الحيرة والقَلَق والهمِّ الشديد، يَبْدو ذلك على محيّاه الشريف، ويظهرُ في تصرُّفاته.

وكانَتْ **عائشة** تُعلِّلُ تلكَ الظواهرَ في وجهه ـ ﷺ ـ أو انصرافَه عنها بسببِ انشغاله بأمورِ الدَّعوةِ وشؤونِ المسلمين.

وحينَ استفحل الأمْرُ، وقد شعرت ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ بالمرض يَدْهمُها، استأذنَتْ رسُولَ اللَّه أن تذهبَ إلى بَيْتِ أبيها كي تقومَ أمُّها على خدمتِها ورعايتها.

ولقيَ طلبُها هذا سُرعةَ استجابةٍ من رسُول اللَّه ﷺ مما جعلها تحزَنُ وتتوَجَّس، لأنه ـ ﷺ ـ لم يكنْ ليطيقَ فراقَها، أو ابتعادَها عنه.

ودخلت **عائشة** منزلَ والدها، الصدّيق الحزين، رضيَ اللَّه عنه، الذي ما انفكّ يدعو اللَّه تعالى أن يُبرّئ ساحةَ ابنته.

وقضت ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ في بيتِ **أبي بكر** قرابةَ العشرين يَوْماً حتى شُفِيَتْ من مرضِها.

وفي يَوْمٍ خرجت مع امرأةٍ لقضاء بعض الأمور، وبينما هُنّ في الطريق، عثرت المرأةُ بطَرفِ ثوْبها، فقالت:

تَعِسَ **مسْطح**...

فقالت **عائشة** بحِدَّةٍ:

- بئس **لعمرُ اللَّه** ما قُلْتِ في رجُلٍ من المهاجرين شهِدَ بَدْراً.

فقالت المرأة:

- عجباً... وتدافعين عنه.. أَوَما بَلَغَكِ الخبرُ يا بِنتَ أبي بكْرٍ!!؟؟

فأجابت عائشة مستفسرةً بدهشةٍ:

- وما الخبر؟

فقصّت عليها المرأة حديث الإفْك، وما يُشاعُ عنها، وما يُرَوِّجُهُ دُعاةُ السوءِ من أقاويلَ وافتراءات.

وكان **مِسْطحُ بنُ أثاثة** واحداً من الذين أطلقوا لألسنتِهم العِنان، ينالون به من شَرَفِ **عائشةَ** وسمْعتِها.

ولمّا فرغت المرأةُ من الحديث، كاد يُغمى على **عائشة**، فتماسكتْ، وعادتْ إلى البيْت تبكي وتنتحبُ، وتلومُ أُمّها لأنها كتمتْ عنها الخبرَ رأفةً بها، وراحت الأمُّ تخفّفُ من حِدّةِ غضب **عائشة** والدموعُ تنهلُّ من عينيها فتغسلُ وجهَها، وتقول:

- أيْ بُنَيّة، هَوِّني عليك الشَّأْن، فواللَّهِ لَقَلَّ ما كانت امرأة حسناءُ عند زَوْجٍ يحُبُّها ولها ضرائرُ إلاّ كَثَّرْنَ، وكثَّر الناسُ عليها.

لكنْ أين **عائشة** وأين أُمُّها!!

لقد كانت في هَمٍّ شديد، الدُّنيا كلُّها في نظرها مُظلِمةٌ سوداء. فقبعتْ في الدار مُتوارِيَةً عن الناس، عازفةً عن الطعام والشراب، لا تغفُو ولا تنام، تبكي وتنشج.

ولم يكن سكوتُ رسولِ اللَّه ﷺ سكوتَ المصدِّق، معاذ اللَّه، ولكنْ كان سكوتَ الصابر، حتى يقضيَ اللَّه أمْراً كان مفعولاً.

وحين كثر القيل والقال، خطبَ في الناسِ فقال:

ـ أيُّها النّاس ما بال رجالٍ يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق، واللَّه ما علمت منهم إلاّ خَيراً، ويقولون ذلك عن رجُلٍ ما عَلِمْتُ مِنْهُ إلا خيراً، وما يدخل بيْتاً من بيوتي إلا وهُوَ معي **يعني صفوان بن المعطل**. فسكَتَ الناس جميعاً.

ثم أراد رسولُ اللَّهِ ﷺ أن يستشيرَ خلصاءَه في هذا الأمر وأصفياءَهُ، فاسْتَدْعى إليه ابنَ عمّه **علياً بنَ أبي طالب** وحِبَّهُ **أُسامة بنَ زَيْدٍ** وسألهما رأيهما، فقال: **أسامة**:

ـ إنَّك لأعلمُ النّاسِ بـ **عائشة** يا رسُولَ اللَّه، وإن الناس لتكْذِب، وما عَرَفْنا عنها إلاّ خَيْراً.

وأما **عليّ** فقال:

ـ يا رسولَ اللَّه، إن النساءَ كثيرات، وإنّك لقادرٌ على أن تستخلف **أي تنجب الأبناء**(1)، وسَلِ الجارية تَصْدُقْكَ.

وحينَ سأل رسولُ اللَّه ﷺ **عمر بن الخَطابِ** ـ رضي اللَّه عنه ـ قال:

ـ تَسْأَلُني يا رسُولَ اللَّه عن **عائشة**؟ وإنّي بِدَوْري أسألُكَ: مَنْ زَوَّجَكَ إيَّاها؟

فأجاب رسُولُ اللَّه ﷺ بهدوءٍ:

ـ اللَّهُ تعالى.

فقال **عمر**:

ـ إذاً أفتظنُّ أنَّ اللَّهَ قد خَدَعك ودلَّس عليك فيها؟ سبحانَكَ اللهمّ هذا بُهتانٌ عظيم(2).

البــراءة

وفَتَر الوحيُ وتوقف مُدَّةً عن رسول اللَّه ﷺ، ممّا جعل لألْسِنَةِ السوء والفحشاء مجالاً وميداناً فسيحاً. ولم يَبْقَ أمامَ رسولِ اللَّهِ ﷺ من حيلةٍ إلا

---

(1) وهذه غمزة من عليّ كرم اللَّه وجهه بحق عائشة رضي اللَّه عنها.

(2) رواه البخاري برقم (2661) وذكره ابن الجوزي في «صفوة الصفوة» (21 ـ 28).

المواجهة، فعزم على الذَّهابِ إلى دار **أبي بكر** ـ رضيَ اللَّهُ عنه ـ وحين دَخَلَ ـ ﷺ ـ إلى الدار، كانت **عائشة** تبكي وبجوارها امرأةٌ من الأنصار، فكفكفت دمعَها، ومسحت عينيها، ثم جلس رسُول اللَّه ﷺ قُبالتَها يسألُها:

ـ يا عائشة، إنّه قد كان ما بَلَغَكِ من قوْل الناس، فاتّقِي اللَّه، فإن كُنْتِ قد قارفْتِ سُوءاً مما يقولون فتوبي إلى اللَّه، إن اللَّه يقبلُ التوبةَ من عبادِهِ. . .

نزل القوْل على رأس **عائشة** نزولَ الصاعقة، فخيّم الصمتُ الرهيبُ على المكان، وشمل الجميعَ السكوت، لكنَّ **عائشة** وحدها تكلّمت، ودموعُها تتدفقُ من عينيْها بغزارة، تكلمتْ لتدافعَ عن نفسِها، ثم نظرت إلى والديها وقالت صائحة صارخة:

ـ ألا تجيبان؟!!

فقالا:

ـ واللَّهِ ما ندري بماذا نجيب.

فعادت إلى البكاء مع النشيج والنحيب، وقد تقطَّعتْ نياطُ قلبها حُزْناً وألماً، ثُمّ التفتَتْ إلى رسُول اللَّه ﷺ قائلةً:

ـ واللَّه لا أتوبُ إلى اللَّه مما ذكرْتَ أبداً، واللَّه إني لأعْلَمُ لئنْ أقرَرْتُ بما يقول الناس، واللَّهُ يعلمُ أني بريئة لأقولَنّ ما لم يكُنْ، ولئنْ أنْكرْتُ ما يقولون لا تصدقوني، إنما أقول كما قال أبو يوسف **يعقوب عليه السلام**:

ـ صَبْرٌ جميل واللَّهُ المستعانُ على ما تصِفون.

ثم عاد السكونُ يلُفّ المكان بردائه الشامل، وشعر رسول اللَّه ﷺ بأنّ الوحْيَ يكادُ يَنزلُ عليه، فسُجيّ في ثَوْبِهِ، وأتَتْهُ **عائشة** بوسادةٍ من أدْم وضعتْها تحت رأسه، وفَزِع الجميع، إلاَّ عائشة، الطاهرةَ البريئة.

وحينَ استفاق ـ ﷺ ـ من غَشْيَتِهِ وهو يتصبّب عرقاً، قال:

ـ أبشري يا عائشة، قد أَنْزَل اللَّهُ براءتَكِ.

فصاحتْ والفرحةُ تغمرُ قلبَها:

ـ الحمدُ للَّه.

ثم تلا رسُولُ اللَّه ﷺ قوْلَ اللَّه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: 11 ـ 18].

ثم أمر رسُولُ اللّه ﷺ بالأشخاص الذين كانوا يروّجُون ويَفْترون، فنالوا جزاءهم.

وعادت الطاهرة إلى بيتِها، وإلى مقامِها في قلب رسول اللّه ﷺ؛ وإلى مكانتِها الرفيعةِ في نفوسِ المسلمين جميعاً.

وفاةُ رسُول اللّه ﷺ

فتح المسلمون **مكةَ** وطهَّروا البيتَ الحرام من الأوثان، وارتفعت كلمةُ: لا إلٰه إلا اللّه محمد رسول اللّه مَدْوِّيَةً في سماء الجزيرة العربية.

وبعد أن حَجّ رسُول اللّه ﷺ بالمسلمين **حجَةَ الوَداع**، وتلا قول اللّه تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

دمِعَتْ عينا **أبي بكرٍ** ـ رضيَ اللّه عنه ـ إذ شَعَرَ بقُرْب لحوق النبي ﷺ بالرَّفيق الأعلى، وانتقالِهِ إلى جِوار ربّه.

وحينَ دَهَمت الحُمّى رسُول اللّه، سَأَلَ نساءه مُسْتأْذناً، بكل ما كان يتمتّع به من أَدَبِ النُبوَّة، أن يُمرَّضَ في حُجْرَة **عائشة** فأذِنّ له.

فقامت **عائشةُ** المحبّةُ الوفيَّةُ بتمريضه، والاعتناء به، على خيرِ ما يكونُ الوفاءُ والحب.

وأوصى ـ ﷺ ـ أن يُدفَن في حُجْرتها، وهكذا كان.

كانت رضيَ اللّهُ عنها، أكثرَ نسائه وأهله حُزْناً لفراقه، وألماً لبعاده، وهي تذكُرُ سالف أيامها مَعَهُ، وسنواتِ عمرها التي رافقتْه فيها.

وتولَّى والدُها **أبو بكر** خلافة المسلمين، ثمّ تبعه **عمر بن الخطاب** رضيَ اللّهُ عنهما، والكل يعرفُ لها مكانتَها وفضلَها وعلمها، فكمْ من قوْلٍ وفعْلٍ كان لرسول اللّه ﷺ أُخِذَ عنها وسُمِعَ منها.

النـــهايـــة

مَرضَتْ السيّدة **عائشة** ـ رضيَ اللَّهُ عنها، وكان قد سبقها إلى الدار الآخرة مُعظمُ نساءِ النبيِّ ﷺ.

ثم اشتدَّ عليها المرضُ حتى فارقتِ الحياةَ الدنيا، ودُفنت في البقيع بجوار أمهات المؤمنين وصحابة رسول اللَّه ﷺ ورضي اللَّه عنهم أجمعين.

وكان الصحابيُّ الجليل **أبو هريرة** ـ رضيَ اللَّهُ عنه ـ مِمَّنْ حضروا جنازتَها، وبينما هُوَ في طريق دعوته من البقيع، وقد غامَتْ عيناهُ بالدمْع أَخَذَ يردّد:

ـ رَحِمَ اللَّه أمَّ المؤمنين **عائشة**، لقد كانت حياتُها صفحةً ناصعةً شديدة النقاء، بالغةَ الطهارة.

رحمها اللَّهُ ورضيَ عنها، وألحقنا بها في الصالحين الطاهرين من عبادِه.

حَفْصَة

أمّ المؤمنين

رضي اللَّه عنها

نسبُها ومَوْلدها

هي: حفصةُ بنتُ عمرَ بنِ الخطاب بنِ نُفَيْل، المخزومية القرشية، وأُمّها زينبُ بنت مظعون، أُختُ عثمانَ بنِ مظعون، رضيَ اللَّهُ عنهما.

أصيلةُ الحَسبِ والنسب، في الذِّروةِ من قُرَيْشٍ مكانةً. وُلِدَتْ ـ كما تَذْكرُ رواياتُ التاريخ ـ قَبْل بعثةِ النبيّ ـ ﷺ. بخمسِ سنوات، ويؤرخون لِمَوْلدها ببناءِ قريْش **الكعبة** بعد أن جَرَفها السَّيْل[1].

وعلى هذا فيكونُ مَوْلدُها في نفسِ تاريخ مَوْلدِ **فاطمة** ـ عليها السلام ـ، ابنةِ رسول اللَّه ﷺ.

نشأتها

نَشَأَتْ في بَيْتِ **عُمَر بن الخطاب** ـ رضيَ اللَّهُ عنه ـ نَشْأَةً كريمةً عزيزةً، تحترمُ الأَب وتخشاه في آنٍ معاً، لما كان عليْه من شِدَّةٍ وقسوةٍ وغِلظةٍ في جاهليته.

مرَّت أعوامُها الأولى وهي ترى بأُمِّ عَيْنِها الصِّراعَ العنيفَ بيْنَ الفئةِ المؤمنةِ بقيادةِ **محمدٍ** ﷺ، وبَيْنَ الكثرةِ الكافرةِ بقيادة الأفذاذِ من قريش، ومن بينهم والدُها... لكنَّها لم تكُنْ تُدركُ أو تتأثّرُ بذلك إلاَّ في حُدُودِ طاقةِ عَقْلها ووجدانها.

---

(1) ذكره ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (8/ 81) والإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (2/ 227).

إسلامها

عاد **عُمر** ذات يَوْم إلى داره بوجْهٍ غير الذي خَرَج به في الصّباح، وبلسانٍ ولهْجَةٍ غيرِ ما كان ينطقُ به من قَبْلُ، إنَّه متهلّل الوجْهِ يشعُّ نوراً وحُبُوراً. . . طلقُ المحيّا، مبسوطُ اللسان بالكلام الليِّنِ المعسول؛ لا شكَّ أنَّ تغييراً كبيراً قد حَصَل.

وعَرَف أَهْلُ البيْتِ بإسلام **عُمَر** ففرِحوا وانشرحوا، وازدادوا فَرَحاً بالتَّغَيُّر. . ، لقد زالت عن سماءِ الدارِ سحابَةُ التجهُّمِ وانطلقت في أَرْجائه بَسْمةُ الرِّضى كالنُّور الساري.

وأسْلَمَتْ **حَفْصَةُ**. . . ، وأقبلَتْ وهي لا تزال صغيرةً، على الدّين بكُلّ جوارِحها، بفؤادها وعَقْلها وحِسِّها؛ وتغلغلَ الإِسلامُ في أعماقها.

زواجُها

وخَطَبَها من أَبيها **خُنَيْس بن حُذافة السَّهْميّ** الشابُّ المسلم المؤمن، فَرَحّبَ عمرُ به وأكرَم مثْواهُ.

وانتقلت **حفصةُ** من دار **ابن الخطاب** إلى دارِ زوجِها **خُنَيْس**، وعاشت مَعَهُ في وفاقٍ ومحبّةٍ ووِئام.

عاشتْ زَوْجَةً، تعرف حقوق وواجب الزوجية، تقدّر المسؤولية، وتضطلِع بأعباء بيت الزوجية وواجباته، وترعى أمورَهُ بحكمة المرأة الناضجة العاقلة[1].

المهاجرة

ثُمّ كان الحدثُ العظيم في حياة المسلمين، وهُوَ هِجرتُهُم من **مكة** إلى **المدينة** حَيْثُ أخذت الدعوةُ مساراً جديداً، وهاجَرَتْ **حفصةُ** مَعَ زوجِها وأهلِها إلى المدينة في رَكْبِ المسلمين وموْكِبِ المؤمنين.

(1) ذكره بنحوه ابن الأثير في «أسد الغابة» (2/ 124).

الأرملــة

وَبَعْدَ معركة **بَدْرٍ** التي انْتَصَرَ فِيها المسلمون على المشركين، وكانت هزيمةُ قريش فيها ساحقةً مُهينة، عادَ رسُولُ اللَّه ﷺ إلى المدينة التي استقبلتْهُ وأصحابَهُ المظفَّرين استقبالاً حافلاً وعظيماً...

لكن قَلْباً من قلوب المسلمات المؤمنات كان يئِنُّ من الحُزْنِ ويَضجُّ بالْهَمِّ والْغَمِّ؛ إنَّه قلب **حَفْصَة** التي كانت تُلازِمُ فراشَ زَوْجها المريض، **خُنَيْس**، الذي كان يعاني من سَكَراتِ المَوْت...

وأَسْرَعَ **ابنُ الخطاب** إلى دارِ ابنتِه ليْطمَئِنَّ على خَتنه ـ صَهْره ـ، ولكن سَبَق السيفُ العَذل، ولم تُفْلح عقاقيرُ الأطباء ولا مُعالجاتُهُم في شفائه؛ فقضى مأسوفاً على شبابه، وترمّلَتْ **حفصةُ** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ وهي في سِنٍّ مبكّرة.

وانْطَوَتْ **حَفْصَةُ** على نَفْسِها حزينة يائسة صابرةً، مُحْتَسِبَةً فقيدها الغالي بَينَ يدي اللَّه تعالى ورَحْمَتِهِ، وأَسْلَمَتْ أمرها للباري عَزّ وَجَلّ، يقدِّرُ من أَمْرِ مُسْتَقْبَلِ أيامها، ويَفْعَل ما يشاء.

حُـزْنُ عُـمَـر

لقد تألَّم **عمرُ** رضي اللَّه عنه ـ كثيراً لفقدان **خُنَيْس** وبُكاء **حفصة** وترمُّلِها، فكان يزورُها ويواسيها ويحاول أن يخففَ عنها ما تُعانيه، ثم يَخْرُجُ من عِنْدِها وفي عَيْنه دمعةٌ، وفي قلبه حسرةٌ، وفي حَلْقِه غُصَّة.

وفي ذاتِ يَوْم وقد بَلَغَ اليأسُ والحزنُ مداهُ في نَفْسه، التقى في الطريق **عُثْمانَ بن عفّان** الذي فَقَدَ زوجته **رُقيَّة** بنْتَ رسول اللَّه ﷺ فعَرَضَ عليه الزَّواجَ من **حَفْصَة** فأجابه **عثمان**:

ـ ما لي في النساءِ حاجة...

لم يَقُلْها بجفْوةٍ أو غلظة، ولكنْ بإحساسِ الزْوج الحزين الذي لا يزالُ يعيش جَوّ حُبّه لزوجتِه الحبيبة.

ثم التقى عُمرُ **أبا بكر** ـ رضيَ اللَّهُ عنهما ـ فَعَرض زَواجَ **حفصة** عليه، فسكت ولم يُجِبْ.

فغضب **عُمرُ** كثيراً وأتى رسُول اللَّه ﷺ والثورةُ باديةٌ في عَيْنَيْه، وحينَ استمع إليه ﷺ قال لَهُ:

ـ يُزوّج اللَّهُ تعالى عثمان خَيْراً من ابنتك، ويُزوِّج ابنتك خيراً من **عثمان**.

فهدأ غضبُه، وخَرَج من عندِ رسول اللَّه ﷺ يحمل بعضَ الطُّمأنينة.

خَيْر من عثمان

وإذا بالباب يُقْرَع؛؛؛

إنه باب دار **عمر بن الخطاب**، والقارع هو رسُول اللَّه ﷺ، والطَّلَبُ هو زَواجُهُ ﷺ من **حَفْصَةَ**.

لقد كانَتْ فَرْحَةُ **عمرَ** أعظمَ من أن تُوصَفْ، وأكبرَ من أَنْ يُخطَّها قلمٌ...

لقد أَصْبَحَ سَيِّدُ المرسلين زَوْجاً لـ **حَفْصَةَ** الأرملةِ الحزينة، تلْك التي عرضها والدُها على اثنين من أخلص أصحابه، ومن أقْرب المقرّبين إليْه، فَرَفَضَ أحدُهما وسكت الآخر.

حديثُ عُمرَ

قال **عُمر** رضيَ اللَّهُ عنه ـ:

ـ أتَيْت **عُثْمانَ بنَ عفان** فَعرضْتُ عليه **حَفْصَةَ**، فَقُلْتُ: إن شئتَ أنكحتُكَ **حفصة** فقال: سأنظُرُ في أمري، فمكثتُ لياليَ ثم لقيَني فقال:

ـ قد بدا لي أن لا أتزوّجَ يوميَ هذا.

فلقيتُ **أبا بكرْ** فقلْتُ: إنْ شئتَ زوّجْتُك **حفصة**، فصمت **أبو بكرْ** فلم يرجعْ إليّ شيئاً، فكنْتُ عليْه أَوْجَد مِنّي على **عثمان**.

فمكثتُ لياليَ، ثُمّ خطبها رسُولُ اللَّه ﷺ فأنكحتُها إيّاه، فلقيني **أبو بكرْ** فقال:

ـ لعلّك وَجدْتَ عليّ حينَ عرضْتَ عليّ **حفصة** فلم أَرْجِعْ إليْك شيئاً؟

فقلتُ: نعم،

قال **أبو بكرٍ**:

ـ إنّه لم يمنعْني أن أَرْجعَ إليْك فيما عرضتَ إلا أني قد كنتُ علمتُ أن رسُولَ اللَّه ﷺ قد ذكرها، فما كُنْتُ لأُفشيَ سرَّ رسُولِ اللَّه، ولو تركها رسُولُ اللَّه قَبِلْتُها.

ولما تزوّج رسُولُ اللَّه ﷺ **حفصةَ بنتَ عمر** رضيَ اللَّه عنهما، فكان خيّراً من **عثمان**، تزوّج **عثمان** من أمّ كُلثوم **بنت رسول اللَّه** ﷺ فكانتْ خَيْراً من **حفصة**.

الزَّوْجةُ في الجنّة

أقامت **حفصةُ** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ في بَيْتِ النُّبوَّة، فأدَّتْ قِسْطَهُ وحقّهُ من الإِخلاصِ والوفاء، والسّمْعِ والطاعة، والتقوى والعبادة.

لكنّها كانَتْ بحكْم تركيبها الأنثويّ تتأثّرُ بعواملِ الغيْرة، فلم يَخْلُ صدرُها وقلبُها من ضغطِ هذا العاملِ في بعض الأحيان.

كما أنَّها تزعَّمتْ هي و**عائشةُ** رضيَ اللَّهُ عنهما حِزْبَ المطالبة بزيادة النفَقة، من رسول اللَّه ﷺ مما أدّى إلى غَضَبِ رسول اللَّه ومقاطعته أزواجَهُ شَهْراً كاملاً.

وانتشر خَبَرُ ذلك، وظَنّ **عُمَر** أنَّ النبيّ ﷺ قد طلّق **حفصة** لأنَّها أغضبتْهُ، فجاءها مُعاتباً بقسْوةٍ وشِدَّة وأغلظ لها في القوْلِ حتى بكَتْ وانتحبَتْ.

ولكن ظَهَرَ فيما بَعْدُ أَنَّ هذا الأمْرَ لم يكن إلاَّ خاطراً مرَّ في ذِهْنِ النبيّ ﷺ، وأنَّ **جبريل** عليه السلام ـ قد جاءه قائلاً:

ـ لا تطلّق **حفصة** فإنها صؤوم قَوُوم، وإنها من نسائك في الجنة.

وعلى ذكْر الصَّؤوم القؤوم. فإن **حَفْصَة** ـ رضيَ اللَّه عنها ـ اشتهرت شُهْرةً ذائعة بأنها كانت قليلاً ما تُفْطِر، تقومُ أَكْثرَ اللَّيل للصلاة والدعاء والذكر...

تتهجَّدُ وتَتَعبَّدُ وتَصِلُ قلبها ورُوحها وذاتها باللَّهِ العليّ القدير.

الدعابة البريئة

وصادف ذاتَ مَرَّةٍ أن كانَتْ **عائشة** و**حفصة** ـ رضيَ اللَّهُ عنهما ـ مع النبي ﷺ في إحدى غزواته.

ولاحظت **حفصة** استمرارَ النبي ﷺ في الاقتراب من هَوْدج **عائشة** ومحادثتها ومسايرتها؛ فَشَعَرتْ بالغَيْرة تعملُ عملَها في نفسِها، وأَضْمَرَتْ حيلةً...

قلت لِـ **عائشةُ** وقد نزل الركْبُ للراحة: ماذا لو تَبادَلْنا أنا وأنت الرَّكوب؟! فوافقتْها **عائشة**.

ولما نهض القوْمُ للرحيل، كانت **حفصة في** هَوْدج **عائشة**، و**عائشة في** هَوْدج **حفصة**.

وعاد ﷺ يقترب من الهوْدج ويحادثُ من فيه ويسلّيها، وهُوَ يظنُّها **عائشة**؛ فلما اكتشف الحقيقةَ لم يغضبْ ولم يَثُرْ، وحَمَلَ ذلك على مَحْمل الدُّعابة البريئةِ والمُزاح الذي لا يضرُّ ولا يؤذي، وعَزَاهُ إلى نفسية المرأة التي لا تنفَكُّ تغيرُ أبداً.

ولقد كان ذلك الحدثُ في غزوة من غزواته ﷺ، إذ كان من عادتِهِ أن يُقرِعَ بَيْنَ نسائه، أَيّها تخرُجُ مَعَهُ، في كُلّ مَرّةٍ يخرج فيها من المدينة.

فكان من نصيب **عائشة وحَفْصَةَ** ابنَتيْ أَحَبّ وأقرب أصحابِهِ إلى قلبه، أن تكونا رفيقَتَيْ رِحْلتِهِ تِلْك.

بعد رسُول اللَّه ﷺ

مَرَّتْ حياةُ **حفصة** في بَيْتِ النبيّ ﷺ على أَحَبّ ما تشتهي وتريد، وحفظت عن المصطفى ـ ﷺ بعضَ أقواله الحكيمة وتوجيهاته السامية، فسلكت مسلكَها، وعملتْ بمقتضاها، ووعاها صَدْرُها وقلبُها.

ولما دنَتْ ساعةُ الفراق، ولحق رسُول اللَّه ﷺ بالرفيق الأعْلى، بكتْهُ **حفصة** بدمْعٍ هَتون، وقلبٍ محزون، ولزِمتْ دارَها لا تفارقُها أبَداً؛ وكانت العبادة سلوتَها والتصدّقُ على الفقراء والمساكين عادتَها.

في عَهْد الخليفتيْن

أَضْحَتْ **حفصة** ـ أُمُّ المؤمنين ـ رضيَ اللَّهُ عنها، في عَهْدِ الخليفتين **أبي بكر** و**عمر** موضعَ تقديرٍ واحترام، حُرْمتُها من حُرْمةِ بَيْتِ النبُوَّة، حتى إنَّ والدها **الفاروق** كان يعظِّمُ هذا المعنى ويقدّس تلك المكانة، إكراماً ووفاءً للنبي الراحلِ إلى جوار ربّه.

الأديبة الناصحة

كانت **حفصة** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ أديبةً كاتبةً ذاتَ فصاحةٍ وبيانٍ وبلاغة، قالت في مرضِ أبيها، بعد أن طُعِن بخنجَرٍ مسموم وهُو يؤدي الصلاةَ:

ـ يا أبتاه ما يُحزنُكَ وفادتُكَ على رَبّ رحيم ولا تَبعَةَ لأحَدٍ عندك، ومعي لك بشارةٌ لا أُذيعُ السرَّ مرتين، ونِعمَ الشفيعُ لك العدْلُ، لم تَخْفَ على اللَّه عَزّ وَجَلّ خَشْنةُ عِيشَتِك وعفافُ نهمتِكَ، وأَخْذُك بأكظام المشركين والمفسدين في الأرض.

ثم أنشدت:

أكظمُ الغُلَّةَ المخالطَة القلْـ ... ـب وأُعزّى وفي القرآن عزائي

لم تكنْ بَغْتةُ وفاتِكَ وجداً ... إنّ ميعادَ من ترى للفناء

ولئن كانَتْ **حَفْصَةُ** ـ رضي اللَّه عنها ـ لم تَقُل من الشّعر إلا أَقَلَّه، فإنها ولا شَكّ تَدُلُّ في نظمها ونَثْرِها على عَلُوّ الكعْب فصاحةُ وبلاغةُ وبياناً.

الخطيبةُ المفوّهة

بعد استشهاد **عُمرَ** ـ رضيَ اللَّهُ عنه ـ خطبت **حفصة** فقالت:

الحمدُ لِلَّهِ الذي لا نظيرَ له، والفردِ الذي لا شريكَ له.

أما بعدُ، فكُلّ العجب من قَوْمٍ زيّن الشيطانُ أعمالَهم وارعوى إلى صنيعهم، ورَبّ في الفتنةِ لهم، ونصب حبائلَهُ لختْلهم حتى هَمّ عدوُّ اللَّه بإحياء البدْعة ونَبْشِ الفتنة، وتجديد الجوْرِ بعد دُروسِه، وإظهارِه بعد دُثورِه، وإراقةِ الدماء، وإباحةِ الحمى، وانتهاك محارم اللَّه عَزّ وجلّ بعد تحصينها،

فأَضرى وهاجَ وتوَغّر وثارَ غضباً للّه ونصرةً لدين اللّه، فأخْسَأَ الشيطانَ ووَقَمَ كبِدَه وكفّفَ إرادتَه. . .

ومما قالته في أبيها أيضاً:

لم يَزَل سراجُه زاهراً وضوْؤهُ لامعاً ونورُه ساطعاً له من الأفعال الغُرر، ومن الآراء المصاص، ومن التقدُّم في طاعة اللّه اللُّباب إلى أن قبضه اللّهُ إليْه، قالياً لما خَرَج منه، شانياً لما تَرَكَ من أمره، شيِّقاً لما كان فيه وقالت أيضاً:

نوديَ فأطاع، واحتذى بأخيه **الصدّيق** فَأَخْرجها أي الخلافة من نَسْلِه، وصيّرها شورى بَيْنَ إخوتِهِ فبأي أفعاله تتعلَّقون، وبأي مذاهبه تتمسكون، أبطرائقِه القويمةِ في حياته، أم بِعَدْله فيكم عندَ وفاتِه.

ألهمنا اللّهُ وإياكم طاعته.

المحدّثة

رَوَتْ **حفصة** ـ رضيَ اللّهُ عنها ـ عن رسول اللّه ﷺ بأمانةِ النّاقل كثيراً من الأحاديث التي تتعلّق بالأحكام والسلوك، وروى عنها جماعةٌ من الصحابة والتابعين كأخيها **عبد اللّه بن عمر** وابنه **حمزة**، و**حارثة بنُ وهب** و**المطلب بنُ أبي وداعة** وأمُّ مُبَشر الأنصارية، و**عبد الرحمن بن الحارث بن هشام** و**عبداللّه بن صفوان** و**الحسيب بن رافع** و**سوار الخزاعي** وغيرُهم.

فأسهمتْ بما حفظت وَوَعَتْ، وفقِهتْ وعَلِمَتْ، بإثراءِ هذا العلم الدينيّ العظيم من علومِ الشريعة المحمدية.

كانَتْ أمينةً على بيتها وقدسيّتِه، وزوجها ومكانته، وتقواها وورعِها وزُهْدها، خصوصاً بعد انتقال النبي الكريم إلى الملأ الأعلى.

إكرام رسول اللّه ﷺ لها

وعلى عادة رسُول اللّه ﷺ في الإِسهام بَينَ أزواجِهِ حين يخرجُ لغزوة أو قتال، كانت **حفصةُ** ذات مَرّةٍ من أصحاب السّهام، فخرجَتْ مَعَهُ ﷺ.

تقوم في خَيمتها وخبائها، ثُمّ إذا أسْفَرتِ المعركة عن وجهها وانجلى

غبارُها، شَمّرت ـ رضيَ اللّه عنها ـ عن ساعديْها وخاضَتْ بين الجرحى، تسقي العطاش، وتُداوي المكلومين، وتُخفّف من ألمِ المُصابين، وتضمدُ جراحَ المعذَّبين.

وفي تلك الغزوةِ نَفَلَها رسُول اللّه ﷺ ـ كما تقول بعض روايات التاريخ ـ ثمانين وسْقاً قمحاً، وهذا إكرامٌ زائدٌ من النبي الكريم، واعترافٌ منه ﷺ بفضلِ وجهْدِ السيّدة المصون، **حفصة** ـ أم المؤمنين ـ.

أخلاقها وفضائلها

سبق وقُلْنا إن السماء قد شَهِدت لـ **حفصة** بالمثل الأعلى في التديُّنِ والتقوى، حينَ قال **جبريل** ـ عليه السلام ـ لرسول اللّه ﷺ:

ـ إنها صَوُّوم قوّوم.

ولقد حدّثَ **جويرية بنُ أسماء** عن نافع قال:

ـ ما ماتت **حفصةُ** حتى ما تُفْطِر.

أمّا حجُّها... فحدّثْ عنه ولا حَرَج.

لقد حَجّتْ حَجّةَ الوَداع مع رسُول اللّه ﷺ، ثم لما اختاره اللّه تعالى إلى جواره، كانت رضيَ اللّهُ عنها ـ كلّما أذّن مؤذْنُ الحج في كُلّ موسم وعام، تهيّأتْ لزيارةِ البَيْتِ العتيق، وأداء المناسك، من طوافٍ وسَعْي ووقوف، وتصدُّق على الفقراء والمساكين، وتُنفقُ بلا حساب، لأنَّ ما عِنْدَ اللّه خَيْرٌ وأبقى.

فكان كُلّ ما يُقْسَمُ لها من فَيْءٍ وما يأتيها من أُعْطيات الخلفاء، تجعلُهُ في ميزانِ حسناتها يَوْم القيامة، بِصَرْفِهِ على المساكين والضعفاء والمحتاجين.

آخـر الأيّـام

كانَتْ دارُها في المدينة، حُجْرتها في بيوت أزواج النبيّ ﷺ ـ محطَّ أنظارِ الصَّحابة، يأتونها زائرين ومستفسرين ومتبرِّكين، متعلِّمين وسائلين، واصلين أو موصولين.

لا تخرجُ من الدار إلاّ إلى المسجد لأداء صلاةٍ أو زيارة قَبْر النبيّ ﷺ أو

زيارة الوالد الحبيب المسجَّى بجوار المصطفى الزوجِ الوفيِّ الكريم.

ثم تمسحُ دموعها وقد استذكرت الأيامَ الخوالي، وتعود أدراجَها إلى البيْت، يحتضنُها بحنان، وتُدلِفُ إليه بشوْق.

وفاتـها

وفي العام الخامسِ والأربعين للهجرة وافاها الأَجَلُ المحتوم، إثْرَ إرهاقٍ ومَرَض، ولبّت نداءَ ربِّها وأسلمت الروح، وكانت جنازتُها مشهودةً، حُملت على سرير في نَعْشٍ، إلى المسْجِد، وكبارُ الصحابةِ يتبعونها بصمتٍ وإجلالٍ ووقار، وصلّى عليها **مروانُ بنُ الحكَم** أميرُ المدينة في ذلك الحين. وكذلك كان يتقدّمُ الصفوفَ كالعادة الصحابيُّ الجليل **أبو هريرة** ـ رضيَ اللَّهُ عنه ـ.

ورُوي أن **مروان** حمل بَينَ عمودي سريرها من عند دار **بني حَزْم** إلى دار **المغيرة بن شُعْبة**، ثم حمله **أبو هريرة** من دار المغيرة إلى قبرها.

ودُفنت في البقيع، وجلس **مروان** ينتظرُ حتى فُرِغَ من دفنِها ـ رضي اللَّهُ عنها.

ونزل في قبرِها **عبد اللَّه** و**عاصم** ولدا **عمر**.

وكانت وفاتُها في شهر **شعبان** من تلك السنة؛ رضيَ اللَّهُ عنها، وبارك مثواها، وأكرَم منزلتَها، وألحقنا بها في الصالحين من عبادِه[1].

---

(1) أورده ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (8/ 85) وذكره الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (8/ 52) ترجمة (294).

أمّ المساكين

زينب بنت خزيمة

رضي اللَّه عنها

تـوطئة

كثيرون من الناس، مسلمين وغير مسلمين، يتساءلون عن سَبَبِ كثرة أزواجه ﷺ، لا بقصْد المعرفة، أو الموضوعيَّةِ العلميّة، بل غمْزاً ولمْزاً لِلنَّيْل من شخصية النبيّ الكريم، صلوات اللَّه وسلامه عليه؛ وعلى التحديد فإنهم في مُحاجّاتهم يردّون ذلك إلى الرغبة الجنسية الجامحة معتبريها عَيْباً فادحاً في نُبُوَّتِهِ.

ولقد تعرّضَ كثيرٌ من عُلماء المسلمين الأفاضل لِرَدّ هذه الفرية ودَفْعِ هذه الشّبْهة، في مؤلفاتٍ وضعوها خصيصاً لذلك؛ فأفاضوا وأفادوا؛ جزاهم اللَّه خَيْراً. . .

وَأَودُّ في مَعْرض القوْل، وأنا أختم سلسلة **أمهات المؤمنين**بسيِّدةٍ فاضلةٍ كريمة، تزوجها رسول اللَّه ﷺ هي أم المؤمنين **زينب بنت خزيمة** ـ رضي اللَّه عنها ـ؛ أن أُوردَ رأْياً واحداً في هذا الصّدَد، أَعْتَبرُهُ رأْساً في الأدلة المنطقية والعلمية، كافياً في وأدِ فتنةِ الشّبهة في مَهْدِها.

إن الرغبة الجنسية، لدى أي إنسان، إنما تكونُ في أَوْجها عِنْد مطلع الشباب، حَيْث الفتوّة والصِّبا. . .

عندها يكونُ الإِنسان توّاقاً إلى البُكورة. . .

وإلى الفتوّة المقارنة، وقليلاً ما يميل إلى الثيّب، أو إلى من هي أكبر مِنْهُ سنّاً، وخصوصاً إذا لم يكن قد مَرّ بتجربة جنسيةٍ سابقة، كما هو تعبير العصْر.

فما بالكم، معشر المشتبهين والمفترين، برسول اللّه ﷺ من حيث تعدّد زيجاته، بأَن أولى نسائه كانَتْ ثيباً قد تزوّجت أكثر من واحدٍ قبله. . . ! وكانَتْ أَكْبَرُ مِنْهُ سِنّاً. . !

وزينب **بنْتُ خُزَيْمة** ـ رضي اللّه عنها ـ قد أَخَذَتْ دورها ومكانها في أَشْرَف وأَكْرَم المنازل، مَنْزِل النبوَّةِ الطّاهرة. . .

وأَدّت ـ رضي اللّه عنها ـ قِسْطها للعُلى، وحَمَلَتْ لَقبين من أَشْرَفِ الألقاب وأسماها: **أم المؤمنين وأم المساكين**؛ رغْمَ قِصَر مُدّة مكْثِها في كنفِ المصطفى ﷺ؛ ورغم صِغَرِ سِنّها عند وفاتها. . .

والآن عزيزي القارئ:

إلى صفحات كتاب حياة **زينب** نقلّبها ونَقْرأ سطورها المشعّة بالنّور الوضّاءِ الغامر، ونَسْتَلْهِم مواقفها وآيات فضلها، ونحتذي حذوها ونسير على دَرْبها؛ سائلين اللّه جل وعلا أن يُلْهِمنا الصواب والسّداد.

نَسَبُها ونشأتها

هي: زينب بنت خزيمة بن عبد اللّه بن عمر بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صَعْصَعَة، الهلاليّة.

فهي قرشية هلاليّة مكّية.

فَتَحَتْ **زينب** عينيْها في **مكّة** على مُجْتَمَعٍ يموج بفتنةِ الوثنيَّة، والانكباب على عبادةِ الأصنام وتقديسها، واستغراقٍ في شرْب الخمر، والزّنا، ووأْدِ البنات. . .

مُجْتَمَع زاخرٍ بالفساد والانحلال، فيه العصبيّة أقوى رابطة والحياةُ فيه للقويّ السيّد، ولُقْمَةُ العيش، للعبيد والضعفاء مغموسة بالدم والعرق والدموع. . .

مُجتمع ينزوي في الصحراء القاحلة الجرداء، لا يرى ولا يعايش إلا قليلاً من نُتَفِ الحضارة المادية، يتأثّر بها من خلال احتكاكِ قوافِله التجاريّة الغادية الرائحة بين الشام واليمن.

فتَحَتْ **زيْنب** عينيها على صورة هذا المجتمع بواقعه المنحرف الفاسد، ونَجَتْ من الوأْدِ لأنها من بيْتٍ عريق، في السيادة والثراء؛ ودَرَجَتْ في أَحْضانِ والديها تنْهَلُ من عَطفهما وحُبّهما.

لكنّها نَضَجَتْ وأَدْركَتْ ثُمَّ أصْغَتْ بكثيرٍ من اللهْفة والشوْق والتأثُر لأحداثٍ هامّةٍ جرَتْ في مكّة، وكان مِحْورُها **محمد بن عبد الله** ﷺ.

عايَشَتْ أيّام إعادة بناءِ الكعبة، واختلاف بُطون قريْش وفروعها حول إعادة الحجر الأسود إلى مكانِهِ من الركن.

وسَمِعَتْ بحكمة **الأمين** ﷺ وكَيْف حَلّ إشكال واختلاف الناس، وحقْنِ الدماء، ببسْطِ ردائِهِ، وإمساك رؤساء القبائل بأطراف الرداء، وكأنهم جميعاً شاركوا في رفع الحجر الأسود، ونالوا الشرف العظيم.

سَمِعَتْ بذلك فعلِقَ قلبُها بصاحِب العقْلِ الراجح، والرأي الصائب، والحكمة البالغة، تعلّق إعجابٍ وإكبارٍ.

وَلَقَدْ هَزها ذات يَوْمٍ رؤيَة سيّدٍ من ساداتِ قريْشٍ ينهال على أحد عبيده بعصاً غليظةٍ يؤدّبه، على حدّ زعْمِهِ، بها.

وانكسرت العصا...، فتناول السيّد سَوْطاً متشعّبَ الرؤوس وراح يضربُ به جَسَدَ ذلك المسكين، وأخذ الدّم يُسيل بغزارةٍ والجراح تنفرجُ عن اللحم الأحمر الذي بدأ يتناثر في أطراف المكان، حتّى خَفتَ صَوْت المسكين وتلاشى، ولم تَعُدْ تُسْمَعُ مِنْهُ سوى أنفاسٍ تتردّد مع الأنات.

ولَشَدّ ما تألَّمَتْ **زينب** عندما عَرَفَتِ السبب...

لقد جاع العبْد المسكين بعد عَمَلٍ شاق متواصل، من الفجر إلى الغروب، فأكَلَ دون إذْنِ سيّده، فكان جزاؤه ما رأَتْ وشاهَدَت. كلّ ذلك ـ عزيزي القارئ ـ كانَ من أبْرَز العناصر التي كوّنَتْ شخصيّة **زينب** ـ رضي اللّه عنها ـ في حاضرها ومُسْتَقْبلها.

فعندما بزغ فجر الإسلام على **مكة**، وشَعَّتْ أنوارُه فوق ربوعها. ودعا **محمد بن عبد اللّه** ﷺ النّاس إلى التوحيد ونَبْذِ عبادة الأَصْنام،

والإقلاع عن المفاسد والعيوب الاجتماعية، وإزالة الفوارق بين الناس، فالكُلّ في الإِنسانية سواء، وأَكْرَمُ الخلْق أتقاهم، لا أغناهم ولا أقواهم. . .

عندئذ تعلّق قَلْبُ **زينب** بالدّعْوةِ الجديدة، بعد أن كان إعجابها في السابق ينحصر ضمن شخصية المصطفى ﷺ.

كانَتْ **زينب** تميلُ إلى حُبّ المساكين والعطف عليهم، وما من شَكٍّ في أَنّ رؤيتها ـ رضي اللّه عنها ـ للمسكين الذي عُذِّبَ بسبَب عدم استئذان سيده في تناول الطعام، وقد أمضّه الجوع وأضنَاه، كان لها أَثَرٌ عميق في قلبها الطيب، وفؤادها الرحيم، ونزعتها الإنسانيّة.

فكانَتْ ـ رضيَ اللّه عنها ـ تَدَّخِرُ قُوتَها، وما تحصل عليه من مالٍ أو مَصْروفٍ، ثُمّ تنفقُهُ على المساكين والمحتاجين، حتى عرف بذلك القاصي والدّاني من النّاس، وشاع خبرها لدى أَهْل مكة جميعاً.

تُرى كم كان سنّ **زينب** في ذلك الحين؟

إن العُرْف المشهور بين الناس أن هذه الفعال أو تلك الخصال إنَّما هي لذوي الأعمار الكبيرة، ممن تجاوزوا سنّ النضوج، عند الرجال أ و عند النساء على حدٍّ سواء. . .

غير أن **زينب** ـ رضي اللّه عنها ـ مزَّقَتْ هذه العادة، وحطّمَتْ هذه القاعدة، وغيّرت هذا المفهوم؛ لأن عمل الخير لا يعرِفُ سِنّاً معيّنَةَ أو عُمْراً بذاته.

لقد كانت ـ رضي اللّه عنها ـ في سن السادسة عشرة تقريباً، ولم تكن بَعْدُ قد دَخَلَتْ في حِمى الإِسلام، وحَوْزةِ الإِيمان.

وإذا ما ذُكِرَ لقبُ **أم المساكين** لدى المكيين عرفوا جميعاً صاحبته، **زينب بنت خزيمة**[(1)].

---

(1) ذكره بنحوه ابن حجر في «الإصابة» (8/ 94) ترجمة (477) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (3393).

زواجُـهـا

وفي سِنّ السادسة عشرة اكتملت **زينب** أنوثَةً، واستدارتْ وأَصْبَحَتْ على أبواب الزواج.

وهُنا يختلف المؤرخون، وتتباين روايات التاريخ حَوْل زواجها الأول، فمنهم مَنْ يقول بأَنّها كانت متزوّجة من **عبد اللَّه بن جحش** ابن عمّة النبيّ ﷺ؛ وقد مات شهيداً يَوْم **أُحُد**، ومنهم من يقول بأنها كانت متزوّجةً من **الطُّفَيْل بن عبد المطلب** فهلك عنها فتزوّجها أخوه **عُبَيْدة بن الحرث** الذي مات شهيداً إثر غزوة بَدْر؛ وهو ابن عم النبيّ ﷺ.

وعلى كُلّ حال فإِن الروايتين تتفقان على أن زواج النبي ﷺ من **زينب** كان بعد زواجه من **حفصة** ـ رضي اللَّه عنهما ـ.

ومن هنا نَسْتَدِلُّ على أن الرواية الثانية هي الأرجح، لأن زواجه ﷺ من **حَفْصة** كان بَعْدَ غَزْوَة **بَدْرٍ**، واستشهاد **عُبَيْدة بن الحارث**(1).

عـذابـهـا

مَضَتْ أيام الحياة بـ **زينب** في مكة بعد زواجها وإسلامها قاسية شديدة، مثلها مِثْل المسلمين الأوائل الذين تحملوا عبء الصمود في وجْهِ طغيان قريش واستبدادها وظلمها.

عاشَتْ أيّام الحرمانِ والعذاب والاضْطهاد، وتحمّلتْ بجَلَد قوة القطيعة الاقتصادية والاجتماعية التي فرضتْها طُغْمَةُ الجاهليين على النبيّ ﷺ وجماعة المسلمين.

وقَضَتْ ـ رضي اللَّه عنها ـ سنوات الشِّعْب الثّلاث في ضَنْكٍ وجوع. وأَلَم، ولكنها كانت تتزوّد من إيمانها العظيم لآمالها في المستقبل، وثقتها العظمى التي لا حدّ لها باللَّه سبحانه وتعالى، وأن ما تَمُرّ به مع إخوانها وأخواتها إما هو ابتلاء وامتحان، لا يضاهيه لا الصّبْر عليه.

---

(1) قصة زواج السيدة زينب بنت خزيمة أوردها: ابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 466) وابن حجر في «الإصابة» (4/ 46) ترجمة (4574).

ثُمّ كانت الهجرة. . .

الـهـجـرة

فمرَّتْ ـ رضي اللَّه عنها ـ في تجربةٍ جديدة، قاسية ومريرة، من نتائجها البعْد عن الأهل والوطن، واتساع الشقّة بين الفَرْدِ ومرْتع صباه وملعب شبابه، وانقطاعه عن الأماكن التي شهدَت طفولته وشبابه؛

وهي ولا شك جزءٌ من حياته؛ وعلى الأصح جزءٌ من حياةِ **زينب** ـ رضي اللَّه عنها ـ؛

لكنها ـ رضي اللَّه عنها ـ كغيرها من المسلمات والمسلمين تأقْلَمَتْ في الجو الجديد وانتظمت في سلك المجتمع الإِسلامي الجديد، الذي بنى أول ما بني على الأخوّة في اللَّه. . .

فأنساها ذلك بعض همُومها من البُعْد عن الأهْلِ والوطنِ، وكانت مع زوجها **عُبَيْدَة بن الحارث بن عبد المطلب** مثلاً طيباً وكريماً في أصول وقواعد البيْت الإِسلامي المنشود، تعاوناً ومحبة واحتراماً. وليس من شكٍّ في أن شخصيّة **زينب** ـ رضي اللَّه عنها ـ كانَتْ محور ذلك البيْتِ الكريم، بما حباها اللَّه من نضوجِ عقلي وسماحةِ نفسيّة، وبساطةٍ في الحياة، ورضًى وقناعة.

حتّى كان اليوْم العظيم، يوْم الفرقان، يَوْم بَدْر. . . ولاحاجة بنا إلى إعادة تفاصيل المقدّمات والظروف التي سَبَقَتْ ورافَقَتْ غزوة بَدْرٍ. . .

فالذي يهمّنا ـ بالنسبة إلى الحديث عن **زينب** ـ رضي اللَّه عنها ـ هو استشهادُ زوجها **عبيدة** في ذلك اليوْم، لأنه كان نقطة تحوُّلٍ كُبْرى من حياتها، ودخولها إطار **أمهات المؤمنين**.

فلقد كانت العادة في حروب تلك الأيّام أن تبتدئ بالمبارزة، وكانت قريش في ذلك اليوْم هي المصرّة على القتال، فبعد أن حجز المسلمون الماءَ عن قريْش، وتصدّوا لها؛ برز من صفوف قريش ثلاثة فرسانٍ يطلبونَ إلى رسُول اللَّه ﷺ أن يبرُز لهم أندادهم من المسلمين.

فنزل بعض الأنصار، حُبّاً في الجهاد، وإثباتاً للعهود والوعود التي قطعوها على أنفسهم، وتأكيداً للبيعة؛ فرَدّهم فرسانُ قريشٍ وقالوا إنما نريد

أكفاءنا من أقربائنا الذين فارقوا ديننا وأثاروا العداوة والبغضاء بيننا وبينهم.

فنزل بناءً على أمر النبي ﷺ ثلاثةٌ من أهل بَيْتِهِ وخاصّتِهِ هم: **عمّه حمزة بن عبد المطلب** وابن عمّه **علي بن أبي طالب** وأيضاً ابن عمه **عُبَيْدة بن الحرث بن عبد المطلب** زوج **زينب** ـ رضي اللَّه عنهم. فتصاولوا وتجاولوا، وأثاروا تُرابَ الأرض بحوافر خيولهم حتى غَطّى النَقْع أشخاصهم...

ثُمّ ما لبث **حمزة** أن قضى على خصمه، وكذلك **عليّ** رضي اللَّه عنهما، أمّا **عبَيْدة** فقد تعرّض لضربةٍ من الخصم أصابته في ساقِهِ، وأدّت إلى جرْحٍ بالغ...

لكن **حمزة** و**عليًا** أعاناهُ على الخصم واستنقذاه، وقتلا عدوّه، ثم عادا بـ **عبيدة** إلى مُعَسْكرِ المسلمين يئن من شدَّة الجرْح، ونَزْفِ الدماء.

وانتهت معركة **بَدْرٍ** بانتصارٍ ظافرٍ مؤزّر للمسلمين، وهزيمة ساحقة لحقت بالمشركين...

وعاد موكب رسُول اللَّه ﷺ إلى المدينة بَينَ تهليلٍ وتكبير، وفرحةٍ غامرة، وعاشت المدينة أيّاماً جميلة وكأنها في عُرْسٍ وبهاء.

إلاّ بيتاً واحداً...

هو بَيْتُ **زينب** ـ رضي اللَّه عنها ـ فقد كانَتْ في حُزْنٍ شديدٍ على زَوْجها وحبيبها الجريح المسجّى على الفراش.

الحبيب الذي قَضَتْ معه أجمْل أيّام حياتها، وأهنأ فترات عمرها، وأطيب أزمانِ المشاركة.

كانَتْ ترعاهُ وتعتني به، وتقدّم له كل ما يمكنها من إسعافٍ رجاء أن يشفى وتعود إليْه عافيته.

وكان رسُول اللَّه ﷺ وبعض الصحابة يزورونه في البيْت ليطمئنوا عليْه، ويواسونَهُ في مَرَضِهِ، ويشجعونَهُ، ويبعثون في نفسه وفي قلبِهِ الأمَلَ...

لكن القدر اصطفى **عُبَيْدة** شهيداً...

واختارَهُ اللَّه تعالى إلى جواره، فبكته **زينب** بدمْعٍ هتون، متذكّرة أيام هنائها مَعَهُ، ومُتْعتها إلى جواره.

لكن.. بكاء الصابرة المؤمنة، ثم احتسبته عند اللَّه تعالى داعيةً له بِحُسْنِ الثواب.

وكان من عادة العرب أن يكرّموا أَحِبّاءَهم وأقرباءهم وعظماءَهم بالزواج من نسائهم بعد موتهم.

الـــزواج

ومن أوْلى من رسول اللَّه ﷺ بمواساة **زينب**؟

ومن أوْلى من **محمد بن عبد اللَّه** أن يكون السبّاق إلى كل مكرمة؟

وهُوَ قدوة المتقين وإمام المؤمنين وسيد الخلق أجمعين، وأسوَةُ المسلمين في كل حين...

فَسعى إلى **زينب** وقد انقضَتْ عِدّتها، فخطبها لِنَفْسِهِ، فأجابَتْ على استحياء، وقد حالت الدموع في عينيها، لأن ذكرى **عُبَيْدة** ما تزال قريبة العهد...

أجابت بأن جعلت أَمْرها إلى رسول اللَّه ﷺ...، فبنى بها وأَدْخَلها بيوت أَزواجه، واتخذ لها حُجْرةً خاصة بها[1].

أم الـمـسـاكـيـن

وظلَّت **زينب** ـ رضي اللَّه عنها ـ تحتفظ بلقب **أم المساكين**، منذ أن كانت فتاةً صغيرة، لم تسلِمْ بعد، إلى أن لحقت بالرفيق الأعلى...

ولقد كانَتْ مُدّةُ إقامتها في بَيْتِ النُبوَّةِ قصيرة جدّاً لم تتجاوز بضعة أَشْهُر...

إلا أن حُجْرتها كانَتْ مقصد المساكين والفقراء والمحتاجين، والجائعين المحرومين، تقتصد من مالها وطعامها ونصيبها ثم تمنحه لهذه الطائفة من الناس، حُبّاً وتقرّباً إليه، وسعْياً إلى رضاه.

---

(1) ذكره بمعناه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 409) ترجمة (3393).

الـوفـاة

كانت ـ رضي اللَّه عنها ـ قد أتمّت الثلاثين من عمرها، حين داهمها الموْت، في عِزّ الشباب، وميْعَةِ الصّبا، وعنوانِ الفتوّة.

ولقد كان يوم وفاتها يَوْماً حزيناً، إذ تركت على رغم قصرَ مُدَّة العشرة مع رسول اللَّه ﷺ أطيب الأثر وأعمقه في قلْب المصطفى.

فقد مَرّت أيام العشرة هينة لينة طيبة، لا صَخَبَ فيها ولا نَصَبَ ولا وَصَبَ، ولا مشقّة ولا عُسْر...

حُلمٌ جميل، ونُزْهة ممتعة في ظل دَوْحةٍ كثيرة الأفياء والظلال؛ وشربة من ماءٍ قراح سلسبيل، غُسّلت، وطُيّبَتْ، وكُفّنَتْ، وصلّى عليها رسُول اللَّه ﷺ، ثُم دُفِنَتْ في **البقيع**، ولقد نزل إلى حفْرتها إثنان من أقربائها.

وبعد أن وورِيَتْ الثرى، عاد الجميع وفي مقدمتهم رسول اللَّه ﷺ يسترجعون، ويدعون لِـ **أم المساكين** بِحسْنِ المآب وعظيم الثواب[1].

رضي اللَّه عن **زينب بنت خزيمة** الفتاة المؤمنة، والزوجة الوفية، أم المؤمنين، وأم المساكين، وأنزلها ما تحب من المنازل في جنات النّعيم.

---

(1) أورده الإمام ابن القيم في «زاد المعاد» (1/ 60) بلفظ قريب.

هند بنت أبي أمية
رضي اللّه عنها(1)

قال اللّهُ تعالى:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23].

لقد كانتْ أمُّ سلمة **هندُ بنتُ أبي أميَّة** من الصِّنْفِ الثاني، المنْتَظِرِ قضاءَ اللَّه وقَدَرَه، لأنَّها تحمَّلتْ من صُنُوفِ العذابِ أَقساها؛ ومن الشدائد أَعْنفها. . .، هِجْرةً وتَشَرُّداً وأيضاً قِتالاً!! فما لانَتْ عزيمتُها، وما ضَعُفَتْ أو خارَتْ قُواها، ما اسْتَسْلَمَتْ أبداً لطُغْيانٍ أَوْ ظُلْم.

. . . ولقدْ مَرَّتْ رضيَ اللّهُ عنها بتجربة قاسيةٍ مريرة، لوْ أُنزِلَتْ على شَمِّ الجبال لَهَدَّتْها، أو على الصُّخُورِ الصلْدَةِ لَفَتَّتْها، ولكنّ نَفْسيّتها المؤمنةَ باللّه، المستمسكةَ بحبلِهِ كانت أَصْلَبَ من الفتنة وأقوى من النَّوازل، إذْ كان

---

(1) هي هند بنت أبي أمية، واسمه: سهيل زاد الراكب بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمرو بن مخزوم. وأمّها عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن جذيمة بن علقمة جذل الطعان بن فراس بن غنم بن مالك بن كنانة.

وأما أبوها أبو أمية بن المغيرة واسمه: حذيفة، كان يُعرف؛ بزاد الراكب، وهو أحدُ أجواد قريش المشهورين بالكرم.

قال الإمام الذهبي ـ رحمه اللّه تعالى ـ في ترجمتها: أُمّ سلمة، أم المؤمنين، السيدة المحجَّبة، الطاهرة، هند بنت أبي أُمية بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مُرَّة، المخزومية. بنت عم خالد بن الوليد، سيف اللّه. وبنت عم أبي جهل بن هشام.

من المهاجرات الأول. كانت قبل النبي ﷺ عند أخيه من الرضاعة؛ أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، الرجل الصالح.

دخل بها النبي ﷺ في سنة أربع من الهجرة. وكانت من أجمل النساء وأشرفهنَّ نسباً.

المصادر: «الطبقات» لابن سعد (8/ 86).

«الاستيعاب» (3545/ 4).

«سير أعلام النبلاء» (2/ 201 ـ 202).

حُبُّ اللَّه وحُبُّ رسوله آثَرَ عندها من كُلّ عَرضٍ زائل، أو قيمةٍ دنيويَّةٍ زائفة.
كانتِ العقيدةُ عندَها أغلى وأشْرَفَ من **المال والبنين**.

زادُ الـركْـب

كان والدُها، سُهَيْلُ بنُ المغيرة المخزوميّ سَيِّد قومه **بني مخزوم** بلا منازع، وأغْناهُم بلا منافس، اشتهرَ بالكرم والسَّخاءِ والعطاء، والجرْأةِ والشجاعةِ والفروسيَّة.

ولُقِّب بـ زاد الرّكْب لأنَّه كان إذا سافَرَ في رِحلةٍ لِغَرَضٍ، لم يَحْملْ مَنْ يكون برفْقَتِهِ زاداً، لأنَّه كان يؤمّنُ لجميعِ رفاق السَّفرِ حاجَتهم، ويغضبُ وتأخذُهُ حميّةُ الأشرافِ والنبلاء إن هُمْ حَمَلُوا مَعَهم شيئاً من الطَّعامِ والنفقة.

من صُلْب هذا السخيِّ الكريمِ والسيّد العظيم، وُلِدَتْ **هندٌ بنتُ سهيل** فَسَرى إليها من صفاتِ أبيها ما جعلَها في صِباها وشيخوختِها موضعَ احترامِ النّاسِ وتقديرِهم، من كُلِّ قبائلِ العرب، قريش وغيرها.

زواجُـهـا

رَغِبَها وأَحَبَّها **عبدُ اللَّه بنُ عَبْدِ الأسد** المخزومي، الشابُّ القرشيُّ الشريف، وأراد أن يتّخذَها زوجَةً له، فطلبها من أبيها، وخطبها إلى نفسِه[1].

وكان من أعزِّ فتيان مكّة، فأثنَوْا عليْه، وامتدحوا خُلُقَه وخليقَته، وشهامتَه. . . ورحّبوا بِهِ.

وأقيمت حفلةُ العُرْس، وكانت من ليالي **مكة** المشهودةِ، ثُمّ بَنى بها وتزوّجَها، وهنئَ معها؛

فكانت **هند**، الزوجةَ الصالحة الوفيَّة المطيعة، تقومُ بشؤون زوجها وبيتِها خَيْر قيام، تحترمُهُ وتقدّرُه، وتُوَفّرُ له الجوَّ المنزليَّ الذي يستريحُ إليْه.

وكانت ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ منذُ بداية حياتِها الزوجية وأيامِها الأولى نِعْمَ

(1) ذكره ابن عبد البر في «الاستيعاب» (3/ 1607).

الزوجة، بكل ما في كلمة الزوجيّة من حقيقةٍ ومسؤوليَّة، رغمَ حداثة سِنّها وصِغَر عُمْرِها، لأنَّها كانت تتمتّعُ بنضجٍ عقليٍّ ووجدانيٍّ يحسدُها عليه كبارُ السّن، مِمَّنْ عركتْهُمُ الأيّام، وجَرّبَتْهُم الشهورُ والأعوام، ووقائعُ الزمان.

إسـلامُـهـا

آمن زوجُها **عبد اللَّه** ـ أَبُو سَلَمة ـ برسالَةِ محمد ﷺ وبدعْوَته، بعد أن سَمِعَ عنها، واجتمعَ بصاحبها وأَصْغَى إليه، ثُمّ فَقِهها وأدرك ما انْطَوَتْ عليْه من مُثُلٍ وقِيَمٍ، وتغييرٍ كُليٍّ للمجتمع الجاهليّ في مُعْتَقَدِهِ ونظامه.

وآمَنَتْ معه زوجتُه **هِنْد،** فكانا من الرَّعيل الأوّل، والطليعة الأولى، الذين قامَتْ على أكتافِهم وجهادهم وتضحياتِهم دعوةُ الإِسلام، وأضاءتْ بنورِها العالَمَ قاطبةً.

أبُو سلمة المهاجر

كان **عبد اللَّه** ـ أبو سلمة ـ شابّاً ممتلئاً حيويَّةً وأَنَفَةً، ولم يكنْ من النَّوْعِ الذي يُخْفي دينَهُ تقيَّةً أو يخشى في اللَّه لوْمَةَ لائم.

فكان يُجاهر بدينه الجديد وعقيدته متحدِّياً أساطينَ الكُفْرِ وأعلامَ الشِّرك وأربابَ الوثنيّة والظلم؛ فلقي من جرّاء ذلك وبسببه نَصَباً وعذاباً وحِرْماناً.

وحينَ أَذِنَ رسُولُ اللَّه ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم، وحِرْصاً على عقيدتهم، شَدَّ الزّوجانِ المؤمنان **عَبْدُ اللَّه** و**هِنْد** الرِّحال؛ لا خَوْفاً ولا رَهباً ولكنْ حِرْصاً على النفس من أن تُفْتن، وعلى الرُّوحِ من أن تُزْهَقَ، والدعوةُ لا تزالُ بِكْراً في أيّامها الأولى.

وهناك. . . أقاما في جوار النجاشيِّ ما شاء لهُما اللَّهُ تعالى أن يُقيما، حتى كان إسلامُ **حمزةَ بنِ عبدِ المطلب** ـ عم النبيّ ﷺ، و**عمرَ بنِ الخطاب** ـ رضيَ اللَّه عنهما؛ فَتَشَجَّع البعضُ من المهاجرين على العَودَةِ إلى **مكة،** وآثر الآخرون البقاءَ في أرض الحبشة، وكان **عبدُ اللَّه** و**هندٌ** مِمَّن عادوا.

عادا وقد اسْتَبَدَّ بِهِما الشوقُ إلى الوطَن، وأرقّهما طولُ البعاد عن الأهلِ والأحباب والأصحاب، وأكثرُ من ذلك. . . . بَرَّح بهِما الحنينُ إلى طلعةِ النبيِّ

ﷺ، وعذوبةِ حديثِهِ ورِقَّةِ كلامه، وحَدَ بِهِ الشديد وعطفِه الكريم السابغ.

الحماية

كان من المألوف عُرفاً وعادةً عندَ العرب في جاهليَّتهم أن يَدْخُلَ الضعيفُ مِنْهُم في حِلْف القويّ، فيطلبَ حمايته ممَّن هُم أعداؤه الذين يريدون القضاء عليه أو التخلّص مِنْه.

والضَّعفُ لا يعني هنا ضَعفُ الشخصيَّة، ولكنْ قِلَّةَ النصير من الأَهْلِ والعشير.

فعندما رَجَعَ بعضُ المهاجرين من الحبشة إلى مكة، ورجَعَ معهم **عبد اللَّه** وزوجته، أراد أن يأْمَنَ على نَفْسه وأهلِهِ من بَطْشِ قريش وانتقامِها، عندئذ لجأ إلى **أبي طالبِ** عم النبي ﷺ، ودَخَلَ في حِماهُ واسْتجارَ بِهِ، فأجارَهُ **أبو طالبٍ**، فامتنعت قريشٌ عن إيذائِه والتنكيل بِهِ، وخاصةً عشيرته **بنو مخزوم**؛ لأن **أبا طالب** كان شيخَ قريْش يحترمُهُ الكُلُّ ويقدّرون منزلتَهُ.

بين أبي طالبٍ وبين مخزوم

مشى رجالٌ من **بني مخزوم** ـ قوم **أبي سلمة** ـ إلى دار **أبي طالبٍ** وقالوا له:

ـ يا أبا طالب لقد مَنَعْتَ مِنّا ابنَ أخيك **محمداً** ﷺ، فما لَكَ ولصاحِبِنا تَمْنَعُه مِنّا؟ **ويعنون أبا سلمة**.

فَرَد عليهم هادئاً مطمئناً واثقاً:

ـ إنه اسْتَجارَ بي، وهُوَ ابنُ أُختي، وأنا إنْ لم أَمْنع ابن أُختي لم أَمْنَعِ ابنَ أخي!!!

عندئذٍ قام **أبو لهب** ـ **عبد العُزّى بن عبد المطلب** وقال:

ـ يا مَعْشَرَ قُرَيْش، واللَّهِ لقد أكْثَرْتُمْ على هذا الشَّيْخ، ما تزالون تَوَثّبُونَ عليْه في جواره من بَيْن قوْمه. . . ، واللَّهِ لَتَنتهُنّ أو لتقُومُنّ معه في كُلّ ما قام فيه حتى يَبْلُغَ ما أراد.

ولم يكنْ دافعُ هذه القَضيّة من **أبي لَهَبٍ** غيرَ عصبيَّته الجاهليَّة، وحميّتِهِ القبليّة، ولا تمتُّ إلى المروءةِ والإِنسانية بأدْنى صِلَة.

حينئذٍ أدْرَكَ الحاضرون أن مَوْقفهم من التصدّي لأبي طالب أَصْبَحَ ضعيفاً، لتخاذُلِ **أبي لهب** عن نُصْرتهم، وصُمود **أبي طالبٍ** في وَجْهِهِم، فارتدوا على أعقابهم خاسرين مدْحُورين، لم يحقِّقوا غرضاً ولم يبلُغُوا هَدَفاً.

وأيضاً. . .

لم يكن موقفُ **أبي لهبٍ** هذا تكْرُمةً تُسَجَّلُ له، لأنَّه لم يُتْبعْهُ بأيّ عَمَلٍ أو فِعْلٍ يُصَدِّقُه، بل كان تصرُّفاً سياسيّاً مَحْضاً، يريدُ من ورائه الإِبقاءَ على زعامتِهِ وسطوتِهِ وسُلْطانِهِ.

طليعة المهاجرين إلى المدينة

أقامَ المسلمون بمكةَ مستضعَفين، يتعرَّضون للأذى والإِكراه، والبطشِ والإِذلال، حتى أَذِنَ اللَّه تعالى لدينِهِ أن يُؤْمِنَ به نَفَرٌ من أهل المدينة **يثرب**، من الأوْسِ والخزرج.

المدينة التي أصبحتْ بعدِ مرور زمنٍ يسير لا يزيدُ عن السنةِ إلاّ قليلاً موْئلاً لدعْوَةِ اللَّهِ، ومنطلَقاً للتبشيرِ بكلمتِه.

فما أن آمن أولئك النّفرُ القلائلُ حتى تكاثروا وتضاعفوا خِلالَ عامٍ واحد.

وابتعث النبيُّ ﷺ مَعَهم الداعيةَ الأوّل، فتى الإِسلام والإِيمان **مُصْعَب بن عُمَيْر** ـ رضيَ اللَّهُ عنه ـ يُعَلّمهم أمورَ دينهم، ويبشِّرُ بالدين الجديدِ في بيوت **يثرب** ودورِها وأنديتِها.

ثم أَذِنَ رسُول اللَّه ﷺ لأصحابِهِ بالهجرةِ إلى المدينة بعد أن بايعه زعماؤُها وسادتُها على نُصْرَةِ دينِ اللَّه.

وهنا نتركُ الحديثَ لـ **هِنْد** ـ أم سلمة ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ تُحَدِّثُنا بلسانها وكلماتِها عن مراحل ذلك اليوم العظيم في حياتها، عن هجرتها مع زوجها **عبد اللَّه** إلى المدينة، فحديثُها أَصْدَقُ وأَوْقَع.

قالت **هند** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ:

لَما أَجْمَعَ **أبو سلمة** الخروجَ إلى المدينة رحَّل لي بعيرَه، ثُمّ حملني عليه، وحملَ معي ابني **سَلَمة** في حِجْري، ثُمّ خَرَجَ بي يقودُ بعيره، فلما

رأتهُ رجال بني **المغيرة بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم** قاموا إليْه فقالوا:

ـ هذه نفسُك غَلَبَتْنا عليها. . .، أرأيْتَ صاحبَتَك هذه؟ عَلامَ نَتْرُكُكَ تسيرُ بها في البلاد؟

وأضافَتْ **أم سلمة**:

فنزعوا خِطامَ البعير من يَدِه، فأخذوني مِنْهُ، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد **قومُ أبي سلمة وأهلُه**، فقالوا:

ـ لا، واللّه، لا نَتْرُكُ إبننا عِنْدها، إذ نَزَعْتُموها من صاحبنا.

فتجاذبوا بُنَيَّ **سَلَمة** بينَهم حَتّى خلعوا يَدَهُ، وانطلق بنو **عبد الأسد**، وحبسني **بنو المغيرة** عندهم، وانطلق زوجي عبدُ اللّه **أبو سلمة** إلى المدينة، فَفُرِّقَ بيني وبَيْنَ زوجي وابني.

وتتابع أمُّ سَلَمَة حكايَتها فتقول:

فكنتُ أَخْرُج كُلّ غداةٍ فأجْلس بالأبْطَح مكان في ضاحية مكة فما أزال أبكي حتى أُمسي، سنةً أو قريباً منها.

حتّى مَرّ بي رجُلٌ من بني عمي، أَحَدُ بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة:

ـ ألا تُخْرِجون هذه المسكينة، فَرَّقتُم بينها وبين زوجِها وبَيْنَ ولدِها.

فقالوا لي:

ـ إلحقي بزَوْجِكِ إن شئتِ، ورَدّ بنو عبد الأَسَد إليّ عند ذلك ابني.

فارْتَحَلْتُ ببعيري، ثم أخذتُ ابني فوضعتُهُ في حِجْري، ثم خرجْتُ أريدُ زوجي بالمدينة. . .، وما معي أحدٌ من خَلْقِ اللّه.

فقُلْتُ: أَتبَلَّغُ بِمَنْ لقيتُ حتى أَقْدِم على زوْجي؛ حتى إذا كُنْتُ بالتّنْعيم[1]، موضع بين مَكّة وسَرَف، لقيتُ **عُثمان بن أبي طلحة أخا بني عَبْد الدار**[2] فقال لي:

---

(1) التنعيم: موضع قرب مكة في الحل. على فرسخين من مكة. منه يحرم المكيون بالعمرة.

(2) ركان يومئذٍ على الشرك.

ـ إلى أين يا بِنْتَ أبي أُميّة؟؟

فقُلْتُ:

ـ أريد زوجي بالمدينة.

قال:

ـ أَوَ ما معك أَحَد؟

فقُلْتُ:

ـ لا واللّه، إلا اللّه ـ تعالى ـ وابْني هذا.

قال:

ـ واللّه ما لَكِ من مَتْركٍ.

فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي، فواللّه ما صحبْتُ رجُلاً من العرب قطُّ أرى أنَّه كان أكْرَمَ مِنْهُ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم اسْتأْخَرَ عني حتى إذا نزلتُ اسْتأْخَرَ ببعيري فَحَطّ عَنْهُ، ثُمّ قَيَّدَهُ في الشجرة، ثم تَنحّى عني إلى شجرةٍ فاضْطَجَعَ تحتها.

فإذا دنا الرَّواحُ، قام إلى بعيري فَقَدَّمَهُ فَرَحَّلَهُ ثم اسْتأْخر عَنّي وقال: اركبي، فإذا ركبْتُ واسْتَوَيْتُ على بعيري أتى فَأَخَذَ بخطامِهِ فقادَهُ حتّى ينزلَ بي.

فلم يزل يَصْنَع ذلك بي حتى أقدمني المدينة؛ فلما نَظَر إلى قرية **عمرو بن عَوْفٍ** بـ **قُباء**[1] قال:

ـ زوجُكِ في هذه القرية، وكان أبو سلمة بها نازلاً، فأدخليها على بركةِ اللّه، ثم انصرف راجعاً إلى مكة.

وإلى هنا تنتهي رواية **أم سلمة** ـ رضيَ اللّهُ عنها ـ.

وما من شك في أنها لَقِيَتْ من الأهْوالِ والشدائدِ والمتاعبِ الشيءَ الذي لا يُقدّر ولا يُوصف، احتملته بعزيمة المؤمنةِ الصابرة، الواثقةِ بقضاء اللّه وقدَره.

---

(1) قباء: قرية معروفة على ميلين من المدينة المنورة على يسار القاصد إلى مكة.

ولو تصوّر أحَدُنا بُعد الشُّقّةِ، وطولَ المسافة، ووحْشَةَ الطريق، وحَرَّ النهار، وبَرْدَ اللَّيْل، ومشقّة السّفر، لأدْرك ما لقيَتْهُ **أُمُّ سلمة** ـ رضيَ اللَّهُ عنها في سبيل محافظتها على عقيدتها ودينها، وحِرْصها على اللحاق برسُولِ اللَّه ﷺ قائدِ الدعوةِ، ورائدِ الجماعة، والتواجد مع زوجها الحبيب، ووالدِ طفلها، الذي أُكْرِه على فراقها الابتعادِ عنها مُدَّةً تزيدُ على السّنة[1].

اللـقـاء

اجتمع شملُ الأسرْة المجاهدة من جديد، إذا استقبَلَ **أبو سلمة** زوجتَهُ وابنَه بلهفةٍ وشوق، وانزاحَتْ عن جَوّ العائلة الصغيرةِ المؤمنة سُحُبٌ سوداء أقامت زمناً، ثم ظَلَّلَتْهُ غمائمُ بيضاء، ورفرف الهناءُ بجناحيه في الآفاق.

أبو سلمة المجاهد

انخرط **أبو سلمة** ـ رضيَ اللَّهُ عنه ـ في صفوف المجاهدين في سبيل اللَّه، يخوضُ غِمارَ المعارك، ويُبلِي فيها أَحْسَن البلاء.

فكان له في **بَدْر** صَوْلاتٌ وجَوْلات، وعَرَفَتْهُ أرضُ **أُحُدٍ** لأنّه بلَّل ثراها دمه الطاهر، فقد جُرح يومها جُرْحاً بليغاً كاد يودي بحياتِهِ، إلا أنَّ اللَّهَ تعالى ادَّخَرَهُ بعد أن شفاهُ من ذلك ليومٍ آخر.

الـقـائـد

لقد أرسله رسُولُ اللَّه ﷺ أميراً على سَرِيَّةٍ للقضاء على **بني أَسَدٍ** الذي تجرّؤا وأغاروا على أرضٍ في خراج المدينة.

فعاد من حملتِهِ موفّقاً ظافراً منتصِراً، معه كثيرٌ من الغنائِم والأسلاب، فَضْلاً عن أنَّه أعادَ للمسلمين هيبتَهُم التي افتقدوها يَوْمَ **أُحُدٍ**.

لقد أَجْهَدَ **أبو سلمة** نَفْسَهُ يوْمَ قاد هذه الغزوةَ المظفّرة وناله من جرّائها التعب والإرهاق، وكان من أَثَرِ ذلك أن تجدّد الجرْحُ القديم، ونزفتْ منه الدماءُ، ثُمّ تَقَيّحَ واسْتَفْحَلَ شَرُّه حتى قضى في النهاية على المجاهدِ العظيم.

---

(1) رواه ابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 885 ـ 589).

وكانت **أم سلمة** بجواره تقومُ على خدمتِه وتطبيبه ورعايته، بعينٍ دامعةٍ وقلبٍ واله.

وكذلك كان النبيُّ ﷺ إلى جانب فراشه ساعة مَوْته، يواسيه ويخفّف عنه حتى أسْلَمَ الرُّوح[1].

تَلَقَّت **أم سلمة** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ تلك الفاجعةَ المصيبة بِقَلْبٍ مملوءٍ إيماناً، ونَفْسٍ مشحونةٍ صَبْراً، مستسلِمَةً لأمْرِ اللَّه تعالى شاكرةٍ فَضْله على مَنْحِهِ الشهادةَ لزوجها البطل، المؤمنِ المهاجرِ المجاهد.

وكانت ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ بِحَقٍّ الزوجةَ المؤمنةَ الصابرة، التي أَعْطَتْ أعظَمَ المثل في تحمُّلِ الشدائد، والأَخْذِ بيد الزوج إلى أقصى وأسمى ما يريدُه ويبتغيه من الأهداف.

مـثـال الـوفـاء

بعد أن مرَّتْ أربعةُ شهورٍ على وفاة **أبي سلمة** ـ رضيَ عنه ـ جاءها **أبو بكْر الصديق** يطلب يَدَها، إذ كانت عادةُ العربِ في إكرام رجالهم العظام وأحبائهم أن يحفظوهم في زوجاتهم بعد مماتهم، إن هُمْ قَضَوْا في ساحةِ الشرف، أو في ميدان الجهاد، بالزَّواج مِنْهُنّ.

لكن **أمّ سلمة** ردَّتْ **الصدّيق** بأَدَب وكبرياء. ثم جاءها الفاروق **عمرُ بنُ الخطاب** ـ رضيَ اللَّهُ عنه، فردّتْهُ أيضاً[2].

وتذكّرتْ في خلوتها بنفسها ذاتَ يوْم حديثاً جرى بَيْنها وبين **أبي سلمة**، إذ قالت له في أَحَدِ الأيّام:

ـ يا أبا سلمة: بلغني أَنَّه ليس من امرأة يمُوتُ عنها زوجُها، وهو من أَهل الجنّةِ، ثم لم تَتَزَوّجْ بَعْدَهُ، إلاّ جَمَعَ اللَّه بينهما في الجنّة، وكذلك إذا ماتت المرأةُ وبقيَ الرجُل بعدها، فتعالَ أعاهِدْكَ ألاّ تتزوَّجَ بعدي ولا أتزوّجَ بعدك...

فقال **أبو سلمة**:

ـ فإذا متُّ فتزوّجي...

---

(1) ذكره ابن سعد في «طبقاته» (3/ 241) بلفظ قريب.

(2) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (8/ 89 ـ 90).

ثم قال:

ـ اللهُمّ أرْزقْ، **أمَّ سلمة** رجُلاً خَيْراً مِنّي، لا يُحزِنُها ولا يُؤَذيها.

الذي هُـو خَـيْـر

وبينما هي في سَبْحَةِ فكرها هذه؛ اسْتَأْذَنَ عليها رسُول اللَّه ﷺ فأخذ يواسيها، ويخففُ عنها مُصابَها وقال لها:

ـ سَلي اللَّه أن يُؤْجرَكِ في مُصيبَتِكِ ويخلفكِ خَيْراً...

فَبَكتِ الأرملةُ الحزينة التي قاسمت زوجَها السراء والضرّاء، التي هاجرت معه إلى الحبشة هَرَباً من إيذاء قريش واستمساكاً بدين اللَّه الذي أحبَّتهُ وأحبَّها، ووفتْ بعهْدِهِ بعدَ موته ولم تجدْ في الرجال جميعاً من يَعْدِلُه، ورفضت الأيدي التي تقدَّمتْ لخطبتِها، ومن بينها يدا صاحبيْ رسُول اللَّه ﷺ: **الصديق** و**ابن الخطاب**...

فقالت لرسول اللَّه ﷺ:

ـ ومن يكونُ خَيْراً من أبي سلمة يا رسولَ اللَّه؟

وفكّر النبيُّ في أَمْرِ **أمِّ سلمة** كثيراً، وتضاعف تفكيرُهُ في أثرها عندما ردّت الصاحبيْن، فأَكْبَرَ في نفْسِهِ تلك السيدة[(1)].

لقد أكبر المسلمة الكريمة، والمؤمنة الصادقة.

لقد فكّر في أَمْرِ هذه السيدة الهالعة، فرأى أنه ليس من الحكمة أن تُتْركَ وحيدةً هكذا.

ثُمّ جاء أمر اللَّه تعالى لنبيِّه أن يضُمّ **أم سلمة** إلى أزواجه أمهات المؤمنين تكريماً لها، ورَفْعاً لمكانتها، وتعظيماً لشأنها ومواساةً لها.

الخـاطـب

عندئذ أرسل ﷺ أحدَ أصحابه **حاطب بن أبي بَلْتَعَة** خاطباً له؛ فقالت **أمُّ سلمة**:

---

(1) رواه الإمام مسلم في «صحيحه» (918/ 3).

ـ مَرحباً برسُول اللَّه ﷺ. . . ولكن. . .؟ أَبْلِغْهُ عَنّي أَنّي امرأةٌ مُسِنَّة، وأمّ أيتام، وأني فوق ذلك شديدةُ الْغَيْرَةَ.

فأرْسَلَ إليها رسُول اللَّه ﷺ يقول:

ـ أمّا قولك أنك امرأة مُسِنّة فأنا أسنُّ منك، ولا يُعابُ على المرء أن يقال: تَزَوَّج أَسَنَّ مِنْهُ.

ـ وأما قولك: أني أُمُّ أَيْتام فإن كَلَّهم **أي مؤونتهم** على اللَّه ورسوله.

وأما قولُكِ: أنني شديدةُ الغَيْرة، فإني أدعو اللَّه أن يُذهبَ عنكِ ذلك[1].

الـزواج

وتم الزَّواج. . . الميمون.

وكان وليَّها في ذلك اليومِ ولدُها **عمرُ بنُ أبي سلمة**، وأصْدقَها رسول اللَّه ﷺ متاعاً قيمتُهُ عَشْرة دراهمَ، وهو فراشٌ حَشْوةُ ليفٌ، وقِدْر، وصَحْفَةَ، ومَجِشَّة.

كَانَتْ **أُمُّ سَلمة** ـ رضيَ اللَّه عنها ـ على جانب من الجمال، رغم تقدمها في السّن، فدبّت الغيْرةُ إلى نَفْسِ **عائشة** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ عندما علمت بالزّواج. . .

وهكذا شأْنُ النساء.

وكان من إكرام النبي ﷺ لِـ **أُمّ سلمة أَنّه** كان إذا صلَّى العصر دَخَلَ على أزواجه واحدةً واحدة، مبتدئاً بـ **أم سلمة**، لأنَّها أكبرهُنّ، ثم يَخْتِم بـ **عائشة**.

زوجـة مـثـالـيّـة

كانت ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ من النساء العاقلات الناضجات اللواتي يُدْرِكْنَ الأمورَ إدراكاً صحيحاً، ويُقَيِّمْنَ الأحداثَ والوقائع تَقْييماً سليماً، ويُعطينَ فيها حُكْماً صائباً.

فعاشت في **بَيْت النبُوّة** مقدّرةً وجودها، حريصةً على مكانتها، مراعيةً لجانب المودّة والأُلْفَة مع أمّهات المؤمنين.

---

(1) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (8/ 90) وابن كثير في «البداية والنهاية» (4/ 92).

ولهذا كُلِّه كانت منزلتُها عند رسُولِ اللَّه ﷺ عظيمةٌ رفيعة.

وحَدَث في يَوْم **الحُدَيْبِيَّة** أنْ أَمَرَ النبي ﷺ أصحابَهُ، بعد أن فَرَغَ توقيعِ عقد الصُّلْحِ مَعَ وفْدِ قُرَيْش، أن ينحروا ثم يحلقوا، فلم يقُم منهم أَحَدٌ. . .

وردَّدَ ذلك ثلاثَ مراتٍ دون أن يجيبه أحدٌ إلى طلبه، فَدَخَلَ على **أمّ سلمة** فذكر لها ما لقيَ من صُدودِ الناسِ وإعْراضِهم، وهُوَ حزينٌ مُتَألِّم.

فقالت:

ـ يا رسُولَ اللَّه، أَتُحِبُّ ذلك!!!؟ أُخْرُج فلا تُكَلِّم أَحَداً منهم كلمةً حتّى تَنْحَر بُدْنَتَك، وتَدْعو حالِقَك فَيَحلِقَك.

فاستصوْبَ النبيُّ ﷺ رأْيها ومشورتَها، والذي سيكون ـ ولا ريْب ـ حافِزاً فعْلياً على تحرُّكِ الناس والاقتداءِ برسُول اللَّه.

فقامَ وخَرَج ولم يكلّمْ أحداً من الناس كلمةً، فَنَحَرَ بُدْنَتَهُ، ودعا حالِقَهُ فَحَلَقَه، فلما أرى الناسُ ذلك قاموا فنحروا، وراحَ بعضُهم يحلِقُ للبعض الآخر، وتزاحموا على ذلك حتى كادُوا يتساقطون.

وهكذا كانت ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ في كثيرٍ من المواقف، لا تصدُرُ إلا عن نُضْجٍ وعُمْق تفكير.

ولقد حَفظتْ في ذاكرتها كثيراً مما حَدَّث به رسول اللَّه ﷺ فروتْهُ عنه بأمانَةِ الناقلِ ووعيِ السامع.

بعد وفاة رسُول اللَّه ﷺ

بعد أن لحق رسُولُ اللَّه ﷺ بالرَّفيق الأعلى، أقامت أم المؤمنين **أمُّ سلمة** ترقبُ مُجْريات الأمور وتطوُّرَ الأحداث والوقائع، فتُدْلي برأْيها في كُلِّ شأْنٍ حِفاظاً منها على استقامةِ الناس وعَدَمِ انحرافهم، وخاصةً أصحاب السلطان من الخلفاء والوُلاة، داعيةً إلى الخيْر والوفاق والمحبَّةِ والسلام.

ولقد روى بعض المؤرخين أنَّها دَخَلَتْ على **عثمان بن عفان** ـ رضي اللَّهُ عنه ـ زَمَنَ خلافته، وحدثَتْهُ ناصحةً وقالت:

ـ يا بُنَيّ مالي أرى رعيَّتك عنك نافرين، وعن جناحِكَ ناقرين، لا تَعْفُ

طريقاً كان رسُول اللّه ﷺ يُحِبُّها، ولا تَقْتَدح بزَنْدٍ كان ﷺ أكْباه.

وتَوَخّ حيثُ توخّى صاحباك **أبو بكر وعمر** فإنّهما ثكما[1] الأمر ثكْماً ولم يَظْلما.

هذا حقُّ أمومتي عليك، قضيْتُهُ إليك، وإنَّ عليْكَ حقَّ الطاعة.

فأجابها ـ رضيَ اللَّهُ عنه ـ:

ـ أمّا بَعْدُ فقد قُلْتِ فَوَعَيْتُ، وأَوْصَيْتِ فقبِلْتُ.

وحينَ قُتِل **عثمان** ـ رضيَ اللَّهُ عنه ـ حَزِنَتْ لفقدِهِ واستشهاده على الصورةِ المؤلمة التي حَدَثَتْ، فدَخَلَ عليها رجُلٌ من بني تميم يسألُها عن **عثمان** فقالت:

ـ شكا الناس مِنْهُ ظُلامةً فاستتابوهُ، فَتاب وأناب، حتى إذا صَيّروه كالثَّوْبِ الأبيض من الدّنَس عمدوا إليه فقتلوه.

أم المؤمنين والمؤمنات

وحينَ عَزَمت **عائشة** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ على الخروج إلى **البصرة** يَوم وقعة **الجمل**، كتبتْ إليها **أمُّ سلمة** تقول:

من أمّ سلمة زوج النبي ﷺ إلى عائشة أمِّ المؤمنين، فإني أَحْمَدُ إليكِ زوجِ النبي ﷺ إلى عائشَةَ أمٍّ.

فإني أَحْمَدُ إليكِ اللّه الذي لا إله إلا هو، أما بَعْدُ، فقد هَتكْتِ سدَّة بين رسول اللَّه ﷺ، وأمتِه حجاب مضروب على حُرمته، قد جَمعَ القرآن، ذيْلك فلا تَنْدحيه، وسكن اللّه من عُقَيْراكِ فلا تصحريها، صَرْحُ اللّه من وراء هذه الأُمّة؛ لو علم رسُول اللَّه ﷺ أن النساءَ يحتملْنَ الجهاد عَهِدَ إليْكِ، أما علمْتِ أنه قد نهاك عن الفراطة في الدين، فإن عمودَ الدين لا يثبت بالنساء إن مالَ، ولا يُرأَبُ بهنّ إن انْصَدَع؛ جهادُ النّساء غَضُّ الأطراف، وضمُّ الذيولَ، وقَصْر المودّة.

ما كُنْتِ قائلةً لرسول اللّه ﷺ لو عارضَكَ ببعض هذه الفلوات.

وقالت:

وأقسمُ لو قيل لي: يا أُمَّ سلمة أدخلي الجنّة لاستحيَيْتُ أن ألقى رسُول

---

(1) ثكم بالمكان أقام فيه.

اللَّه ﷺ هاتكةً حجاباً ضَرَبَهُ عليّ. فاجْعليه سِتْرَك، وقاعةُ البيْت حِصنَكِ، فإنك أَنْصَحُ ما تكونين لهذه الأُمَّة ما قَعَدْتِ عن نُصرتْهم، ولوْ أَني حدثتك بحديثٍ سمعتُه من رسولِ اللَّه لنهشتِ نهشَ الرَّقْشاء المطرفة. والسلام.

وحين تَولَّى **معاويةُ بنُ أبي سفيان** الخلافة، أَرْسَلَ **بُسْر بن أبي أرطاة** إلى المدينة ليأخذ لهُ البيْعة من الناس، فقال **بُسْر**:

ـ لا أُبايع رجُلاً من **بني سلمة** حتى يأتي **جابر**.

فأتت **أم سلمة** ـ وكانت قد بلغت من الْكِبَرِ عِتيّا فقالت:

ـ بايعْ، لقد أَمَرْتُ **عبد اللَّه بن زمعة**، ابن أخي، أن يبايع على دمِهِ ومالِهِ، وأنا أعلم أنها لبيْعةُ ضلالة.

كما أرسلتْ إلى **معاوية** حين أَمَرَ بِلَعْنِ الإمام **عليّ** كرَّم اللَّه وجهه على المنابر قائلة:

ـ «إنكم تلعنون اللَّه ورسوله على منابركم!!! ذلكم أنكم تلعنون **علي بن أبي طالب** ومن أَحَبَّه، وأنا أَشْهَدُ أن اللَّه أَحَبَّه ورسُولَهُ».

الـوفـاة

وظلّت ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ أمّاً للمؤمنين، ترفَعُ عنهم بلسانها غائلة الظلم ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وتنافحُ عنهم جَوْرَ السلطان ما أمكنها، وتَصْدَعُ بكلمةِ الحقِّ لا تخشى فيها لوْمَةَ لائم.

ولما كان شهرُ ذي القعدة من العام التاسع والخمسين للهجرة دَبّ الفناءُ إلى أوْصالها، وأسلمتِ الرُّوحَ راضيَةً مَرْضيَّة، فصلّى عليها **أبو هريرة** ـ رَضي اللَّهُ عنه ـ ودُفِنَتْ بالبقيع، وقد تجاوزتِ الرابعةَ والثمانين من عُمرها(1).

رضيَ اللَّهُ عن أمِّ المؤمنين **هند بنت أبي أميّة** ـ أم سَلَمة ـ، الزوجةِ الوفيّة، والمجاهدة المهاجرةِ الصابرة، والعالمةِ الجليلة، والمحدِّثةِ الأمينة، حاملةِ رايةِ الحق والعدل.

---

(1) ذكره ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (8/ 87) والإمام ابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 3545) بنحوه.

زينب بنت جحش (1)

أمّ الـمـؤمـنـيـن

رضي اللَّه عنها

تـوطـئـة

إنَّ الذي يحقّقُ بصدق نيّة وصِحّة طويّةٍ، ودونَ أدنى شُبْهة في موضوعِ زيجاتِ النبي ﷺ ـ على تعدّدِها وكثرتِها ـ يرى أنَّه ﷺ لم يكُنْ صاحِبَ رغْبةٍ في النساء إلا بحدودِ الآدمية والشهوةِ البشرية، المهذبَّةِ الكريمة.

ولنتحدَّث عن أوّلِ تلكَ الزيجات ففيها القوْلُ الفصل والبيّنَةُ الواضحة.

فزَواجُهُ من **خديجة** ـ أمِّ المؤمنين ـ رضيَ اللَّهُ عنها، وهُوَ الشَابُّ الممتلئُ حيويَّةً ونشاطاً، البالغُ من العمرِ خمسةً وعشرين عاماً، والذي لم يُفرّط قطّ أبداً،

أما هي ـ رضي اللَّهُ عنها ـ ففي العقدِ الرابعِ من عمرِها، قد تزوّجَتْ من قَبْلُ مرَّتيْنِ وترمَّلتْ، ولها من أحدِ زوجيْها ابنتان. . .

---

(1) قال ابن عبد البر ـ رحمه اللَّه تعالى ـ في «الاستيعاب» (4/ 406):
هي زينب بنت رئاب بن يعمر بن صبيرة بن مُرَّة بن كثير بن غَنَم بن دُودَان بن أسد بن خُزيمة. أمها أُميمة بنت عبد المُطَّلب بن هاشم عمة رسول اللَّه ﷺ.
فهي ابنة عمة النبي ﷺ. وأخوها: عبد اللَّه بن جحش أول أمير في الإسلام، وقد تقدم شيء من ترجمته في الحديث عن السيدة زينب بنت خزيمة ـ أم المؤمنين ـ وأنها رضي اللَّه عنها كانت زوجته. حيث أن النبي ﷺ تزوجها بعد استشهاده في أُحد. وعلى هذا فيكون النبي ﷺ قد تزوج من زوجة عبد اللصه بن جحش بعد استشهاده، وتزوج أيضاً من أخته بعد طلاقها من زيد بن حارثة كما سيأتي.
قال ابن الأثير ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: في «أُسد الغابة» (5/ 463) وهي أسدية من أسد بن خزيمة، قال: وتكنى أم الحكم، وكانت قديمة الإسلام، ومن المهاجرات.

فلو أن **محمداً** ـ ﷺ ـ كان صاحِبَ تلْك الرغبةِ المزعومة لفتّش عن بكْرٍ ولَيْس عن ثيّب، وعن فتاةٍ تصغُرُه سِنًّا لا **امرأةٍ** سبقهُ إلى وَطَئها رجلان.

تلْك حقيقةٌ نفسيّةٌ وجسديةٌ لا تقْبلُ الجدَلَ ولا المناقشة.

أما زواجُهُ ﷺ من نسائه الأُخرَيات، ففي كلّ واحدٍ حكمةٌ بالغة، قد يقتضيها التشريعُ، أو الخلقُ السامي الكريم، وزَواجُهُ من **زينب بنت جحش** رضيَ اللّهُ عنها ـ ففيه أكثر من حكمة وحُكم؛ كما أنّ ظروف حياتها ـ عزباء ومتزوجة ـ صُورٌ حيةٌ تنطِقُ بالنَّقاء والصَّفاء، والطهارةِ والخُلُقِ القويم، رضيَ اللّهُ عنها وأرضاها.

قصَّة زيد بن حارثة ـ رضي اللّه عنه ـ مع أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي اللّه عنها

هو **زَيْدُ بنُ حارثةَ بنِ شُراحيل** على التحقيق؛ وقصتُه طريفةٌ ترتبطُ ارتباطاً وثيقاً بحياة **زينبَ بنتِ جحش** ـ رضيَ اللّهُ عنها ـ وكذلك بالنبيّ ﷺ.

كان طفلاً صغيراً وَقَعَ في السَّبْي، إثر معركةٍ جَرَتْ بَيْن قبيلته وقبيلةٍ أُخرى مُغيرة.

ثم بيعَ في أسواقِ مكّة، فاشْتَرتْهُ **خديجة** ـ رضيَ اللّهُ عنها ـ وحينَ تزوّجها رسُولُ اللّه ﷺ أهْدتْهُ إليْه.

وأخذ أهلُهُ يبحثون عنه في كُلِّ مكان، ثم عرفوا أنّه عندَ **محمدِ بنِ عبدِ اللّه بنِ عبد المطلب** في مكة. فجاؤوا لخلاصِهِ وفِديتِهِ.

فلما دخلوا الدّار عرّفوا بأنفِسهم وغرضِهم وأثْنَوْا على طيبِ عُنْصِر النبي ﷺ وكريمِ مَحْتِدِه، فَأَخْرَج إليهم **زيْداً** وقال له:

ـ أتعرفُ هؤلاء؟

فقال:

ـ نعم هذا أبي وهذا عمّي.

ـ ثم قال لهم رسُولُ اللّه ﷺ:

ـ أتريدون خَيْراً مما تطلبون؟

قالوا:

ـ وما هو؟

قال:

ـ أُخَيِّرُهُ، فإن اختاركم فهو حرٌّ لوجْهِ اللَّه تعالى، وإن اختارني فاشهدوا أنَّه مني بمنزلةِ الولد، يرِثُني وأَرِثُه.

فقالوا:

ـ لقد أنْصَفْتَ.

وحينَ خُيِّر **زَيْدٌ** في ذلك قال:

ـ أنا لستُ بالذي أَختارُ أحداً على رسُول اللَّه ﷺ.

فخرج أهلُهُ من عندِ رسُولِ اللَّه وهم مطمئنون واثقُونَ من حُسْنِ اختيارِهِ وطِيبِ مُقامه.

ومنذ ذلك الحينِ أَصْبَحَ **زيدُ بنُ حارثة** يُعرف بـ **زيد بن محمد**، واستمرّ الأمرُ على ذلك زمناً حتى أَنْزَل اللَّه تعالى حكمَه في كتابِهِ: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾، فعاد **زَيْدٌ** يُدْعى **زَيْدَ بنَ حارثة**، ولكنّه ظَلّ على ولائه لرسولِ اللَّه ﷺ؛ مخلِصاً أميناً وفياً، ومسلماً مؤمناً تقيًّا.

والنّسْبَةُ للآباء أوْلى وأَجْدى، وأَضْمَنُ لسلامة الأحسابِ والأنسابِ في المجتمعاتِ الإنسانيّة، حتّى لا تضيعَ أو تَضِلّ فِي متاهات الصلاتِ البشريّةِ.

الفتاة القرشية

وكانت **زينبُ بنتُ جحشِ بنِ رباب** المخزوميّة، وأمُّها **أُميمة بنتُ عبد المطلبِ** الهاشميةُ، عَمّةُ رسُول اللَّه ﷺ،

كانت **زينب** زينةَ فَتَياتِ **مكّة**، غَضّةً بَضّة، تتباهى بأَصالةِ أُرومِتها. وطيب عُنْصُرِها، وفصاحةِ لسانها، وعِزّةِ فضائِلها.

أسلمتْ وآمنتْ وبايعتْ، وظلّتْ عَزْباء إذ ردّتْ كثيراً من الأَيْدي التي تقدمتْ لها بخُيَلاءِ العربيّةِ؛ لأَنها كانت لا تجدُ في مَنْ رغِبَ بالزواج منها تكافؤاً اجتماعياً.

زواجُها من زَيْد بن حارثة المَوْلى

وهنا ـ أيُّها القارئُ العزيز ـ أوَّلُ المفارقات.

بَعْد أن هاجَرَ المسلمون من **مكة إلى المدينة**، أراد النبيُّ ـ ﷺ ـ أن يبنيَ المجتمع المدَنيّ على أُسُس جديدةٍ فيها الثورةُ على كُلّ الأعراف الجاهلية، وقِيَمِها الزائفة. أراد أن يبنيَ ذلك المجتمعَ على قاعدَةٍ صُلبةٍ من الإِخاء الإِنسانيّ في اللَّه، بحيْثُ تكون بَشَريّةُ الإِنسانِ والفرد، وتقواهُ مع اللَّه هي مؤهلاتُه فقط، لا مالُه ولا حَسبُهُ ولا بأسُه ولا مكانتُه...

وبدأت الأُخوَّة في اللَّه...،

فيُروى أن رسُول اللَّه ﷺ قد قال لـ **زينب** بنتِ عمتِه:

ـ إني أريدُكِ أن تتزوّجي من **زَيْدِ بنِ حارثة**... وفاجأها الطَّلَب، فقالت:

يا رسُولَ اللَّه... لا أرضاهُ لِنفْسي وأنا أَيِّمُ قُرَيْش. فقال ﷺ:

ـ فإني قد رضيتُه لَكِ...

وكان القوْل الفَصْل، فما دامَ رسُولُ اللَّه ﷺ هُوَ الذي ارتضى **زيداً** لـ **زينب** فمعنى ذلك حكمةٌ ما بعدها حكمة.

وتم زَواجُ المَوْلى **زيْد بنِ حارثة** من الفتاةِ القُرَشيَّة ذاتِ الحسبِ والنسب **زينب بنت جحش**، ولم يعُدْ هناك من فَرْقٍ بَيْن الزوجين لأن الإِسلامَ سوّى بينهما، فأكرمهُما عِنْدَ اللَّهِ أتقاهُما[1].

وَطَرُ زيْد

ومضى قطارُ العُمْرِ بـ **زينب وزيْد**، ولكنْ كانَتْ هناك بعضُ الغيوم التي تتلبَّد بَيْنَ الحين والحين في سماء بَيْتِ الزَوْجيّة، ولم يكُنِ الوفاقُ على أَتَمِهِ بينهما، وكما تقتضي قواعِدُ السعادةِ الزوجية.

حتى كان المفترق...

---

(1) أورده ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (8/ 101).

فقد جاء رسُول اللّه ﷺ ذاتَ يَوْم إلى دار **زيْدٍ** يَسْأَلُ عَنْه لحاجةٍ يريدها، فلّما عَلِمَتْ **زينبُ** بمقَدمِ رسُولِ اللّه ـ ﷺ ـ خرجَتْ مُسرْعةً لاستقباله وهي في ثياب العمل في البيْت، دُونَ أَنْ تستَترَ ما فيه الكفاية، وأخبرتْ رسُولَ اللّه ﷺ بعدمِ وجود **زيْد** ثم دعتْهُ إلى الدخول، فأبى ﷺ رغمَ إلحاحِها، ثُمّ غضّ بَصَرَهُ، وأدار ظهْرَهُ، وتَمْتَمَ ببضعِ كلماتٍ لم تسمعْها ولم تفهمْها زينب، سوى أنها سمعتْهُ يقول:

ـ «سبحانَ اللّهِ العظيم، سُبْحانَ مُصَرِّفِ القلوب».

انصرف ﷺ وهُوَ يَدْعو اللّه تعالى أن يَحْمِيهُ ويحَفَظهُ من نَزْعةٍ أو نَزْغة.

ولم يكن **محمد بن عبد اللّه** ـ ﷺ بالشّخْص الذي يجد الشيطان سبيلاً إلى قَلْبه وضميره، فقد عَصَمهُ ربّه سبحانَهُ تعالى من فِتنَةِ إبليس.

أَوَلا تذكُرُ طفولتَهُ ﷺ!! حين كان في ديار **بني سَعْد** ترضِعُهُ **حليمة** وكيْف جاءَهُ الملكان، وشَقّا صَدْره، وغسلا قلبَهُ بماءِ الكوثر، وانتزعا عَلَقَةً سوداءَ من القلْب. . . !

لقد حُفِظ ﷺ مُنْذُ أن كان طفلاً صغيراً، وعُصِمَ من كُلّ سوء.

قَلْبُ الرسُول البشر

﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: 93].

لقد كان رسُول اللّه ﷺ بَشَراً يُحِسّ إحساسهم، وتتفاعلُ في كيانه عواملُ البشريّة والإنسانيَّة، ولكن اللّه تعالى كان عاصِمَهُ من الدنايا، حافظَهُ من كُلِّ سوء.

ولقد وَقَعَتْ **زينَبُ** من نَفْسِه ومن قلبه مَوْقعَ القَبول، فكتم ذلك، وحَرِصَ على كتمانِهِ، واستغاث برَبّه قائلاً.

ـ سبحانَ اللّهِ العظيم، سبحانَ مُصرَفِ القلوب.

وهذا مِصداقُ قَوْلِ اللّه تعالى:

﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾ [الأحزاب: 37].

وسيبدو ما في قلْب النبيّ ﷺ بَعْدَ أيّام.

عاد **زَيْدٌ** إلى الدار فأَخْبَرتْه **زينب** بكُلّ الوقائع، من سؤال النبي ﷺ عنه، حتى مُنْصَرَفِهِ عن بابِ الدار، إلى ما كان يردِّدُه من قَوْلٍ وهو في طريقِ الأَوْبة.

عندئذٍ أَسْرَع **زيْدٌ** إلى رسُول اللّه ﷺ، ولبّى حاجته التي جاءَ من أَجْلها في طلبه؛ ثُمّ دار الحوار بَيْن **زيْدٍ** وبَيْنَ رَسُولِ اللّه ﷺ في شأْنِ **زينب**، فَرَدَّ عليه الرسولُ الكريمُ قائلاً: أمْسِكْ عليْكَ زَوْجَك.

رَدّدَ العبارة أكثَرَ من مَرّةٍ، في عَزْم وتصميم واستمساكٍ بحَبْلِ اللّه المتين، ودفعاً للنّزْعةِ البشريّة عن القلْب أَنْ تسَيْطِرَ عليه.

تدبير اللّه تعالى

كانَتْ عادَةُ الجاهليّين أن يمتنعَ المتبنِّي عن الزّواج من قرينةِ مَنْ تَبَنّاهُ لأَنَّهُ كان منه بمنزلَةِ الولد، فلما جاءَ الإسلامُ وأبطلَ عادةَ التبنِّي، وردّ الأمرَ إلى أُصولِهِ وجُذورِه. بقول اللّه تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [الأحزاب: 5].

أراد أَنْ يُحِقَّ الحقَّ بكلماته ويُبْطِلَ تلك العادةَ كُلّيَةً بأصولِها وفُرُوعها، وأن يكونَ رسُولُ اللّه ﷺ هو القدوةَ في هذا الشأْنِ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21].

ودَبّر الأمرَ سُبْحانَهُ على الكيفيّةِ والصُّورةِ المثاليّة، ثُمّ أعْقَبَها بحُكْمِهِ الشَّرعيِّ الذي لا يأتيه الباطلُ من بَيْنِ يديْهِ ولا من خَلفِه، ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: 37].

اسْتحْكَمَ الخلافُ بَيْن **زيْدٍ** وبَيْن **زينب**، وذلك في شأْنٍ من شؤون الدنيا ومتاعِ الحياة، وغرضٍ منزليٍّ بَحْت، هو يرى رأياً وَهي ترى رأياً آخر. فكان رضيَ اللّه عنه ـ يأتي إلى رسُول اللّه ﷺ طالباً إليْه أن يُساعِدَه على الخلاصِ من **زينب** والتفريقِ بينهما ليأخُذَ كُلٌّ طريقَهُ في الحياة، فيَرُدَّهُ النبيّ ﷺ بقوْله:

«أمْسِكْ عليْكَ زَوْجَك».

وتكرّر الطلبُ من **زيْد** كما تكرّر الرَّدُّ من رسُول اللّه ﷺ:

وأخيراً. . . جاءَ الأَمْرُ من السماءِ بالتَّفْريق، وبزواجِه ﷺ من **زينب**.

الــزواج

فلما انقضت عِدَّتُها من **زيْد** أرسلَ رسُول اللَّه ﷺ خادمتَه **سلْمى** لتخبرَ **زينب** برغبته ﷺ بالزَّواج منها، فلما سمعتْ **زينب** بذلك خَرَّتْ ساجدةً، وقد استَبدّتْ بها الفرحةُ، ثم أعطتِ الخادمةَ المبشِّرَة هدايا قيِّمةً ثمينةً جزاء ما أخبرتْها الخبرَ الطيِّب.

الْخَبَر الذي كانَتْ تنتظره مُنْذُ أَمَدٍ بعيد، كي تنال الْحُظْوة والشرف العظيم، وتَدْخُلَ في عدادِ **أمهات المؤمنين**، وتتفيّأ ظلال بَيْتِ النّبُوّة الكريم.

أعظمُ الولائم

وكانت وليمةُ العُرْس التي أَوْلمها رسُولُ اللَّه ﷺ عند زواجه من **زينب** أعظمَ الولائم، إذ ذَبَحَ فيها شاةً، ودعا إلى البيْت ما يزيدُ على سبعين رجلاً من جِلّة أصحابه، وكبار إخوانِهِ وأعْوانه؛ حتى قيل إنه لم يَبْقَ في المسجد يومَها أَحَدٌ إلا وحَضَرَ الطعام، وأكلوا جميعاً باسمِ اللَّه.

ودَعَوا عِنْد مُنْصَرَفهم عن الوليمة لرسُولِ اللَّه ﷺ بالتَّوْفيق وحُسْن الثواب، راجين ربَّهُم العليَّ القدير أن يُتمّ على المسلمين دائماً وأَبَداً فَضْلَهُ ونِعَمَهُ[1].

الحكم بالحجاب

ومكثَ الحاضرون في بَيْت رسُول اللَّه ﷺ وقتاً أَطْوَلَ من اللازم، يتحدَّثون ويتسامرون، ورسُول اللَّه ﷺ مشغولٌ بينهم وبَيْن زَوْجَته، حتى إنَّه تأذّى من ذلك ولكنه أخفاهُ في نفسه، فأنزل اللَّهُ تعالى قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ

(1) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (8/ 103) بلفظ قريب.

﴿مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ﴾ [الأحزاب: 53]. صَدَق اللَّه العظيم.

فَرْحةُ العروس

قالت **زينبُ** ـ رضيَ اللَّهُ عنها:

ـ لما جاءني الرسُولُ بتزويج رسُول اللَّه ﷺ إيّاي، جَعَلْتُ لِلَّه عليّ صَوْمَ شهريْن.

فلما دَخَلَ عليَّ رسُول اللَّه ﷺ كُنْتُ لا أقدِرُ أن أصومَهُما في حَضَرٍ، ولا سَفَرٍ تصيبني فيه القُرعة، فلما أصابتني القُرْعة في المُقام صُمتُهُما.

ولقد وصفتْها أمُّ المؤمنين أمَّ سَلمَةَ ـ رضيَ اللَّهُ عنها فقالت:

ـ كانت **أي زينب** لرسُولِ اللَّه مُعْجِبة، وكان يستكثرُ منها، وكانت امرأةً صالحة، صوّامة قوّامة، صنْعاً تتصَدَّق بذلك كلّه على الناس.

مفاخرتها نساء النبي ﷺ

وَجَرَت ذاتَ يَوْمٍ مُلاحاةٌ بينها وبَيْنَ **عائشة** التي كانت تغارُ منها غَيْرةً شديدة، فقالت **زينب**:

ـ «إنّي واللَّه ما أنا كأحَدٍ من نساء رسُول اللَّه ﷺ، إنهُنّ زُوِّجَهُنَّ بالمُهُور، وزَوَّجهُنَّ الأولياء، وزوّجني اللَّه رسُولَه، وأُنْزِلَ فيّ الكتاب، يقرأ به المسلمون لا يُبَدَّلُ ولا يُغَيَّر».

ولئن كان الأمرُ أَمْرَ مُلاحاة نسائيّة ومفاخرة غَيْرَةٍ أُنثويَّة، وهُوَ لا يعدو ذلك في نَظْرنا، فإن **زَيْنَب** ـ رضي اللَّه عَنْها ـ لا نَعْتقِدُ أنها نَسِيتْ أبداً فَضْل وظروف كُلٍّ من نسائِهِ ﷺ.

عائشة وحفصة

وكان رسُول اللَّه ﷺ يمكُثُ عندَ **زينب** وقْتاً طويلاً، وكان يَشرْبُ عندها عسلاً، وكان يُحِبُّ العسلَ ويشتهيه، قالت عائشة:

ـ فتواصيْتُ أنا و**حَفْصة** أيّتُنا ما دَخَلَ عليْها النبيّ ﷺ فلْتقُل إني أَجِدُ منْكَ ريحَ مغافير.

فَدَخل على إحداهُما فقالت ذلك لهُ، فقال:

ـ بَلْ شَرِبْتُ عَسَلاً عند زينب، لن أعودَ إليْهِ.

فأنْزَل اللَّه تعالى قوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ . . . ﴾ إلى قوله: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ . . . ﴾ [التحريم: 1 ـ 4] يعني **عائشة** و**حفصة**.

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا . . . ﴾ [التحريم: 3].

يعني قَوْلَهُ لهُما: شربت عسلاً عند **زينب**.

وهذا، كما سبق لنا القوْل بوجود تكتُّلاتٍ بَيْن أزواجه ﷺ، مبعثها الغيرْة ولا شيءٍ غير ذلك أبداً، ونحمد اللَّه تعالى أنّ خلافهُنّ لم يَتَّعدَّ هذا الإطار.. وإلاّ فكيْف يكُنّ في أعلى مُسْتَوى من القُدْوة الصالحة لكُلّ مُسلِمةٍ، فتاةً أو سيِّدة، ـ رضي اللَّه عَنهُنّ أجمعين ـ.

المتَصدّقة

ولقد كانت شهرة **زينب** ـ رضَي اللَّهُ عنها ـ بينَ أزواج النبي ﷺ بشأْنِ الصّدَقة أكثرَ منهُنَّ جميعاً، فما كانت لترضى أن تبيِّتَ دِرْهَماً في دارها قَبْل أن تتصدّقَ به على من هُوَ بحاجةٍ إليْه..

تُنْفِقُ كُلَّ ما تصلُ إلى يدها من عطاءٍ أو صِلَةٍ أو غَيْرِها، تقرُّباً إلى اللَّه تعالى، واقتداءٍ بسيّدنا رسول اللَّه ﷺ.

يُروى أنَّ سيدَنا **عُمَر بن الخطاب** رضِي اللَّهُ عنه ـ أرسل أمَّ المؤمنين **زينب بنت جحش** بالذي لها من الصّلةِ والرّزق، فلمَّا أُدخِلَ عليها قالت:

ـ غفر اللَّهُ لـ **عُمَر**، غيري من أخواتي كان أقوى على قسمِ هذا مني.

قالوا؟

ـ هذا كلّه لكِ.

قالت:

ـ سُبْحانُ اللَّه. ثم استترَتْ بثوبٍ وقالت:

ـ صُبّوه واطرحوا عليه ثَوْباً، ثم قالت لـ **بَرْزَةَ بنت رافع**:

ـ أدْخلي يَدَك فاقبضي منه قبضةً فاذهبي بها إلى بني فلان، وبني فلان، من **أهْلِ رحمِها وأيتامها** حتى بَقِيَتْ بقيّةٌ تحت الثوب.

فقالت لها **بَرْزةُ**:

ـ يا أمَّ المؤمنين، غفر اللَّه لكِ، واللَّهِ لقد كان لنا في هذا حقٌّ، فقالت:

ـ لكُم ما تَحْتَ الثَوْب.

فوجدْنا تحته خمسةً وثمانين دِرْهماً؛ ثم رفعت يَدها إلى السماء فقالت:

ـ اللهُمَّ لا يُدْركني عطاءٌ لـ **عمر** بعدَ عامي هذا.

ويُروى أن عطاءَها بلغ اثنيْ عشر أَلْف دِرْهم لم تأخُذْه إلاّ في عامِها هذا، وفرَّقَتْه على اليتامى والمساكين والمحتاجين كما رأيْنا.

ولقد كانت جميع زَوْجاتِهِ ﷺ حريصاتٍ على الْبِرّ بالمساكين والمحتاجين، ولا يدَّخِرْنَ وُسْعاً في الانفاق والبذل، راجياتٍ من الرّب الكريم أن يَتَقَبَّل صَدَقاتهنّ أَحْسَن القبُول.

المتصدقّة بالأكفان

ولما حضرتْها الوفاةُ في العامِ العشرين من الهجرة وكانت قد بلغت الثالثةَ والخمسين من عُمرها؛ أرسلَ لها **عمر بن الخطاب** بخمسةِ أثوابٍ من الخزائن يتخيَّرُها ثَوْباً ثوباً، فكُفِّنَتْ فيها، وتصدّقَتْ أختُها عنها، كما أوْصتْ بكفَنها الذي أعَدّتْه لتُكفنَ فيه.

وبهذا التصرُّف تعطي **زَيْنَبُ** ـ رضي اللَّه عنها ـ للمؤمناتِ ـ والمؤمنين ـ من بَعْدها خَير المثل وأعظمه، في احْتِسابِ مادّيات الدنيا كُلّها، عَرَضاً زائلاً تُبْتغى به الدار الآخرة، التي هي أبقى وأَخْلد.

الصلاة عليها ودفنها

روى **القاسم بن عبد الرحمن** فقال:

لما توفيت **زينبُ بنتُ جحش** أمُّ المؤمنين ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ وكانت أوّلَ نساء النبيّ ﷺ لحوقاً به، فلمّا حُمِلَتْ إلى قَبْرِها، قام **عُمَر** إلى قَبْرها فحمدَ اللَّهَ وأثنى عليه، ثم قال:

ـ إني أرسلتُ إلى النسوة يعني أزواجَ النبي ﷺ حين مَرِضَتْ هذه المرأة أَنْ مَنْ يُمَرِّضُها ويقوم عليها؟ فأرْسلنَ: نَحْنُ، فرأيْتُ أنْ قد صَدَقْنَ، ثُمّ أرسلتْ إليْهنَّ حين قُبضَتْ، من يغسّلُها، ويحنّطُها ويكفّنُها؟ فأَرسَلْن نَحْنُ، فرأيْتُ أن قَدْ صَدَقْنَ، ثم أرسلتْ إليهنّ: مَنْ يُدْخلُها قَبْرَها فأرسْلْن: مَنْ كان يحلّ له الولوجُ عليها في حياتها.

فرأيْتُ أنْ قد صَدَقْنَ، فاعتزِلوا أيها الناس، فَنَحّاهم عن قَبْرِها، ثُمّ أَدْخلها رجُلانِ من أهْلِ بيتها.

وكان سيّدُنا **عمر** هُوَ الذي صلّى عليها، ورافقها حتى البقيع، وانتظر حتى فُرِغ من حَفْرِ القبر. تكرِمةً لها واعترافاً بفضلِها ومكانتِها.

رضيَ اللَّهُ عن أمِّ المؤمنين، وإمامةِ المتصدّقين، وزوجةِ رسُولِ ربِّ العالمين، بِوَحْيٍ في الكتابِ المبين، وألحقَنا بها في الصالحين[1].

---

(1) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (8/ 114 ـ 115).

جويرية

أمّ المؤمنين

رضي اللَّه عنها[1]

وبِهِ نستعين.

من إرهاصات زَواجِ **جُوَيْرِيَةَ** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ برسولِ اللَّه ﷺ قولُها:

رَأَيْتُ قَبَلْ قُدومِ النبيِّ ﷺ بثلاثِ ليالِ، كَأَنَّ الْقَمَرَ يسيرُ من **يَثْرِب** حتى وَقَعَ في حِجْري، فكرِهْتُ أَنْ أُخْبِرَ أَحَداً من النّاس حتى قَدِمَ ﷺ.

فلمّا سُبينا رَجَوْتُ الرؤيا، فلما أَعتقني وتزوَّجني ـ ﷺ ـ، ما شَعَرْتُ إلا بجاريةٍ ومن بناتِ عمّي تُخْبِرُني بِفَكِّ الأسرى، فَحَمَدْتُ اللَّه تعالى.

كان ذلك يَوْمَ غزوة **بني المصْطَلِق** ـ وتُسمّى أَيْضاً: **غزوة المُرَيسِيع** نِسْبَةً إلى المكان الذي وَقَعَتْ فيه، ولا يُمكنُنا أن نُؤَرّخ لـ **جُوَيْرِيَة بنتِ الحرث** ـ أُمِّ المؤمنين ـ رضيَ اللَّهُ عنها، دونَ أَنْ نُلِمَّ ولو إِلماماً سريعاً بحوادثِ تلك

---

(1) هي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن عائذ بن مالك بن جذيمة ابن المصطلق من خزاعة.

تزوجت من ابن عمها مسافع بن صفوان ذي الشفر بن السراح ابن مالك بن جذيمة. فقُتِل يوم المريسيع على أيدي المسلمين. وكان كافراً.

روى الحاكم (4/ 6780)، من طريق محمد بن عمر، قال: جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن عائذ بن مالك بن جذيمة بن المصطلق من خزاعة، تزوجها مسافع بن صفوان، فقُتل يوم المريسيع.

وروى أيضاً (4/ 6782)، من طريق ابن إسحاق، قال: وجويرية بنت الحارث كان اسمها: برة بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن عائذ بن مالك بن جذيمة من خزاعة، كانت عند ابن عم لها يُقال له: مسافع بن صفوان بن ذي الشفر.

والمريسيع: بالضم ثم الفتح. اسم ماء في ناحية قديد إلى الساحل. وهو ماء لبني خزاعة. وبينه وبين الفرع مسيرة يوم. والفرع قرية من نواحي المدينة بينها وبين المدينة ثمانية بُرُد على طريق مكة. وقيل أربع ليال. وبين الفرع والمريسيع ساعة من نهار.

الْغَزْوة، التي كان من نتائجها زَواجُهُ ـ ﷺ ـ من **جُوَيْرِيَة**... وخَيْرٌ كثيرٌ بعد ذلك لَحِقَ قَوْمها وأهلها.

بنُو المصْطَلَق

هُمْ فَرْعٌ من قبيلة **خُزاعة**، أصحابُ بأْسٍ وشِدَّةٍ وكثرةِ عَدَدَ.

ولَقَدْ عَزّ على زعيمهم **الْحَرِثْ بن أبي ضرار** أَنْ يرى **مُحَمَّد بنَ عبد اللَّه** ﷺ يَبْلُغُ تلك المكانَة الرفيعة بَيْنَ العرب، ويتبوَّأُ تلك المنزلةَ السامية، وأن يَشْتَدّ ساعدُهُ مَعَ أنصارِهِ وأصحابه إلى دَرَجَةٍ كبيرة، جعلتْ كُلّ الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها تَرْهَبُ جانبَه.

عَزّ عليه ذلك، وثارَتْ فيه عَنْجَهِيّتُهُ الجاهليّة، وغطرستُه القبليّة، وقام بحشْدِ أَتباعه وتهيئةِ جيشه، والسَّيْرِ بهم إلى **المدينة** لقتالِ المسلمين...

قَرّرَ ذَلك دونَ أدْنى تَقْديرٍ لما يمكن أن تجرّه عليْه وعلى قبيلتِهِ هذه النّزْوةُ الجاهلية، والعاطفةُ العشائريّة الجيّاشة، حُبّاً بالزّعامةِ والسيطرةِ والتسلّط.

وكَمْ من مَغْرُورٍ أَمثال **الحرث**، في الماضي والحاضر يحاوِل أَنْ يَهْدِم هذا الدين، ويتعرَّض للدعْوة وأصحابها وأتباعها بالتسلُّط والإِيذاء، فلا يَلْبَثُ أَنْ يزول وينتهي، على صورة العِبْرةِ والموعظة، والدّرْس البليغ لغيْره من بَعْدِه.

وصَدَقَ الشاعر إِذ يقول:

كناطح صَخْرةً يَوْماً ليوهِنَها فلم يُضِرْها وأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعْلُ

المعركة

وبعدما أَتَمّ رسولُ اللّه ﷺ استعداداتِهِ، خَرَجَ على رأْس جَيْشِ المسلمين إلى **بني المصطلق** لمفاجأتهم، وكان ذلك في شَهْرِ شعبانَ من السنةِ الخامسةِ للهجرة.

والتقى الجيشانِ في مكان يُدْعى **المُرَيْسيع**، بعد أن خَرَج **بنو المصطلق** سريعاً لملاقاةِ المسلمين الذين نزلوا ديارَهُم وباغتوهم.

ودعاهم الرسُول ﷺ إلى الإسلام فَأَبَوْا، ثُمّ نشب القتال، تراميًا بالنّبال، وتراشقاً بالسهام، ثم جُرّدتِ السيوفُ من أغمادها، والْتَحَمَ الفريقان في قتالٍ شديدٍ أَسْفَرَ عن هزيمةِ **بني المصطلق** هزيمةً مُنْكرة؛ ووقع أكثرهُم أسرى في يد المسلمين، ولقد بلغ عددُهم ما يزيد على سَبْع مائة، كما غنم المسلمون كثيراً من الإبل والشِّياه.

وفَرّ **الْحَرث** مع قِلّةٍ من أصحابِهِ لا يلوي على شَيْءٍ.

فَرَّ. . . وقد ضاعَت كُلّ آمالِهِ، وانهارتْ قصُورُ أحلامِهِ وأوهامِهِ التي بناها في مخيّلتِهِ.

وكان أَعَزّ شيءٍ عليه أن تَقَع ابنتُهُ في الأسْر مع مَنْ وقع من أصحابه.

لكنّ نجاتَهُ مِنَ الموْتِ وَالأَسْر كانَتْ تخفّفُ عَنْهُ بعض أحْزان قلبه وأساه.

بَرَّةُ الأسيرة

وكان من بَيْن الأسرى ابنةُ **الحرث**، وتُدْعى: **بَرَّةَ بنت الحرثِ بن ضرار بنِ حبيب**، وهي نفسُها **جُوَيْرية** ـ رضي اللَّه عنها ـ وسنَأْتي في تفصيل قصتِها على سَبَبِ تغيير اسمِها من **بَرَّة** إلى **جُوَيْرية**.

وكانت **بَرَّة** زَوْجَةً لأحد رجالات **بني المصطلق** الذين قُتِلوا في تلك الْغَزْوَة، ويُدْعى: **مُسافعَ بنَ صَفْوان**.

* * *

حديثُ عائشة ـ رضي اللّه عنها

ولْنَتْرُكِ الآن الحديثَ إلى السيدة **عائشة** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ فَهي أوْلى بإتمامه وتفصيلِهِ منّا.

قالت ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ:

أصابَ رسولُ اللَّه ﷺ نساءَ **بني المصطلق**، فأَخْرَج الخُمْس مِنْهُ، ثُمّ قَسَمَهُ بَيْنَ الناس، فأعطى الفارس سَهْمَيْن والراجلَ سَهْماً.

فوقَعَتْ **جُوَيرِيَةُ** بنتُ الحرثِ بنِ أبي ضرار في سَهْم **ثابت بن قيس بن**

شمّاس الأنصاري، وكانت تَحْتَ ابنِ عَمّ لها يُقالَ لَهُ: مسافعُ بن صفْوانَ بنِ مالك بنِ جُذَيْمة ذو الشّقْر، فقُتِلَ عنها.

فكاتَبها[1] **ثابت بن قيس** على نَفْسِها على تِسعِ أُواق؛ وكانت امرأةً حُلْوَةً، لا يكادُ يراها أَحَدٌ إلاّ أَخَذَتْ بِنَفْسِهِ.

فبينا النبيُّ ﷺ عِنْدِي، إذ دَخَلَتْ عَلَيْهِ **جُوَيْرية** تَسْأَلُهُ في كتابتها، فواللّه ما هُوَ إلا أن رأيْتُها فكرِهْتُ دخولَها على النبيّ ﷺ، وعرفْتُ أنّه سيرى منها مِثْلَ الذي رأيْتُ.

فقالت:

يا رسُولَ اللّه أنا **جُوَيْريةُ بنتُ الحرث** سيّدِ قَوْمه، وقد أصابني من الأمْرِ ما قَد عَلِمتَ، فوقعْتُ في سَهْم **ثابت بن قيس** فكاتبني على تسْع أُواق، فأعنّي في فكاكي.

فقال - ﷺ -:

- أَوَ خَيْرٌ من ذلك؟

فقالت:

- ما هُو؟

فقال:

- أؤدّي عَنْكِ كِتابَتَكِ وأَتَزَوّجُكِ.

قالت:

- نعم، يا رسولَ اللّه.

فقال رسُول اللّه ﷺ:

قد فَعَلْتُ.

وهُنا - عزيزي القارئ - مفتاح باب الخير الذي تَحدَّثْنا عَنْهُ في مطلع تَرْجَمَتنا لأُمّ المؤمنين **جويرية بنت الحارث** - رضي اللّه عنها -.

---

(1) المكاتبة: أن يكتب الوالي والمولى بينهما كتاباً تحدَّد فيه القيمة والمدَّة، فإذا ما استوفي الأجل أصبح حرّاً.

ولسوْف نرى وقائع ذلك في الصفحات التالية بإِذْن اللَّه.

الخير العظيم

وتكمّل السيدةُ عائشة ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ فتقول:

ـ وخَرَج الْخَبَرُ إلى الناس فقالوا:

ـ أصْهارُ رَسُول اللَّه ﷺ يُسْتَرقُّون!!!

فأَعتقوا ما كان بأيديهم من سَبْي **بني المصطلق**، فبَلَغَ عتقُهم مائة أَهْلِ بَيْتٍ بتزويجهِ إيّاها.

فلا أَعْلَمُ امرأةً أعْظَمَ بركةً على قَوْمها منها، وذلكَ مُنْصَرَفُه ﷺ من غزوةِ **المريْسيع**[1].

* * *

إخْتَرْتُ اللَّه ورسُولَهُ

وعلم أبوها **الحرثُ بنُ ضرار** ما كان من شأنها مع رسُول اللَّه ﷺ، وكيْفَ تَحَرَّرَ أَكْثَرُ **بني المصطلق** بسببها وبركتها، فأراد أن يأتيَ إلى رسول اللَّه ﷺ ليُباحِثَهُ في أمْرها، ولما أذِن لهُ بالحضُور وأُمِّنَ على نفسِه، وجلس بَيْنَ يديْ رسول اللَّه ﷺ قال:

ـ إن ابنتي لا يُسْبى مِثْلُها، فأنا أَكْرَمُ من ذلك، فَخَلِّ سَبيلَها.

فأجابَهُ رسُول اللَّه ﷺ مُبْتَسِماً:

ـ أرأيْت إن خيَّرناها أليْس قَدْ أحْسَنّا؟

قال **الحرث**:

ـ بلى...، وأَدَّيْتَ ما عليْك.

فأتاها أَبُوها، وهي في بَيْتِ النبي، مع رسول اللَّه ﷺ فقال لها:

ـ إن هذا الرَّجُل قَدْ خَيَّركِ فلا تفضحينا.

فقالت:

ـ إني قد اخْتَرْتُ رسُولَ اللَّه ﷺ.

---

(1) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (116) وهو حديث صحيح أخرجه البخاري وغيره.

فقال لها:

ـ قَدْ واللَّهِ فَضَحْتِنا...

وخرج من عندِها، ولكنه لم يلبثْ أن أسلمَ، ودخل في حظيرةِ الإِيمان[1].

***

وهُنا نتساءَل: هَلْ أَسْلَم **الحرث** ليداري مَوْقف ابنته؟ أَمْ أن اللَّه تعالى ألقى في روعه وقلبه بذرة الإِيمان؟

والرأي الثاني أَرْجح عندنا لما حَسُنَ من إسلامِهِ ـ رضي اللَّه عنه ـ.

من بَرَّه إلى جُوَيْرِيةَ

روى **ابن عبّاسٍ** ـ رضيَ اللَّهُ عنه ـ فقال:

ـ كانت **جُوَيْرِيَةُ بنتُ الحرث** تُدْعى بَرَّة، فحَوَّل رسولُ اللَّه ﷺ اسْمَها فسَمّاها **جُوَيْرِيةَ**، لأنه كان يَكْرَهُ أن يقال: خَرَجَ من عِنْد بَرَّة[2].

***

تلْك يا عزيزي القارئ، لطائفُ من أخلاق المصطفى، وسُمُوِّ سجاياهُ ﷺ.

الصوّامة القوّامة
في بَيْتِ النبوّة

يُروى عن تقواها ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ كثيرٌ من الوقائع الطريفة التي تدل على تَغَلْغُلِ الإِيمانِ والإِسلامِ في أعماق قلبها، وفي صميم وجدانها.

فقد صلّى رسُول اللَّه ﷺ ذات ليْلِ الفجْر، ثُمّ خَرَج من عِنْدها، فجلس حتى ارتفع الضُّحى، ثُمّ جاءها في بيتها وهي لا تزالُ في مُصَلاَّها، حَيْثُ أَدَّتْ فريضة الفجْرِ خَلْفَهُ.

فقال: «ما زِلْتُ على الحال التي فارقتكِ عليها». قالت: نعم.

---

(1) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (8/ 118).

(2) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (8/ 118 ـ 119).

فقال النبيُّ ﷺ:

ـ «لقد قُلْتُ بَعْدَكِ كلماتٍ لوْ وُزِنَّ لَرَجَحْنَ بما قُلْتِ، قُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّه عَدَدَ ما خَلَق، سبحان اللَّه رضى نَفْسِه، سبحان اللَّه زِنَةَ عَرْشِه، سبحان اللَّه مِدادَ كلماتِه»[1].

ويروي أيضاً **عبد اللَّه بن عُمرو بنِ العاص** ـ رضيَ اللَّهُ عنه ـ:

ـ أَنَّ رسُول اللَّه ﷺ دَخَلَ على **جُوَيْرية بِنْتِ الحرثِ** يَوْم جُمُعَةٍ وهي صائمةٌ، فقال لها:

ـ أصمْتِ أَمْس؟

قالت:

ـ لا.

قال:

ـ أفتُريدينَ الصَّوْمَ غداً؟

قالت:

ـ لا.

قال:

ـ فأَفْطِري إذاً[2].

* * *

بينها وبين أزواجه ﷺ

المرأة هي المرأة...، في كُلِّ زمانٍ ومكان، قد ركّب اللَّه سبحانَهُ وتعالى فيها غرائز مُعَيَّنة محدّدة، وهي تتسَلْسَلُ في الإنسانية والبشرية منذُ حواءَ إلى يَوْمِنا هذا، إلى أن يَرِثَ اللَّهُ الأَرْضَ وَمَنْ عَليها.

---

(1) والحديث بتمامه وبطوله رواه الإمام مسلم في «صحيحه» (2726) والإمام أحمد (10/ 26820) وابن حبان (3808) وأبو داود (1503) والترمذي (3555) والنسائي (1351) وابن ماجه (3808) وغيرهم.

(2) الحديث بتمامه رواه البخاري في «صحيحه» (1986) والإمام أحمد (10/ 26817) وأبو داود (2422) والنسائي في «الكبرى» (2753 ـ 2754) وابن خزيمة (2162) وابن حبّان (3611) والبيهقي (4/ 302) وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (119 ـ 120).

ولقد سبق لنا وتحدّثنا في أكثرَ من مناسبةٍ عن عاطفة **الغيرة** التي كانَتْ تَثُورُ وتتفاعَلُ في نفوسِ أزواج النبي ـ ﷺ ـ.

إحداهُنّ تغارُ من الأُخرى، ومن الجديدةِ دائماً على وَجْهِ الدقّة.

ولَقَدْ كَوَّنَّ فيما بينهُنَّ ما يُشبِهُ الأَحْزاب، فكانت **عائشة** و**حفصة** في جَبْهةٍ واحدة، وكذلك الأُخريات، رضيَ اللَّهُ عَنْهُنّ أجمعين.

ونُحِبُّ أن نَقُولَ بأَن تلك **الغيرة** قد تهذَبّتْ كثيراً وخَفَّتْ حِدَّتُها بفضْلِ توجيهات الرسول العظيم والنبيّ الكريم ـ صلواتُ اللَّه وسلامهُ عليه.

وأَيْضاً فإن تلكَ الغيْرةَ لم تَكُنْ لِتَخْرُجَ عن إِطارٍ محدود إلى مجالِ الأذى أو الضّرَر، معاذَ اللَّه.

* * *

ولقد جاءَتْ **جُوَيْرِيَةُ** رضيَ اللَّهُ عنها ـ ذات يَوْم ولمْ يَمْضِ على زَواجِها إلا أيامٌ قلائل إلى رسول اللَّه ﷺ وسيماءُ الحُزنِ والأسى باديةٌ في عينيْها الدامعتين، ثم قالت:

ـ يا رسُولُ اللَّه إنَّ نساءَك يَفْخَرْنَ عليَّ، يقُلْن: لم يتزوّجكِ رسُول اللَّه . . .

فهَدْهَدَ ﷺ من ثورةِ نفسها، وطَمْأَنَ من حِدَّة غضبتها وحُزْنِها إذ قال لها:

ـ أَلَمْ أُعظِّمْ صِداقكِ؟ ألم أعتقْ أربعين من قَوْمك؟

* * *

فسكتَتْ **جويرية** سكُوتَ الرضى، ومَسَحَتْ ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ دمعتَيْن جَرَتا على وجْنتَيْهَا.

أُمُّ المؤمنين

وَلَقَدْ أَضْحَتْ رضيَ اللَّهُ عنها ـ بإكرام النبي ﷺ لها، وإِعْزازه لمكانتها دُرَّةً ثمينةً في عِقْد أَزْواجه الفاضلات.

وضُرِبَ عليها الحجابُ مِثْلهُنّ، وفرِضَ عليها ما فُرِض عليهنَّ من الواجبات والحقوقِ أَيْضاً.

وكان يُقْرَعُ لها مِثْلَهُنّ في الخروجِ مَعَهُ ﷺ في الغزوات، والحجّ والعُمْرة. . .

وكذلك كان يُسْهَمُ لها فيما يحصل عليه المسلمون من غنيمةٍ وقَدْ ذُكِرَ أَنَّ رسُولَ اللَّه ﷺ قد أطعم **جُويْرية** يَوْمَ **خَيْبَر** ثمانين وسقاً تَمْراً، وعشرين وسقاً قَمْحاً، كما حَجَّتْ واعْتَمَرَتْ مع رَسُولِ اللَّه ﷺ.

والّذي يُراجعُ وقائع وأحْداث **يَوْم خَيْبر** يرى أنّهُ ﷺ قد اصطحب مَعَهُ آنذاك أكثَرَ نسائِهِ.

تُرى. . . هل كان ذلك مِنْهُ إرهاصاً وتنبؤاً بطول المقام والحصار؟ أمْ أن مُجْرياتَ حياتِهِ ـ ﷺ ـ كانت وَفْقَ تدبير إلهيّ سماويّ؟

كلا التفسيرَيْنِ عندنا مقبولٌ ووارد.

فَأَكْرِمِ اللَّه ـ تعالى، ورسوله.

بَعْدَ رسُول اللَّه ﷺ

اشْتَدّت العلَّةُ برسُول اللَّه فاستأذَن من نسائِهِ ـ ومن بينهِنّ **جُوَيْرية** أن يُمَرَّض فِي بَيْت **عائشة** التي كانت أَحَبَّهُنّ إلى قَلْبِهِ، فأذِنَّ لَهُ.

وكانَتْ **جُوَيْرِيَةُ** تأتي وتمكُثُ للاطمئنانِ عليْه، وحين تَخْلُو بنفسِها في دارها، تبكي وتتألّم. . .، وتسألُ اللَّه تعالى أن يخفّفَ ما برسُولِ اللَّهِ ﷺ من ألمِ المرض.

فلما كان يومُ وفاتِهِ ﷺ ولحوقِهِ بالرَّفيقِ الأعلى، كانَتْ **جُوَيْرِيَةُ** بينَ الحضُور، بل كانَتْ أَدْنَى النّاس من فراشِهِ، تتأمّلُ الوجْهَ الشريف، وتذكُرُ الأيام الخالية، وتنظرُ إلى المستقبلِ المجهول بعين القلق، ثم تبكي ولكنْ دونَ نحيبٍ أو عَويل.

وانفضّ المأتَمُ. . .

وعاد كُلٌّ إلى داره ومأواه، وعادت **جويرية** إلى وَحْدتها ليس لها من أنيسٍ أَوْ جليس، سوى اتصالها الدائم باللَّه تعالى عن طريق عبادتها، قياماً وصياماً.

ومرَّتِ الأعوام. . .

فكانَتْ رضيَ اللَّهُ عنها ـ شَأْن أُمّهاتِ المؤمنين جميعاً موضعَ حفاوةٍ واحترامٍ وتقديرٍ من أجلاّء الصَّحابة.

تصِلُها أُعطياتُها ومخصَّصاتُها من بَيْتِ المال فتُنْفِقُها كُلَّها على المساكين والمحتاجين والفقراء، تأسِّياً بسيّد الخلق ﷺ، الذي عَلَّمَهُنَّ أعظمَ الأمْثُولات، وأسمى الدروس.

وكانت تقصِدُ إلى الحج من كُلِّ مَوْسم عِنْدما يؤذّنُ المؤذّنُ بالرحيل؛ فتؤدي المناسك بقلبٍ طاهرٍ خاشع، ونَفْسٍ وَضَّاءةٍ مُشْرِقَة؛ وتعُودُ إلى **المدينة** حيثُ مُسْتَقَرُّها بجوارِ الحبيب ﷺ.

فتقيم في بَيْتها وحُجْرتها عابدةً خاشعة، وتستأذن في زيارة الرمْسِ الطاهر بين الحين والآخر لتقف عِنْدَهُ بكُلّ صفائها وحُبّها واحترامها، مُسْتَرْجعةً أيّام الذكرى، متشوّقةً ليْوم اللقاء في الجوار الكريم.

موقفها من الفِتَن

وعَصَفَتْ في أَيّام خلافةِ **عثمانَ بن عفّان** ـ رضيَ اللَّهُ عنه ـ الفِتَنُ بالمسلمين، وذَرَّ قرنُها، وأطلّتَ الأُمّةِ برؤوسٍ كالشياطين.

فوقَفَتْ **جويريةُ** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ من الخصوماتِ مَوْقِفَ المحايدَةِ الحريصةِ على وحدةِ الأمة وترابطها وتماسكها فكانت لا تصْدُرُ في أقوالِها وأفعالِها إلاّ عن دَعْوَةٍ إلى الخيْرِ والمحبّةِ والسّلام، فلا تناصرُ فئةً على فئة، ولا تقفُ إلى جانبِ جماعةٍ دون أُخرى.

اعْتَزَلَتْ يومَ **الجمل** بعد استشهاد **عثمان** ـ رضيَ اللَّهُ عَنه ـ، بل وجَّهتِ النصيحةَ إلى **عائشة** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ كما فعلت **أمُّ سلمة** وغيرُها من أمّهات المؤمنين.

إذ رأتْ أَنَّهُ أَجْدرُ وأَليَقُ بها أَنْ لا توريَ الزِّناد، وأَنْ لا تُعاديَ طرفاً على حساب مستقْبلِ الأمة الإسلامية.

وكانَتْ رضيَ اللَّهُ عنها تدعو اللَّه تعالى أنْ يحجِبَ دماء الناس، ويحقنَ دماء وأرواحَ المسلمين، ويُلهمَ الجميعَ الصوابَ والسَّدادَ والرّشاد.

وكذلك فعلت بعد استشهادِ **عليّ** كرَّم اللَّه وَجْهَه؛ لقد لَزِمَتْ دارَها وألْزَمَتْ نفسَها مَوْقِفَ الحقِّ والعَدْلِ وحُبِّ المسلمين جميعاً.

وفـاتـهـا

ولما أَطلَّ شَهْرُ ربيعِ الأولِ من العامِ السادسِ والخمسين للهجْرة كانت **جُوَيرِيةُ** قد شاخَتْ، ووهَنَ منها العظمُ، وضَعُفَت. . .

ووقعتْ تحتَ وطْأةِ المرضِ الذي لم ينفعْ مَعَهُ عِلاج، ثم وافتها المنيّةُ، وانتقلت إلى الجوارِ الكريم.

وصلّى عليها والي المدينة في ذلك الحين **مروانُ بنُ الحكم** وكانت جنازتُها مشهودة.

رضيَ اللَّهُ عن أُمّ المؤمنين، الحسيبةِ النسبية، الطاهرةِ العفيفة، التقيّةِ النّقيّة، الصوّامةِ القوّامة، المتصدّقةِ الكريمة. **جويرية بنت الحرث** وأكرَمَ مَثْواها[1].

* * *

(1) أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (9/ 15371) والإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (2/ 263) وابن سعد في «طبقاته» (8/ 120) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 367) وابن الجوزي في «صفوة الصفوة» (49).

رَمَلةُ بنت أبي سفيان(1)

(أم حبيبة)

رضي اللّه عنها

في بيت أبي سُفيْان

كانت ولادةُ رَمْلة قي العامِ الخامسِ والعشرين قبلَ الهجرة، أيْ قَبْل مَبْعثِ النبيِّ ﷺ بثلاث عشرةَ سنة.

ووالدها **أبو سفيان ـ صَخْر بن حَرْب بن أميّة**.

نَشَأَتْ نَشْأَة بنات الأشرافِ من العرب، على التّرف والْعِزّ والرفاهيَة، والتضلُّعِ في الأدب، وحِفْظِ الشّعر، والمأثورِ من القوْلِ والحكمة.

ولقد جمعتْ إلى رفعةِ النَّسَبِ والحسبِ الغنى الوافر والجمالَ الباهر، فكانَتْ محطّ الأنظار، ومجالَ الافتخار، وَوَدّ أكثرُ شبابِ قُرَيْشٍ أن يتخذَها زوجةً له، فتنافسوا عليها، حتى تطاحنوا في سبيلِ ذلك.

فقد كانَتْ مكانةُ والدِها وزعامتهُ في قريشٍ ذاتَ أثرٍ كبيرٍ في تلك الرغبة التي تملّكت الشّبان، وحَفَزَتْهُم إلى طلبِ هذا الشّرفِ والسؤْدَد.

غَيْر أن رمْلَةَ الشابّةَ الناضجة المتعلّمة كانَتْ تتريّثُ في الإختيار والموافقة، وتتأنّى في الإِيجاب، حتى لا تَقَع في محذورٍ تكرهه مستقبلاً.

---

(1) نسبها: قال ابن سعد ـ رحمه اللّه تعالى ـ في «الطبقات الكبرى» (96):
هي رملة بنت أبي سفيان بن حرب بن أُميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصيّ، وأُمها صفية بنت أبي العاص بن أُميّة بن عبد شمس، عمة عُثمان بن عفان ـ رضي اللّه عنها.
ورملة من بنات عمِّ الرَّسُولِ ﷺ، ليس في أزواجه من هي أقربُ نسباً إليه منها.

وكذلك والدها **أبو سُفيان** الذي آثر أن يُشَاركها في طول الأناة سَعْياً وراءَ الكفاءَة والتماثل الاجتماعي بَيْن الخاطب وخطيبته.

الــزواج

جاءها **عُبَيْد اللَّه بن جحش** خاطباً، وكان شاباً مرموقاً يتمتّعُ بالوسامة، والجاهِ العريض؛ والحسبِ الرفيع؛ أضِفْ إلى ذلك تَضَلُّعَه في علوم الدياناتِ وأُصولها، إذ كان ملازماً لـ **ورقةَ بنِ نوفل** الذي كان قابَ قوْسينْ أوَ أَدْنى من التَّنَصُّر، والذي كان من مُتحنِّفي الجاهلية، راغباً عن عبادةِ الأصنامِ والأوثان، كارهاً لها، مُسْتَخِفًّا بأصحابِها... والعاكفين عليها.

فقبِلَ **أبو سفيان** بـ **عُبَيْد اللَّه** زوجاً لابنتِه الحبيبةِ **رمْلة**.

في حضن الزوجيّة

كانتْ **رملةُ** فتاةً قرشيةً مكيَّةً ناضجةَ العقل، واضحةَ الفكر، عاقلةً مدْركة، على قِسْطٍ وافرٍ من العلم والمعرفة، تقرأ وتكتُب.

فكانتْ مَعَ زَوْجها **عُبَيْد اللَّه** بن جحش على خَيْرِ ما يكون الزّوجانِ تفاهُماً وتقارُباً ومحبة.

إن عَرض أمْرٌ من الأمور، أو وقع حادثٌ من الأحداثِ الجسام، أَبْدَتْ **رملةُ** رأياً ناضجاً، وحُكْماً صائباً.

ومَضَتْ بهما الأيّام...

حتى كانت نبوّةُ وبعثةُ **محمد بن عبد اللَّه** ـ عليه السلام ـ وتأثّر بها **عُبَيْد اللَّه** بادئِ تأثّراً سطحيّاً، لامس بعضَ جوانبِ نَفْسه، إذ خَضَعَ لمؤثّراتِ قرابته من رسُول اللَّه ﷺ، فقد كان ابن عَمّتِهِ، وأيضاً بسببِ كلماتِ المديح التي كانت يسمعُها من **ورقة بن نوفل** عن نُبُوّة **محمد** ﷺ.

وقد كان يرى من هُوَ على شاكلةِ **عُبيد اللَّه** ـ وهُمْ قِلّة ـ في هذه النزعة، نوعاً من التعالي على مُجْتمعهم الوثنيّ العاكف على الأصنام.

ويرى آخرون من لطيف حِسّهم ورقّة شعورهم وصفاءِ وُجدانهم في مَذْهَبِ الجاهليين إسقافاً عقليًّا.

فهُمْ يَتَلَمَّسونَ طريق الهداية.

الزوْجانِ المهاجران إلى الحبشة[1]

أَسْلم عُبَيْد اللَّه ثم هاجر إلى الحبشة ومعه زوجَتُهُ رمْلة في جملة من

(1) الخبر بتمامه وبطوله ـ أورده ابن سعد «طبقاته» (8/ 97 ـ 98):
أخبرنا محمد بن عمر، حدّثنا عبد اللَّه بن عمرو بن زهير عن إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص قال: قالت أمُّ حبيبة: رأيتُ في النوم عُبيد اللَّه بن جحش زوجي بأسوإ صورة وأشوهه ففزعت، فقلت تغيّرت واللَّه حاله، فإذا هو يقول حيث أصبح: يا أمَّ حبيبة إنّي نظرتُ في الدين فلم أر ديناً خيراً من النصرانيَّة، فقلت: واللَّهِ ما خير لك. وأخبرته بالرؤيا التي رأيت له فلم يحفل بها وأكبَّ على الخمر حتَّى مات. فأرى في النوم كأن آتياً يقول: يا أمَّ المؤمنين! ففزعت، فأوّلتها؛ أنّ رسول اللَّه يتزوّجني.
قالت فما هو إلا أن انقضت عدّتي فما شعرتُ إلا برسول النجاشيِّ على بابي يستأذن فإذا جارية له يقال لها أبرهة كانت تقوم على ثيابه ودهنه. فدخلت عليَّ فقالت: إنّ الملك يقول لك إنَّ رسول اللَّه ﷺ، كتب إليَّ أن أزوّجكه.
فقالت: بشّرك اللَّهُ بخيرٍ.
قالت: يقول لك الملكُ وكّلي من يزوّجك.
فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكَّلته وأعطت أبرهة سوارين من فضّةٍ وخدمتين كانتا في رجليها وخواتيم فضّة كانت في أصابع رجليها سروراً بما بشَّرتها.
فلمَّا كان العشيُّ أمر النجاشيُّ جعفر بن أبي طالب ومن هناك من المسلمين فحضروا.
فخطب النَّجاشي فقال: الحمد للَّه الملك القدّوس المؤمن المهيمن العزيز الجبَّار، أشهد أن لا إله إلا اللَّهُ وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله وأنَّه الَّذي بشَّر به عيسى بن مريم عليه السلام، أمَّا بعد. فإنَّ رسول اللَّه كتب إليَّ أن أزوّجه أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، فأجبتُ إلى ما دعا إليه رسولُ اللَّهِ، وقد أصدقتها أربع مائة دينارٍ. ثمَّ سكب الدّنانير بين يديِّ القوم.
فتكلم خالد بن سعيد فقال: الحمدُ للَّهِ أحمده وأستعينه وأستنصره وأشهدُ أن لا إله إلا اللَّهُ وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلّه ولو كره المشركون، أمَّا بعد، فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول اللَّه وزوَّجته أُمّ حبيبة بنت أبي سفيان فبارك اللَّهُ لرسول اللَّه. ودفع الدنانير إلى خالد بن سعيد بن العاص فقبضها.
ثمَّ أرادوا أن يقوموا فقال: اجلسوا فإنّ سنَّة الأنبياء إذا تزوَّجوا أن يؤكل طعامٌ على التزويج. فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرَّقوا.
قالت أم حبيبة: فلمَّا وصل إليَّ المال أرسلت إلى أبرهة التي بشّرتني فقلتُ لها: إنِّي كنت أعطيتك يومئذٍ ولا مال بيديّ فهذه خمسون مثقالاً فخذيها فاستعيني بها. فأبت! فأخرجت حقّاً فيه كلُّ ما كنت أعطيتها فردّته عليَّ وقالت:
عزم عليَّ الملك أن لا أرزأك شيئاً وأنا التي أقوم على ثيابه ودهنه، وقد اتَّبعت دين محمَّد رسول اللَّه ﷺ، وأسلمتُ للَّه، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكلِّ ما عندهنَّ من العطر.
قالت: فلمَّا كان الغد جاءتني بعودٍ وورسٍ وعنبرٍ وزبادٍ كثيرٍ، فقدمتُ بذلك كلِّهُ على النَّبيِّ ﷺ، فكان يراه عليَّ وعندي فلا ينكره. =

هاجر من المسلمين. وما كادت قدماه تطأُ أرضَ **النجاشي** حتى عاوده حنينهُ إلى الماضي، إلى بعضِ نصرانيَّتِه التي كان عليها.

وحدث أن استيقظت **رملةُ** ذاتَ يَوْمٍ على حُلُم مزْعجٍ رهيب، فقد رأت في منامها زوجَها **عُبَيْد اللَّه** بوجْه غيرِ وجهِه الحقيقي، رأتْهُ دميماً بعد أن كان وسيماً، وقبيحاً منكراً بعد أن كان جميلاً، فاستعاذَتْ باللَّه من ذلك.

وبينا هي في شؤونها الخاصةِ منشغلةٌ منهمكة، أتاها **عُبَيْد اللَّه** مُعْلناً نصرانيَّته داعياً إيّاها إلى متابعته ومشاركته، فَأَبَتْ ورفضتْ واستكْبَرَتْ، ولاذَتْ بإيمانها، ثُمّ أدركتْ مغزى الحُلُم الذي رأتْه في ليلتِها، ورجَعَتْ بها الذاكرة إلى تفاصيلِه ودقائقِه.

وحَدَّثَتْ زوجَها **عُبَيْد اللَّه** بذلك، كما دَعَتْهُ إلى الثباتِ على الإيمان والإسلام، فرفض وأصَرَّ على الرفض، وخَرَجَ من بَيْتِه إلى جماعةِ المسلمين المهاجرين ليقول لهم:

ـ فَقَحْنا وصَأْصَأْتُمْ أي أَبْصرنا وأنتُم تلتمسون البصرَ والرؤية ولم تُبصروا بَعْدُ.

ثُمّ انكبّ على الخمرة يَعُبُّ منها حتى الثمالة، واستمرَّ على ذلك أيّاماً طِوالاً، حتى احترق كبِدُهُ والْتَهَبَتْ أمعاؤُه، فقضى كافراً[(1)].

الأرمــلــة

قَضَتْ **رملةُ** أيامَها في دارِ الهجرة بَين عذابَين: عذابِ البُعْدِ عن الوطنِ والأهل، وعذابِ الترمّل وفقدْ الزوْجِ والمُعيل.

= ثم قالت أبرهة: فحاجتي إليكِ أن تقرئي رسول اللَّه ﷺ منّي السَّلام وتعليمه أنّي قد اتَّبعت دينه. قالت ثمَّ لطفت بي وكانت الَّتي جهزتني، فكانت كلَّما دخلت عليَّ تقول: لا تنسي حاجتي إليك.

قالت: فلمَّا قدمت على رسول اللَّه أخبرته كيف كانت الخطبة وما فعلت بي أبرهة، فتبسَّم رسول اللَّه، وأقرأته منها السَّلام. فقال: «وعليها السَّلام ورحمة اللَّه وبركاته».

(1) وقال ابن عساكر في «تاريخه» (69/ 143) من طريق ابن سعد: ولد أبو سفيان بن حرب: حنظلة، قُتِلَ يوم بدر كافراً، ولا عقب له. وأم حبيبة. زوجها عبيد اللَّه بن جحش بن رئاب الأسدي، حليف بني عبد الشمس. فولدت له حبيبة، ثم تُوفي عُبيد اللَّه مرتداً بأرض الحبشة.

ولكنَّها بما أوتيتْ من إيمانٍ عظيم، استطاعتْ أن تَصْمُدَ في وَجْه المحنةِ، كما لقيت من إخوانها المسلمين المهاجرين كُلَّ عَوْنٍ وسَنَد، ورعايةٍ وحنان، فتعوَّضَتْ عمّا هي فيه من الْعَنَتِ، وعذاب النفسِ والقلق.

فكانَتْ أيَام هجرتها إلى الحبشة من أَصْعَبِ وأَشَدّ فتراتِ حياتها وسنِي عُمْرها قَسْوَةً ووحشةً وجَفْوة.

وذلك ابتلاءٌ من اللَّه تعالى وامتحان لإيمانها ويقينها، فإن هي صَمدت وصَبَرت نالَتْ الجزاءَ الأوْفى.

ولقد كان جزاؤها ـ رضي اللَّه عنها ـ أَحْسَنَ الجزاءِ وأكرمه.

خطبة كريمة

عندما أَرْسَلَ رسُولُ اللَّه ﷺ رُسُلَه وكُتُبَهُ إلى الملوك والأمراء في أنحاءِ الأرض يدعوهم إلى الإِسلام بعد هجرته إلى المدينة، لم يَنْسَ الرسُولُ العظيمُ في رسالته إلى النجاشيّ ـ ملك الحبشة ـ أن يذكُرَ **رملة** بخير، وأيُّ خَير أعظمُ من أن يخطُبها لنفسه، مواسياً لها في غربتها وكُرْبتِها، مُعَزّياً لها في تَرَمُّلها!!

فَقَدْ حَمَلَ **عمرُ بنُ أميّة الضّمْريّ إلى النجاشي** كتابَ رسُول اللَّه ﷺ الذي يدعوهُ فيه إلى الإِسلام؛ وقد ضَمّنَهُ طلباً كريماً هُوَ أن يخطبَ له النجاشيُّ: **رملة بنت أبي سفيان**.

فقبل النجاشيُّ مهمةَ الخاطب، وأَرْسَلَ إلى **رَمْلَةَ** إحدى جواريه تَحملُ لها النبأَ السعيد، فصاحَتْ **رملةُ** قائلةً:

ـ بَشَّرَكِ اللَّه خَيْراً...

ثمّ وكّلتْ عنها **خالدَ بنَ سعيد بنِ العاص** لإتْمام مراسمِ الزيجة.

فلما كان المساء من ذلك اليوم، دعا النجاشيُّ المسلمين اللاجئين عنده إلى قصره وخطب فيهم قائلاً:

ـ لقد كتب إليّ **محمد** ـ ﷺ ـ أن أُزوِّجَهُ **رملة بنت أبي سفيان ـ أم حبيبة**، فأَجَبْتُ إلى ما دعا إليه، وأصدقْتُها عَنْهُ أربعَ مائةِ دينار.

ثم سكب الدنانيرَ بين يدي القوم.

عندئذٍ نهض وكيلُها **خالد بنُ سعيد بنِ العاص** وقال:

ـ الحمدُ لِلَّه، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمداً عبدُهُ ورسوله، أرسله بالهُدى ودين الحق ليُظهر على الدين كُلّه ولو كره المشركون، أما بعد، فقد أَجَبْتُ إلى ما دعا إليه رسولُ اللَّه، وزَوّجْتُه **رَمْلة** فبارِكَ اللَّهُ لرسُولِ اللَّه.

ثُمّ دُفِعَتِ الدنانيرُ لـ **خالدٍ**، ولما أراد القوْمُ الانصرافَ، قال لهُم **النجاشي**:

ـ اجلسوا. . . فسُنّةُ الأنبياء إذا تزوّجوا أن يقدّموا الطعام لمن حَضَرَ الزَّواج.

ثم دعا بطعام، فأكلوا ثم تفرقوا.

الحكمة السامية

لقد استطاع رسولُ اللَّه ﷺ بحكمته أن ينالَ بهذا الزَّواج أموراً كثيرة، ويحقّقَ أغراضاً عظيمة، وأهدافاً سامية.

فبالإضافةِ إلى المواساةِ التي لقيتْها **رملة**، فاستكانتْ نفسها بعد قَلَق، وهدأتْ بعد اضطراب، فقد نال رسُول اللَّه ﷺ فَتْحاً عظيماً على أكبرِ عدوٍّ له ولدينه ودعوته، انتصر على والدِها **أبي سفيان** ـ صخر بن حرب بن أميّة ـ الذي كان يترأسُ حِزْبَ الشيطان، ويقودُ كلَّ مؤامرةٍ ومعركة، ويتزعّم كُلَّ جيش.

ولقد قال **أبو سفيان** عندما علم بأمرِ هذه الزِّيجة، ونُقِلَ إليه هذا النبأ:

هذا الفَحْلُ يعني رسول اللَّه ﷺ لا يُجْدَعُ أَنْفُه.

وهكذا كان رسُولُ اللَّه ﷺ يقضي في الأمور ويتصرَّفُ بحكمةٍ عاليةٍ وهِمّةٍ سامية.

لم تكن لتتحرَّكَ فيه إلاّ رغبتُهُ في الحِفاظِ على وَحْدَةِ المسلمين وتَماسُكِهِم، ومواساتِهِم والانتصارِ لهم، فَهُوَ أوْلى بالمؤمنين من أنفسهِم وأزواجُهُ أُمَّهاتُهم.

﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۞ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة: 128، 129].

في البيْتِ النبوي

ولما كان يَوْمُ **فَتْح خيبر** وَوَصَل وفْدُ المهاجرين العائدين من الحبشة، بعد طولِ غياب، قال رسول اللَّه ﷺ:

ـ لا أدري بماذا أفرح؟ بفتْحِ خيبر؟ أم بقدوم جعفر وكانَتْ **رملة** ـ أم المؤمنين ـ رضيَ اللَّه عنها ـ مع الوفدِ القادم بقيادةِ **جعفرِ بنِ أبي طالب** ـ رضيَ اللَّهُ عنه ـ فبنى بها رسُولُ اللَّه ﷺ، وأقامت في بيته زَوْجَةً تُقَدِّرُ مسؤوليّتَها، وتحفظُ مكانتَها، وتحرِصُ على إسعادِ زوجها.

وعرف لها رسُولُ اللَّه ﷺ قَدْرَها فأغْدَقَ عَليْها من فَيْضِ حنانِهِ وحُبّه ورعايته وعطفِه.

الشَّجاعة في الحق

وليس أدلَّ على وفائِها وإيمانها ودينها من تلك الحادثةِ المشهورةِ في حياتها؛ إذ قُدِّر لها أنْ تواجهَ والدَها **أبا سفيان** وَجْهاً لِوَجْهِ.

هي مؤمنةٌ، وزوجةٌ لرسول اللَّه... وهو كافرٌ مشركٌ، سيدُ قريش بلا منازع، له رهْبةٌ وهيبة.

ولكنَّها رضيَ اللَّهُ عنها، وقفتْ منه موقفَ النِّدِّ للنِّدِّ، لا تخشى أذاه، ولا ترهبُ سَطْوتَه، ولا تجزعُ من سلطانه وجَبَروتِه، عَرّفَتْهُ مكانتَه بين الإِيمانِ والكفرِ بمنتهى رباطةِ الجأشِ والسكينة، وقالت بالفمِ الملآن:

أبي الإِسلامُ لا أبَ لي سواهُ ... إذا افْتَخروا بقيْسٍ أو تميمِ

وتُعْلن بكُلّ فَخْرٍ واعتزازٍ ولاءها لِلَّهِ تعالى ولرسوله لا لأحدٍ سواهُما.

فقد حَدَث بعد فَتْرةٍ من عَقْد صُلْح الحديبية بَين رسول اللَّه ﷺ وبَين وفْد من قريش، أن نقض حُلفاءُ قريش **بنو بكر** هذا الصُّلْح، فجاء أحدُ **بني خُزاعة** ـ حلفاء النبي ﷺ مستجيراً به، فَوَعَدَهُ خَيْراً وطَمْأنَهُ.

وأَدْرَك **أبو سفيان** ـ زعيمُ قريش مَغَبَّةَ الأمر، واستشعر في نفسِه خُطورته، فجهّزَ نفسَه وقصد إلى المدينةِ المنوّرةِ ليثّبتَ مع رسُول اللَّه ﷺ العِقد وليُمدِّدَهُ.

فلما انتهى إلى المدينة، دَخَلَ على ابنته **رملة** يطلبُ وساطتَها لدى رسول اللَّه، ثُمّ أراد أن يجلس ليستريحَ على فراش النبي، فطوتْهُ عَنْهُ **رملةُ** ابنتُه، فقال لها:

ـ يا بنيّة!! ما أدري أَرَغِبْتِ بي عن هذا الفراش، أم رغبْتِ به عَنّي؟

فأجابته قائلةً:

ـ بل هو فراشُ رسول اللَّه ـ ﷺ ـ وأَنْتَ رجُلٌ مُشرِكٌ نجِس، ولا أُحِبُّ أن تَجلسَ على فراشِ رسولِ اللَّه.

فقال لها:

ـ واللَّه لقد أصابكِ يا بُنيّةُ بعدي شَرٌّ...

فأجابت:

بل هداني اللَّه للإِسلام، وأَنْتَ يا أبتِ سيّدُ قريشٍ وكبيرُها كيْف يسقُطُ عنك الدخولُ في الإِسلام، وأنت تعبدُ حجراً لا يسمعُ ولا يُبْصر.

استمع إليها وهُو يكادُ يَتميّزُ من الغيظ، ثم خَرَجَ غاضباً، فقد إلى **أبي بكر الصديق** و**عُمَر بن الخطاب** يتوسطُهما، فرفضا...

ثم جاء إلى النبي ﷺ...، فَصَدَّهُ ولم يَقْبَلْ وساطَتهُ.

وهكذا عاد **أبو سفيان** إلى مكّةَ فاشلاً خائباً خاليَ الوِفاض، وقد عابتْهُ زوجتُهُ **هندُ بنتُ عُتبة** قائلةً:

ـ قُبّحْتَ من سفيرِ قومٍ... فما جئْتَ بخيْر.

تحية وتقدير

وقفةُ إجلالٍ وإكبارٍ نَقِفُها أمامَ أُمّ المؤمنين **رَمْلَة** نحبّي فيها صلابةَ إيمانها، وقوةَ إسلامها، وعظمةَ شخصيّتها، ونُقَدِّرُ فيها سُموَّها وارْتفاعَها عن أَوْضارِ الجاهليةِ والقيم التي تعارف عليها أهلُها، وتعاملوا فيما بينهم على أُسُسِها، فإذا بِـ **أمّ حبيبة** ـ **رملة** ـ رضيَ اللَّهُ عنها، تنقضُها دفعةً

واحدة وترمي بها في وجوهِ أصحابها، فلا تعتمدُ إلاّ على اللَّه، ولا تثِقُ إلا باللَّه، ولا تلجأُ إلا إليْه.

ولا تقيمُ لنسبٍ وَزْناً إلا نَسَبَ الإِيمان والإِسلام؛ وهكذا المؤمنُ الحق، لا يعرفُ صلةً إلاَّ الصلةَ باللَّهِ وَحْدَه.

وحينَ علم النبيّ ﷺ بما كان بَين **رملة** و**أبي سفيان** ـ والدِها ـ ازدادتْ قيمتُها في نظره، وسَمَتْ مكانتُها في قلبه، فبالغ في إكرامِها وتقديرِها كفاءَ ما قَدَّرتْ وعَظّمتْ حُرْمة الدين

كما عَلَتْ مكانَتُها بَيْن أخواتها من أُمّهاتِ المؤمنين والصحابيات الكريمات.

وقَدّر كبارُ الصحابةِ ـ رضوانُ اللَّه عليهم ـ ما انْطَوَتْ عليْه نفسيَّةُ **أم حبيبة** من إباءٍ وشمَم مبعثهما الإِيمان العميق، وحُبّ المصطفى ﷺ.

بعد رسُول اللَّه ﷺ

بعد أن اختار اللَّه تعالى نبيَّه **محمداً** ﷺ إلى جواره، أقامت **رملةُ** في بيتِها وفيَّةً لذكرى رسول اللَّه، الزوج الحبيب.

وعَرَف لها الناسُ جميعاً، العامةُ والخاصةُ الخلفاءُ والأصحاب، الرجالُ والنساء، والكبارُ والصغار، عرفوا مكانتَها ومقدارَها فاحترموها وأَجَلُّوها، وفاءً منهم لنبيِّهم صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليه.

كان الخلفاءُ يأْتونها زائرين، ويَعيلُونها بالمالِ الذي يكفيها مؤونةَ الحاجةِ والسؤال.

وكم من فتنةٍ حدثت بعد رسول اللَّه ﷺ، فلم تشاركْ فيها، لا بالقول، ولا بالفعل، ولم تنطِقْ بكلمةٍ يُشْتَمّ منها تحَيّزٌ لفريقٍ دونَ آخر، بل حَرَصَتْ كلَّ الحرصِ على أن تقول الكلمةَ الطيبةَ التي تدعوا إلى وَحْدَةِ صَفّ المسلمين والتفافِهم حَوْلَ الدين واعتصامِهم باللَّه ربِّ العالمين، واسْتِمْساكهم بحبْلهِ المتين.

وروَتْ من الحديث ما سمعتْ عن رسول اللَّه ﷺ، فأسْهَمَتْ في تنمية التراث العلميِّ الإِسلاميّ.

لقد كانت رضيَ اللَّهُ عنها سيّدةً جليلةً بكلِّ ما في الكلمة من معنى، وقورةً هادئةً، لا يستخفُّها أَمْرٌ أوْ حَدَثٌ، مهما بلغ عُنْفُهُ أو فاعليّتُه.

النـهـايـة

ولم تكن تخرجُ رضيَ اللَّهُ عنها من بَيتها إلاّ لصلاةٍ، ولم تكن تَتْرُكُ المدينةَ إلا لحَجّ.

ولما كان العامُ الرابعُ والأربعون بعد الهجرة، أَحسَّتْ **رَمْلَةُ** بالضعف يَسْري إلى جسمها، والوهَنِ يدِبُّ في كيانِها، كيف لا؟ وقد شارفت على نهاية العقْد السابعِ من عمرها.

وما هي إلا أيّامٌ حتى تَوَفّاها اللّه تعالى، فدُفِنَتْ بالبقيع[1]. رضي اللّه عنها وأنزلها منزلاً مباركاً طيّباً، وألحقَنا بها في زُمرةِ الصالحين من عباده.

مسلمات اليوم

ما أحوجَ مسلماتِ اليوم أن يقرأْنَ سِيَرَ السابقات، المؤمناتِ القانتاتِ العابدات، ليذْركنَ الفرقَ الكبيرَ والبوْنَ الشاسعَ بينهُنّ وبين الرعيل الأوّل الذي حَمَلَ ـ بكلِّ أمانةٍ ـ مسؤوليتَهُ في حياةِ الأمةِ كاملة، وأدّى قسطَهُ من الواجب تاماً، والذي ما كان يُلهيهِ عن جدّيَّةِ الحياة زُخرفٌ أو بهرج، بل اضطلع بالعبءِ، يجاهدُ الفتنة والزيْغَ والضلال.

كانت حياتهن ـ رضيَ اللَّهُ عنهُنّ ـ مصابيحَ تشعُّ هُدًى ونوراً فتضيءُ الكوْنَ كله، وتعطّره شذًى طيّبَ النَّشَر، يلفُّهُ من أقصاه إلى أقصاه، أَزلاً وأبداً.

لقد كُنّ في ميدان الإيمانِ أصلَب وأرسَخَ من شُمّ الجبال، وكُنَّ في بيوتِهنْ زوجاتٍ وأمّهات، أخلَد من التاريخ. وكُنّ في ميادين العلم والمعرفة أساطينَ وأعلاماً. وكنَّ في ساحات النضال فارساتٍ فُقْن الرجالَ إقداماً.

وهكذا كانَت **رملةُ بنتُ أبي سفيان**، أمُّ المؤمنين ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ، وإنها لنا ولأَجيالنا الحاضرةِ والمستقبلةِ خَيْرُ مَثَلٍ، وأسمى قُدوة.

---

(1) ذكره بمعناه ابن حجر في «الإصابة» (8/ 85).

صفية
أمّ المؤمنين
رضي اللّه عنها

نَسَبُها

هي **صفيّةُ** بنتُ **حُيَيّ بنِ أخطب** أحدِ زعماءِ يهودِ بني النَّضير في المدينة المنوّرة.

وأمّا أمُّها فهي: **بَرّةُ سَمَوْأل** من بني قُرَيْظة.

كان والِدُها من أَشَدَّ اليهودِ عداوةً لرسُولِ اللّه ﷺ، وأكثرِهم حِقداً على الإِسلام والمسلمين؛ ما ترك فُرْصةً ولا سانحةً للنَيْلِ من الدَّعْوةِ الإِسلاميّةِ، والقوّةِ الإِيمانيّةِ الفتيّةِ إلا استغلَّها وعَمِدَ على تقويضِ أركانِها، سواءٌ بالتحالُفِ مَعَ عشائر اليهودِ في المدينة، أو في الفتنةِ والوقيعةِ بين **الأَوْسِ والخزرجِ**، أو السِّعايَة لدى **قريْش** والتحالفِ مَعَها واستقدامِ أحْزابِها لقتالِ المسلمين في المدينة.

على العمومِ كان هذا الرّجلُ اليهوديُّ كتْلةَ حِقدٍ، ومنبعَ حَسَدٍ، ومَجْمعَ كُرْهٍ للإِسلام[1].

نشأتُها

كانت **صفيّة** ـ رضي اللّه عنها ـ فتاةً صغيرةً غريرةً عندما قدِمَ النبيُّ ﷺ مع المسلمين إلى المدينة مهاجرين، ولم تكن في تلك السّنِّ لتدْركَ أبعادَ الأحداثِ والوقائع.

ونَشَأَتْ في بَيْتِ زعيمٍ من زعماءِ يهود، وسريٍّ من سراتِهم، وكبيرٍ من كُبرائهم.

---

(1) ترجم لها ابن سعد في «طبقاته» 8/ 120) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 426) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 490).

وكانت على جانبٍ عظيم من الجمال، بارعةً ساحِرَةً، لم يُعرَفْ في **يَثْرِبَ** سواءٌ بين العربِ أو اليهود من هي أجملُ منها.

زواجها الأوّل

فلما استدار عودُها ونما جسمُها، واكتملتْ أُنوثتُها، خطبها أحدُ فتيان يهود وكُبرائِهم **سلاّم بن مشكم**، من بني **قُرَيْظة**، ثُمّ فارقها ولم تَطُلْ عشرتُهُ معها[1].

الزواج الثاني

ثم تزوَّجها، **كنانةُ بنُ الربيع بن أبي الحقيق** من يهود بني النّضير، وما أكثر ما تهافت عليها الفتيانُ والرجالُ كُلٌّ يريدُ أن تكونَ له الحُظوةُ عندَها فيظفَرَ بها، إلا أنَّ أباها **حُيَيُ بنُ أخطب** كان لا يُفرّطْ بها فلا يُعطيها إلا لِمَنْ يرى فيه الكفاءَة الماليةَ والاجتماعية.

في خيبر

بَعْد أَنْ أَجْلى النبيُّ ﷺ يهودَ المدينة عنها، كُلَّ اليهود، **بني النضير** وبني **قريظة** بسبب غدرِهم وتعاقهم ونكوصِهم بالعهودِ والمواثيقِ التي وقَّعوها مع رسول اللّه ﷺ وتعهدّوا فيها بالتعايش السِّلميّ، وعَدَمِ التعرّضِ للمسلمين بالأذى، إلا أنهم غدروا ونقضوا فحاربهم ﷺ وأجلاهم عن ديارِهم.

بعد هذا...

ارْتَحَلَ **حُيَيّ بنُ أخطب** ومعه ابنتُه **صفية** وزوجُها **كنانةُ بنُ أبي الحقيق** وعشيرتُهم إلى **خيبر** حَيْثُ لاذوا بها، ولكنَّهم ما انفكُّوا يمُعِنون في تدبير المؤامرات، وحياكةِ الدسائس، ورَسْم الخُططِ التي تؤذي وتضرُّ بالإسلام والمسلمين.

---

(1) ذكره ابن عبد اللّه في «الاستيعاب» (4/ 426).

رؤيـا صـفـيّة

كانت **صفيّةُ** ـ رضيَ اللّهُ عنها ـ قد نضِجتْ وتَفَتَّحتْ على الحياة ومَجْرَياتها، ووقفت على دقائق الأمور، ورأت بعين الحقيقة والعدلِ والإنصافِ ما كان يفعلُه قومُها، فتتأثر وتشمئزُّ بينها وبَيْن نفسها، إلا أنها لم تكن تبدي ذلك.

وذاتَ صباحٍ استيقظتْ صفيّةُ على رُؤيا غريبةٍ عجيبة، حَدَّثتْ بها زَوْجَها، قالت:

ـ رأيْتُ كأنَّ القمرَ فِي ليْلةِ التَّمّ هبط من السماء واسْتَقَرّ فِي حجْري؛

ـ فاستشاط زَوْجُها غضباً، لأنه أوَّلَ الرُّؤيا، ثم قال لها:

ـ أوَ تريدينَ أن تتزوَّجي من ملك العرب؟

ـ ثم لطمها على وجهِها؛ مع أنَّه كان شغوفاً بها مُحِبّاً لها.

غـزوة خيبـر

من **خيبر** البعيدة كان **حُييّ بن أخطَب** لا ينفكُّ يعادي المسلمين، ويُدَبّر المؤامرات، فتحالف مع بعضِ القبائلِ العربية على غزو المدينة، ومهاجمة المسلمين في عُقْرِ دارهم، ومفاجأَتِهم والقضاءِ عليهم والتخلّص منهم.

لكنَّ النبي ﷺ بلغتْه أنباءُ ذلك التحالفِ، وتلك المؤامرةِ فخرج من المدينة على رأْسِ قُوّةٍ من المسلمين إلى **خيبر** ليُفاجَأَ اليهود بغزوهم قبل أن يغزوه، ويأخذوا أُهْبَتهم لذلك.

المعارك الرهيبة

وهناك جَرَتْ بين المسلمين واليهود عِدَّةُ معارك، لم يَحْظَ المسلمون في بادئها بأدنى نجاح، ذلك أن **خيبر** كان بها عدّةُ حصونٍ وقلاع، وأهلُها أصحابُ بأسٍ وقُوّة.

ولقد تساقط العديدُ من شهداء المسلمين في تلك المعارك؛ وأخيراً فتح اللّه عَلْيهم وانتصروا على اليهود ودمّروا حصونهم وقلاعَهُم، وقتلوا الكثيرَ

منهم، وعلى رأسهم **حُيَيُّ بن أخطب** والد **صفيّة** و**كنانة** زوجُها، ووقع أكثرُ اليهود أسرى في يدِ المسلمين؛ وكان من بينهم **صفيَّة**.

صفيَّة ورسول اللَّه ﷺ

تنافس بعض المسلمين على **صفيّة** أيُّهم تكون له خالصةً من دون النّاس، وكان تنافسُهم يؤدِّي إلى قتالٍ وشجار، لأنها ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ كانت كما عَلِمْتَ ذاتَ جمالٍ ساحر، وحُسْنٍ باهِر؛

سَمِعَ النبي ﷺ بذلك فأراد أن يَحْسِمَ الأَمْر حتى لا تكونَ المرأَة أيّةُ امرأةٍ سبباً من أَسبّابِ النزاع، والضيَّاع.

فبادَرَ إلى **دُحْيَة الكلبي** ـ رضيَ اللَّهُ عنه ـ وأعطاه من المال ما يُقْنعِهُ ويُرْضيه، ثم اصطفى **صفيّة** لنفسِه وحَسَم الخلاف بحكمته.

إسلامها وزواجها من رسول اللَّه ﷺ

وعَرَض عليها رسُول اللَّه ﷺ الإِسلام والعتق، وكان مما قالَهُ لها:

ـ اختاري. . .، فإن اخترْتِ الإِسلام أمسكتُك لنفسي، وإن اخْتَرْتِ اليهودية، فعسى أن أعتقَك فتلحقي بقومكِ فقالت ـ رضي اللَّهُ عنها ـ:

ـ يا رسُولَ اللَّه. . . لقد هَوِيْتُ الإِسلام، وصَدَّقْتُ بك قَبْلَ أن تدعوَني حَيْث صرتُ إلى رحْلِكَ، وما لي في اليهودية أَرَبٌ وما لي فيها والد ولا أَخٌ، وخَيَّرتني الكُفْرَ والإِسلام فاللَّه ورسوله أحبُّ إليَّ من العَتقِ وأن أرجعَ إلى قومي.

فأسلمتْ، فأعتقها رسول اللَّه ﷺ وجعل عَتْقها مَهْرَها، ثم رأى بِوَجْهها أَثَرَ خُضْرَةٍ قريباً من عَيْنها فقال: ما هذا؟ فقصّت عليه قِصّة الرؤيا وضَرْبِ **كنانة** زوجِها لها.

المحبَّة الواعية

خَرَج رسول اللَّه ﷺ من **خيبر** باتجاه المدينةِ ولم يُعرِّسْ بها؛ وقد أردفها وراءه على بعيره وشدّها بثوبه وجعلها من خاصّةِ نسائه.

فلما صار إلى منزلٍ يُقال له **تبار** على ستّة أميالٍ من **خيبر** مال ـ ﷺ ـ يريدُ أن يبنيَ بها، فأبَتْ عليه، فَوَجِدَ في نَفْسه.

فلما كان بالصّهباء، بعد ذلك، قال لأم سُلَيْم:

ـ عليكُنَّ صاحبتكن فأمشِطْنَها.

قالت **أمّ سُلَيْم**:

ـ وليس معنا فسطاط ولا سُرادقات، فأخذتُ كسائَيْنْ، فَسَتَرْتُ بينهما إلى شجرةٍ، فمشطتُها وعطَّرْتُها.

وكانت جارية تأخذ الزينة من أَوْضَإٍ ما يكون النساء، وما وُجدت رائحةُ طيبٍ كان أطيبَ من ليلتئذ.

وأَقْبَل رسُول اللَّه ﷺ يمشي إليْها فقامت إليْه وبذلك أمرناها فخرجنا من عندِهما، وأَعْرسَ بها رسُول اللَّه ﷺ.

وسألتُها عما رأيت من رسول اللَّه ﷺ، فذكرت أنه سُرَّ بها، ولم يَنَمْ تلْك الليلة، ولم يَزل يتحدّث معها وقال لها:

ـ ما حملكِ على الذي صنعتِ حين أَرَدْتُ أن أنزلَ المنزلَ الأوّل وأدْخلَ بك؟

فقالت:

خشيتُ عليك قُرْبَ يهود.

فزادها ذلك عند رسُول اللَّه ﷺ محبّةً وتقديراً.

لقد أصبحت **صفية** ـ رضي اللَّه عنها ـ في مُدَّةٍ وجيزة، بَيْن عَشِيَّةٍ وضُحاها مؤْمنة مُحِبّة.

تَغلْغلَ الإيمانُ إلى أعماق قلبها، وٱمْتَلَكَ حُبّ رسُولِ اللَّه ﷺ ناصية فؤادها ووجْدانها.

فباتَتْ تخشى عليْه، وعلى دَعْوَتِهِ ودينِهِ من أذى قومها اليهود لأنها تعرف ما انْطَوَتْ عليه نفوسُهُم من الغدْر والغيلة.

في الطريق إلى المدينة

حَدّث أنسُ بنُ مالكٍ قال:

أقبلْنا مع رسُول اللَّه ﷺ أنا و**أبو طلحة وصفيّةُ**.

ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ رديفتُه على ناقته، فبينما نحن نسير عَثرتْ ناقةُ

رسُول اللّه، فصرِعُ وصُرِعتِ المرأة، فأقتحم **أبو طلحة** عن راحلته فأتى النبيّ ﷺ فقال:

يا نبيّ اللّه هَلْ ضارّك شيء؟

قال:

ـ لا . . . عليكَ بالمرأة.

فألقى **أبو طلحة** ثوبَه على وَجْهِهِ ثم قصد المرأة فنبذ الثوب عليْها، فقامت، فشدّها على راحلته فركب وركبْنا نسير حتى إذا كُنّا بظهرِ المدينة قال رسول اللّه ﷺ:

ـ «آيبون تائبون عابدون لربّنا حامدون، فلم نَزَلْ نقولُها حتى قدِمنا المدينة».

إنّه لنشيد كريم تَنْضَحُ عباراته القليلة بالمعنى الكبير.

وهكذا كان **محمد بن عبد اللّه** ﷺ، لا يَغْفَلُ لسانه ولا قلبه في لحظةٍ من نهارٍ أو ليْلٍ عن ذكر اللّه تعالى وشكره؛ في أصدق عبارةٍ وأَوْجَزها.

عائشة الغيورة

ويُروى أنَّه لما اجتلى النبي ﷺ **صفيّة** رأى عائشة وسطَ الناس، وكان ذلك في بَيْتٍ من بيوتِ **حارثة بن النعمان** الذي احتشد بنساء الأنصار القادمين لرؤية صفية وجمالها وحُسْنِها طبّق الآفاق.

فقال لـ **عائشة**:

ـ كيف رأيْتِها يا **عائشة**؟

فقالت:

ـ رأيْتُ يهودية . . .

فقال ﷺ:

ـ «لا تقولي هذا يا **عائشة** فإنّها قد أسْلَمَتْ وحَسُنَ إسلامُها».

ولقد حَدَثَ من **عائشة** ـ رضي اللّه عنها ـ أكثر من حادِثٍ يدُلّ على غَيْرتها الشديدة من **صفية**.

ولقد عانى رسُولُ اللّه ﷺ وتحمَّل كثيراً من غَيرْةِ نسائِهِ رضي اللّه عَنْهُنّ، والذي يطّلِعُ على تاريخ حياتِهِنّ يُدْرك أَنّهُنّ كُنّ يُكوِّنّ تكتلاتٍ

وجماعات، وفئات، يتناوَشْن في بعض الأحيان، ولكن لم يَخْرُجْن عن حدّ الأدب ـ معاذ اللّه ـ، أَوْ يجعلْن مجالاً لتفاقُم ذلك:

مكانتها بين أزواجه ﷺ

وكان من حُسْنِ أخلاقه، وعظيم حكمته ﷺ أن أَنْزَل **صفيّة** من قلبه ونَفْسِهِ وأَهْلِهِ منزلاً كريماً طيّباً، فقد كانت ابنةَ زعيمِ قومها، وكانت رضيّةَ الأخلاق، كريمةَ الصفات، وكانت ذاتَ حُسْنٍ وبهاء، وأيضاً قد أسلمت واختارت رسولَ اللّه ﷺ، فالأَوْلى أن تكافَأَ على ذلك كُلِّه، وتقدَّرَ من أَجْله.

كان إذا خرج لغزوةٍ يغزوها يُقْرِعُ بين نسائه، ومنهُنَّ **صفيّة** ويُسْهِمُ لها كما يُسْهِمُ لهُنّ من الغنيمة، ويقسمُ لها كما يقسمُ لهُنّ.

ويُروى أنه أقسم لها يوم **خيبر** وأطعمها ثمانين وسقاً تمراً، وعشرين وسقاً شعيراً أو قَمْحاً.

الصادقة في حُبّها

حَدَّث **زيدُ بنُ أَسْلم** قال:

ـ إن نبيَّ اللّه ﷺ كان في الوجع الذي تُوفيّ فيه، فاجتمع إليْه نساؤُهُ، فقالتْ **صفية**:

ـ أما واللّه يا نبيَّ اللّه لوَدِدْتُ أنَّ الذي بِكَ بي.

فغمزْنها **أزواجُ النبي** ﷺ، وأبْصرَهُنّ رسُولُ اللّه ﷺ فقال لهُن:

ـ مَضْمِضْنَ...

فقُلْن:

ـ من أي شيءٍ يا رسُول اللّه؟

فقال:

ـ من تغامُزِكُنَّ بصاحِبَتِكُنّ، واللّهِ إنها لصادقة.

بعد رسُول اللّه ﷺ

أقامَتْ ـ رضيَ اللّهُ عنها ـ بعد لحوق النبي الكريم بالرفيق الأعلى في

خاصّةِ دارِها، عابدَةً تصلي وتصوم وتقوم وتفعل الخير، وتَبْذُلُ من ذاتِ يَدِها كُلَّ ما تقدرُ عليه.

وكان صَحابةُ رسول اللّه ﷺ يقدِّرونها وفاءً منهم لنبيهم ويحترمونها إخلاصاً منهم لشعوره ﷺ من حُبّه لـ **صفيّة** التي آمنتْ وأسلمتْ صادقةً.

فكانوا يزورونها في بَيْتها، ويَسْأَلونها حاجتها، ويقدّمون لها كُلّ ما يَلْزَم، إن احتاجَتْ لأمْرٍ أو شيء، من الشؤون الدنيويّة، ويُجِلُّونها فِي رأيها ويستشيرونها إذا ما حَزَب أمر.

الخليفتان الشيخانِ

وعلى الخصوص الخليفتينْ الشيخينْ **الصديق** و**الفاروق** رغم أن ابنتيْهما **عائشة** و**حفصة** في حِزْبِ مناهِضٍ لـ **صفيّة**، لأن حقّ الوفاء عليهما لنبيّهما أغلى وأعلى.

وهذا منتهى التجرّد من رَجلينْ كريمين عادلين، خلفا رسول اللّه ﷺ على أُمّتِهِ من بَعْدِه، وأوْلى بهما أن يُعْطيا المثل في خاصّتهما وأقرب النّاسِ إليْهما.

الرقيقة الشعور

وحينَ حَدَثَتِ الفتنةُ أيامَ **عثمانَ بنِ عفان** ـ رضيَ اللّهُ عنه ـ وحُوصِرَ من قِبَلِ الثائِرين في داره، كانَتْ رضيَ اللّهُ عنها إحدى المدافعاتِ عنه، المنافحاتِ عن كرامةِ منصِبِ الخلافة، الداعيةَ إلى إحقاقِ الحقِّ وإزهاق الباطل، المطالبةَ بالرويّةِ والاعتدال وعدمِ سَفْكِ وإراقةِ الدماء.

وقد اضْطُرّتْ يَوْمَ أن هوجم رضيَ اللّهُ عنه ـ في داره، وتكاثرَ الثائرون على بابه، أَنْ تَرْكَبَ بغلتَها، وتقودَ فئةً من المدافعين بنفسها.

إذ روى **كنانة** أحد شهودِ ذلك اليومِ فقال:

ـ كُنْتُ أقود بـ **صفيّة** لتردَّ عن **عثمان** فلقيها **الأشْتر** فضربَ وَجْهَ بغلِتها حتى مالت، فقالت:

ـ رُدّني لا يفضحْني هذا.

وحين اشتدَّ الحِصارُ عليْه، فمُنِعَ عَنْهُ الطعام والشراب، اتّخَذَتْ خشباً كالعارضة أو الجسر من سطح دارها إلى داره، وراحت تنقُلُ إليه من فوقه الماءَ والطعام.

وما كانَتْ - رضي اللّه عنها - في موقفها هذا وتصرفها تسعى إلى مناهضة فَئةٍ على فئة، ونُصرْة فريق على فريق، ولكنها كانت تريدُ أن تدفع الأذى والفتنة عن المجتمع الإسلامي، والسلطة التي يمثلها الخليفة، أيّاً كان هذا الخليفة.

إدعـاءٌ باطل

رَوَت أمُّ سِنان الأسلمية قالت:

- لما نزلنا المدينةَ بعد القدوم من خيبر لم ندخُلْ منازلَنا حتى دخَلْنا مع **صفيّةَ** منزلَها،

وسمِعَ بها نساءُ المهاجرين والأنصار، فدخَلْن عليها متنكِّراتٍ فرأيْتُ أربعاً من أزواج النبي ﷺ متنقّبات: زينب بنت جحش، و**حفصة** بنت عمر بن الخطاب و**عائشة** بنت أبي بكرِ الصديق، و**جُوَيْرية** بنت الحارث.

فأسْمَعُ **زينب** تقولُ لِـ **جُوَيْرية**:

- يا بنتَ الحارث ما أرى هذه الجاريةَ إلا ستغلبُنا على عهدِ رسُولِ اللّه ﷺ.

فقالت **جويرية**:

- كلاّ... إنها من نساءٍ قلَّما يَحْظَيْنَ عندَ الأزواج. فهل كان قول جُوَيرية - رضيَ اللّه عنها صحيحاً وإلى أي مدى؟؟

لقد مرّ بنا من المواقف والصُّوَر والمشاهد والمآثر ما يجعل هذا القولَ باطلاً ومردوداً.

وخصوصاً عندما كان ﷺ في مرض موته، وفي أيّامه الأخيرة، إذ شهِدَ لـ **صفيّة** - رضيَ اللّهُ عنها بأنها حَسَنَةُ الإسلام والإيمان، وطلب إلى المتغامزات من نسائه أن يُمَضْمِضْنَ أفواهَهُنَّ لأنّهن قد قُلن قوْلاً فيه كثيرٌ من البُهْتان والاتهام، فعليهنّ أن يطهّرْن تلْك الأفواه، وينزّهنَها إلا عن قوْلَةِ الحق والصدق.

لقدَ حافظت **صفيّة** - رضيَ اللّه عنها - بصدق عاطفتها وصدق إيمانها

على حُبّ النبي العظيم لها؛ حتى آخرِ رمقٍ من حياته ـ ﷺ.

ونَحْنُ إنّما يهُمنا أَمْران:

ـ شهادة رسُول اللّه ﷺ في صِدْق إيمان وإسلام **صفية** ـ رضي اللّه عنها

ـ ولا نلقي بالاً بَعْدَ ذلك لما يَتَقَوَّل المتقوّلون بحُسْنِ نيّةٍ أو سوء نيّة.

والأَمْرُ الثاني سلوكها الحياتي، فقد كانت مثالاً حيّاً للمؤمنة التقيّة، والمسلمة الصادقة.

فالدّليلان، قد توفّرا على سُمُوّ استقامة أم المؤمنين **صفيّة** ـ رضي اللّه عنها ـ.

الوصيّة والوفاة

روى **أبو سلمة بن عبد الرحمن** قال:

ـ وَرَّثَت **صفيّةُ** مائةَ ألفِ دِرْهمٍ بقيمة أرْضٍ وعَرَضٍ، فأوْصَتْ لابن أختها، وهو يهودي، بثلثها.

فأبو أن يُعطو وينفّذوا وصيّة **صفيّة**، وكانت لا تزالُ على قيْد الحياة، فكلّمت في ذلك **عائشة** ـ رضيَ اللّه عنها ـ فأرسلت إلى من يعنيهم الأمر تقول:

ـ اتقوا اللّه وأعطوه وصيّته.

فأخذ ثلثَها، أي الوصية وكانت لها دارٌ تصدَّقت بها في حياتها.

ولمّا كان العام الثاني والخمسون من الهجرة، وكانت **صفيّة** ـ رضيَ اللّه عنها قد جاوزت العقدَ السادسَ من الْعُمْر اعْتَلَّتْ، ثم وَهَنَتْ وعانَتْ من أعراضِ المرض، ثم وافاها الأجَل، وكان ذلك في خلافةِ **معاوية بنِ أبي سفيان**، ودُفِنَتْ في البقيع[1].

رضيَ اللّهُ عن أمِّ المؤمنين **صفيّة بنت حُييّ بن أخطب** وتَقَبَّلَها بقَبولٍ حسنٍ، وبَوّأها من لدُنْهُ أسمّى وأرفعَ درجاتِ النعيم، وألحقنا بها في الصالحين من عبادِه.

---

(1) ذكره ابن حجر في «الإصابة» (265).

ميمونة بنت الحارث الهلالية

رضي اللَّه عنها

في مَعْرِضِ الحديث عن عُمرةِ القضاء التي حَدَث زَواجُ رسُولِ اللَّه ﷺ بـ **ميمونة بنتِ الحارث** ـ رضيَ اللَّهُ عنها بعدها يقولُ اللَّه تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: 24، 25].

وميمونة رضَي اللَّهُ عنها هي من النساءِ المؤمنات اللواتي عناهُنَّ اللَّهُ سبحانه بقوله، فإلى صفحات حياتِها المشرقةِ أدعوك ـ أيُّها القارئُ العزيز ـ لنقلِّبها معاً، لنستمتِعَ ونتَّعظ ونعتبر.

وقبلَ الخوض في الحديث واستعراضِ حياةِ أمِّ المؤمنين **ميمونة** لا بدَّ من هذه الكلمة:

كان دخُولُ **ميمونة** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ في حمِي الدين الجديد خَيْراً وبركةً على الإِسلام والمسلمين، لأنّه كان إشراقاً نيِّراً في ضمائر الذين حاربوا الدعوة الإسلامية السنين الطِّوال، فانزاحت من عيونهم غِشاوةُ الجهل، وأمحَّتْ من قلوبهِم وأرواحهِم عماوةُ الكِبر والحقدِ والنفور.

وكان زَواجُها من سيِّدِ المرسلين **محمد** ﷺ صفحةً بيضاء وضّاءة في سجل الزّمن...، فما عُرِف عن حياتها الزوجية القصيرةِ الأمَد في بيْتِ النبوَّةِ نَبْوَةٌ أو كبْوةٌ أوْ جَفْوة...

كما أنها كانت خاتمة زيجاتِهِ ﷺ.

وكانت حياتُها المدِيدَةُ بعد وفاة النبي ـ ﷺ ـ عُنوانَ وفاءٍ واستقامةٍ وتقوى.

والآن هيّا إلى كتابِ حياةِ ميمونةَ بنتِ الحارث الهلالية أمِّ المؤمنين ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ.

الأصل الكريم

هي: **ميمونةُ بنتُ الحارث بن هلال** أحدِ أشرافِ قريشٍ وسادتِها، وأحد رجالات مكّةَ وزعمائها، أما أمُّها فهي: **هند بنت عَوْف** سيّدةٌ من سيّدات أمِّ القرى اللواتي اشتهرْن بالفضلِ والنسَبِ الرفيعِ وكرامة المحتِدِ، وهي خالةُ **خالد بن الوليد** رضيَ اللَّهُ عنه.

كان لـ **ميمونة** شقيقةٌ هي **أمّ الفَضْل** زوجة **العباس بن عبد المطلب** ـ رضيَ اللَّه عنه، عمّ النبيّ ﷺ...

وشقيقةٌ أُخرى تُدْعى **سلمى** تزوّجها **حمزة بن عبد المطلب** سيّدُ الشهداء ـ رضيَ اللَّهُ عنه ـ وعمُّ النبي ﷺ أيْضاً...

ولهذا فالمصاهرةُ والتزاوجُ بَيْن **بني عبد المطلب بن هاشم** وبَينَ شقيقاتِ أمِّ المؤمنين **ميمونة** قديمةٌ وراسخة؛

فالوشائجُ قويّة، والصِّلاتُ متينة، واللُّحْمة شديدة.

ولقد شهِدَ الصادقُ الأمين، **صلواتُ اللَّه وسلامه عليه** ذاتَ يوْم وفي حَضَرَةِ عَدَدٍ من الصحابة الأجلاّء رضوانُ اللَّه عليهم، لـ **ميمونة** وأخواتها المؤمنات السابقاتِ الفاضلات فقال عَنْهُنّ:

الأخواتُ مؤمنات[1].

وتلك ـ عزيزي القارئ ـ شهادةٌ من رسول رب العالمين في حقهِنّ، فاعْتَزَزْن بها، وأدْرَكْن تَبعتها، وحملتها في وجْدانهِنّ خَيْر مَحْمَلٍ وأكرمه؛ وعَمِلْنْ بمقتضاها طيلة حياتِهِنّ، فكُنّ بَين المسلمات الخالدات نبراساً مُضيئاً، وقُدْوَةً حسنة، ومثلاً أعلى يُحْتذى.

---

(1) ترجم لها ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (132 ـ 140) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (391).

ولادتـهـا

كان مَوْلدُ **ميمونة** ـ رضيَ اللّهُ عنها ـ قبل نُبُوَّةِ سيدِنا محمد ﷺ بِستٍّ سنوات.

وعليْه... فإنها أدركتِ الإسلامَ صغيرةً غريرة، لا تستطيعُ أن تميّزَ وتحكم، أو تتّخذ رأياً مُسْتقلاً، فبقيتْ مع أَبَوَيْها على خُطى الجاهلية يمضون، يعظّمون الأوثان، ويُقدّسُون الأصنام، ويعبدون من دونِ اللّه ما ينحتِون من الأحجار والأخشاب.

وتقلّبَتْ في أحضانِ الجاهليّة تَرْضعُ من ثَدْيها قيماً زائفة، وترتوي من ينابيعها الآسنةِ مبادئَ زائلة؛ وتتربى في مَدْرَسَةِ الجاهليّة...

لكنَّها مع نُمُوّها ونَضْجِها بمرورِ الأيام وتعاقُبِ الأعوام وتزاحمُ الأحداث، كانت تَسْتمِع بشيءٍ من الوعْي والإدراك والشّغَفِ إلى أنباء **محمد بن عبد اللّه**... **والبعْث**... **والنبُوّة**... **والوحْي**... **والقرآن**... وغيرِها من الكلمات والمصطلحات الجديدة الطارئةِ على المجتمع القبَليّ العربي. فتفكّرُ في ذلك...، وتمعِنُ التفكير، ولكنْ من غيرِ أن تصِلَ إلى نتيجةٍ محدّدةٍ واضحة.

ولكن تفكيرها هذا لم يكُنْ سَلْبيًا، بل إيجابيًا تَظْهَر ملامِحُهُ على قسمات وجهها ومن عبارات بعض حديثها، إعجاباً وافتتاناً ومَيْلاً.

شبابها وزواجها

وحينَ اكتملتْ أُنوثتُها، ونما عُودُها، وبَلَغَتْ مَبْلَغ النساء، جاءها خاطباً أَحَدُ فتيان مكةَ **مسعودُ بن عمرو** وكان أصيلاً جميلاً، غنيًا فيه كبرياءُ الجاهلية وغطرسةُ الشّرْك. فوافق والدُها... وزَوّجها إيّاه.

وانتقلت **ميمونة** بعد حَفْلةٍ مشهودةٍ إلى دارِ زوجها **مسعود بن عمرو**، فأقامت معه...

لكنها كانَتْ كثيرةَ التردّد على دار أُخْتها **أم الفضل** زوجةِ **العباسِ بنِ عبدِ المطلب** ـ رضيَ اللّهُ عنهما؛ لأنها أكبرُ... وفي صَدْرها رحابةٌ وفي قلبها حنان.

وهناك كانت **ميمونةُ** تُصْغي بشَوْقٍ واهتمام إلى بعض تعاليم الإسلام. . . وإلى أنباء المسلمين الذين أُكرهوا على تَرْك وَطَنِهم، وأُجبروا على مغادرةِ مكة. .

وأيضاً كانت تهزّها أخبارُ المعارك والغزوات، في **بَدْرٍ** و**أُحُدٍ** وغيرهما، فَيَتْرُك كُلُّ ذلك في نفسها أَثَراً عميقاً، ويحرّكُ عواطفَها وميزانَ العدْلِ والحقّ في ضميرها.

كانت تستقي كُلّ تِلْك الأنباء وتتبّعُها من خلالِ زياراتها الدائمة التي تشبهُ الإقامة، إلى منزل أُخْتها **أم الفضل** زوجة **العباس بن عبد المطلب** عمّ النبي ﷺ، فهي كُبْرى الأخوات وبرحيل الأم عن الدنيا، تُصبْحُ بمنزلتها، يتردَّدْن عليها، ويُفْضين إليها بكُلّ ما يعرضُ لهُنّ من أحداثٍ، ويتبعْن مشورتها ونصيحتها[1].

فراقها عن مسعود

حَدَث ذاتَ يَوْم أن وَصَلَتْ إلى مكّة أخبارُ غَزْوة **خيبر** مُشَوَّهَةً، وعلى غيرِ حقيقتِها، إذ جاءَ الخبر إلى قريش بأن **اليهود** من أهل **خيبر** قد انتصروا على **محمد** وأصحابه وقتلوهُم جميعاً. . .

وفَرِح المشركون بذلك فرحاً عظيماً، وأخذوا يتحدَّثون **العبّاس بنَ عبد المطلب** ويُظهرون الشماتة، ويُسمعونه قارِصِ الكلام، ويُؤْذونَهُ أذى شديداً، سواءٌ في الطريق العام، أو في دار النّدْوة، أو عند الكعبة، فيَبْدو ـ رضيَ اللَّهُ عنه ـ حزيناً مغموماً، ثم يأوي إلى داره حَيْثُ تواسيه **أمُ الفضْل** بلُطفِها ورقّة طبعِها وحُسْنِ معاملتها، وجميلِ قولها.

الخبر اليقين

لم يمضِ وقْتٌ طويلٌ حتى جاء الخبر اليقين، بانتصار المسلمين، واندحارِ اليهود المنافقين.

فقام **العباس** من فوره ولبس أحسنَ ثيابه، ثم خَرَج إلى الناس، رافعَ الرأس، عاليَ الجبين، باسمَ الثغرِ وكأنه في يَوْمِ عيد. . .

---

(1) ذكره ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (8/ 132).

وجرى بينَهُ وبَينَ بعض المشركين المتغطرسين تحاوُر وتلاسُنٌ انتهى بأنْ خَرِسَتْ ألسنتهم وكُمّتْ أفواهُهم حين أَخْبَرَهُم الذي غَرَّرَ بهم من قَبْلُ وكذب عليهم، وقبَضَ أَجْرَ ذلك، بأنَّ ما يقولُه **العباس** ـ رضيَ اللَّهُ عنه ـ حقٌّ وصِدْق.

فَرَحُ ميمونة

كانت **ميمونة** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ في بَيْتِ شقيقتها **أم الفضل** عندما تَبَلَّغَ **العباسُ** أخبارَ المسلمين في **خيبر** وانتصارِهم على اليهود، فهشّتْ لذلك وبَشَّتْ، وأَظْهَرَتْ فرحتَها... وكأنها كانت تميلُ بكليتها إلى الانتقالة الكبرى والانتفاضة العظمى، من الكفر إلى الإيمان، ومن الشِّرْكِ إلى الإِسلام ومن الأوثانِ إلى اللَّهِ الواحد الديّان.

وحينَ عادت إلى دارها، وضَمّها بَيْتُ الزَّوْجية مع قرينها **مسعود بنُ عمرو**، كان هو مغموماً حزيناً، وكانت هي مستبشرةً فرحة، فتلاحيا... وتشاجرا... واحْتَدَّ الخلافُ بينهما، ثُمّ أَعْلَنَ **مسعود** مفارقتَها وطلاقَها، فخرجَتْ من عندِه وأَسْرِهِ إلى بَيْتِ **العباسِ بنِ عبدِ المطلب** تقيمُ عنده؛ بانتظارِ اليوْمِ العظيم، المخبوءِ في طيّ القدر والمستقبل.

يَوْم تَشْرُف بِهِ مَنْزِلةً، وتعلو به مقاماً، وتسمو به مكانةً.

لقد فارَقَتْ **مَسْعوداً** غَيْر آسفةٍ ولا حزينة، بل مُنْشَرِحة الصَّدْر رضيَّةَ النّفْس، إذ تحرَّرَتْ إرادتُها، وانْسَلَخَتْ من ماضٍ بغيض، وحَطَّمتْ قيْداً جاهليًّا مقيتاً كان يعطّل يديها ويلجم لسانها، ويشلّ تفكيرها.

وها هي اليوم حُرّة في الإِختيار والسلوك، والسَّيْر على صراطٍ مستقيم، لا طغيان فيه ولا عِوَج.

يَوْم الحُدَيْبِيَة

خَرَج النبي ﷺ بالمسلمين من المدينة المنوّرة قاصِداً مكّة لأَداء العُمْرة، وتعظيم بَيْتَ اللَّه الحرام، وسَمِعَ القرشيون بذلك فغضبوا وثاروا، وأقسموا ليمْنَعُنّه وصَحْبَهُ من دخول مكّةَ عليهم عَنْوَةً.

ولما أصبح المسلمون على مقرُبةٍ من مكّة، في مكانٍ يُدْعى **الحُديبِية** توقفوا لأن قريْشاً أقسمتْ على الحرب، وتهيّأتْ للقتال.

وَجَرَت بَيْن الطرفين مفاوضاتٌ انتهت بتوقيعِ معاهدةٍ وصُلْحٍ عُرِف بعد ذلك بـ **صُلْح الحديبية**.

وتضمنَت شروط الصُّلْح بنوداً منها:

أن يأتي النبيّ ﷺ إلى مكةَ في عامٍ قابلٍ ومعه المسلمون لأداء العُمْرة، وسيوفُهم في أغمادها، وهو سلاحُ المسافر، وأن لا يقيموا في مكةَ أكثرَ من ثلاثة أيام، يؤدُّون خلالَها المناسكَ، وأن تخليَها لهم قريش.

ولقد غضب وثار كثيرٌ من الصحابةِ يَوْمذاك، ظَنًّا منهم بأنّ رسول اللَّه ﷺ قد تساهَلَ كثيراً في الموافقةِ على مطالب قريْشٍ الجائرة الظالمة، وتصوروا في ذلك تهاوُناً وتنازلاً.

وكان مما قاله ﷺ يومذاك ما معناه:

ـ والذي نفسي بيده لا تسألني اليوم قريش خُطّةٌ فيها تعظيمٌ لحُرْمة بَيْت اللَّه إلاّ أعطيتُهُم إياها.

وكان أَيْضاً ردُّه على بعض الصحابة المعترضين، وعلى رأسهم **عُمَر بن الخطاب** ـ رضي اللَّه عنه:

ـ أنا رسُولُ اللَّه ولن يُضَيِّعَني.

عُمْرةُ القضاء

وعندما حَلّ مَوْعِدُ الأجَلِ المضروب بين الطرفين المتعاهديْن سار النبيُّ ﷺ بالمسلمين إلى مكةَ، وما أنْ شارفوا ضواحيَها حتّى أَذّن مؤذِّنُ الرسولِ بالتوقُّف، إذْ استقرّ رَأْيُهُ على القيامِ بمناورةٍ بارعةٍ.

فأمر بتقسيمِ الجيشِ إلى قسمين، يدخُلُ أحدُهما مكةَ للطواف حول الكعبة ويؤدِّي المناسك، ويبقى الثاني مرابطاً في مكانه بالسلاحِ الكامل، على تمام الأُهبة، للقاءِ المشركين إذا ما سَوَّلتْ لهُم أنفسُهم شَرًّا أَوْ

غَدْراً، ثم يؤدي بعد ذلك بأمانِ اللَّه وسلامتِه الجيشُ المرابطُ ما عليْه من واجب العُمْرةِ ومناسِكها.

وسار النبي ﷺ بالأوائل، حتى انكشف لهم البيْتُ الحرام، الذي حيل بينهم وبينَهُ منذُ عامٍ مضى، فما كادوا يروْنَهُ حتى عَلَتْ أصواتُهم جميعاً مناديةً:

ـ لبَّيْك اللهم لبَّيْك...

وأحاط المسلمون بالنبيّ ـ ﷺ ـ في إعزازٍ وإكبار، وما أن أهلَّتْ جموعُهمْ حتى جلا القُرَشِيّون عن مكةَ مُسرْعين إلى التلالِ والجبال، لأنَّهم لم يستطيعوا ولم يطيقوا أن يَرَوْا **محمداً** ﷺ وصَحْبَهُ يعودون إلى مكّة جَهْرَةً... بقُوَّةٍ... وعِزَّةٍ...؛ بعد أن غادروها منذ أعوامٍ طِوال تحت جِنح الظلام ضعفاءَ أذلاَّءَ مهاجرين.

وبقي من **مكة** رجالٌ ونساءٌ مؤمناتٌ باللَّه ورسوله، ومن بينِهم **ميمونةُ بنتُ الحارث** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ.

نَصْرُ اللّه والفتْح

ودَخَلَ النبيُّ ـ ﷺ ـ مكّة، و**عبدُ اللَّه بنُ رواحة**. الصحابيُّ الجليلُ الكريم، الأميرُ الشاعر، آخِذٌ بزِمام راحلته وهُوَ يرتجِزُ ويقول:

خلّوا بني الكُفّارِ عن سبيلِهِ ... خلّوا فكُلّ الخيْرِ في رسُوله
يا ربُّ إني مؤمِنٌ بقيلِهِ ... أعرفُ حقّ اللَّه في قبولِهِ
نَحْنُ قتلناكُم على تَأْويلِهِ ... كما قتلناكم على تنزيلِه
ضَرْباً يُزيلُ الهامَ عن مقيلِهِ ... ويُذْهِلُ الخليلَ عن خليلِهِ

فأراد سيُدنا **عمرُ بنُ الخطاب** ـ رضي اللَّه عنه ـ أن يمنعَهُ من ذلك، احتراماً لمقام النبُوَّة، فنهاهُ النبيّ ﷺ وقال له:

ـ دَعْهُ يا **عُمر** فَواللَّه لَوَقْعُ كلامه، أَشدّ عليهم من ضَرباتِ الحُسام.

وفِعْلاً فَقَدْ كانَ وَقْعُ كلام **ابن رواحة** ـ رضي اللَّه عنه ـ أَشَدّ من وقْع الحسام على قلوبِ وآذان القرشيين النافرين.

إذْ تأثَّرَ بعضهم بما سَمِع فلانَتْ نَفْسُهُ ومال قلبُه، وعطف إلى الدين الحنيف، وعلى صاحبه العفيف.

وجَمَحَ أكثَرُهُم ونَفَرَ، فلاذوا برؤوسِ جبالِ **مكة** حتى لا يروا ولا يسمعوا.

فهُمْ كما وَصَفَهُمْ القرآن الكريم:

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: 50، 51].

قلبُ ميمونة المؤمن

كانَتْ **ميمونَةُ** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ تنظُرُ إلى حشود المسلمين وطوافِهِم ودُعائِهم، وتستمعُ إلى تَلْبِيَتِهم، فيكادُ قلبُها يَقْفِزُ من بَين جَنْبَيْها إعجاباً وحُباً. . .

وكذلك كانت عَبَراتُها ودموعُها تَنْهَلّ من مآقيها غزيرة ساخنة، والبسمةُ لا تفارقُ ثَغْرَها.

طاف النبيّ ﷺ مع أصحابه، وسعى بَيْن الصَّفا والمروَة، ونَحَرَ البُدْن، وحَلَقَ رأسَه، وأَتَمّ مناسكَ العُمْرة، وأقام مع أصحابِه ثلاثة أيّامٍ كما نَصّ العَقدُ المُبْرَم بين المتعاهدين في **الحديبية**.

الزواج الميمون

كانت **ميمونة** ـ رضيَ اللَّهُ عنها ـ مؤمنةً تكتُمُ إيمانها في أجواء مكّة النافرةِ الكافرة، فإذا بهذا الإِيمان عند رؤية النبي ﷺ مَعَ أصحابه يتفجَّر. . .، فَهَوَت بكُلّيَّتِها إلى الإِسلام، وأعلنت إسلامَها على الملإِ.

ولم تقفْ عندَ هذا الحد. . .، بل أَرْسَلَتِ **العباس بن عبد المطلب** ـ رضيَ اللَّهُ عنه ـ ليعرِضَ رغبتَها في الزَّواجِ من رسول اللَّه ﷺ.

فقبل ـ ﷺ ـ، ولبّى نداءَ النَفْسِ الزكيّةِ الطاهرة والقلْبِ الجيّاشِ بالإِيمان، وأصْدَقها أربعَ مائةِ درهم.

وكانت مدةُ الأيام الثلاثة التي نَصّ عليها صُلْح **الحديبية** قد انقضَتْ، فأرْسَلَ القرشيون إلى النبي ﷺ يقولون:

ـ لقد انقضى أَجَلُك. . . فأَخْرُجْ عَنّا.

فابتسم النبيُّ الكريمُ ﷺ وقال للوفد:

ـ ما عليكُم لو تركتموني فَأَعْرسْتُ بَيْن أَظْهُرِكم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموهُ **وليمة العُرْس**.

إذا أراد ﷺ أن يتّخذَ من زواجه بـ **ميمونة** ـ رضيَ اللّٰهُ عنها ـ ذريعةً لإطالةِ إقامتِه، وليُجدّدَ الحوارَ بينَهُ وبَيْن القرشيين، لعلَّ اللّٰه سبحانه وتعالى يهديهم إلى الإِسلام.

ثُمّ أقامَ ﷺ حَفْلاً دعا إليه أكابِرَهُم، فأبوا أن يتناولوا شيئاً من الطعام وقالوا:

ـ لا حاجة لنا في طعامك، فاخْرُج عنّا.

قالوا ذلك وهم يتوجّسون خيفةً من بقائِهِ أكثرَ من ذلك، لأنهم أدركوا وأحسُّوا بما تركتهْ زيارتُهُ لـ **مكّة** من أثَرٍ في بعض النفوس والعقول.

فها هي **ميمونةُ بنتُ الحارث** لا تكتفي بإعلان الإِسلام، بل تُضيفُ إليه ما يَغيظُهم، حين تعرِضُ على رسول اللّٰه ﷺ نفسَها زوجَةً. وفي أثناء هذا الحفْلِ الكريم أعلن ﷺ زواجَه من **ميمونة** وحفاظاً منه على نصوصِ معاهدة **الحديبية** لم يَبْنِ بها في **مكة**.

وأذّن مؤذّنُه بالرحيل إلى المدينة، وحين أصْبَحَ في مكان يُسَمّى **سَرَف**، على بُعْدِ عشرةِ أميالٍ من **مكة** بني بـ **ميمونة**.

فأقيمت لهُ **خيمة**، وزُيّنَتْ له عروسه النبيلة، ودَخَلَ بها على بركةِ اللّٰه؛

خير وبركة على الإِسلام

ما كاد ركْبُ المسلمين يغادر **مكّة** متوجّهاً إلى المدينة حتى أَثّرتْ في نفوسِ بعضِ القرشيين صَيْحَةُ **ميمونة** الداوية، فَوَقف **خالدُ بنُ الوليد** ـ رضيَ اللّٰهُ عنه ـ يقول ـ في جموع الناس ـ:

«لقد اسْتبان لكُلّ ذي عَقْلٍ أن محمداً ليس بساحرٍ ولا شاعر، وأن كلامَهُ من كلام ربِّ العالمين، فَحَقّ على كلّ ذي لُبٍّ أن يَتْبعه».

فلما عارضه **عِكْرمةُ بنُ أبي جَهْل** مُسفِّهاً رأْيَهُ وقَوْلَهُ، مذكّراً إيّاهُ بأقربائه الذين قُتِلوا في **بَدْرٍ** أجابه خالد:

ـ هذا أَمْرُ الجاهليّة وحميَّتِها، لكنّي واللّٰه أسلمتُ حين تبيَّنَ ليَ الحق.

ولقد كان رسُولُ اللَّه ﷺ دائم الذّكر لـ **خالدِ** أمام أخيه **الوليد بن الوليد**، متعجّباً من تأخُّرِ إسلامِهِ، تاركاً الأمْرَ لِلَّهِ تعالى.

فأرْسَلَ **الوليدُ** إلى أخيهِ **خالد** رسالةً يحدّثُهُ فيها عن كلّ ذلك، مستعطفاً قَلْبَهُ، مُسْتَحِثًّا ضميره، داعياً إياهُ إلى المبادرة، كَيْ يأخذ دورَهُ ومكانته في الصف الإِسلامي والموكب الإِيماني.

وأيـضـاً . . .

ثم لحق هُوَ و**عمرو بن العاص** برسُول اللَّه ﷺ إلى المدينة، فاعْتَزَّت بهما الدعوةُ وصارا عَلَمينِ من أعلامِ الجهاد.

لقد كان لموقف **ميمونة** الجريء ـ رضيّ اللَّهُ عنها ـ الأثرُ البارزُ من تحوُّلِ الكثيرين من القرشيين عن جاهليتِهم، ودخولِهم في دين اللَّه.

حاتى إن بعضهم أعلن إسلامه ودخوله في الدين الجديد، وأقام في **مكة** غَيرَ مهاجرٍ إلى **المدينة** تحدّياً لإرادة الجبّارين من قريش، وسفاهة معتقدهم، وضلالِ آرائهم.

أم المؤمنين

وصلت **ميمونة** إلى المدينة، واستقرَّتْ في البيْتِ النبويِّ الطاهر زوجةً كريمة، وأُمًّا للمؤمنين فاضلةً، تؤدي واجب الزوجية على خَيْرِ ما يكونُ الأَداء، سَمْعاً وطاعةً وإخلاصاً ووفاءً.

وضَمّ إليها النبيّ ﷺ في بيتها شقيقتها **سلمى** أرملةَ عمّه **حمزة بن عبد المطلب** رضيَ اللَّهُ عنه، وشقيقتَها **عُمارة** التي لم تتزوّجْ بَعْدُ.

جاعِلاً من هذا البيْتِ رُكْناً ومَوْئلاً لذوي الفضل، ومَقْصداً لِأَهْلِ الخَيْر، ومحجَّةً لطلبةِ العلْم من الصحابيات الجليلات ـ رضوان اللَّه عليهن ـ.

السيدة الشابّة

كان عمرُ **ميمونَة** في ذلك الحين ستةً وعشرين عاماً، فهي لا تزالُ في مَيْعَةِ الصِّبا، وحيويَّة الشباب.

في هذا العام فُجع النبيّ ﷺ بكُبرى بناته **زينب** ـ رضيَ اللَّه عنها ـ فكانَتْ **ميمونة** تواسيه وتخفِّفُ ما بِهِ من ألم المُصاب، ولم تكنْ لتُثْقِلَ كاهلَهُ بشكوى أو طلب.

وتُدارِي أحزانَه بالكلمة الطيبة، والمعاملة الحسنة، وترْفق بآلامِهِ بوداعةٍ متناهيةٍ، ولُطْفٍ بالغ.

الوفيّة

بعد أن لحق رسولُ اللَّه ﷺ بالرفيق الأعلى، عاشت ميمونَةُ سنين عَدَداً، بلغت خمسين عاماً، أمْضَتْها صلاحاً وتقوى، وفيَّةً لذكرى النبي الكريم، رسُول الهُدى ومعلم الإنسانية، **محمد بن عبد اللَّه** ـ صلواتُ اللَّه وسلامُهُ عليه.

وبَلَغَ من وفائها لهذه الذكرى أن أَوْصَتْ بدفْنِها عند وفاتِها في المكانِ الذي بنى بها فيه ـ ﷺ ـ، فدُفنتْ حسبَ رغبتها في **سَرَف**[1].

أكرم اللَّه مثواها، وأنزل عليها شآبيبَ رحمته، وبَوّأها مقامَ الأبرار الصالحين.

---

(1) ذكره ابن الأثير بلفظ قريب في «أسد الغابة» (550) والإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (2/ 245) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 469 ـ 470).

ريحانة بنت زيد

رضي اللَّه عنها

قال اللَّهُ تعالى:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا * وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا * وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 32 ـ 34].

توطئة

يضطَرُّنا الحديثُ عن **ريحانة بنت زيْد** إلى مخالفة النّهْج الذي تعوّدناه في نساء حول الرسول، لأن ظروف إسلامها واقتران النبي ﷺ بها، فيه مغايرة للمجرى العام والنّسَق الذي ألفْناهُ من قبل.

فمن الضروري والبدهيّ أن نَعْرض لظروفٍ عامةٍ وخاصة تتعلّق بالموضوع؛ فعذراً من القارئ الكريم إن وَجَدَ اختلافاً، واللَّه المستعان.

الإسلام واليهود

كان العنصر اليهوديّ في **يَثْرب** هو المسيْطر المتسلّط وهُوَ صاحِبُ النفوذ، يعيش مستفيداً من خلاف قبيلتي **الأوْس والخزرج**، وهُمْ أكثر عدداً وأعظم نفيراً، إلا أنّ خلاف القبيلتين كان سَبَبَ ضعفهما الدائم ومجال سيطرة اليهود.

كما كان العنصر اليهوديّ يَضُمّ ثلاث طوائف، أو عشائر، هُم: بنو قَيْنُقاع، وبنو النضير، وبنو قريْظة، لِكُلٍّ منهم حيُّهُ ومكان إقامَتِهِ في الضّواحي، تحيطُ بهم الأسوار والجدران، كأنها الحصُونُ والقلاع، ويلتفّون حَوْل **يَثْرب** ويحدقونَ بها.

وكانوا إلى جانب سعيهم بالفرقة والاختلاف بَين الأوس والخزرج أصحاب مالٍ وغنى، يوظفون ذلك في إذلال الأعراب وإرهاقهم والاستبدادِ بهم. . .

وأَيْضاً. . . ، كان أَهْلُ يَثْرِب ينظرون إلى اليهود من الناحية العقائدية نظرة قداسةٍ وإجلالٍ واحترام، لأنَّهم أصحابُ كتابٍ سماوِيٍّ مُنْزل، ويتابعونَ أنبياء اللَّه، فليسوا أُميّين ولا دهماء.

ومع ظهور الإسلام، وانتظام الأوْس والخزرج في سِلْكِهِ، ومبايعتهم لرسُولِ اللَّه ﷺ بالنُّصرْة والمنَعَةْ، وتوحّد كلمتهم وصفّهم، فَقَدَ اليهودُ أوّل نفوذِ لُهم. . .

وبَعْدَ الهجرة، وتآخي المسلمين، وقيام المجتمع الجديد، المتكامل المتضامن، فقد اليهود سلطانهم الثاني، ونفوذهم الماديّ والماليّ. . .

وحَيْث أن مفاخرتَهُم واستعلاءَهُمْ على العربِ بأَنهُم أَهْلُ وثنيَّة، وهُمْ أَهْلُ كتاب سماوي، قد زالت واندثرت، فقد ضاعَ على اليهودِ كُلّ قُدْرةٍ على السيطرة والنفوذ والاستبداد.

ولقد أراد النبي ﷺ أَنْ يتعايش المسلمونَ واليهود في سلامٍ وأمْنِ واطمئنان، فعقد معهم العقود، وأمضى بينَهُ وبينهم العهُودَ والمواثيق.

لكن الطّبْعَ اليهودي لا يَلْبَثُ أَنْ يَظْهَرَ ويطفو على السَّطْح، من غَدْرِ ونفاقٍ وحِقد.

ولقد لَقِيَ **بنو قينقاع** و**بنو النضير** جزاءهم وفاقاً، وتَمّ إجلاؤهم عن المدينة، والتخلُّص من آثامهم وبقي **بنو قُرَيْظة**. . . ، حتى حان حيْنهُم.

نسبها

ولقد سعى ساعيهم إلى **مكّة** يُؤَلّب **قريشاً** ويحثّها على قتالِ **محمد** ﷺ والمسلمين، ويَعِدُهم بمناصَرَتِهِم وتأييدِهم.

وكانَتْ **ريحانةُ** بنت زيْد بن عمرو بن قُنافة ويقال خُنافة من **بني النضير**، لم تَجْلُ مَعَهُم عن المدينة، ولم تغادِرْها، وسَبَبُ ذلك أَنّها كانَتْ متزوّجةً من أَحَدِ رجال **بني قُرَيْظة** الذين استمروا في المدينة مقيمين؛ وكان اسم زوجها: **الحَكم**[1].

(1) ترجم لها ابن سعد في «الطبقات الكبرى» برقم (8/ 129).

وكانَتْ كما هُوَ مشهورٌ عنها ذات حُسْنٍ وجمالٍ ووضاءة، مُحبَّةً لزوجها وفيَّةً لهُ، تُحْسِنُ معاملته، وتبالغ في طاعتِهِ والإِخلاصِ لهُ.

وسارت بها عجلةُ الزّمنِ، ودار بها دولابُ الحياة، وهي لا تدري ما يخبّئُهُ لها الْقَدَرُ من الشرفِ العظيم، والمكانة الرفيعة السامية.

وجاءَت قرَيْش والأحزاب إلى المدينة تريدُ أن تطفئ نُورَ اللَّه، ولكنهم فوجئوا بالخندق الذي أشار بحفْرِه **سلمانُ الفارسيُّ** - رضي اللَّه عَنْهُ - والمسلمين وراءه، متأهبين ومستعدين للقتال.

ولقد عَرَف رسُولُ اللَّه ﷺ بخيانة **بني قريظة** ونَقْضِهم العهْد، وذُعِرَ أكثر المسلمين من وقوعهم بَينْ عَدُويْن، الأحزابُ من أمامهم واليهودُ من ورائهم، لكن رحمة اللَّه تعالى تجلّتْ على عباده في ذلك اليوم المشهود، واستطاع فَرْدٌ من المسلمين بتوجيهٍ من رسولِ اللَّه ﷺ ودعائِه لهُ أن يفكّ التحالُفَ بَين الأعداء، ويَصْرِفَ عن المؤمنين كَيْد الكافرين والمشركين معاً.

وعادَتْ قريش والأحزاب بخُفَّيْ حُنَيْنْ لم ينالوا خَيْراً، وعاد المسلمون إلى المدينة، وقد أذْهَبَ اللَّه عنهم اليأْس والخوْف والشَدَّة.

لكن... هل يمُرّ غَدْر **بني قريظة** دونَ تأديب أو عقابٍ صارم، جزاء ما أسْلَفَتْ أَيْديهم من النفاق والبغضاء وسوءِ العهْد؟

كلا... أبداً...،

الأسيرة

فبيْنما كان رسُول اللَّه ﷺ في دارِه يَغْتَسل ليزيلَ عَنْه وَعْثاءَ وغبار الأيام السالفة، أيام حصار الخندق، قُرِعَ بابُ دارِهِ، فأسْرَعَتْ **عائشة** - رضي اللَّه عنها - لترى مَنْ بالباب، فإذا فارس يعتلي صَهْوَةَ جواد، متدرّعاً وكأنه ذاهِبٌ إلى قتال، يَطْلُبُ مقابلة رسول اللَّه ﷺ على عَجَلٍ، فخرج إليْه ﷺ، وقد غَسَلَ جانباً من جَسَدِهِ الشريف، فإذا جبريل الأمين، يطلب إلى الرسول الكريم، بأمْرٍ من اللَّه تعالى، مبادَرَة **بني قريظة** وتأديبهم على الفوْر...

فأرْسل ﷺ رسُولاً يؤذّن في المسلمين:

ـ مَنْ كان يُؤْمن باللَّه ورسولِهِ واليوْم الآخر فلا يصلِّيَنَّ العصر إلا في بني قريظة.

كما طلب إلى **عليّ** كرّم اللَّه وَجْهَهُ، أن يتقدَّم إلى حُصونِ العدو على رأْسِ فرسانِ المسلمين، كطليعةٍ لهُ ولإِخوانِهِ وأصحابه.

وضُرِب الحصارُ على القوْم الكافرين، أيّاماً وليالي، واستمروا هُمْ في تشاوُرٍ ومراوغةٍ ومماطلة، واستحضروا **أبا لُبابة** ـ رضي اللَّه عنه ـ ليروا رأْيَهُ، ثُمّ فوجئوا بفرسانِ المسلمين وقد توسّطوا ساحتهم، ودخلوا من ثغرةٍ إلى حصونهم، عندئذٍ طلبوا الهُدْنة ووقْفَ القتال، وارتضوا **سعد بن معاذٍ** ـ رضي اللَّه عنه ـ حكماً[1].

فسُبيَت الذريّة، وقُتِل المقاتلة والأسرى الذين بلغوا سبعمائةٍ، وأُجْليَ الباقون عن الديار؛ وتنظَّفَتِ المدينة المنورة إلى الأَبَدِ من العنصر اليَهُودي.

وكانت **ريحانة** قد وقعت أسيرة في السَّبي.

فلمّا عُرضَتْ عليْه اصطفاها لنَفْسِهِ، وكان لهُ من كُلّ سَبْيٍ صفيّ يختاره، فاختارها رضي اللَّه عنها، ثُمّ أرسل بها إلى بَيْتِ **أم المنذر** ـ سلمى بنت قيس ـ رضي اللَّه عنها.

وقال لأم المنذر: أخبريني إن حاضَتْ حيضَةً واحدة.

اللـقـاء

ومرّتْ أيّام على مقام **ريحانة** في بَيْت **أم المنذر** حتى حاضَتْ، فجاءت **أم المنذر** إلى رسولِ اللَّه ﷺ تخبرُه؛ فعادَ معها إلى دارها.

تقولُ **ريحانة**:

ـ دَخَلَ عليّ رسُولُ اللَّه ﷺ، فتنحَّيْتُ مِنْهُ حياءً، فدعاني فأجلسني بين يَدَيْه فقال:

إن اخْتَرْتِ اللَّه ورسُولَهُ اختارَكِ رسُول اللَّه لِنَفْسِهِ.

---

(1) ذكرها بنحوها ابن هشام في «السيرة النبوية» (3/ 254).

فقُلْتُ:

ـ إنّي أختارُ اللّه ورسُولَهُ.

ثم قال:

ـ إن أحْبَبْتِ أن أعتقك وأتزوّجَك فعلْتُ، وإن أَحْبَبْتِ أن تكون في ملكي فعلتُ أيْضاً...

فقالت:

ـ يا رسول اللّه أكونُ في مِلْكِكَ أَخَفُّ عليَّ وعَلَيْك.

هذه رواية، وهناك روايةٌ أخْرى تقولُ بأنه ﷺ أعتقها وتزوّجها وأصْدَقَها اثنتيْ عشرة أوقية ونشًا كما كان يُصْدِق نساءه.

وقَدْ أَعْرَس بها في بَيْت **أمّ المنذِر**، لأنّه لم يكُن لها بَيْتٌ **حُجْرة** كما كان لبقيّةِ نسائه ﷺ في ذلك الحين.

وريحانَةُ ـ رضي اللّه عَنْها ـ اسمٌ على مُسمّى،

زَهْرَةٌ نَوارة ناصعة البياض، كاللؤلؤِ المنضودِ على غُصْنٍ أَخْضَر يانع، طيبة المذاق، زكيّة الرائحة...

جميلة القسمات، وضّاءَة الوجه، ناصعة البشرة، فتيّةً شابّة.

وكان رسول اللّه ـ ﷺ ـ كما تقول رواياتُ التاريخ، مُعْجباً بها، لا يردّ لها طلباً، ولا تسأَلُه شيئاً إلا أجابها إليْه...

فقيل لها بهذا الشأْن:

ـ لو كُنْتِ سألتِ رسول اللّه ﷺ في **بني قريظة لأَعْتَقَهُم**.

فقالَتْ:

ـ لم يَخْلُ بي حتى فَرّق السَّبْي.

وكان من شِدّةِ حُبه ﷺ لـ **ريحانة** أنّه كان يستكثِرُ منها، طلباً للْوَلَدِ والذريّة، وكانت أكثَرَ نسائِهِ اختلاءً بِهِ ﷺ.

طلاقها

لكن **ريحانة** ـ رضي اللّه عنها ـ كانَت امرأة شديدة الغيرة، والغيرةُ في

النساءِ طبعٌ غريزي، ولكنها كانت عند **ريحانة** تفوق الحد، وتتجاوز المعقول.

ولقد حَدَث أن أظْهَرَتْ ذلك يَوْماً، وفي لهجةٍ قاسية، وعباراتٍ جافّة،

وقد يكون حُبّ رسول اللّه ﷺ الزائد لها هو الذي جعلها تخرُجُ عن طورها واتزانها، ويزين لها غرور المرأةِ أنّها تلْعَبُ بالرجال وأقدارهم، فما كان من رسُول اللّه ﷺ، إلا أن طلّقها تطليقةً[1]...

توبتها

وغادر الدار، دار **أم المنذر**...، فندمت **ريحانَةُ** على ما بَدَر منها، وساءَها أن أَفْرطت في غَيْرتها، فبكتْ بكاءً مُرًّا، وشَقّ عليها فراق رسُول اللّه ﷺ لها.

وخرَجَتْ **أم المنذر** تنبئ رسول اللّه ﷺ بما حَدَث لـ **ريحانة** بَعْدَ خروجِهِ، وندمها الشديد على ما فَعَلَتْ، واسْترحمتْهُ في العطف على **ريحانة**... كي يراجِعها.

فعادَ صاحِبُ القْلب الكبير، صلوات اللّه وسلامه عليْه إلى حَيْث هي، فوَجدَها على أسوإِ حال من الحزْنِ واليأس، فراجعها، وأَحْسَنَ إليْها...، ففَرِحَتْ، وكادَتْ تنزل على يديْه تقبلهما وتغمرهما بالدموع.

ومنذ ذلك اليَوْم أَصْبَحَتْ **ريحانة** ـ رضي اللّه عنها ـ **أَطْوَع** له من ظِلِّهِ ـ ﷺ ـ لا تغضِبُهُ ولا تُحزِنُه، ولا تؤذيه في قوْلٍ أَوْ فِعْل.

وتؤدي لهُ واجب الزوجيّة على أحب ما يشتهي ويريد ويتمنى، واستمرت كذلك لا تتبدَّلُ ولا تتغيّر،

فكان يقسم لها كما كان يقسم لنسائه الأخريات، من كُلَ فيْءِ وعطاء، لا ينقصها حقها، ولا يضيّع عليها نصيبها.

ولقد كان زواجه ﷺ من **ريحانة في العام السادس** من الهجرة، فمكَثَتْ عِنْدَهُ طوال أَرْبَعِ سنوات، كانت حافلةً بالأحداثِ الجسام، منها **فتح خيبر وصُلْح الحديبية وعمرةُ القضاء** ثُمّ **فتح مكة** وغزوتا **حُنَيْنٍ والطائف**.

---

(1) رواه ابن حجر بلفظ قريب في «الإصابة» (303).

مرضها

فلما كان يَوْم حجّةِ الوداع التي أنزل اللَّه تعالى فيها قوله:

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: 3].

وخطب فيها ﷺ خطبته الشهيرة التي تضمنت تقريرات ومبادئ، كثيرةٍ وعظيمة،

عاد ﷺ من **مكة** فإذا **ريحانة** مريضة تعاني من الآلام والأسقام والأوجاع.

ولقد كان شاقاً ومؤلماً على رسُول اللَّه ﷺ أَنْ يرى **رَيْحَانةِ** تَذوي وتذبل كالزهرةِ اليانعة التي كانت تملأ جَوّ الحياةِ أريجاً وبهاءً، ثم تَصْفَرّ وتتساقط وريقاتها واحدة بعد الأخرى إيذاناً بالفناء.

موتها

ولم تمض سوى أيّام قلائل حتى فارقت **ريحانة** الدنيا وهي في عِزّ الصبا ورونق الحياة، فبكاها ﷺ وحَزن لفراقها. وقام بعض النسْوة الذين يثق بهم ﷺ أمثال **أم المنذر بن قَيْس** على تدبير شؤون دفْنِ **ريحانة**.

فغُسّلَتْ وكفّنَتْ وطُيّبت، ثُم حُمِلَتْ إلى **البقيع**، ومشى ﷺ في جنازتها يحف به كبار إخوانه وأصحابه، حتى انتهوا إلى المدافن وهناك ووريت **ريحانة** الثرى، ودعا لها رسول اللَّه ﷺ أدعيةً مباركة، وسأل اللَّه تعالى لها المغفرة وحُسْنَ الثواب، ثُمّ رَجَعَ إلى بَيْتِهِ، وقد فارق بَضْعَةً منه كانَتْ من أعَزّ نسائه عنده، ومن أحبهنّ إليه، وأكرمهن عنده.

لماذا الزواج من **ريحانة**...؟

هذا سؤال يطرحُ نفسه، ويقتضي منا الإجابة الصريحة الواضحة؛ لأن أَكْثَرَ روايات التاريخ تركّز على جمال **ريحانة**، فكأنه ﷺ افتتن بها وأحبها لذلك.

وبعض الروايات التاريخية يذكُرُ أن **ريحانة** كانَتْ زَوْجَةً لرجُلٍ من **بني قريظة** يدعى **الحكم**، من أشراف القوْم وسادتهم، وكان **الحكم** وفياً مُحباً

مخلصاً، فلما مات يوم معركة **بني قريظة** حلفَتْ **ريحانة** أن لا تتزوّج بعده، وتبقى على ذكرى الزوْج العزيز، ولو طال بها العمر، وامتدّ بها الأجَل.

ولقد كان رسول اللَّه ﷺ عالِماً بمكانة **ريحانة** عند قومها **بني النضير** وعالماً بمقام زوجها **الحكم**، وتحت شعار قاعِدَة إنما يُكْرِم الكريمُ اصطفاها ﷺ لِنَفْسِهِ، ومَنْ أولَى من **محمد بن عبد اللَّه** بالحفاظ على كرامة الناس؟؟!!

وأَيْضاً. . .

فإن زواجَهُ ﷺ من **سَوْدَة بنت زمعة** ـ رضي اللَّه عنها ـ وكانت كبيرة السّن، ليس فيها أدنى مِسْحةٍ من جمال، يردُّ افتراء المشتبهين والغامزين.

وأَيْضاً. . .

عندما شَعَرَ ﷺ من **ريحانة** بالغيرةِ الشديدة، وقد أظْهَرَت ذلك في فلْتَة من فلتاتِ اللسان طَلَّقها. . .

ثم راجعها، ولو كان غيرُهُ من الناس لتحمَّل منها كُلّ ذلك دون فراقٍ أو طلاق[1].

وأخيراً. . .

نَسْأل اللَّه تعالى أن يرضى عن **ريحانة بنت زيْد**، زَوْجَةِ رسُول اللَّه ﷺ، وأن يكافيها على إيمانها وإسلامها، واختيارها اللَّه ورسوله، وحُبّها لنبيّه ودينه، وينزلها في جنات النعيم المكانة التي تستحقّها، إنه على ما يشاء قدير، فهو نعم المَوْلى ونِعْم النصير.

---

(1) رواه بمعناه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (9/ 404) ترجمة (3384).

مارية القبطية

أمّ المؤمنين

رضي اللَّه عنها[1]

قال رسول اللَّه ﷺ: «اسْتَوْصوا بِالقِبْط خَيْراً . . .».

تـوطـئـة

إِن لاسم **مارِيةَ القِبْطية** هِزَّةٌ في نُفوسِ ٱلْمُؤْمنين، ورَعْشَةٌ في أَرْوَاح ٱلمسلمين، وسَبْحَةٌ في أَجْوَاءِ التّاريخ، إِذ ٱجْتَمَعت كثيرٌ من العوامل وٱلمؤَثِّرات على تَخْليد ٱسْمها رضي ٱللَّه تعالى عنها.

ورغم اشتهارِ ٱلاسم، وما يَتْرُكُ في النَّفْسِ ٱلْمُؤْمِنَةِ مِنْ أَثَرِ عَمِيقٍ، فإِنَّ الكتابة عنها في التاريخ قليلةٌ، واستجلاء جوانِبِ شخصيتها العظيمة نادِرَةٌ.

ونحن حين ننصفها ـ رضي ٱللَّه تعالى عنها ـ بالحديثِ وٱلْكِتابَةِ، إِنَّما نُوَفّيها جُزْءاً ضئيلاً مِن حقّها علينا وعلى أُمَّتِنا.

---

(1) هي مارية بنت شمعون القبطية المسيحية. من صعيد مصر، من قريةٍ اسمها: حفن. من كورة أنصنا، الواقعة على الضفة الشرقية للنيل، تجاه الأشمونين.
قال ابن عبد البر: أهداها المقوقس القبطي صاحب الإسكندرية ومصر ـ للنبي ﷺ ـ وأهدى معها أختها سيرين وخِصيًا يقال له مأبور. فوهب رسول اللَّه ﷺ سيرين لحسان بن ثابت ـ رضي اللَّه عنه ـ وهي أُمُّ عبد الرحمن بن حسَّان «الاستيعاب» (1607/ 3).
وأنصنا ـ بالفتح ثم السكون، وكسر الصاد المهملة، والنون مقصور. مدينة أزلية من نواحي الصعيد على شرقي النيل. ينسب إليها كثير من أهل العلم، منهم: أبو طاهر الحسين بن أحمد بن حَيُّون الأنصاوي، مولى خولان. وأبو عبد اللَّه الحسين بن أحمد بن سليمان بن هاشم الأنصاوي، المعروف بالطبري، روى عن أبي علي هارون بن عبد العزيز الأنباري المعروف بالأوارجي روى عنه، أبو عبد اللَّه محمد بن الحسن بن عمر؛ الناقد بمصر «معجم البلدان» (1/ 265 ـ 266) مختصراً والخبر أورده ابن هشام في «السيرة النبوية» (1/ 4)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 465).

نَسْأَل ٱللَّه تعالى أَنْ يُسَدِّد خُطانا إِلى ما فيه الخير.

والحمدُ للَّه أَوَّلاً وآخراً.

الرسل إلى الملوك

في العام السّادس من هجرةِ ٱلمُصْطفى ﷺ، وقد بَدَتْ في أُفُقِ التاريخ استكمالُ عناصِرِ **الدَّوْلةِ** الإسلاميةِ في شِبْهِ الجزيرة العَرَبيّةِ، إِذْ خَضَعَتْ قُرَيْشٌ مُرْغمةً على مفاوَضَةَ النَّبِيِّ ﷺ مُفاوَضَة النِّدِّ للنِّدِّ يوم **الحُدَيبية**، كما وَطَّدَتْ بنودُ الصُّلْح شَخْصيَّةَ ٱلمسلمين السِّياسِيّةِ ٱلمُسْتَقِلة، مُعْتَرِفَةً بذلك ٱعْتِرافاً ضِمْنيًّا، في ذلك العام أرسل النبي ﷺ رُسُلَهُ إِلى ٱلملوكِ يدعُوهم إِلى ٱلإِسْلام، إِلى **كسرى** ملك الفرس، وإِلى **قيصر** ملك ٱلروم، وإِلى **النجاشي** ملك ٱلحبشة وإِلى **المقَوْقِس** عظيم القِبْط في مصر، وغيرهم.

وكان رسُولَهُ إِلى **المقَوْقِس حاطِبُ بن أبي بلتعة**، رضي ٱللَّه عنه.

فاستقْبَلَهُ **المقَوْقِسُ** وقَرَأَ كتابَهُ، ثُمّ أَكْرَم وِفَادَتهُ، وأَنْزَلَهُ مَنْزلاً كريماً، ولكنَّهُ لم يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ ٱلإِسْلاَم، ثم زوّدهُ بهدايا ثمينة حملها **حاطبٌ** إِلى رسول ٱللَّه ﷺ.

نسب مارية

كانت ٱلهدايا جاريتيْن من جواري المقَوْقِس هما: **مارية** وأختها **سيرين**، وأَلْفُ مثقالِ ذهباً وعشرون ثَوْباً لَيِّناً، وبَغْلَةٌ اسمها **دُلْدُل**، وحمارٌ اسمه **عفير**، وخصِيٌّ يُقال له **مابور** وكان شيخاً طاعناً في السِّن(1).

---

(1) 1 ـ دعوة النبي ﷺ للمقوقس ـ صاحب الإسكندرية ومصر ـ للإسلام، وما كان من رده على رسالة النبي ﷺ وإكرامه بمارية وأختها...

روى الإمام أحمد بن طولون في «إعلام السائلين» (ص81) بإسناده، من طريق ابن سيد الناس، قال: كتاب النَّبيِّ ﷺ إلى المُقوقس، مع حاطب بن أبي بلتعة ـ رضي اللَّه عنه ـ

بسم اللَّه الرَّحمٰن الرَّحيم. من محمَّد بن عبد اللَّه، إلى المقوقس عظيم القبط. سلامٌ على من اتَّبع الهدى.

أما بعد، فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم، وأسلم يؤتك اللَّهُ أجرك مرَّتين. فإن توليت، فإنَّ عليك إثم القبط. ﴿**يَا أَهْلَ الكِتَاب تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ**=

كان والد **مارية** يُدْعى **شَمْعُون** من أقباطِ مِصْر، وأُمُّها روميَّةُ ٱلْأَصْلِ،

= **إلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** [آل عمران: 64]. وَخَتَمَ الكِتَابَ.

فَخَرَجَ به حاطبُ[1] حتى قَدِمَ الإسكندرية، فانتهى إلى حاجبه. فلم يلبث أن أوصلَ إليه كتاب رسول اللَّه ﷺ. وقال حاطب للمُقوقس[2] لمَّا لقيه:

إنَّه قد كان قبلك رجلٌ يزعم أنَّه الرَّب الأعلى. فأخذه اللَّه نكال الآخرة والأولى. فانتقم به، ثمَّ انتقم منه[3]. فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرك بك. قال: هات.

قال: إنَّ لنا ديناً لن ندعه إلاَّ لما هو خيرٌ منه.

فقال حاطب بن أبي بلتعة: ندعوك إلى دين اللَّه، وهو الإسلام الكافي به فقد ما سواه. إنَّ هذا النَّبي ﷺ دعا النَّاس، فكان أشدَّهم عليه قريشٌ. وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النَّصارى. ولعمري ما بشارة موسى بعيسى، إلا كبشارة عيسى بمحمَّد. وما دعاؤنا إيَّاك إلى القرآن، إلاَّ كدعائك أهل التَّوراة إلى الإنجيل. وكلُّ نبي أدرك قوماً فهم من أمَّته. فالحقُّ عليهم أن يطيعوه. وأنت ممن أدركه هذا النَّبيُّ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنَّا نأمرك به.

فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النَّبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه. ولم أجده بالساحر الضال، ولا بالكاهن الكاذب. ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء[4]، والإخبار بالنجوى. وسأنظر.

وأخذ كتاب النبي ﷺ فجعله في حق من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له.

ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية. فكتب إلى النَّبيُّ ﷺ.

بِسم اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. لمحمَّد بن عبد اللَّه، من المقوقس عظيم القبط. سلامٌ عليك. =

---

(1) حاطب بن أبي بلتعة صحابي مشهور، شهد المشاهد كلها مع رسول اللَّه ﷺ وكان ممن شهد بدراً. وفيه قال رسول اللَّه لعمر رضي اللَّه عنه: «وما يدريك لعل اللَّه اطلع على أهل بدرٍ فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» كان رضي اللَّه عنه رامياً ماهراً، وكانت له تجارة واسعة. وكان أحد فرسان قريش وشاعراً من شعرائها في الجاهلية. كان رسول اللَّه ﷺ أرسله إلى المقوقس. مات بالمدينة وقبره بالبقيع.

(2) المقوقس: لقب لكل من حكم مصر والإسكندرية. والمقصود هنا هو: جريج بن مينا القبطي مات نصرانياً ولم يُسلم!

(3) يشير إلى فرعون ملك المصر، حيث قال اللَّه تعالى فيه: **﴿هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اَذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَل لَكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾** [النازعات: 15 ـ 26].

(4) الخبء: هو الغائب المستور. يشير إلى إخباره ﷺ بالمغيبات التي أطلعه اللَّه تعالى عليها.

فكانَتْ **مارية** بيضاءَ جَعْدة، تحمل من سِحْنة أمّها الرومية بياضَ البَشَرةِ، ومِنْ سِحْنَةِ أبيها تجعُّد الشَّعْر، وكانت جميلة حَسَنَة الوجْهِ والقَدِّ.

في الطريق إلى المدينة

خرجَتْ **ماريةُ** من ٱلْإسكَندرية مع أُخْتِها **سيرين** والخصيُّ **مابور** في حراسة حاطب بن أبي بَلْتَعَة وهي لا تدري من أَمْر مُسْتَقْبَلِهَا شَيْئاً أو مما تَدَّخِرْهُ لها ٱلْأَيَّام من خير...

= أما بعد؛ فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه. وقد علمت أن نبيًّا بقي. وكنت أظنُّ أنَّه يخرج بالشَّام. وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم. وكسوةً، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسَّلام عليك.

ولم يزد على هذا، ولم يسلم. والجاريتان: مارية، وسيرين، والبغلة: دلدل، بقيت إلى زمن معاوية رضي اللَّه عنه، وكانت شهباء.

ولمَّا ختم الكتاب، دفعه إلى حاطب، وأمر له بمائة دينار، وخمسة أثواب. وقال له:

ارجع إلى صاحبك ولا تسمع منك القبط حرفاً واحداً، فإن القبط لا يطاوعون في اتباعه. وأنا أضنُّ بملكي أن أفارقه، وسيظهر صاحبك على البلاد، وينزل بساحتنا هذه، أصحابه من بعده. فارحل من عندي.

قال حاطب: فرحلت من عنده ولم أقم عنده إلاَّ خمسة أيام. فلمَّا قدمت على رسول اللَّه ﷺ ذكرت له ما قال لي.

فقال ﷺ: «ضنَّ الخبيثُ بملكه، ولا بقاء لملكه»[1].

وقد جاء في «الطبقات» و«الاستيعاب» و«الإصابة» وغيرها من أمهات الكتب، أن المقوقس أهدى لرسو اللَّه ﷺ مع ما أهداه، خصياً يقال له مأبور[2]. قريب مارية. وسيأتي ذكره.

---

(1) تمَّ تصويب الخبر من «زاد المعاد» (3/) وغيره. وقد جاء نصه في «الطبقات الكبرى» لابن سعد (1/ 260 ـ 261) ونصب الراية (4/ 421 ـ 422) للزيلعي. وصبح الأعشى (6/ 378) و«عيون الأثر» (2/ 265) و«البداية والنهاية» (4/ 272 ـ 273) وغيرها من أمهات الكتب. وقد جاء في «صبح الأعشى» (6/ 378) ما نصه:

قال القلقشندي: ذكر الواقدي؛ أن كتابه ﷺ إلى المقوقس، بخط أبي بكر الصِّديق رضي اللَّه عنه. وأن فيه: «من محمد رسول اللَّه، إلى صاحب مصر. أما بعد. فإن اللَّه أرسلني رسولاً، وأنزل عليَّ قُرآناً، وأمرني بالإعذار والإنذار ومقاتلة الكفار حتى يدينوا، ويدخل الناس في ملتي. وقد دعوتك إلى الإقرار بوحدانيته، فإن فعلت سعدت، وإن أبيت شقيت. والسلام».

(2) «طبقات ابن سعد» (8/ 212) و«الاستيعاب» (4/ 465) و«الإصابة» (7575/ 6) والخصي: المجبوب، وهو من قُطع ذكره.

سارتْ وكأنَّها تسيرُ إلى المجهول لا تَعْرِفُ إلى أيْن سَتَنْتَهي، تَظْهَرُ على مُحيّاها سيماء ٱلحُزْنِ والتَّفكُّرِ العميقِ، والسُّهوم والوُجُوم

وأَدْرَكَ **حاطِبٌ** ما يَعْتَمِلُ في نَفْسِهَا، . وما يجيشُ في خاطِرِها، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا مواسياً ومُحَدِّثاً، وما زالَ بها حتّى سرّى عَنْها ما بها من أَلَمٍ وحُزْنٍ.

كما استطاعَ بِحَذاقَتِهِ ولباقَتِهِ أَنْ يُقْنِعَها بالإِسلامِ فآمَنتْ باللّٰه ربّاً وبمحمَّدٍ ﷺ نبيّاً ورسُولاً.

وكانَتْ أُختُها **سيرين** لا تفارِقُها، فَتَسْتَمِعُ لما يقولُهُ **حاطب** عن الإِسلام، وما يحدّثُ به عَنْ رسول ٱللّٰه.

فَشَهِدَتْ هي الأُخْرى أَيْضاً للّٰه بالوَحْدَانيّةِ، ولِمُحَمَّدٍ بالرّسالة.

إلا **مابُورُ** الخصيُّ فإنّهُ أصرَّ على دينه وعقيدَتِهِ، ولم يُسْلم حتى قَدِمَ على رسول اللّٰه ﷺ بالمدينة.

وهكذا . . .

ما دَخَلَتْ **ماريةُ** المدينةَ هي وأُخْتُها **سيرين** إلا مُسْلِمَتَيْنِ مُؤْمِنَتَيْن، وهذه واقِعَةٌ تاريخيّة في حياتِها رضي اللّٰه تعالى عنها تَسْتَلْفِتُ النَّظَرَ، وتَسْتَوْقِفُ الباحِثَ.

فَقَدْ آمَنَتْ برسول ٱللّٰه ﷺ ولم تَرَهُ، وصَدَّقَتْ بِرسالته ولم تَسْمَعْهُ، وأُعْجِبَتْ بِهِ ولم تُعاشِرْهُ، رَغْمَ أَنّها كانَتْ قَدْ عَلِمَتْ مَقامَهُ ومَرْكَزَهُ، ومَنْ هُنَّ أزواجُهُ . . .

في المدينة

وصَلَ الرّكْبُ المؤمِنُ إلى المدينة، وسلّم **حاطبٌ** رسالة **المقوقس** وهداياهُ إلى النبي ﷺ فاستقْبَلَهُمْ ورحَّب بِهِمْ، وأَكْرَم قُدومَهُم، وبالغَ في ذلك حينَ واسى **ماريَةَ** باتّخاذِها سُرِّيّةً لَهُ. وأَنْزَلَها في مكانٍ يُدْعَى **العالية** من ضواحي المدينة، وكان يَخْتَلِفُ إِلَيْهَا وَيَطَأُها بِملْك اليمين، ويَرْعاها ويَعْطِفُ عليها.

ولَقِيَتْ مِنْهُ صلوات ٱللّٰه وسلامه عليه كُلَّ عِنايَةٍ ومحبَّةٍ، ولَمْ تكنْ لِتُبْدِي ٱنْزِعاجاً أو غيرةً من زوجاتِهِ ﷺ.

زواج سيريـن

وأَقْبَلَ يوماً **حسّانُ بن ثابت الأنْصاريّ شاعرُ رسول اللّه ﷺ يخطبُ سيرين** من النبيّ، فزوّجَهُ إيّاها، فأَعْرَسَ بها، وعاش معها أَجْمَلَ وأَسْعَدَ أيام حياتِهِ، وولدَتْ له ولَدَه **عبد الرحمن بن حسّان** الذي خَلَفَ أباه في شاعريّتِهِ الفَذَّة.

مارية أم إبراهيم

وفي أوائِلِ العام الثّامِنِ من الهِجْرَةِ أَخَذَتْ **مارية** تُحِسُّ بآلام الْحَمْلِ بَعْدَ أَنْ ظَهرت عوارضُهُ، فازْداد إِقْبالُ النبي ﷺ عَلَيْها.

ومع نهاية العام وضَعَتْ ولَدَها **إبراهيم** فَفَرِحَ بِهِ النبيّ ﷺ فَرَحاً شديداً.

وَوَهَبَ لِمَنْ بَشَّرهُ بِمَوْلِدِ **إِبْرَاهيم** مَمْلوكاً، ودَفَعَ بإِبراهيم إلى **أَمّ بُرْدَةَ** بِنْت **المنْذِر بن زيد ابن النّجّار** لِتِرُضِعَهُ.

وبَلَغَتْ غِبْطَةُ النّبِيِّ بِوَلَدِهِ مَبْلَغَهَا، فإِذَا هُوَ شديدُ اللُّصوقِ بِهِ، كثير التطلُّع في وَجْهِهِ الصّغير، دائمُ الحمْلِ لَهُ بَيْنَ ذِراعَيْهِ في كُلِّ مكانٍ يَذْهَبُ إِلَيْهِ، حتّى بيوت نسائِهِ الأُخْرَياتِ، فيقَرِّبُه مِنْهُنّ ويقولُ في عطفٍ وإِعْجابٍ:

ـ انْظُرْنَ... أَلا تَرَيْنهُ صُورةً مِنّي؟؟

وكان من شَأْنِ ميلادِ **إِبْرَاهيم أَنْ تحَرَّرَتْ أُمُّهُ مارية إذْ** قالَ رسولُ اللّه ﷺ: أَعْتَقَهَا وَلَدُها.

مـاريـة الصـابـرة

لقد أَثارَ ٱلْوَضْعُ الجديدُ حَسَدَ أُمّهات المُؤمنين غَيْرتَهنَّ، إِذْ أَصْبَحَ النبيُّ ﷺ أَكْثَرَ لصوقاً بها دونَهُنَّ، كما أَنّها أَنْجَبَتْ ٱلْوَلَدَ دونَهُنَّ جميعاً.

وهُنَا تبرزُ الجوانبُ العظيمة والخِلالُ الحميدةُ التي كانَتْ تتمتّعُ بها **مارية** رضي اللّه عنها، فعلى الرَّغْمِ من كُلّ حَسَدٍ اعتمل في نفوس زَوْجاتِ النّبي، وكل غيرَةٍ أظهَرْنها، ظلّت هي على رزانتها، وحيائها، وخَفرها...

حتى عِنْدَما أْتَمَرَتْ **حفصةُ وعائشةُ** عَلَيْها، فاضْطُرّ رسول اللّه ﷺ إِلى أَنْ يقول:

ـ لقد حَرّمتُ مارية على نفسي. . .

لم يزِدْها ذلك إلاّ تبسُّماً ورضًى وصَبْراً. . .

ثم أَنْزَلَ اللّهُ تعالى قَوْلَهُ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التحريم: 1].

حكمة اللّه تعالى

كانَ مَوْلدُ **إبْراهيم** عزاءً وسَلْوى، ورجاءً وأَملا، واستمرَّت ٱلْفَرْحَةُ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْراً تُزَغْرِدُ في بَيْتِ **مارية**.

ولكنّ هذه الآمال لم تَدُمْ طويلاً، إِذْ مَرِضَ الطّفْلُ مرضاً شديداً، فقامَتْ **ماريةُ** وأُخْتها **سيرين** على تَمْريضِهِ، ولم يُمْهِلْهُ المَرضُ، وظَهَرَتْ عَلَيْهِ ذات يوم علائِمُ الاحْتضار، فَبَلَغَ ذٰلِكَ النبيَّ ﷺ فَحَزِنَ حُزْناً شديداً، وتأَلَّم أَلماً بالغًاَ، وأَحَسّ بضيقٍ لم يُحِسَّهُ مِنْ قَبْلُ.

فجاءَ إِلى دارِ **مارية** مُعْتَمِداً على أَحَدِ أَصْحابِهِ لِشِدَّةِ ما أَحَسَّ به من أَلَمٍ وما أَصابَهُ من إِعْياءٍ.

فَوَجد **إبراهيمَ** في حِجْرِ أُمِّهِ **مارية** الباكية يجودُ بآخِرِ أَنْفاسه فَأَخَذَهُ مِنْها بِرِفْقٍ ووضَعَهُ في حِجْرِهِ، وضَمَّهُ إِلى صَدْرِهِ ليُهَدِّئَ ٱلْقَلْبَ المضْطَرِبَ والصَّدْرَ اللّاهِثَ. . . ثُمَّ غمَرَهُ حُزْنٌ شديد وأَلَمٌ دامٍ وقال:

ـ إِنّا يا **إبراهيم** لا نُغْني عنْكَ من ٱللَّه شَيْئاً.

وتساقَطَتْ عَبَراتُ النبيِّ ﷺ، وأَجْهَشَتْ **ماريةُ** المفجوعة بالبُكاء، وصَرَخَتْ مُتَأَلِّمَةً، وصاحَتْ أُخْتُها باكيةً، ولم يَنْهَهُما الرَّسولُ عن ذلك. . .

وَأَخَذَ يَنْظُرُ إِلى جُثْمانِ فِلْذَةِ كَبِدِهِ الْمُسَجّى في حِجْرِهِ ولا حراك به، ولا حياة يَنْبِضُ بها قَلْبُهُ.

وتَبَدَّدَتِ الآمالُ الّتي أَشْرَقَتْ يَومَ مَوْلِدِهِ، وذَهَبت شعاعاً مع رُوحِهِ الّتي اسْتَرَدَّها بارِئُها.

فقالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ:

ـ يا إِبراهيمُ لَوْلاَ أَنّه أَمْرٌ حَقٌّ، وَوَعْدٌ صِدْقٌ، وأَنَّ آخرنا سَيَلْحَقُ بِأَوَّلِنا، لَحزِنَّا عَلَيْكَ أَشَدَّ مِنْ هذا.

وكَأَنَّهُ ﷺ يواسي بهذِهِ الكلماتِ **مارية** الأمّ المسْكينَة، وقَدْ أَحَسّ في أعماقِ ذاتِهِ مدى مَرارَتِها ومَبْلَغَ تَأَلُّمِها.

ومسح ﷺ دُمُوعَهُ وجَفَّف عَبَرَاتِهِ وهُوَ يقولُ:

ـ العَيْنُ تَدْمَع، والقَلْبُ يَحْزن، ولا نَقُولُ إلاّ ما يُرضي الرّبَّ، وإِنّا يا إِبراهيم عَلَيْكَ لَمَحْزُونُونَ[1].

الموكب الحزين

وخَرَجَ مَوْكبُ ٱلْجنازَةِ: رسولُ ٱللّه ﷺ يَحْمِلُ جُثْمانَ وَلَدِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وعَمُّه **العَبّاسُ بن عَبْدِ المُطَّلب** و**عُمر بن الخطاب** رضي اللّه عنهما إِلى جانِبِه وطائفة من المسلمين...

وتلاشَتْ **مارِيةُ** هَمًّا وغمًّا، وغُشِيَ عليها ٱلحُزْنُ لِفراق أَمَلِها الوئيد.

ثمّ وصَلَ المَوْكِبُ إِلى **البقيع** حَيْثُ دُفِن **إِبراهيم**، بَعْدَ أَنْ صَلّى عَلَيْهِ رسولُ اللّه ﷺ ثُمّ وقَفَ على لَحْدِهِ يُلَقِّنُهُ قائلاً والغُصّة تَمْتَزِجُ بالكلمات:

ـ قُلْ: اللّه ربي، ورسُولُ ٱللّهِ أَبي، والإِسلامُ ديني...

وارْتَفَعَ بالبُكاءِ في تلْكَ اللَّحْظَةِ الخاشِعَةِ صَوْتٌ ما عُرف عنه الْهَلَعُ والخَوْفُ إلاّ في جَنْبِ ٱللّه، إِنّه صَوتُ **عُمر بن الخطاب** رضي اللّه عنه فقال:

ـ هذا وَلَدُك يا رَسُولَ اللّه ما بلغ الحُلُم، وما جرى عَلَيْه القلم، ولا يحتاج إلى تلقين، فما بالُ عُمَر وقد بلغ الحلم وجرى عليه القلم، وليْس له مُلَقِّنٌ مِثْلُك؟؟

---

(1) ذكره ابن عبد البر في «الاستيعاب» (1/ 154 ـ 155) وابن أبي شيبة في «مصنفه» (3/ 393) بمعناه.

فبكى النبيُّ ﷺ وبكى الصحابة.

وأَقْبَلَ بَعْضُ أصحابِهِ يُواسُونَهُ ويُعَزُّونَهُ، مُحاوِلين تَخْفيفَ الْمُصاب عَنْهُ، وقالَ أَحَدُهُمْ مُذَكِّراً رَسُولَ ٱللَّه بما نَهَى عَنْهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ.

فقال النبي ﷺ:

«ما عَنِ ٱلحُزْنِ نَهَيْتُ، وإِنّما نَهَيْتُ عَنِ العويل، وإِنّ ما تَرَوْنَ بِي، أَثَرُ ما بِالْقَلْبِ مِنْ محبَّةٍ ورَحْمَةٍ، ومَنْ لَمْ يُبْدِ الرَّحْمَة لم يُبْدِها عَلَيْهِ غَيْرُهُ..».

وحَدَثَ أَنْ غامَتِ الشّمسُ يَوْمَ وفاةِ **إبراهيم**، مُشارَكَةً للنبي ﷺ في مشاعِرِهِ وأحاسيسه...

لكِنّ هذه القَوْلَةَ التي رَدَّدَها بَعْضُ النّاسِ نَبَّهَتِ النّبي ﷺ إِذْ لم يَكُنْ لِيَنْسى رِسالَتَهُ أَبَداً حتّى في أَحْلَكِ السّاعاتِ وأَشَدّها حرجاً، وأَدَقّ المواقف وأَصْعَبِها...

فَرَدَّ على النّاسِ قائلاً:

ـ إِنّ الشمسَ والقمرَ آيتانِ من آياتِ ٱللَّه، لا تَنْخَسِفَان لِمَوْتِ أَحَدٍ ولا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَٱفْزعُوا إِلى ذِكْرِ ٱللَّه والصّلاة[1].

فَأَعْظِمْ بِهِ مِنْ جَلَدٍ، وأَعْظِمْ بِهِ مِنْ صَبْرٍ، وأَعْظِمْ بِه من نبيٍّ.

مارية المؤمنة الصابرة

عاد النّبي ﷺ إِلى دارِ **مارية** مُواسياً ومُعزِّياً، ولم يكنْ ﷺ لِيُغْفِلَها أو يَتجاهَلَها بَعْدَ أَنْ فَقَدَتْ وَلَدَها، إِذْ كان يَتَرَدَّدُ عَلَيْها كعادَتِهِ السّابِقَة.

وسَلَّمَتْ **مارية** ٱلْمُؤْمنةُ أَمْرها إِلى اللَّه تعالى، فَهُوَ ٱلّذي أَعْطى، وهو الذي أَخَذَ.

---

(1) الحديث بتمامه رواه البخاري (1041) ومسلم (911)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي اللَّه عنه، عن النبي ﷺ بلفظ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد من الناس، ولكنهما آيتان من آيات اللَّه، فإذا رأيتموهما، فقوموا فصلوا».
وللحديث طرق وألفاظ متقاربة في الصحيح وغيره عن عدد من الصحابة رضي اللَّه عنهم.

ولم تَكُنْ لِتَمْلِكَ أَنْ تَرُدَّ دُموعَها الصّامِتَة كُلَّما لاحَتْ ذكرى **إبراهيم** في نَفْسِها.

ولم تَحْمِل بَعْد **إبراهيم** ولم تَضَعْ، وكانَتْ حياتُها في سعادَتِها وشقائِها بلاءً وامتحاناً، أثبتَتْ خلالَهُ أَنّها من المسلمات الخالدات في التّاريخ، يُقْتدى بِهِنّ، ويُحْتَذى بِسُلُوكِهِنَّ، ويُنْسَجُ على مِنْوَالِهِنَّ.

بعد النبي ﷺ

بَعْدَ أَنْ لحِقَ النبي ﷺ بالرّفيقِ الأعْلَى، كان الخُلَفاءُ من بَعْدِهِ يَحْفَظون **لمارية** مكانَتَها، ويَصِلُونَها من بَيْتِ المال، ويُنْفِقُونَ عَلَيْهَا، سواءٌ في عَهْدِ أبي بَكْرٍ أَوْ فِي عَهد عُمرُ رضي اللّٰه عنهما ويقومون بزيارَتِها وسؤَالِها عَنْ أَحْوالها وفاءً منهم لِنَبِيِّهم ﷺ.

الوفاة

ولما كان العام السادسَ عَشَر من الهِجْرة، مَرِضَتْ واشْتَدَّتْ عَلَيْهَا وَطْأَةُ الحُمّى، وأَسْلَمَتْ الرُّوح.

فَحَزِنَ النّاسُ عَلَيْهَا حُزْناً شديداً، وشَهِدَ **عُمَر** رضي اللّٰه عنه جنازَتَها وحَشَدَ الناس إِلى ذلك، وصَلَّى عليها، ودُفِنتْ بالبقيع.

رحمها اللّٰه رحمة واسعة، ورضي عنها[1].

(1) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (8/ 116) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 465) بلفظ قريب.



نـــســاء
عايشن الرّسول ﷺ

أُم هانئ

رضي اللَّه عنها

قال رسولُ اللَّه ﷺ: «يا أُمّ هانئ قدْ أجَرْنا من أجَرْتِ، وأمَّنّا من أمَّنْتِ».

توطئة

ما ذُكِر حادِثُ **الإسراء والمعراج** إلاّ وَذُكر مَعَهُ ٱسمُ **أُمّ هانئ**، لأنّها من ٱلرُّواةِ ٱلّذينَ حَدَّثوا بِه بَعْدَ رسُولِ ٱللَّه ﷺ، ولأنَّها أيْضاً ـ كما ٱشْتَهرَ هي التي استضافَتْ تِلْكَ ٱللَّيْلَة في بَيْتها رسُولَ ٱللَّه ﷺ.

فمن هي **أمُّ هانئ**؟ وما ٱسمُها؟ وما صِلَتُها برسولِ ٱللَّه ﷺ؟ وأيُّ صفاتٍ وأخلاقٍ تحلَّت بها؟

أسْئِلَةٌ تُراوِدُ الذِّهْن، وتجولُ في ٱلخاطِرِ، وسنُحاوِلُ بإذْنِ ٱللَّه تعالى وعَوْنِهِ أنْ نُلْقي ٱلأَضْواءَ على تلك التّساؤُلات، وعلى غَيْرِها أيضاً، حتى نُوَفّي تلك الشخصية حقّها، وما هي أهْلٌ له من الذِّكْرِ الحميد.

واللَّه الموفق.

نسبها

هي: **فاختةُ بِنتُ أبي طالب** أُختُ ٱلإمام **عليّ** كرَّم ٱللَّه وَجْهَهُ، وبِنْتُ عَمِّ رَسُولِ ٱللَّه ﷺ.

ولَقَدْ ٱخْتُلِفَ فِي ٱسْمِها فقيل: هِنْد، وقيل: عاتِكَةُ، وقيل: فاطِمَةُ ولكنّ ٱلأَشْهَرَ: **فاخِتة**.

كانَتْ تَصْغُرُ النّبيّ ﷺ بِبِضعِ سَنَواتٍ، ذاتَ جمالٍ وخُلُقٍ وفَصاحَةٍ[1].

---

(1) ترجم له ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (151 ـ 153).

في بيت أبي طالب

عاشَ رسولُ ٱللَّه ﷺ في بَيْتِ عَمّه **أبي طالب** سِنينَ عَدَدًا، وذلك بَعْدَ وفاةِ أُمِّهِ **آمِنَة**، حتى زواجِهِ مِنْ **خديجةَ بنت خُوَيْلِدٍ** رضي ٱللَّه عَنْها.

وكان خِلالَ تِلْكَ السِّنين يَشْعُر أَنّه **واحِدٌ** من عائِلَةَ **أبي طالب** الكثيرةِ العَدَدِ، ولا يُحسُّ بأَدْنى وحْشَةٍ أبداً، وذلك بسبب ما كان **يُضْفِيه** عليه عمُّه من حنانٍ وعطْفٍ، ولما كان يحيطه به من رعايةٍ وعِنايةٍ، ولما كان **يُغْدِقُهُ** عَلَيْهِ مِنْ مَحَبَّةٍ.

كما ٱزْدادت رعايَتُه لمحمدٍ ﷺ بَعْدَ رِحْلَتِهِ مَعَهُ إلى الشّام والتقائِهِ بالرّاهِب **بُحَيْرا** الّذي أَوْصاهُ به خَيْراً وقال له:

ـ إن لابنِ أَخيكَ شَأْناً فاحْتَفِظْ به.

كانت **فاخِتَةُ** في ذَلِكَ الحينِ طِفْلَةً تَدْرُجُ نَحْوَ الصِّبا، يراها رسولُ ٱللَّه ﷺ فَيُعْجَبُ بها، وتَقَعُ مِنْ عَيْنِهِ مَوْقِعاً حَسَناً، وتَنْزِلُ من قَلْبِهِ مَنْزِلاً طَيِّباً.

الخطبة

وحين بَلَغَتْ مَبْلَغَ الشّبابِ، خَطَبَها رسولُ ٱللَّه ﷺ إلى عَمِّه **أَبي طالب** وخَطَبَها مَعَهُ **هُبَيْرَةُ بنُ وَهْبٍ** فزوّجها والدُها من **هُبَيْرَةَ** فقالَ لَهُ النبيّ ﷺ مُعاتِباً:

ـ يا عمّ، زوَّجْتَ **هُبَيْرةَ** وتَرَكْتَني. . .

فأَجابَهُ أبو طالبٍ:

ـ يا ٱبْن أخي، إنّا قَدْ صاهَرْنا إلَيْهِم والكريم يُكافِئُ الكريم.

فَسَكَتَ النّبي ﷺ ولم يُجِب عَمَّهُ بِشَيْءٍ، وكَتَمَ في نَفْسِهِ رَغْبَتَهُ، وحاوَلَ أَنْ يَنْسَى تَعَلُّقَهُ بِها، ومَيْلَهُ إِلَيْهَا.

في بيت هبيرة

وأَعْرَس **هُبَيْرة** بِـ **فاخِتَة** وكان من أَشْراف بني مَخْزوم لَهُ مَكانَةٌ عالِيَةٌ في قَوْمِهِ، ورأْي مُطاعٌ في عشيرتِه، ولَقِيَتْ **فاخِتَةُ** من زَوْجِها كلَّ تَكْريمٍ وٱحْتِرام، وعاشَتْ في كَنَفِهِ حياةً سعيدةً رغيدةً.

وتَزَوَّج رسُولُ ٱللَّه ﷺ من **خديجةَ بنت خويلد رضي ٱللَّه عنها**.

ومَرَّتْ أيامٌ وتلتْها أعوامٌ، ونُبِّئَ رسولُ ٱللَّه ﷺ بالرِّسالَةِ، فَدَعا قَوْمَهُ وعشيرتَهُ وأَهْلَهُ، فآمَنَتْ بِه طائِفَةٌ وكَفَرت به طائفة.

وكانَ **هُبَيْرة** من الذين كَفَروا وضلوا، بل أَمْعنوا في التّجافي والْقَسْوة على الدِّين الجديد، ولكِنَّهُ في نَفْسِ الوَقْتِ كان يُراعي صِلَةَ ٱلرَّحِم الَّتي تربِطهُ إلى رسُولِ ٱللَّه ﷺ، فكانَ لا يُؤْذِيهِ في ذاتِهِ وإِنْ آذاهُ في أَصحابِهِ.

ولَقَدْ تابَعَتْ **فاخِتَةُ** زَوْجها **هُبَيْرة** في عَدمِ ٱلإِسْلام، مراعاةً له.

إلاّ أَنّها كانَتْ تَحْتَرِمُ وتُقَدِّرُ شخصيةَ النّبي ﷺ وتَحْفَظُ لِلرَّحِم حَقَّها، وللقرابة قُدْسِيَّتَها.

وكثيراً ما كانَتْ تَسْتَضِيفُ رَسُولَ ٱللَّه ﷺ في بَيْتِها، تُؤَاكِلُهُ وتُشارِبُه وتُواسِيه بَعْدَ أن تُوفِّي عمُّه **أبو طالب** وزوجتُه **خديجة**.

أم هانئ المحدثة

وحَدَثَ ذاتَ ليلةٍ أن استضافت **أم هانئ** رسول ٱللَّه ﷺ عندها، فكانَتْ ليلةً لَيْلاء، أَكْرَمَ ٱللَّه فيها نبيّهُ إكراماً عظيماً وواساه مواساةً طيّبة.

وتُحدِّثُ **أُمّ هانئ** عن تلك اللَّيلة فتقول:

ما أُسْرِيَ برسولِ ٱللَّه ﷺ إلاّ وهُوَ في بَيْتي، نامَ عِنْدي تلك اللّيلة فصلّى العِشاء ٱلآخرة، ثم نامَ ونِمْنا، فلما كان قُبيْلَ الفجر أَهَبَّنا **أَيقَظَنا** رسولُ اللَّه ﷺ وقال:

ـ يا **أم هانئ**، لقد صلَّيْتُ معكم العشاء الآخرة كما رأيتِ بهذا الوادي، ثم جِئْتُ **بيت المقدِس** فصلَّيْتُ فيه، ثُمّ قدْ صلَّيْتُ صلاة الغداةِ معكم الآن كما تَرَيْن.

ثم قام ليخْرُجَ، فَأَخَذْتُ بِطَرَفِ رِدائِهِ، فَتَكَشَّفَ عن بَطْنِهِ كأَنَّهُ قُبطيّة **ثيابٌ من كَتّانٍ كانَتْ تُنسَجُ بِمِصْر** مَطْوِيَّة، فقُلْتُ له:

ـ يا نبيَّ ٱللَّه، لا تُحدِّثْ بهذا النّاس فيُكَذِّبُوكَ ويُؤْذُوكَ... قالَ:

ـ واللَّه لأُحِدِّثَنَّهُموهُ.

قالت **أم هانئ**:

ـ فَقُلْتُ لجارِيَةٍ لي حَبَشِيَّة: وَيْحَكِ ٱتْبَعي رُسُولَ ٱللَّه ﷺ حتى تَسْمَعِي ما يقولُ لِلنّاس، وما يقولون لَهُ.

فَلَمّا خَرَجَ رسولُ اللَّه ﷺ إلى النّاس أَخْبَرَهُمْ، فَعَجِبوا، وقالُوا:

ـ ما آيَةُ **علامةُ** ذلك يا مُحَمَّد؟؟ فإِنّا لَمْ نَسْمَعْ بِمِثْلِ هذا قط...

قال:

ـ آيةُ ذلك أني مرَرْتُ بِعير بني فلان بوادي كذا وكذا، فَأَنْفَرَهُمْ حِسُّ الدَّابَّةِ، فَنَدَّلَهمْ بَعيرٌ فَدَلَلْتُهم عَلَيْه، وأنا مُوَجَّهٌ إِلى الشّام.

ثُمّ أَقْبَلتُ، حتى إذا كُنْتُ بِـ **ضجنان جبل بناحية تهامة، قريب من مَكّة** مَرَرْتُ بِعيرِ بني فلان، فَوَجَدتُ القَوْمَ نِياماً، ولهُم إِناءٌ فيه ماءٌ قَدْ غَطَّوا عَلَيْهِ بِشَيْءٍ، فكشفْتُ غطاءَهُ وشربْتُ مِمّا فيه، ثم غَطَّيْتُ عليه كما كان.

وآيةُ ذلك، أنّ عِيرَهُم الآنَ يصوبُ **ينزل** من البيْضاء **عَقَبَةُ قُرْب مكة** ثَنِيَّة **التَّنعيم**، يَقْدُمها جَمَلٌ أَوْرق **يميل لونهُ إلى السّواد** عَلَيْهِ غِرارتان، إِحداهما سَوْداء، والأُخرى بَرْقاء **مختلفة الأَلْوان**.

قالت **أم هانئ**:

ـ فَٱبْتدَرَ **أسرعوا** القومُ الثَّنِيَّة فَلَمْ يَلْقَهُم أوّل من الجمل، كما وَصَفَ لهم **تعني وجدوا الجمل كما وصف لهم**، وسألوهم عن الإِناء، فأخبروهم أنّهُم وضعوهُ مملوءاً ماءً ثم غطّوه، وأنّهم هَبّوا فوجدُوه مُغَطًّى كما غَطَّوْه ولم يجدوا فيه ماءً.

وسأَلوا الآخرين وهُمْ بمكّة، فقالوا: صَدَقَ واللَّه لَقَدْ أُنْفِرْنا في الوادي الذي ذَكَرَ، ونَدَّ لنا بعيرٌ، فَسَمِعْنا صَوْتَ رجُلٍ يَدْعُونا إِلَيْهِ حَتّى أَخَذْنَاهُ.

هذا ما حَدَّثَتْ به **أم هانئ** رضي ٱللَّه تعالى عنها عن تلك الليلة الشريفة المباركة، والتي سَجَّلَتْ حَدَثاً من أَعْظَمِ الأَحْداثِ في حياةِ رَسُولِ اللَّه ﷺ.

والذي يبدو من خلالِ تصرُّفاتِ **أم هانئ** غَيْرتُها الشديدة على ابن عمها ودعْوَتِهِ ورسالَتِهِ، وإِخْلاصُها البالغُ في ذلك.

حينَ استمعت إِلَيْهِ، وحين حاوَلَتْ أن تَمْنَعه من تحديث النّاس بذلك، وحين أَرْسَلَتْ جاريتها تَتْبَعه لَتَنْقُلَ إِلَيها تطوّراتِ الموقف وآراء السّامعين، وتَعْليقاتِهِم. رضي اللّه عنها وأرضاها.

بين الهجرة والإقامة

هاجَرَ المسلمون إلى المدينة، وأَقامَتْ **فاخِتَةُ** ـ أم هانئ ـ في **مَكّة** مع زوْجها وأولادها، تُسَرُّ لإِخْبارِ النبي ﷺ وانتصاراتِه، وتَفْرَحُ من أَجْلِ ذلك الفرحَ العظيم، وتُمَنّي النّفْس بِيَوْمِ اللِّقاء والنَّصْر الكبير. حتى كان يومُ ٱلْفَتْحِ الأَعْظَم، يومُ **فَتْحِ مكّة**.

دَخَلَ رسولُ اللّه ﷺ مكّة وحَطَّمَ الأَصْنامَ وكَسَّر الأَوْثان، وارْتَفَعَ صَوْتُ بلالِ رضي اللّه تعالى عَنْهُ من فَوْقِ الكعبة مُدَوِياً بِنَشِيدِ التَّوْحِيد والتَّكْبير والشّهادة:

«اللّهُ أكْبَر، اللّه أكبر، اللّه أكبر، اللّه أكبر، أشْهد أن لا إِله إلاّ اللّه، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاّ اللّه، أشهدُ أَنّ محمداً رسُولُ اللّه أشهد أنّ محمداً رسُولُ اللّه . . .».

فما كادَ يَسْمَعهُ **هُبيرة** زوْجُ **أم هانئ** حتّى فَرَّ من مكّة هارباً لا يَلْوي على شَيْءٍ، كارِهاً أَنْ يدخُلَ في دين اللّه، وأَنْ يرى ٱنْتِصارَ رسول اللّه، وقال أَبْياتاً منها:

لَعَمْرك ما ولَّيْتُ ظهري محمداً وأصحابَهُ جُبْناً ولا خِيفَةَ القَتْلِ
ولكنني قَلَّبْتُ أَمْري فلم أجِدْ لِسَيْفي غِناءً إِنْ ضربْتُ ولا نَبْلي
وَقَفْتُ، فلمّا خِفْتُ ضَيْعَة موقفي رَجَعْتُ لعودٍ كالهِزَبْرِ إِلى الشِّبْلِ

والذي يُلاحِظُ هذه الأَبيات بِعُمْقٍ وتَفَحُّصٍ يُدْرِكُ الرُّوح الجاهلية وٱلْعَنْجَهِيَّةِ القُرَشِيَّة التي أَمْلَتْها على قائلها.

ويبدو أَنّ **هُبَيْرة** دعا **أُمّ هانئ** لمرافقته فلم تُجِبْهُ، وأَلَحَّ عَلَيْها في ذلك فَلَمْ تستمِعْ إِلَيْهِ بل أسلمت ودخلت في دين اللّه، فأَرْسَلَ إِليها مُعاتباً:

وعـاذِلَـةٍ هَـبَّتْ بـلـيْلٍ تَـلُـومُـني وتَـعْذلني بـاللَّـيْل ضَـلَّ ضلالُـها

وتَزْعُـم أَنّـي إن أَطَعْـتُ عشيـرتـي سأَرْدى، وهل يُرْدِيني إلاّ زوالُها؟؟
فإنْ كُنْتِ قد تابَعْتِ دينَ مُحَمَّدٍ وقطّعَتِ الأَرحامُ مِنْكِ حِبالَـهـا
فكُوني على أَعْلَى سَحِيقٍ بهَضْبَةٍ مُلَمْلَمَةٍ غَبْراءَ يَبْسٌ بلالُـهـا[1]

ثم افترق الزَّوْجان، وابْتَعَد الخليلان

أجِرْنا من أجَرْتِ . . .

وكان **الحارِثُ بن هشام** من الأَشْخاص الّذين أَهْدَرَ رسُولُ اللَّه ﷺ دَمَهُمْ يَوْمَ فَتْح **مكة**، وكان يَعْلم مكانَةَ **أمّ هانئ**، عِنْدَ رسُولِ اللَّه ﷺ فَلَجأَ إلى بَيْتها مُحْتَمِياً مستجيراً، ولَحِقَ بِهِ **عليّ بن أَبي طالب** لِيَقْتُلَهُ، وأَخْبَرَتْهُ **أم هانئ** أنها قد أَجارَتْ **الحارث** قائلةً:

ـ يا ابن أُمِّ قَدْ أَجَرْتُه.

فلم يَلْتَفِت **عليٌّ** إلى قَوْلِها، بل شَهَرَ سَيْفَهُ، فوَثَبْتْ **أمّ هانئ** فَقَبَضَتْ على يَدَيْهِ وقالَت:

ـ واللَّهِ لا تَقْتُلْهُ وقَدْ أَجَرْتُهُ.

فَلَمْ يَقْدِرْ **عليٌّ** أَنْ يَرْفَعَ قَدَمَهُ عن الأَرْض، وجَعَلَ يَتَفَلَّتُ مِنْها فَلاَ يَقْدِر.

وبينما **عليٌّ وفاخِتَة** في تجاذُبِهما دَخَلَ عَلَيْهِما رسُولُ اللَّه ﷺ فقالتْ **أُمّ هانئ**:

ـ يا رسُولَ اللَّه، أَلا ترى أنّي قد أَجَرْتُ **الحارث بن هشام** فأَراد **عليٌّ** أَنْ يَقْتُلَهُ!!!

فقال رسول اللَّه ﷺ:

ـ قَدْ أَجَرْنا من أَجَرْتِ، وأَمَّنّا مَنْ أَمَّنْتِ، ولا تُغْضبي **عَلِيّاً** فإنّ اللَّه يَغْضَبُ لِغَضَبِهِ، أَطْلِقي عَنْهُ.

فأَطْلَقَتْ **أمُّ هانىءٍ عليّاً**، فقالَ النبيُّ الحكيم صلواتُ اللَّه وسلامُهُ عليه مُداعباً:

ـ يا **عليّ**، غَلَبَتْك امرأة!!!

فقال **عليّ**:

ـ واللَّه يا رسُولَ اللَّه، ما قَدِرْتُ أَنْ أَرْفَعَ قَدَميَّ من الأَرْض.

---

(1) ذكره ابن عبد البر في «الاستيعاب» (479) بلفظ قريب.

وهذه شهادة مُنْصِفَةٌ من فارسِ الفرسان، وأشْجَعِ الشُّجعان **علي بن أبي طالب** بِحَقِّ **أمّ هانئ** رضي اللّه عنهما.

الحنين إلى الماضي

ولَقَدْ أَحسّ النبيّ ﷺ في أعْماقِهِ حنيناً يشُدُّهُ إلى أيّامِ صِباه، يَوْمَ أنْ كان في دارِ عَمِّهِ في مكّةَ، يميلُ إلى **فاختة**، ويتمناها زَوْجةً لَهُ.

واستيقظَ ذلِكَ الحنينُ، واسْتفاقَت تِلْكَ الذِّكْرياتُ، فَخَطَبَ **أمّ هانئ** بعد أنْ أَسْلَمَت وفرّق الإسْلامُ بَيْنها وبَيْنَ زَوْجها **هُبَيْرة**.

فقالت **أمّ هانئ**:

ـ يا رسُولَ اللّه، لأَنْتَ أَحَبُّ إليَّ مِنْ سَمْعي وبَصَري، وحَقُّ الزَّوْجِ عظيمٌ، فأَخْشَى إنْ أَقْبلْتُ على زَوْجي **تعني رسول اللّه** ﷺ أنْ أُضيِّعَ بَعْض شَأْني ووَلدي، وإنْ أَقبلْتُ على ولَدي أَنْ أُضيِّعَ حَقَّ الزَّوج.

فأَدْرَكَ النبيّ ﷺ بُعْدَ نظرِ **أمّ هانئ** ورجاحَةَ عَقْلها، ونُضْجَ فِكْرِها، فقال لها:

إنّ خَيْرَ نساءٍ رَكِبْن الإبل نساءُ قُرَيْشٍ، أَحْنَاهُ على ولدٍ في صِغَرِهِ، وأَرْعاهُ على بَعْلٍ **زوجٍ** في ذاتِ يَدِه.

الأم

انْصَرفَت **أمّ هانئ** بَعْد فراقِها عَنْ زَوْجها إلى الاهْتمام بأُمورِ أَبْنائِها، فَأَقْبلَت على تَرْبِيَتِهِمْ تَرْبِيَةً صَالِحَةً، وتَنْشِئَتِهِم تَنْشِئَةً طَيِّبَةً، فَغَرَسَتْ في نُفُوسِهِم الفضائِلَ وطَبَعَتْهُم بطابَعِ الإسْلام والإيمان، فَشَبُّوا عالمين عامِلين.

فروى بَعْضُهم عَنْها ما حدَّثَتْ بِهِ عَنْ رسُولِ اللّه ﷺ من الأَحاديث، أَمْثال ابن ابنها **جَعْدة المخزومي** وابن ابنها **يَحْيى بن جعفر** وابن ابنها **هارون**.

وعاشَت رضي اللّهُ عنها حتى خِلافة أَخيها **عليّ** كرّم اللّه وجْهَهُ.

وفي سَنَةِ أَربعينَ لِلْهِجْرة توفّاها اللّه سُبْحانه وتعالى، ودخَلَتْ مُنْذُ ذلك اليوم في التاريخ مَثَلاً للمسلمة المؤْمِنَة.

رَضي اللّه عنْها وأَرْضاها.

ذات النطاقين

أسماء بنت أبي بكر

رضي اللّٰه عنها[1]

مثال راق لعزة النفس وكبرياء الذات.

واجهت طاغيتين بصلابة وعناد؛ أولهما **أبا جهل** ـ عمرو بن هشام **فرعون الأمة** كما لقبه رسول اللّٰه ﷺ؛ وثانيهما **الحجاج بن يوسف الثقفي**.

كانت ـ رضي اللّٰه عنها ـ أختاً لـ **عائشة** من أبيها، وكانت تكبرها بأعوام، إذ ولدت قبل البعثة بسبعة عشر عاماً..! ولقد احتضنت **أسماء عائشة** منذ صغرها، فكانت لها بمثابة الأم، فنشأت **عائشة** على حب **أسماء** واحترامها وتقديرها وتقديمها. وعايشت «أسماء» البعثة النبوية الشريفة بكل ذرة في كيانها، وتلبست بها؛ ولا عجب!!!، فهي عضو فعال في بيت **الصديق** ـ رضي اللّٰه عنه ـ، الذي كان دون بيوت الناس جميعاً مأوى وكنفاً ومأمناً لرسول اللّٰه ﷺ...

قد يزور رسول اللّٰه ﷺ بيوت المسلمين من أصحابه الأوائل السابقين، بين فينة وفينة ولكنه لم يكن ليخطئ زيارة بيت **أبي بكر** كل يوم.

وهذا ما حدّثتنا به **عائشة** ـ رضي اللّٰه عنها ـ.

حتى كان يوم الهجرة بعد ثلاثة عشر عاماً لقي فيها المسلمون أشد العنت وأقسى المواجهة مع طغيان الجاهلية، ولقد زادت هذه المواجهة **أسماء** صلابة قوة.

---

(1) هي أسماء بنت عبد اللّٰه بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي وهي أخت عبد اللّٰه بن أبي بكر لأمه وأبيه وهي امرأة الزبير بن العوام. وهي ذات النطاقين التيمية، وأمها قُتيلة بنت عبد العزى بن عبد أسعد بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي «در السحابة» (3 ـ 5).

وكان خروج رسول اللَّه ﷺ وصاحبه **الصديق** إلى **غار ثور** للاختفاء والاختباء من الطلب، من دار **أبي بكر** ـ رضي اللَّه عنه ـ.

ومن ثم توزعت الأدوار...

عبد اللَّه بن أبي بكر ـ رضي اللَّه عنهما ـ يسمع ويتسمع، ويحصى على الجاهليين أقوالهم وتحركاتهم؛ ثم ينقلها مع حلول الظلام إلى رسول اللَّه ﷺ وأبيه في الغار؛ ثم يعود إلى مكة.

وعامر بن فهيرة مولى **أبي بكر** وراعي ماشيته، يتتبع خطوات **عبد اللَّه** ليُعفّى على آثار أقدامه، حتى لا يعرف مسعاه ومقصده...، ثم يربح بتلك الماشية قريباً من الغار، فيحتلبها ويقدم الغبوق[1] للنبي ﷺ وصاحبه.

وأسماء كانت تحضّر الطعام في الدار، ثم تنقله في خفية عن أعين القوم الظالمين؛ والذي يتتبع الطريق من **مكة** إلى **غار ثور** بين الشعاب الصخرية، ووعورة المسلك يدرك إلى أي مدى كانت قوة وعي **أسماء**.

صباح الليلة الأولى من الهجرة، وقد سقط في يد **قريش**، إذ خرج النبي ﷺ من داره وسط الفتيان المتربصين به تالياً قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ...﴾ [يس: 9]، تحفه عناية رب العالمين، والملائكة المكرمين، سالماً آمناً، لم يمسه سوء...، إلى دار **أبي بكر**...، ومنها إلى **غار ثور**.

وجن جنون **أبي جهل**، وطاش صوابه..، فأتى دار **أبي بكر** يطرق الباب، فخرجت له **أسماء!**

فسألها: أين أبوك يا فتاة؟ فقالت في ثقة وإباء وشجاعة، وهي تلمح الشرر يتطاير من عيني الطاغية: لا أدري.

فما كان منه إلا أن صفعها صفعة شديدة على وجهها أطارت قرطها من أذنها، فلم تبال، واستمرت واقفة بالباب كالسد المنيع..، حتى ولّى وانصرف هذا الموقف في حياة **أسماء** يذكره التاريخ على مدى الدهر، فلا ينساه المؤمنون الصادقون المجاهدون، ولا تنساه المؤمنات الصادقات المجاهدات السائحات العابدات[2].

---

(1) الغبوق: شراب العشي من اللبن.

(2) «در السحابة» (13).

ويوم الرحيل عن **الغار** إلى **يثرب** صنعت **أسماء** زاد الرحلة . . . الرحلة العظيمة؛ ونسيت ـ رضي اللّٰه عنها ـ أن تجعل للسفرة والسقاء رباطاً تشدهما به إلى الراحلة . . ، فما كان منها ـ وهي الأريبة اللبيبة الحاضرة البديهة ـ إلا أن نزعت نطاقها وشقته نصفين، ربطت بأحدهما السفرة وبلآخر السقاء .

فنظر إليها رسول اللّٰه ﷺ مبتسماً وقال : « لقد أبدلك اللّٰه بنطاقك هذا نطاقين في الجنة » .

فكان قوله ﷺ أعظم شهادة وأكرمها، ومحط اعتزاز وافتخار من « ذات النطاقين » ـ رضي اللّٰه عنها ـ مع تواضع المؤمن ولين جانبه .

ونحن لا نقول هذا القول بدعاً أو إرهاصاً . . . !

لقد تزوجت **أسماء** من بعد بـ **الزبير بن العوام** ـ رضي اللّٰه عنه ـ وكان رقيق الحال، لا يملك إلا فرسه يجاهد عليها . . ، فعاشت معه في شظف شديد .

روى عنها ابنها **عروة** أنا قالت : تزوجني **الزبير** وما له في الأرض مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وأكفيه مؤونته وأسومه[1] ، وأدق النوى لناضحة، وكنت أنقل النوى من أرض **الزبير** .

وما وجدت ـ رضي اللّٰه عنها ـ بأساً في خدمة الزوج والبيت ومشاركته الأعباء ولعلها كانت تحمل النصيب الأكبر . . ، كل ذلك لم يؤثر على كبرياء النفس وعزة الذات، بل زادها عنفواناً وصلابة وشدة .

ولقد كانت من أوائل التلميذات في مدرسة النبوة، ومن أنجبهن . . !!

ولعل موقفها من **الحجاج بن يوسف** ـ الثقفي ـ وقد أحنى الدهر بدنها، فهزل . . ، وكف بصرها وقد قاربت المائة من عمرها . . ، خير شاهد على فتوة قلبها، وشباب فؤادها، ونضارة كبرياء إيمانها .

لقد انهزم **عبد اللّٰه** ولدها في معركته مع **الحجاج** في **مكة** وبعد كفاح لا نظير له في التاريخ، وبطولة سطرت بأحرف من نور على صفحات المجد . . .

---

(1) أسومه : أي جعل له علامة (لسان العرب) .

سقط البطل صريعاً، فأمر **الحجاج** بصلبه..، وأقسم أن لا ينزله حتى تشفع فيه أمه **أسماء** يريد قهر العزة في نفسها، وقتل الكبرياء في ذاتها.

ولكنها لم تفعل..!

أخرج **ابن السَّكن** من طريق **أبي المحياة يحيى بن يعلى التيمي** عن أبيه قال:

(دخلت **مكة** بعد أن قتل **ابن الزبير** فرأيته مصلوباً، ورأيت أمه **أسماء** عجوزاً طوالة، مكفوفة..، فدخلت حتى وقفت على **الحجاج** فقالت: أما آن لهذا الراكب أن ينزل[1]!!؟؟ قال: **الحجاج**: المنافق!!! قالت: لا واللَّه ما كان منافقاً، وقد كان صواماً قواماً، قال: **الحجاج**: اذهبي فإنك عجوز قد خرفت..، فقالت: لا واللَّه ما خرفت..، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: يخرج من **ثقيف** كذاب ومُبير[2]، فأما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فأنت هو) ولم يجد **الحجاج** ـ الطاغية ما يقهر به هذه السيدة المؤمنة الصادقة الصابرة؛ ولم يجد بداً من إنزال الجثة المهترئة عن خشبتها[3].

ولم تعش **أسماء** بعدها إلا أياماً، ثم لحقت بالرفيق الأعلى[4].

---

(1) وفي رواية: (أما آن لهذا الفارس أن يترجل).

(2) مبير: الرجل الفاسد الذي لا خير فيه.

(3) «در السحابة» (547).

(4) وقال أبو نعيم الأصبهاني ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة عاشت إلى أوائل سنة أربع وعشرين قيل عاشت بعد ابنها عشرين يوماً وقيل غير ذلك ماتت بعد قتل ابنها عبد اللَّه بن الزبير بليال، وكان قتله يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين.

المصادر: «الإصابة» (7/ 82) ترجمة (46) و«الطبقات الكبرى» (8/ 249).

صفية

بنت عبد المطلب

رضي اللّه عنها

قال اللّه تعالى:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: 48].

وقال رسول اللّه ﷺ للزبَيْر بن ٱلعوّام يَوْم أُحُدٍ:

ـ إلْقَها فأرجعْها، لا ترى ما بشقيقها الحمزةِ بن عبد المطّلب.

وقالت صفيّة:

ـ ولِمَ؟ فقد بلغني أَنّه مُثِّل بأخي وذلك في اللّه عَزّ وجَلّ قليلٌ، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبَنّ وأَصْبِرَنّ إن شاء اللّه تعالى.

توطئة

وكانت الفصاحة سليقةً وطبعاً عِند ٱلْعَرب، وكان الشِّعْر سِجلَّ أَحداثهم ووقائعهم وأَيامهم، بل تاريخهم الكامل ٱلنّاجز بعبارةٍ أَدَقّ.

وخاصّةً إذا ما كان أَحَدُهم قد لَقِيَ في صِغَرِه عنايةً ورعايةً وتوجيهاً نحو القراءَة والكتابة، ولم يكن ذلك إلا عنْد أَشرافهم وعِلْية القوْم مِنْهم.

فلا عَجَبَ أن يَكْثُر في بني هاشمٍ وعَبْدِ ٱلمطّلب الشعراء والأُدباء والفصحاء وأصحاب الحكمة.. والبلغاء.

ولقد كانَتْ صفيّة واحدة من آل عبد المطّلِب الذين أُوتوا فصاحة ٱلْقوْلِ وطبع الشِّعر، فجرى لسانُها عِند كُلِّ نازلةٍ أو واقعةٍ تُسجِّلها وتؤَرّخ لها، مفصّلةً مبيّنة.

ولوْ قُدِّر في المستقْبل ـ إن شاءَ اللَّه ـ أن نَجْمَعَ لها ولِغَيْرها من آل أبي طالبٍ، وأصحابِ بَيْتِ ٱلنبوّةِ، ما قالُوهُ نثراً أَوْ شِعْراً، لما قصّرنا، حُبًّا مِنّا وحِرْصاً على هذا التراث الأدبي التاريخي، الذي يعود بالنّفْع العميم والْخَيْر الكثير على أجيالِنا التي تُحِبُّ أن تصل حاضرها بماضيها، وتَسْتَلْهِم ذلك الماضي وما انطوى عليْه من عظَةٍ وعِبرة، واللَّه المستعان.

نسبها ونشأتها

هي: صفيَّة بنتُ عبد المطّلب بن هاشم بنِ عبد مناف بن قُصي بن كلاب، قرشيّةُ هاشمية.

وأمّها: هالةُ بِنْتُ وهْب بن عَبْد مناف بن زهرة بن كلاب.

نَشَأت في بَيْتِ **عبد المطلب** سيد قريْش وزعيمها بلا مُنازع، وقائدها ورائدها، صاحب ٱلْسّؤْدد وٱلمجْد والشَّرف، حكيم مكَّة ورأْس الأَمْر فيها، كما اجتمعت له بالإضافة إلى كُلّ تلك الأَمجاد سقايَةُ الحاج.

ولقد تأَثَّرَتْ **صفيَّةُ** بكُلِّ تِلْك ٱلْعوامل، ومن خلالها تكوّنت شخصيّتها القويَّة النّافذة، فكانت فصيحةً بليغةً، قارئة عالمة، شجاعة فارسة، تمتطي صَهْوَة ٱلخيل كأَبْرَع ٱلفرسان، وتقاتل بالسَّيْفِ والرُّمح كأَمْهر الشُّجْعان[1].

وفاة عبد المطلب

وما كانت أَشَدّ فاجعة **صفيّة** بفقد والدها العظيم، فَبَكتْ وحزِنَتْ وتأثّرت وفاض لسانها برثاء أَحبِّ الناس إليها فقالت:

أَرِقْتُ بصَوْتِ نائحةٍ بلَيْلٍ	على رجُلٍ بقارعةِ الصعيد
ففاضَتْ عِنْد ذلكُمُ دموعي	على خدي كمنْحَدَر الغريد
على رجُلٍ كَريم غَيْر وَغْلٍ	له الْفضْل المبينُ على العبيد
على الفيّاض[2] شَيْبَةَ[2] ذي المعالي	أَبيك الخيْر وارث كُلّ جودِ
صدوقٍ في ٱلمواطن غيْر نكْسٍ	ولا شخْبِ ٱلمقام ولا سنيدِ

(1) ذكره ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (8/ 41) وابن حجر في «الإصابة» (8/ 128) ترجمة (651).

(2) لقبين عرف بهما عبد المطلب.

طويل الباع أَرْوَع شيظميٌّ مطاعٍ في عشيرتِهِ حميد
رفيع ٱلْبيْتِ أَبْلَجَ ذي فضولٍ وغيْثُ النّاس في ٱلزمن ٱلحرود
كريم ٱلجدّ ليس بذي وصومٍ يروق على ٱلمسوّد والمسُودِ
عظيم ٱلحلْم، من نَفرٍ كرامٍ خضارمةٍ ملاوثةٍ أُسُودِ
فَلَوْ خَلَدَ امرؤٌ لقديم مَجْدٍ ولكن لا سبيل إلى ٱلخلُودِ
لكان مخلّداً أخرى ٱلليالي لفضل ٱلمجد وٱلْحَسَب التليد

* * *

ثم ما لبثت **صفيَّةُ** أن اقترنَتْ بأَحدِ وُجهاء مكّة هو **ٱلحارث بن حَرْب بن أُميّة**، ولكنّه ماتَ ولم تعقِّبْ منه، فتزوَّجها **العوَّامُ بن خُوَيلد بن أسد** فوَلَدَتْ له: ٱلزُّبَيْر، والسّائب، وعَبْد الكعبة.

* * *

إسلامها

وحين أَشْرَقتْ مكّةُ بنُورِ ٱلإسلام، وشَرُفَتْ بدْعوةِ سيّد الأَنام، ابن أخيها الأَمين **محمد** ﷺ، كانَتْ **صفيّة** من أوائل الذين آمنوا به وصَدّقوا بِرِسالتِهِ واتّبعوا ٱلنّور الذي أُنْزِل معه.

وكان قَدْ سَبَقها إلى ذلك ابنُها **ٱلزُّبَيْر بن ٱلعوّام** رضي اللّه عَنْه، وقد بَلَغ به حماسُهُ يَوْماً أَنْ تصدّى لأَحَدِ المشركين ٱلْضالين الذين هزئوا به وبإيمانِهِ فضرَبَهُ وشَجّه، على ٱلرَّغم من أن الدّعْوةَ في مكّة لم تأخُذ طابع المجابهة الفرديّة أو ٱلجماعية، بل كان يَلتقي ﷺ وأصحابَهُ بما أَمَرهُم به ربُّهم: سلامٌ عليكُم لا نَبْتغي الجاهلين.

المهاجرة

هاجَرَت **صفيَّة** ـ رضي اللّه عنها إلى المدينة مع ولدها **الزُّبير**، وأَقامَتْ هناك تعيشُ أَهمَّ أَدْوار وفصول تاريخ الإِسلام، وقد شاركتْ في صُنْعِهِ في بعض الأَحيان.

المجاهدة

لم تذكُر المصادر التاريخيَّة شُهود **صفيَّة** ليوم **بَدْر**، وليس ذلك

بمستغْرب، فإنّه لم يَشْهد ذلك ٱلْيَوْم امرأةٌ من نِساء المسلمين، لأَن خروج النبي ﷺ من المدينة يَوْم **بَدْرٍ** لم يكن لقتالٍ أو حَرْب، ولكن اعتراضاً لقافلة **أبي سفيان** العائدة من الشَّام.

أما يَوْم أُحُدٍ فقد كانَتْ في طليعة النّسْوةِ اللواتي خَرَجْن لخدمة المجاهدين، وتحميسهِن للجهاد، ومداواةِ الجرحى.

ولمّا انْهزَمَ ٱلمسلمون بعد أَن خالَفَ ٱلرُّماةُ أَمْر رسولِ اللَّه ﷺ بالثّبات، سواء كان النّصْر، أم كانت الهزيمة، وانفضّ أكثر النّاس عن رسُولِ اللَّه، ولم يَبْق حَوْلَهُ سوى القلائل من أَصحابِهِ، قامَتْ **صفيَّة** رضي اللَّه عنها وبيدها رمْحٌ تضْرِبُ به في وجوهِ النّاس، الفارين المنهزمين، والأَعداء المشركين، وتقول لهم:

ـ انْهَزَمْتُم عن رسُول اللَّه!!!

فلما رآها رسولُ اللَّه ﷺ أشفق عليها فقال لابنها **الزُّبير بن العوّام**.

ـ إلْقَها فأَرْجِعْها، لا ترى ما بشقيقها **الحمزةِ بن عَبْد المطلب**.

فلقيها **الزبير** فقال:

ـ يا أُمَّه، إن رسُولَ اللَّه ﷺ يأْمُرُك أن ترجعي...

فقالت **صفيّة**:

ـ ولِمَ؟ فَقَدْ بلغني أَنَّهُ مُثِّل بأَخي، وذلك في اللَّه عَزَّ وجَلَّ قليلٍ، فما أرضانا بما كان من ذلك، لَأَحتَسِبَنّ ولأَصْبِرنّ إن شاء اللَّه تعالى[1].

وعاد **الزبَيْر** إلى رسولِ اللَّه ﷺ فَأَخْبَرَهُ بذلك، فقال ﷺ:

ـ خلِّ سبيلها...

فأتتْ **صفيَّةُ الحمزةَ** فَنَظَرَتْ إليْه، وصَلَّتْ عليه، واسْتَرجَعَتْ وٱسْتَغْفَرتْ، ثُمَّ أَمَر رسولُ اللَّه ﷺ بِهِ فَدُفِنَ.

وكانَتْ **صفية** و**الحمزة** شقيقيْن من أُمٍّ واحدة.

(1) ذكره ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (8/ 42 ـ 43) بلفظ قريب.

وقالت ترثيه، رضي اللّه عَنْهُما بعد دفْنِهِ، وقد هيجتْها ذكراه:

أسائلة أَصحاب أُحْدٍ مخافةً بنات أبي من أعجم وخبيرِ
دعاهُ إلهُ ٱلحق ذو ٱلْعرْشِ دعْوةً إلى جنّةٍ يحيا بها وسرورِ
فواللّهِ لا أَنْساك ما هبَّتِ الصَّبا بكاءً وحُزْناً، محضري ومسيري
فيا ليْت شلوي عند ذاك وأعظمي لدى أضْبُعٍ تعتادني ونسورِ

* * *

ويَوْم غزوةِ ٱلخندق ـ الأَحزاب ـ قامَتْ رضي اللّه عنها بعبءٍ ثقيلٍ يدلُّ على شجاعتها وجرأتها، ودفاعها عن دين اللّه، وحميّتها في سبيله.

ولقد كان من عادةِ رسول اللّه ﷺ إذا خَرَجَ من المدينة لقتالِ عدوه رفَعَ نساءَهُ وأَزواجه، ونساءَ المؤمنين إلى حِصْن **حسّان بن ثابت** الأَنصاري، وكان من أَحْصَنِ وأَمْنَعِ آكام المدينة.

وبينما ٱلنّسوة في قَلَقِهِنّ على ٱلمسلمين الذين خرجوا لملاقاة ٱلأَحزاب **قريش وغطفان وغيرهما** عِنْد الخندق، وخَوْفِهِنّ من اليهود الذين نقضوا عَهْدَهم مع رسولِ اللّه ﷺ، يترقّبن بِحَذَرٍ وخيفة.

كان رجُلٌ من اليهود يطيف بالحصْن، وكان من بني قريْظة الغادرين الماكرين، فرأتْهُ **صفيّة** رضي اللّه عنها فقالت لـ **حسّان** الذي لم يخرُج للقتال:

ـ يا حسَّانُ إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصْن، وإنّي واللّه ما آمَنُه أن يَدُلّ على عَوْرتنا اليهود الذي هُم وراءنا، وقدْ شُغِلَ عنا رسولُ اللّه ﷺ وأصحابُهُ، فٱنزِلْ إليْه وٱقْتُلْهُ.

فقال **حسَّان** ـ الذي عُرِف، كما يدَّعي ٱلبعض، بالجُبْن وٱلْخَوَر ـ:

ـ يَغْفِر اللّه لك يا بنْت عبد المطلب، واللّه لَقَدْ عَرفْتِ ما أَنا بصاحِبِ هذا.

فلما سَمِعَتْ **صفيَّةُ** كلام **حسّانٍ**، ورأَتْ تقاعُسَه عن نَجْدَتهنَّ، دبّت فيها

ٱلحماسةُ فقامت فأَخَذَتْ عموداً غليظاً ثُمَّ نَزَلَتْ من الحصْن، وفتحت بابَهُ على مَهْلٍ، وتحينَتْ فُرْصة غفلة اليهودي وضربتْهُ بالعمود على أم رأسه ضرباتٍ متلاحقةٍ فقتلتْهُ، ثم رجَعَتْ إلى الحصْن، وقالت لـ **حسَّان**:

ـ يا حسَّان، أمّا ٱلآن وقد قَتَلْتُه فانْزِلْ إليْه فاسْلبْه فإنّه لم يمنعني من سلبه إلا أَنَّه رجُل وأنا امرأة.

فاسْلبْه فإنّه لم يمنعني من سلبه إلا أَنَّه رجُل وأنا امرأة.

فقال **حسانٌ**:

ـ مالي بِسَلَبِهِ حاجةٌ يا بنت عبد ٱلمطّلِبِ.

* * *

نفي الجبن عن حسان

وممَّا تجدرُ الإشارةُ إليه، أن بعض الرُّواةِ الثقات ينفون ٱلجبنَ عن حسَّان بنِ ثابت، ويستنِدون في ذلك إلى أَدِلَّةٍ، نذكرُ منها أنّ أخصامه من ٱلْشعراء تناولوه بالهجاء والطّعن، فرمَوْهُ بكثيرٍ من ٱلْعيوب، ولم يتركوا خلةً ذميمةً إلاّ رَموْه بها، وعملاً قبيحاً إلا وصموه به، غيرَ أَنَّ واحداً منهم لم يعيّره بالجبن والخوَر كما أَشاع عنه بعض المغرضين من أَجل تشويهِ سمعته، والغضّ من شأْنِ إجادتهِ في هجاء أَعداء ٱلْنبي ﷺ الذي فَسَحَ له مجال القول فيهم إذْ خاطبهُ بقوله: «قُلْ وروحُ القُدسِ معك».

وليس في هذا أَيَّةُ غرابة، فمن شأْن الناس أَن يتهموا أَخصامهم بالحق وبالباطل، وحسَّان هو القائل:

وإنَّ امرَءاً يُمسي ويُصبحُ سالماً ... من ٱلنّاسِ، إلا ما جنى إذ ٱلسعيدُ

ومما يستندُ إليه أولئك الرواة في نفي تهمه الجبن عن حسَّان أَن بقاءه يومَ غزوةِ ٱلخندق مع ٱلصِّبيةِ والنساءِ والعَجَزة الذين لا قَدرةَ لهم على ٱلحرب إنَّما كان بسبب شيخوخته أولاً، وعجزه عن ٱلقتال لأَن أَكحلهُ **عرق في وسَط ٱلذّراع** كان قد قُطع فلم يكن يضرب به، وقد ذكر ذلكَ أَبو الفرج الأصبهاني في ٱلجزء ٱلرابع من الأغاني.

فمن اَلْطبيعيّ أَلاّ يكونَ حسّان بين المقاتلين وأَنْ يمتنعَ عن النْزولِ إلى الْيهوديّ وقتله، فما في ذلكَ عارٌ عليه أو شَيْن، وما فيه دليلٌ على الجبنِ والفَزع.

وفي قول حسّان لصفيَّة بنت عبد المطلب حينَ طلبتْ منه قتلَ اليهودي: «يغفرُ اللَّهُ لكِ يا بنتَ عبدِ المطلب، واللَّهِ لقد عَرَفتِ ما أنا بصاحبِ هذا»، دليلٌ على أَنّه لا يقاتلُ ولا يتصدَّى لليهوديّ لأَنه عاجزٌ عن هذا بسببِ شيخوختِهِ، أو لقطعِ أَكْحلِهِ، لا لأَنّه جبان.

في خيبر

وكأنّي بـ **صفيّة** لم تفوِّت فُرصةَ غزاةٍ مع رسولِ اللَّه ﷺ إلا غَزَتْ مَعَهُ، وخَرَجَتْ لا طمعاً بمالٍ أو متاعٍ أو سلب، ولكن انتصاراً وذوْداً عن دين اللَّه ورسالة ابن أَخيها ﷺ.

فلما كان يَوْم **خَيْبر** انْطَلَقَتْ مع بعض النّسوة المسلمات المؤْمنات يشدُدْن أَزْر المجاهدين، واتّخذت قريباً من ميدان المعركة مع **كُعَيْبة بنت سَعْدِ** الأَسلمية خَيْمةً يداوين بها جراحات المصابين ويُسْعفْنَهُم، ويَقمْن على خدمتهم.

ولهذا جَعَلَ رسول اللَّه ﷺ لهؤْلاء المجاهدات حظاً ونصيباً مما أفاء اللَّه عليْه من مغانِم اليهود وأَسلابِهِم، ولقد خَصَّ **صفيّة** رضي اللَّه عنها بحظٍّ وافر، وقسْطٍ كَبير.

رثاؤها لرسول اللَّه ﷺ

وحين لحِقَ رسولُ اللَّه ﷺ بالرَّفيق الأَعلى كانت **صفيَّة** ـ رضي اللَّه عنها من أَكثر أَهْلِهِ ونساء المؤْمنين جَزَعاً وحُزْناً، ولقد سجَّلَتْ ذلك في أبياتٍ منها قَوْلها:

قد كان بعدك أَبتا وهنَة ... لو كُنْتَ شاهدها لم يكثر الخطْبُ

كما قالت:

فيا عيْنُ جودي بالدموع السَّواجِمِ ... لفقْدِ رسولِ اللَّه إذ حانَ يَوْمه

وقالت أيضاً:

إن يَـوْمـاً أتـى عـلـيـك لـيـوْم   كُـوِّرتْ شـمْـسُـهُ وكـان مـضْـيـاء[1]

❋ ❋ ❋

كانت ـ رضي اللَّه عنها ـ تكبره بأَعوام، عرفَتْهُ صغيراً فَأَحبَّتْه، وعاشرتْهُ كبيراً شاباً فأُعجبتْ به، وعاصَرَتْهُ نبيًا ورسولاً فصدَّقَتْ بدْعوتِهِ وآمنت برسالتِهِ، وعايَشَتْهُ مجاهداً غازياً فآزرتْهُ وكافَحَتْ من دونه.

ولَقَدْ كانت ـ رضي اللَّه عنها ـ مُطّلِبيَّةً تعتزُّ بنسبها وبأَمجاد أهلها وعشيرتها، فأرّخَتْ لذلك قائلةً:

نَـحْـنُ حَـفَـرْنـا لـلـحـجـيـج زمـزم   سُـقْـيـا نـبـيِّ الـلَّـه فـي الـمـحـرّم
رِكـضَـةُ جـبـريـل ولـمّـا يُـفْـطـم

❋ ❋ ❋

كما قالتْ:

نحنُ حَفَرْنا بذرّ تروي الحجيج الأَ   كـبـر مـن مـقْـبـلٍ ومُـدْبـر
وأُمّ أحـرادٍ بـشّـر فـيـهـا الـجـراد   والـذّر وقـدر لا يُـذْكـرْ

وإذا ما فاخَرَت ـ رضي اللَّه عنها ـ قرَيشاً، فاخَرَتْها بالنُبوَّةِ التي ظَهَرَتْ في بني هاشم دون غيرهم، وبالسيادة ٱلسابقة عليهم، فتقول:

ألا مَـنْ مُـبْـلِـغٍ عـنـي قـرْيـشـاً   فـفـيـمَ ٱلأَمْـرُ فـيـنـا والإمـار
لنا ٱلْسّلف المقدم قد علمتُم   ولـم تـوقَـدْ لـنـا بـالـغَـدْرِ نـارُ
وكُـلُّ مـنـاقِـبِ ٱلـخـيـرات فـيـنـا   وبَـعْـضُ الأَمْـرِ مـقـصـةٌ وعـارُ

❋ ❋ ❋

ويَبْلُغُ الإحساسِ ٱلْشّعْريّ عنده هذه ٱلمؤْمنة المجاهدة ٱلْشاعرة الفصيحة ذروتَهُ عندما قالت ترثي أخاها ٱلزُّبَيْر بن عبد ٱلمطّلِب:

بـكـى زُبَـيْـر الـخـيْـر إذ فـات إن   كُـنْـتُ عـلـى ذي كَـرَم بـاكِـيَـةْ

---

(1) رواه ابن حجر بتمامه في «الإصابة» (8/ 129) ترجمة (651).

لـو لـفـظـتـهُ ٱلأَرض أمـالـتْـهـا ... أوْ أَصْـبَـحَـتْ خـاشـعـةً عـاريـةْ

قـد كـان فـي نَـفْـسـي أن ... أَتْرُكَ الموتى ولا أُتْبِعُهم ما فيهْ

فـلـم أُطِـقْ صَـبْـراً عـلـى رُزْئِـهِ ... وجَـدْتُـهُ أَقْـرَب إخـوانِـيَـهْ

لَـوْ لَـمْ أَقُـلْ مِـنْ فِـيَّ قَـوْلاً لَـهُ ... لَـفَـضَّـتِ الـعـبْـرةُ أَضْـلاعِـيَـهْ

فـهـو الـشـآمـيُّ والـيـمـانـيُّ إذا ... ما حضروا ذو ٱلْشَّفْرةِ ٱلدامِيَهْ

* * *

الـوفـاة

وعاشَتْ **صفيَّةُ** رضي اللَّه عنها بَعْدَ رسولِ اللَّه ﷺ مُعَزَّزَةً مُكَرَّمة، يعْرِف ٱلخلفاءُ والصحابة قَدْرها ومكانَتَها.

ثُمَّ توفِّيتْ ـ رضي اللَّه عنها ـ في خلافةِ **عُمَر بن الخطاب** ـ رضي اللَّه عنه ـ سَنَةَ عشرين، وقد بلغت من ٱلْعُمْر نيّفاً وسَبْعين سنة، وصلّى عليها **عمر بن الخطاب**، ودُفِنَتْ في البقيع.

* * *

رضي اللَّه تعالى عن **صفيَّة** بنت عبد ٱلمطلب عمَّة رسول اللَّه ﷺ وشقيقة أَسَدِ اللَّه ورسوله **حمزة بن عبد ٱلمطلب** المؤمنة المبايعة، المجاهدة الصابرة، الشاعرة الفاضلة.

* * *

أُمّ الفضل
زوجة العباس بن عبد المطلب
رضي اللّه عنها(*)

قال اللّه تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35].

وقالت **أُمُّ الفضل** ـ رضي اللّه عنها ـ لِرَسُول اللّهِ ﷺ:

«يا رسُول اللّهِ رَأَيْتُ فيما يرى النائِمُ كَأَنَّ عُضْواً مِنْ أَعْضائِكَ في بَيْتي».

فقال ﷺ:

«خيْراً رَأَيْتِ، تَلِدُ فاطِمَةُ غُلاماً تُرْضعينَهُ بِلَبَن ابنك «قُثَم»».

فَوَلَدَت **فاطمة** الْحُسَيْن فكَفلتْهُ أُمُّ الفضْل(1).

تَـوْطـئـة

قال عبد اللّه بن يزيدِ الهلاليّ يزتجر:

مـا وَلَـدَتْ نـجـيـبـةٌ مِـنْ فَـحْـلِ كَـسِـتَّـةٍ مـن بَـطْـن أُمِّ الْـفَـضْـلِ
أَكْـرِم بـهـا مـن كَـهْـلَـةٍ وَكَـهْـل

ويكفي **أُمَّ الْفَضْل** ـ رضي اللّه عنها ـ فخراً وَعِزّاً أَنْ تكون قد أَنْجبت ولدها **عبد اللّه** ـ حَبْر الأُمّة، وترجمان القرآن كما لَقّبه رسُول اللّه ﷺ.

ويكفي **أم الْفَضْلِ** سُؤْدداً وسُمْعةً طيبةً أن تكون قد أَرْضعت **الحسين بن**

(*) ترجم لها ابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 539).
(1) طبقات ابن سعد (8/ 278).

علي ـ رضي اللَّه عنهما ـ، وغَذَّتْه بِلَبَنِ الشهامة والشجاعة والشهادة.

ويكفي **أُمَّ الفَضْل** ٱفتخاراً وَتيهاً بِعُمق الإِيمان وحُسْنِ الإِسلام، شهادة المصطفى ﷺ حين ذُكرت لهُ مع أخواتها **ميمونة** و**لُبابَةَ الصُّغري** و**هُزَيْلة** و**عَزَّة** و**أسماء** و**سُلْمى** أَنْ قال فيهنّ:

«إِنَّ الأَخَوات لمُؤْمنات . . .».

ويكفي **أُمَّ الفَضْل** ذكاءً وَنَباهةً لمّا سمِعت قَوْل اللَّه تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

أَنْ أَدْرَكَتْ دُنُوَّ أَجَلِ رسُول اللَّه ﷺ، وٱلْتحاقِهِ بالرفيق الأعْلى، فَبَكَتْ؛ ولما سَأَلها ﷺ عن سَبَبِ بُكائها قالت:

ـ إِنَّ اللَّه نعاكَ إِلَيْنا.

ويكفي **أُمَّ الفَضْل** مَجْداً أَنَّ أَحْفادها **العباسيّين** قَدْ شَغَلُوا حَيِّزاً كبيراً من تاريخ الإِسلام، وسُمِّي عَصْرُ أَحَدِهم[1] : العصْر الذهبيّ.

ويكفي **أُمَّ الفَضْل** خلوداً في التّاريخ أَنّها من المسلمات المؤمنات القانتات العابدات، السابقات المهاجرات . . .، اللَّواتي عِشْنَ حياتهن لِلَّه وللدّين، فَأَثابهُنَّ المولى سُبْحانَهُ أعظم الأجْر: ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا . . .﴾ [النساء: 57].

وهيّا معي عزيزي القارئ نَسْتَلْهِمُ العبرة والْعِظَةَ من حياة **أم الفَضْل** ـ رضي اللَّه عنها وأرضاها ـ.

نَـسَـبُـهـا

هي: لُبابَةُ الكُبْرى[2] ابنة الحارث بن حزن بن البُجَيْر بن الهُزْم بن

---

(1) هو: (هارون الرشيد).

(2) سُمّيتْ بالكُبرى لأن لها أُخْتاً تُدْعى لُبابة أيضاً، وهي الصُّغْرى[1]؛ أُمّ **خالد بن الوليد** ـ رضي اللَّه عنهم ـ.

---

(1) ترجم لها ابن حجر في «الإصابة» (8/ 178) وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (8/ 279).

رؤيْبة بن عبد اللَّه بن هلال بن عامر بن صَعْصَعَة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مُضَر.

أما أُمّها هند، وهي: خولة بنت عوْف بن زُهَيْر بن الحارث بن حماطة بن ذي حُلَيْل من جُرَش، وهُمْ إلى حِمْير [1].

وانتسابُ أَبيها إلى مُضَر وانتساب أُمّها إلى حِمْيَر يدلاّن على عُلُوّ النّسب وشَرَفِ الأرومة، وهذه اعتبارات وعادات قبليّة كانَتْ في المقام الأسمى عِنْدَهُم.

إسْلامُها

وَمِنْ خلال هذيْن النّسبيْن نُدْرك نَوْعيّة النّشْأَة الّتي شَبَّت عليها، وفي أَيّ الأجواء الاجتماعيّة تفتّحت عَيْناها على الحياة.

تَزَوَّجَها **العباسُ بن عبد المطّلب** ـ رضي اللَّه عنه ـ، عَمُّ النبيِّ ﷺ، فَوَلَدَتْ لهُ: **الْفَضْل** ـ وبه كانَتْ تُكنّى ـ، و**عبد اللَّه** و**عُبَيْد اللَّه** و**مَعْبِداً** و**قُثَم** و**عبد الرحمن** و**أُمّ حبيب**.

وكانوا جميعاً ذوي شَأْنٍ ومقام؛ وفيها وفيهم قال الشاعر:

ما ولدتْ نجيبةٌ من فَحْلِ   كستَّةٍ من بَطْنِ أمِّ الْفَضْلِ
أَكْرِمْ بها من كَهْلَةٍ وَكَهْلِ

أما قولُهُ: كسِتَّةٍ، وهم في الواقع سبعة، فإِنَّه إنما أراد الذُّكُور فقط.

والمشهور عن إسلامها ـ في أكثر الروايات ـ أنها رضي اللَّه عنها أَوّل امرأةٍ أسلمت بعد **خديجة بنت خُوَيْلد** رضي اللَّه عنها ـ زوْج النبيِّ ﷺ.

فهي على هذا، ليست من السابقات فقط... ، بل أَوّل السابقات؛ وهُوَ مقام كريم وفوْزٌ عظيم، ومنزلة لم تبلغها امرأة قط.

إسْلامُ العبّاس

كَثُر الْقَوْل في وَقْتِ إِسلام **العباس** ـ رضي اللَّه عنه ـ، وقيل فيه الكثير،

---

(1) طبقات ابن سعد (ج/ 8) (ص277).

حتى إن بعضهم ذهب إلى أن إسلامه تأخر إلى قُبَيْل فتح **مكة**، وهذا مستغْرب جداً على رَجُلٍ لم يترك ابن أخيه يمضي إلى لقاء الأنْصار في يوم بيعة العقبة دون أَنْ يرافقه، ثم يحاوِرُ وفْد يثرب ويناقشهم ليستوثق من التزامهم بالوفاء بعهودهم وبيعتهم. .

ومُسْتغربٌ أَيْضاً على رَجُلٍ تعيش زوجَتُهُ إسلامها منذ الأيام الأولى للبعثة، تعيشه بكل الإنفعالات والتطورات، سلبية كانت أم إيجابية، تتأثّر بها وتؤثّر فيها، دونما تَخَفٍّ أو خشية. . .، مُسْتَغْرَبٌ عليه أن يتأخر إسلامه. . . !؟

ولقد جاءَ في السيرة النبوية **لابن هشام** المجلد الأول، صفحة 646 ما نصُّهُ:

«قال أبو رافع ـ مولى رسُول اللَّه ﷺ: كُنْتُ غلاماً للعباس بن عبد المطّلب، وكان الإِسلام قد دخلنا أَهْل البيْت، فأسلم العباس وأسلمت أم الفضْل وأسلمْتُ، وكان العباسُ يهابُ قومه ويكره خلافهم، وكان يكتُم إسلامه، وكان ذا مالٍ كثيرٍ متفرّقٍ في قوْمه. . .».

إذاً. . .

هذا هُوَ الأوْلى والأَجْدَر بالعبّاس، أن يكون قد أَسْلَمَ مبَكِّراً ولكنه يكتم إسلامه للأسباب التي ذكرها أبو رافعٍ موْلى رسُول اللَّه ﷺ.

تأخّر هِجْرة أُمِّ الفَضْل

اشْتَدَّ أذى قُرَيْش للمسلمين، فذاقوا من العذاب والتنكيل أنواعاً وأَلْواناً، وتكاتفت عليْهم المتاعب والمصاعب من كُلِّ جانب، فاضطرَّ رسُول اللَّه ﷺ أَنْ يعرض نَفْسَهُ وَدَعْوَتَهُ على وُفُود القبائل في المواسم لعلّه يجد لدى بعضها الإِيمان والتجاوب والنُّصْرة، وكان وفد الأوْس والخزرج من أهل **يثرب** من بيْن تلك الوفود، وقد لقيت دعوته ﷺ لديهم تجاوباً. . .

وتمّت البيْعة بينه وبيْنهم، وبحضُور عمّه **العباس** ـ كما أسلفْنا ـ؛ وبَدَأت الهجرة، هجرة المسلمين إلى المدينة؛ ثم لحق بهم رسُول اللَّه ﷺ.

لكن بيْت **العباس** بقي في **مكة**، ولعلّ اعتبارات كتْم الإِسلام، والخشية

من إرهاب قريش وبطشها، وتفرُّق ماله الكثير دُيُوناً عنْد بعض الناس، هي التي أَخَّرتْ هجرتهم، أَوْ لعلَّ اتفاقاً تكتيكيًّا سِرِّياً بينه وبَيْن ابن أخيه كان من جملة العوامل للاستفادة في الاطلاع على تحركات قريش ونواياها وما تبيّتُه.

وبقيتْ **أُمُّ الفضْل في مكة**؛ وهي تتطلَّع شَوْقاً إلى لقاء النبيّ ﷺ ومواكبة مسيرة الإِسلام؛ ولكن ما باليد حيلة. . .!

. . . وآن الأوان

آن الأوانُ لهجرة **أمّ الفضل** ولكن بعد أحداثٍ وأحداث. . .

وَليس من أصول الْبَحْث وتَسلسل الحدِيث أَنْ نُغْفلها فإن لها علاقة وطيدة باستمرار إقامة بيْت **العباس** في **مكة**.

من ذلك ـ على سبيل المثال ـ أحداث غزوة **بَدْر**. . .

فقد رَأَتْ **عاتكة بنت عبد المطلب**[(1)] ـ عمة النبي ﷺ رؤيا أَفْزعَتْها، رَأَتْ كأَنّ صَخْرة كبيرة تدأْدأَت من جَبل **أبي قُبَيْس** في **مكة** ثُمّ تفتّتَتْ أحجاراً صغيرةً دَخلَتْ بيوت النّاس. . .

فَرَوَتْ تلْك الرؤيا على أَخيها **العبّاس** فَأَوّلها أَنَّ مُصاباً كبيراًسوف يُصيب قريشاً، ثُمَّ طَلَبَ إليْها أَنْ تَكْتُم ذلك.

وكانَتْ قُرَيش تستعدُّ للخروج إلى **بَدْرٍ** لحماية تجارتها في القافلة العائدة من الشام بقيادة وحراسة **أبي سُفيان**.

لكنّ خَبَر الرؤيا شاع وذاع وانتشر، وبلغ مسامع **أبي جَهْل** الذي لَقِيَ **العبّاس** فَسخِرَ منه وَتَهَكَّم عليْه قائلاً بأَنّ بني هاشم لم يكْتفوا أن يَتَنبّأ رجالهم فإذا بنسائهم تتنبَّأُ أيضاً!!!ثم تهدَّده بِأَنّه سوْف يَفْضحه هُوَ وقبيلتهُ في الْغَدِ القريب، ويُسجِّل عليهم لدى الْعَرَب جميعاً أَنَّهم ـ أي بني هاشم ـ أَكْذب الناس.

ومَرَّتْ أَحْداثُ **بَدْر** وَهُزم المشركون شَرَّ هزيمة وأَنْكرها، وكان **العبّاسُ** في تِلْك الفترة يُعاني من مَوْقفه الضعيف المهزوم تجاه **أبي جَهْل** وقصوره عن

---

(1) كانت رضي اللّه عنها ممّن لا يزالون يقيمون في مكة بعد الهجرة.

مواجهتِهِ وتحدْيه، وقد لَقِيَ كثيراً مِنَ اللَّوْم من قرابته لِأَنَّه جَبُنَ عن الدفاع . . .

أما **أُمُّ الفضْل** ـ رضي اللّه عنها ـ فقد كانت تُواسيه ولا تَشْتَدُّ عليه، وتنفخ في روحه ونفسه معاني العزْم والثّباتِ، مِمّا يخفِّف عَنْه آلام قَلْبه وأحزانه . . .

وجاءَت النَّتيجة بعد **بَدْر** على خَيْر ما يشتهي **العبّاس** ويتمنّى . . .

ولقد وَقَعَتْ ملاحاةٌ بَيْنَ **أبي لَهَب** و**أبي رافع** رضي اللَّه عنه ـ بحضُورِ **أُمّ الفضْل** حوْل مُصاب قريش في **بَدْر**، وهاج **أبو لَهَبِ** وثار ولطم **أبا رافع** لطمةً شديدة . . .

ولم يلبث بعد ذلك إلاّ أَيّاماً، ثم مرض ومات غير مأْسوفٍ عليْه.

كُلّ ذلك تَرَكَ في **بيْت العبّاس** آثارَهُ الطيّبة الحميدة، وَأَصْبَحَ الجميع يتنفّسُون بشيء من الحرِّيَّة، في القول والفعل والحركة.

ومرَّت الأَيّام . . .

ولا يزال موقع **بيْتِ العبّاس** في مكة مَعِيناً من الأَخْبار السِّرِّيَّة عن تحركات قريْش ونواياها . . .

من **أُحُدِ** إلى **الخندق** إلى غَيْر ذلك . . .

ثُمَّ كانَتْ **خيْبر** . . .

ولنا معها وقفة وَتَأَمُّل، ذلك أن **بيْت العبّاس** كان لهُ دَوْر، وأيُّ دور!!

كانَتْ قريْش جدّ سعيدة بالمواجهة بين المسلمين واليهود في **خَيْبر**.

وكانت أَيّامُ الحصار وطول المواجهة مدعاة بلْبَلةٍ في الأَخْبار عن المعارك . . .

ثُمّ وَصَلَتْ أنباءٌ مغلوطة كاذبة إلى قريْش تقول بأن **محمداً** ﷺ قد قُتِل وأَنَّ المسلمين قد هُزِموا وتَشتّتوا . . .

وبدأت الشماتةُ والتحدّي لِـ **العبّاس**، الذي أُصيب بِصَدْمةٍ كبيرةٍ، ويأت أياماً طوالاً لا يهنأ له بال ولا يقرَّ لهُ قرار ولا يستريح لشيء، لوْلا أَنَّ **أم الفضْل** ـ رضي اللَّه عنه ـ كانت تثبِّتُهُ وتزيلُ كَدَر نَفْسه.

حتّى جاءَه سِرًّا من يُخْبره الخبر اليقين، عن انتصار المسلمين ونجاةِ رسُول ربّ العالمين، وأَنَّه قد حاز المغانم والأسلاب والخير العميم؛ وأنه ـ ﷺ ـ قد تزوَّج من **صفيَّةَ بنت حُيَيٍّ بن أَخْطب** ـ زعيم اليهود ـ. . .

عنْدئذٍ خَرَج **العبّاس** على النّاس في **مكة**، ولعلَّ **أُمَّ الفضل** ـ رضي اللَّه عنها ـ كان لها بعض المشورةِ في ذلك الخروج. . .

خَرَج إلى الناس مُتَجَمِّلاً متزيِّناً مُتَطيّباً يتبخْتَر في الأسواق، حتى أتى المسجد، فقال له بعضهم، وهم لا يدرون الحقيقة: هكذا يكُون الرجال يا **أبا الفضْل**، يَتَحمّلون المصيبة ولا يجزعون.

تهكُّماً وسخرية، فرَدَّ عليهم بأَنّ الأمر على غير ما يعلمون ويشْتهون، فقد نَصَرَ اللَّه المسلمين، وحفظ رسُوله ـ ﷺ ـ، وأَنَّه الآن مُعرِّسٌ بـ **صفيّة** بنت ملك اليهود. . .

ولدى ظهور الحقيقة الجليَّة انكفأ الناسُ عن **العبّاس** وعَنْ بيْتِهِ، ولزموا مواقعهم الذليلة، وشمخ رأْسُ **العباس** ومن مَعَه.

الْحُدَيبية وعُمْرةُ القضاء

لماذا كُلّ هذا التَّطْويل؟

سؤال قد يتبادر إلى الذِّهن؛ ولكنّا نجيب بأَنّ ضرورة البحث تقتضي ذلك فقد كان لِـ **أم الفضل** ـ رضي اللَّه عنها ـ دَوْر في كل ذلك.

خَرَج رسُول اللَّه ﷺ من المدينة قاصداً **مكّة تعظيماً** لبيْتِ اللَّه الحرام وزيارة الكعبة.

لكن قريْشاً أَبَتْ عليْه ذلك، وصَدَّتْهُ هُوَ ومن معه، واستعدَّت للقتال، وتمَّ صُلْح الحديبية، وعاد المسلمون إلى المدينة.

وفي العام التّالي جاء المسلمون إلى مكة زائرين مُعْتمرين، ودخلوها بعد أَنْ خرجَتْ قريْش مِنْها، ومكث ﷺ ثلاثة أيّام هناك، حسبما اتفق عليه في صُلْح الحديْبية. . .

ورأت **أم الفضل** ـ رضي اللَّه عنها ـ حبيبها ورسولها ونبيّها ﷺ بعد

سنين عديدة من الهجْرة، فكحَّلت عينيها برؤياه الشريفة، وسعدت بهذا اللقاء أَيّما سعادةٍ، وفَرِحَتْ به أيّما فَرَح. . .

وَتَوَّجَتْ كل ذلك بزواج أُخْتها **مَيْمونة بنت الحارث** من رسُول اللَّه ﷺ؛ وحين تمّت الأيام الثلاثة أَصرَّت قريش على خروج المسلمين من **مكة**، فاضطر ﷺ إلى المغادرة. . .، ولمّا كان بمكانٍ يُدْعى **سَرَف** قريباً من مكة بني بِـ **مَيْمونة** ـ أُمّ المؤمنين ـ رضي اللَّه عنها.

وهنا ـ عزيزي القارئ ـ آن الأوان لهجرة بيْت العباس ومن معهم من مكة إلى المدينة؛ وسَجَّل التاريخ لِـ **أم الفضل بالإضافة إلى سبْق الإِسلام، الهجرة. . .، فحازت الفضْل والشَّرَف.**

في المدينة

وفي المدينة **المنوّرة** أقامت **أُمُّ الفضْل** مُلاصقة لبيْت النّبُوَّة لا تغيب عَنْه أبداً، لتعوِّض ما فاتها من الْبُعد سابقاً، ولتطفئ غُلَّة ظمئها إلى النبي الكريم **صلوات اللَّه وسلامُهُ عليه**. . .

وكان ﷺ بالمقابل يُبادلُ **أُمَّ الفضْل** هذا الشَّوْق الشديد، فيأتي إليْها في دارها ويقيل عِنْدها. . .

ومما يؤثر أَنّها كانَتْ تكحّله وتُخضّبه وتُرَجّله. . .

وفي ذات يَوْم، وبيْنما هي تكحّله ﷺ سقطت من عينها دمعةٌ ساخنةٌ على وجهه الشريف فانتبه إليْها وَسَأَلها عمّا بها، فقالت:

ـ لقد نعاك اللَّه إلْينا يا رسُول اللَّه. . .

كانت ـ رضي اللَّه عنها ـ قَدْ حجَّتْ معه حجّة الوداع، ورافقتْهُ في كُلِّ تحركاته وتنقّلاته بيْن مكة وعرفة وغيرها من المناسك، واستمعتْ إليْه وهُوَ يخطب خطبته المشهورة، يوم الحج، وَلقد احتلبَتْ لهُ لبناً وأرسلتْهُ إليه فشربه. . .

ثُمَّ سَمِعَتْ قوْل اللَّه تعالى يتنزَّل عليه هناك: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾.

فحفظت القوْل ووعتْه، ثُمّ طوتْه بيْن جوانحها، حتى إذا كان في المدينة وفي بيتها تكحِّلهُ وتتملى وَجْهَهُ الشريف، ثارتْ نفسها وعاطفتها أَلَماً وحُزْناً، فدمعت عيناها، وَسَقَطَتْ عَبْرتها الحرّى على وَجْهِهِ الشريف.

كافِلَةُ الحسيْن

استيقظَتْ **أُمّ الفضل** ـ رضي اللَّه عنها ـ ذات يوْم على رؤْيا، فبادَرَتْ من فوْرها إلى النبيِّ ﷺ تَسْتفتيه فيها، لأنها تتعلّق به؛ قالت:

ـ يا رسُول اللَّه... رَأَيْتُ رُؤْيا كأَنّ عُضْواً من أعضائك في بَيْتي...

قالتها فَزِعةً مضطربة؛ فتبسَّم ﷺ في وجهها يطمئنها وقال:

ـ خَيْراً رأَيْتِ... تَلِدُ **فاطمة** غلاماً ترضعينَهُ بِلَبَنِ ابنك **قُثَم**.

وتحقّقت الرؤيا، وولدت **فاطمة** ـ عليها السلام ـ **الحسيْن** ـ رضي اللَّه عنه ـ فكفلتْه **أُمُّ الْفَضْل**، وكأن ذلك كان وصيَّةً من المصطفى ﷺ، حَمَلْتهُ ـ أي **الحسين** مَعَها إلى دارها، وأرضعتْه وغَذَّتْهُ بلبنها، وسَقَتْهُ من معين عطفها وحنانها...

أَوْجَعْتِ ابني يا أُم الفضْل

وفي ذات يَوْم حَمَلتِ **الحسين** ـ رضي اللَّه عنه ـ وأَتَتْ به إلى رسُول اللَّه ﷺ ووضعتْهُ في حِجْره... وجلست قريباً.

بالَ الصبيُّ في حضن جَدِّه ﷺ، فقال لأم الفضل.

ـ لقد بال الصبي في حِجْري...

فرفعتْهُ **أُمُّ الْفَضْل** وقَرَصَتْه، وكأنها تُؤَدِّبه، فتوجّع قليلاً وبكى؛ فتأثر النبيُّ ﷺ لذلك، وقال:

ـ لقد أَوْجَعْتِ ابني يا **أُمَّ الفضل**...

فقالت:

ـ هاتِ ثَوْبك أَغْسِلهُ وأُطَهِّره؛

فقال:

ـ يكفي أَنْ أَمُرَّ بالماء عليه مروراً.

الراوية الْمُحَدِّثة

بالإِضافةِ إلى ما كانت تتمتّع به **أم الفضْلِ** ـ رضي اللَّه عنها ـ مِنْ حُسْنِ إسلام وصفاء إيمانٍ، وحُبٍّ كبير لِلَّهِ ورسُوله. . .

وبالإضافةِ إلى ذكائها ونباهتها وقُوَّة شخصيتها وحُسْن مشورتها. فقد كانت ـ رضي اللَّه عنها ـ واعيةً سامعة؛ وبحُكْم قُرْبها ـ بعد الهجرة ـ من رسُول اللَّه ﷺ وملاصقتها لبيْتِ النُبوَّة، فقد حفظت عنه ﷺ بعض حديثه، وفقهته، وروتْه.

ولو أَنّها قُدِّر لها أَنْ لا تنقطع بعض السِّنين في مكّة بعيدة لأتاحت لنا أَنْ تفيض عَلَيْنا كثيراً من حديثه الشَّريف.

الـوفـاة

وقُدِّر لِـ **أم الفضل** ـ رضي اللَّه عنها ـ أَنْ تعيش طويلاً، فقد عاشَتْ إلى زمن خلافة **عثمان بن عفّان** ـ رضي اللَّه عنه ـ.

ولقد كانَتْ وفاةُ رسُول اللَّه ﷺ أَشَقَّ ما مرَّ على نَفْسها، وأَشَدَّ ما واجهتْهُ في حياتها من أَحْداث. . .

كيف لا. . .؛ وهي التي دَمِعَتْ عيناها لنعْيهِ ـ ﷺ ـ قَبْل الفراق.

وعاشَتْ في زمن خلافة الصديق وخلافة الفاروق ـ رضي اللَّه عنهما ـ مُعزَّزة مكرَّمة، مُحْتَرمة المقام والمكانة والرأْي؛ الكُلُّ يعرف قَدْرها وفَضْلها.

ثُمَّ لحقت بالرفيق الأَعْلى، مُطمئنة النفس قريرة العيْن.

رضي اللَّه عنها وأرضاها، وأكرم نُزُلها ومَثْواها.

كـلـمـةٌ أخـيـرة

لا يمكننا أَبداً أَنْ نتوقّف في الحديث عن **أُمّ الفضل** ـ رضي اللَّه عنها ـ عند هذه الخاتمة، فإن ذلك نَوْعٌ من الإِبتسار. . .

فالمسلمة الخالدة التي نَفحتِ الأُمَّة من بَعْدها بثمرةِ فؤادها **عبد اللَّه بن عباس** ـ رضي اللَّه عنهما ـ جديرةٌ بأَنْ نَسْترْوِح ريحها من خلال هذا النجيب،

لا تَرْجمةً لحياتِهِ بتفاصيلها ودقائقها ونتاجها، فإن لذلك موضعه ومقامه؛ فقط . . . نَسْمةُ عطرة ونَفْحةٌ طيّبة . . .

لأن ما خَلَّفهُ **عبد اللّه** من ثروةٍ علمية وَذخيرةٍ فقهيَّة وأثَرٍ عظيم في ميدان العلوم الإسلامية، ما يزال إلى يومنا هذا رافداً من روافد الخيْر والفضْل والهُدى، كُلّ ذلك ببركة دُعاء النبيّ ﷺ لهُ، أنْ يَشْرح اللّه صَدْره ويَهَبهُ الحكمة والفهْم والفقه . . .

وإن تراثه في التفسير والفقه والأحكام والحديث يُعْتبر من أَضْخَمِ ما خلّف الأوائل، من الصحابة والتابعين، رضوان اللّه عليهم أجمعين.

وَمِنَ المأثور عن **أم الفضل** ـ أمّ عبد اللّه ـ رضي اللّه عنها ـ أنْها كانت تقول فيه:

ثكلْتُ نَفْسي وثكلتُ بِكْري إنْ لم يَسُدْ فِهراً وغير فِهْرِ
بالحسب العدّ وبذل الوقْر حتى يوارى في ضريح القبْرِ

ومن المأثور أَيْضاً، الحديث الشريف الذي تلقّاه عَنْ رسُول اللّه ﷺ ذات يَوْم، وكان غلاماً حَدَثاً مُرْدفاً وراء النبيّ ﷺ على رَكُوبه، ونَصُّهُ:

ـ «يا غُلامِ إنّي مُعلِّمك كلماتٍ: احْفَظِ اللّه يَحْفظك، احفظ اللّه تجده تجاهك، إذا سَأَلْتَ فاسأل اللّه، وإذا استعنْت فاسْتعِنْ باللّه، واعلْم أَنَّ الأُمّة لو اجتمعوا على أن يَضُرّوك بِشَيْء لم يَضُرّوك إلاّ بشيءٍ قد كتبه اللّه عليك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك لم يَنْفعوك إلاّ بشيءٍ قد كتبَهُ اللّه لك، رُفعت الأقلام وجَفَّتِ الصُّحُف».

ولو أَنّنا استرسلْنا في الحديث لضاق المجال، وخرجْنا عن القَصْد.

رضي اللّه عن **أمّ الفضل**، وعن حَبْر الأُمّة وتُرْجُمان القرآن، **ابن عباس**، وحَشَرنا معهما في زُمْرةِ المؤمنين العالِمين العامِلين.

أسماء بنت عميْس

ذات الهجرتين . . !

رضي اللَّه عنها[1]

ظن بعض الصحابة ـ رضي اللَّه عنهم ـ أن مفهوم الهجرة يقتصر على الذين خرجوا من **مكة** إلى **المدينة**، وهي مرتبة من مراتب الإيمان والإسلام، مثل **السابقين والبدريين**، من هنا كانوا يرددون بأن الذين هاجروا إلى **الحبشة** ولبثوا فيها حتى كان يوم **خيبر**: لا هجرة لهم.

أساء ذلك **أسماء** ـ رضي اللَّه عنها ـ فأتت رسول اللَّه ﷺ وهي مهمومة متضايقة، تسأله عما يقوله بعض الصحابة، فقال لها عليه الصلاة والسلام: «بل لكم هجرتان، وللناس هجرة واحدة».

ولم يكن قوله ﷺ **لأسماء** نوعاً من تطييب الخاطر وإراحة النفس. . أو العزاء، بل كان تبياناً للحقيقة، وجلاءً لما استبهم واستغلق، وقطعاً لدابر فتنة.

فالذين تركوا **مكة** إلى **الحبشة** فراراً بدينهم، **هاجروا**. . ! ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: 97]، ولقد اشتهر مفهوم **الهجرة** إلى **الحبشة** بما لا يقبل تأويلاً أو تعليلاً. وهم أنفسهم ـ أيضاً ـ انتقلوا من **الحبشة** إلى **المدينة** مهاجرين. . . !

---

(1) قال ابن سعد في «الطبقات» (8/ 280): هي: أسماء بنت عُمَيْس بن معدْ بن تيم بن الحارث بن كعب بن مالك بن قحافة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن معاوية بن زيد بن مالك بن نَسْر بن وهب اللَّه بن شهران بن عفرس بن أفتل. وأمّها هند وهي خولة بنت عوف بن زهير بن الحارث بن حماطة بن جُرَش.
وقد ترجم لها ابن حجر في «الإصابة» (8/ 9) ترجمة (51) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 395).

وليس هذا فحسب. . ،

فإنهم عندما بلغوا **المدينة** وقبل أن يحطوا الرحال، وقد أجهدهم طول المسير، بحراً وبراً، ليلاً ونهاراً، علموا أن رسول اللّه ﷺ في غزو **خيبر** فتابعوا الرحلة. . ، وواصلوا الجهد والعذاب، شوقاً إلى لقاء رسول اللّه ﷺ.

وصادف وصولهم انتهاء المعارك، وفتح **خيبر**، فكان قوله ﷺ: «لا أدري بأيهما أفرح؟ بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر»؟ تتويجاً لجهاد هؤلاء المهاجرين؛ إذ وضع ﷺ فتح **خيبر** مع ما لاقى فيها المسلمون من العنت والشدة، على نفس المستوى مع قدوم **جعفر** وصحبه.

ولقد كانت **أسماء** ـ رضي اللّه عنها ـ من السابقات إلى الإسلام أسلمت مبكراً[1] مع زوجها **جعفر**، وقد كانا حديثي عهد بعرس حين شدّ الرحال إلى **الحبشة**، مهاجرين في سبيل اللّه!!.

لقد ملك عليهما الإسلام ذاتيهما، وكل ذرة في كيانهما، فبدلاً من أن يقيما في **مكة** ينعمان بأول أيام الزواج ويهنئا بها، انطلقا في رحلة **الإيمان** جهاداً وكفاحاً، وصبراً على الشدائد، وهذا عند المؤمن الصادق، الموصول بحب اللّه ورسوله، أشهى وأطيب، وأعظم أجراً.

وأسماء ـ رضي اللّه عنها ـ كانت على نفس مستوى العظمة التي تجلت في شخصية **جعفر** زوجها، إحتمالاً وتحملاً، ووعياً وفهماً، وإدراكاً للمسؤولية، يشهد لها بذلك خلقها الطيب ومعدنها الأصيل، وعمق إيمانها ألم يشهد لها رسول اللّه ﷺ بأنها من الأخوات المؤمنات!؟

إن الذي يُحصي سنوات الإقامة الطويلة في أرض غريبة، وشعب غريب لمهاجري **الحبشة**، مع ما تعرضوا له من مؤامرات **قرشية**، وما لاقوه من شظف العيش وقسوة الحياة، عليه أن يتصور كل ذلك ويدرك مؤثراته وآثاره.

لقد بلغت فترة إقامتها هناك قرابة الخمسة عشر عاماً. . ، ولد من ولد،

---

(1) قال ابن سعد: أسلمت أسماء قبل أن يدخل رسول اللّه ﷺ دار الأرقم.

ومات من مات، وكبر من كان صغيراً. . . ! وحدثت متغيرات كثيرة على مختلف الصُعُد.

وحتى لا يكون المفهوم عن هؤلاء المهاجرين قاصراً أو مبتوراً، فيظن أنهم في منفى، فلا تواصل بينهم وبين قاعدتهم الأساسية، سواء في **مكة** أو في **المدينة**، فإن رسول اللَّه ﷺ كان دائم الصلة بهم، عن طريق موفدين ورسل يبعث بهم، ليستطلع أخبارهم من ناحية، وليزودهم بما جد في دين اللَّه من تنزيل وأحكام، من ناحية أخرى.

ولقد كان **عمرو بن أمية الضمري** ـ رضي اللَّه عنه ـ أحد هؤلاء الرسل.

لقد عادت **أسماء** ـ رضي اللَّه عنها ـ من **الحبشة** وقد أصبحت أماً لها من الأولاد: **عبد اللَّه** و**محمد** و**عون**.

ودخلت **أسماء** في امتحان جدي. . .

إذ خرج زوجها **جعفر** ـ رضي اللَّه عنه ـ إلى **مؤتة** بأمر واختيار رسول اللَّه ﷺ، قائداً ثانياً لجيش المسلمين، بعد **زيد بن حارثة** ـ **إذ** كتبت له الشهادة ـ وقد كان.

وكانت معركة **مؤتة** بين المسلمين والروم، لأول مرة في تاريخ الدعوة.

كان عدد المسلمين ثلاثة آلاف من الجند، وعدد جيش الروم وحلفائهم يزيد على مائة ألف.

وسبب خروج المسلمين إلى **مؤتة**: أن رسول اللَّه ﷺ، كان قد بعث **الحارث بن عمير الأزدي** رسولاً إلى ملك **بصرى** بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام، فعدا عليه **شرحبيل بن عمرو الغساني**[1] فقتله.

فاشتد ذلك على رسول اللَّه ﷺ، وحزن حزناً شديداً، وندب الناس للخروج والثأر لمقتل **الحارث**.

فلما تكامل عددهم ثلاثة ألف أمَّر عليهم ثلاثةً من القادة **الأمراء** بالتتابع، إن قتل الأول خلفه الثاني، وإن قتل الثاني، خلفه الثالث، فإن

---

(1) كان شرحبيل حليفاً للروم، فالغساسنة من عرب الشام كانوا حلفاء الروم؛ كما كان المناذرة من عرب تخوم العراق حلفاء للفرس!!!

قتل. . . اتفق المسلمون فيما بينهم على قائدٍ لهم.

والأمراء الثلاثة هم: **زيد بن حارثة** و**جعفر بن أبي طالب** و**عبد اللَّه بن رواحة** ـ رضي اللَّه عنهم ـ.

ولا نطيل في أمر المعركة والقتال. فقد استشهد الأمراء الثلاثة، ثم ارتضى المسلمون **خالد بن الوليد** قائداً لهم، واستطاعت عبقرية **خالد** العسكرية أن تراوغ الروم وحلفاءهم الغساسنة، ثم تخرج من ميدان المعركة بالمسلمين دون أن يسجل عليهم العدو المتفوق عدداً وعدة أي نصر. . .

ولكن الخسارة كانت فادحة باستشهاد الأمراء الثلاثة ـ رضي اللَّه عنهم ـ لقد كانت **مؤتة** أول معركة قتالية يخوضها **جعفر** في وجه أعداء اللَّه. . وفي سبيل اللَّه.

وكما كان عظيماً ـ رضي اللَّه عنه ـ في **الحبشة** وبين يدي **النجاشي**. . .، كان عظيماً أيضاً في ميدان القتال، فلما رأى أن فرسه تعيقه عن الحركة، نزل عنها وعقرها، ثم خاض المعمعة.

تقطعت يداه وهو يحتضن اللواء، ثم سقط مضرجاً بدمِه، وفاضت روحه إلى عليين.

ولقد قال رسول اللَّه ﷺ ـ وهو الصادق الأمين ـ بأن اللَّه تعالى قد أبدل **جعفراً** عن يديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء.

وكان حزن **أسماء** بالغاً، في ثورةٍ من البكاء والنحيب عارفةً. . .، وحق لها. .، فقد كان **جعفر** الرفيق والزوج والحبيب.

وما جفت عبرتها، ولا رقأ دمعها.

حتى أتاها رسول اللَّه ﷺ بعد اليوم الثالث، فهدّأ من ثورة حزنها، وطيب خاطرها، وكان قد دعا أولاد جعفر للحضور بين يديه، فأتوا[1].

يحدثنا عن ذلك **عبد اللَّه بن جعفر** فيقول:

أمهل النبي ﷺ آل **جعفر** ثم أتاهم فقال:

ـ لا تبكوا على أخي بعد اليوم.

---

(1) رواه ابن سعد في «الطبقات» (8/ 282).

ثم قال:

- إيتوني ببني أخي، فجيء بنا، كأنا أفراخ: فقال ﷺ:

- «أدعوا إلى الحلاق».

فدعى، فحلق رؤوسنا. ثم قال ﷺ:

- «أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبد اللَّه فشبيه خَلْقِي وخُلُقِي». ثم أمسك بيدي فأشالها[1] وقال:

- «اللهم أخلف جعفراً في أهلِه، وبارك لعبد اللَّه في صفقة يمينه» - ثلاثة مرات...

ثم جاءت أمنا، فذكرت يتمنا، وجعلت تفرخ له[2] ﷺ، فقال لها:

«العيلة[3] تخافين عليهم يا أسماء وأنا وليهم في الدنيا والآخرة».

وانكفأت **أسماء** على نفسها وعلى أبنائها ترعاهم وتربيهم، وما كانت عيناً رسول اللَّه ﷺ تغفل عن **أسماء** وعن بني **جعفر**، فـ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾ [الأحزاب: 6] صلوات اللَّه وسلامه عليه.

يزورهم كلما سنحت له الفرص، ويسأل عنهم وعن أحوالهم، ويصلهم بالعطايا.

حتى كان يوم **حنين**:...!

وكان **أبو بكر** - رضي اللَّه عنه - قد تأيَّم من زوجته **أم رومان** التي توفاها اللَّه تعالى، وأختارها إلى جواره، فزوج رسول اللَّه ﷺ **أبا بكر** من **أسماء** - هكذا جاءت الروايات.

على كل حالٍ فقد كان هذا الزواج مواساة بكلا الطرفين **أبي بكر** و**أسماء**.

فالصديق - وما أدراك ما الصديق - أول الرجال إسلاماً، وثاني اثنين إذ هما في الغار، و**الوزير** الأول، والمستشار المؤتمن، وآمن الناس صحبة لرسول اللَّه ﷺ بنفسه وماله..!

---

(1) أشالها: رفعها.

(2) تفرخ له: تشكو.

(3) العيْلة: الفقر والحاجة.

وأسماء ـ رضي اللَّه عنها ـ المسلمة السابقة المؤمنة الصابرة، الفقيهة المتعلمة ذات الهجرتين، وزوجة الشهيد الحي **جعفر الطيار**.

وعاشت **أسماء** في بيت **أبي بكر** زوجة رضية، كريمة وفية، ترعى الحق وتصون العهد، ورزقت منه ـ رضي اللَّه عنه ـ بولدها **محمد بن أبي بكر**[1].

* * *

ولكي تعرف مدى ما كانت تتمتع به **أسماء** من حسن صحبة الزوج ـ أياً كان ـ، أن **أبا بكر** ـ رضي اللَّه عنه ـ، لما مرض مرض الوفاة أوصى أن تقوم **أسماء** على غسله، وهذا منه ـ رضي اللَّه عنه ـ منتهى الحب والثقة[2].

ثم تزوجها **علي** ـ رضي اللَّه عنه ـ، فرزقت منه بولدهما **عون**.

وعاشت في بيت **علي** سيدة فاضلة، تؤدي حق الزوجية، دونما تفريط أو إهمال أو انتقاص، رغم هذا التنقل..!

ويذكر[3] أن ولديها: **محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر** تفاخرا ذات يوم، فقال كل منهما: أنا أكرم منك، وأبي خير من أبيك!!.

وكان **علي** ـ رضي اللَّه عنه ـ حاضراً، فقال **لأسماء**: اقضي بينهما..!!

ترى هل أراد **علي** ـ رضي اللَّه عنه ـ أن يمتحن ذكاء **أسماء** في عقلها؟ أم أراد أن يستخرج مكنون فؤادها من الحب والوفاء...!؟

هنا، تتبدى **أسماء** في أسمى صورة للمرأة المسلمة، وللزوجة المؤمنة فتعطي المثل والدرس لكل فتاة ولكل زوجة ولكل أم، على كر الأيام وتعاقب الأعوام.

فقالت ـ رضي اللَّه عنها ـ من غير توقف ولا تميز ولا تردد ما رأيت شاباً خيراً من **جعفر** ولا كهلاً خيراً من **أبي بكر**...!

---

(1) ذكره ابن سعد في «الطبقات» (8/ 282) وابن حجر في «الإصابة» (8/ 9) ترجمة (51).

(2) طبقات ابن سعد (8/ 283).

(3) أخرجه ابن السكن بسند صحيح عن الشعبي (الإصابة). (8/ 9) ترجمة (51).

وسكت الولدان، ولم يعودا إلى ما كانا عليه من المفاخرة.

فقد تكلم **علي** مداعباً فقال:

ـ فما أبقيت لنا؟!

ونحن ـ بعون اللَّه تعالى ـ نجيب:

ـ لقد التزمت **أسماء** ـ رضي اللَّه عنها ـ نفس الموقف، ونفس النهج وأنى لها أن تتغير أو تتبدل؟ فهي التي صهرها الإسلام في بوتقته منذ آمنت، فأضحت نموذجاً حياً لأخلاق القرآن وسنة النبي ﷺ العدنان.

وقاربت رحلة **أسماء** في الدنيا على النهاية...

فلما أتاها نعي ولدها **محمد بن أبي بكر** من مصر، قامت إلى مصلاها في بيتها، وكظمت غيظها، وأدت نفلها، وحبست دمعها، فانعكس كل ذلك على بدنها، وقد ضعف وشاخ، فشخب[1] ثدياها دماً..، ونزفت حتى فاضت روحها، وحلقت في السماوات العلى[2].

* * *

(1) أي سال منها دم.

(2) الإصابة لابن حجر (8/ 9) ترجمة (51).

أم معبد

رضي اللّه عنها(*)

اسمها: **عاتكة بنت خالد** ـ الخزاعية ـ أما: **أم معبد** فكنيتها.

ارتبط اسمها بأعظم حدث في تاريخ الدعوة، ألا وهو **الهجرة** من **مكة** إلى **المدينة**.

كانت ـ رضي اللّه عنها ـ امرأة برزة(1) عفيفة، جلدة قوية؛ لها خيمة في **قديدٍ** على الطريق(2)، تحتبى(3) بفناء القبة، ثم تسقي وتطعم من يمرّ بها(4).

نزل عندها رسول اللّه ﷺ وأصحابه: **أبو بكر الصديق** و**عامر بن فهيرة** مولى **أبي بكر**، ودليلهم **عبد اللّه بن أريقط** ـ وكان مشركاً ـ.

وكان الناس مرملين مسنتين(5)، فطلبوا منها لبناً أو لحماً أو تمراً يشترونه منها، فلم يجدوا عندها شيئاً..، قالت: واللّه لو كان عندنا شيء ما أعوزنا القرى(6).

فنظر رسول اللّه ﷺ إلى شاةٍ في كسر الخيمة(7)، خلفها الجهد عن الغنم؛ فسألها رسول اللّه ﷺ:

ـ هل بها من لبن؟ فقالت **أم معبد**: هي أجهد من ذلك..، فقال:

(*) ترجم لها ابن سعد في «الطبقات» (8/ 288) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 620) وابن حجر في «الإصابة» (8/ 281) ترجمة (1500).

(1) برزة: معروفة مشهورة.

(2) قديد: مكان على الطريق بين «مكة» و«المدينة»، وخيمة «أم معبد» تشبه «المحطة» أو «الاستراحة».

(3) تحتبى: تجلس ملتفة بثوبها، وفناء القبة: ساحة الخيمة.

(4) تسقي وتطعم: أحياناً بأجر وأحياناً قرى وضيافة.

(5) مرملين مسنتين: في قحط وجدب.

(6) القرى: الضيافة؛ وما أعوزنا القرى: ما قصرنا في ذلك.

(7) كسر الخيمة: جانبها الظليل.

أتأذنين لي أن أحلبها؟ فقالت: نعم ـ بأبي أنت وأمي ـ إن رأيت بها حلباً فاحلبها!؟

فدعا ﷺ بالشاة، فاعتقلها[1] ليحلبها، ومسح ضرعها، وسمّى اللّه تعالى، فتفاجت[2] ودرت، ودعا بإناء فجيء له بإناء يربض الرهط[3]، فحلب فيه ثجاً[4] وسقى **أم معبد**، ثم سقى القوم حتى رووا، ثم شرب آخرهم وقال: «ساقي القوم آخرهم شرباً»، ثم حلب فيه مرةً أخرى، فشربوا عللاً بعد نهلٍ[5]، ثم حلب ثالثاً وتركه عندها.

ثم ركبوا وذهبوا[6].

ثم بعد ارتحالهم جاء زوجها **أبو معبد**، واسمه **أكثم بن أبي الجون ـ الخزاعي ـ**، يسوق غنماً عجافاً[7]. . ، فلما رأى اللبن ـ أو أثره في الإناء قال: ما هذا يا **أم معبد**؟ أنى لك هذا ولا حلوب بالبيت؟ قالت: إنه مرّ بنا رجل **مبارك**. . ! ثم قصت عليه الحكاية، بكل تفاصيلها ودقائقها.

وعند كلمة **مبارك** نحب أن نتوقف قليلاً مع **أم معبد**.

لقد صدرت عنها هذه الكلمة بعفوية. . ، لم تجهد نفسها ولا عقلها ولكنها انطلقت على لسانها متأثرة وجدانياً بما عاينت وشاهدت، **فإذا البركة** مضمون وعنوان وشعار، حقاً وصدقاً.

فقال **أبو معبد** ـ وقد شاقه الحديث، وتنبهت له حواسه ـ: صفيه **أم معبد**.

عزيزي القارئ:

لقد وصف بعض الصحابة رسول اللّه ﷺ من الناحية الخلقية، فكان

---

(1) اعتقلها: وضع رجلها بين ساقه وفخذه ﷺ.
(2) تفاجت: انتفخ ضرعها، ودر باللبن.
(3) يربض الرهط: يشبع الجماعة حتى يربضوا.
(4) ثجا: متدفقاً غزيراً.
(5) عللاً بعد نهل؛ النهل: الشرب على عطش ويكون سريعاً، والعلل: التمهل.
(6) ذكره ابن سعد في «الطبقات» (8/ 289).
(7) عجافاً: ضعيفاً هزلاً.

علي ـ رضي اللَّه عنه ـ أكثرهم دقة وشمولاً، وهذا ليس بمستغرب ولا مستهجن، لأنه ـ رضي اللَّه عنه ـ كان أكثرهم معايشة وقرباً لرسول اللَّه ﷺ، أضف إلى ذلك فصاحة **علي** وبلاغته.

ثم وصفته **أم معبد** لزوجها، فكان هذا الوصف قمة وذروة. . !

لقد أسرها ﷺ بما رأت من بركته، فحدقت فيه، ولاحظت كل فعله لتستوعب الصورة العظيمة في مخيلتها، إعجاباً وإكباراً.

ومن عجب أن تكون هذه المرأة البدوية، التي لم تقرأ ولم تكتب، والتي تعيش في الفلاة بعيداً عن مجتمع الناس، على هذا المستوى من الوعي والدقة!!.

وعلى كل حالٍ. . ، فإن وصف **أم معبد** وغيره مما نقل إلينا، وثبت في أكثر المراجع، يعتبر وثيقة تاريخية.

وأيضاً. . ، فإنه يقصر كذلك عن إيفاء الخلقة والخلق المحمدي حقهما!!

تقول **أم معبد** لزوجها:

رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة[1]، مليح الوجه، حسن الخلق، لم تعبه ثجلة[2] ولم تزر به صعْلة[3]، في عينيه دعج[4]، وفي أشفاره رطف[5]، أحور[6]، أكحل، أزج أقرن[7]، شديد سواد الشعر، في عنقه سطح[8]، وفي لحيته كثاثة.

إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سمّا وعلاه البهاء، كأن منطقه خرزات نظمن طوال يتحدرن، حلو المنطق، لا نزر ولا هذر[9]، أجهر[10]

---

(1) الوضاءة: الحسن.

(2) ثجلة: ضخامة البطن.

(3) صعلة: صغر الرأس، ويقال هي أيضاً الدقة والنحول.

(4) دعج: شدة سواد العينين.

(5) رطف: طول.

(6) أحور: شديد بياض العين.

(7) أزج، أقرن: اتصال الحاجبين في دقة.

(8) السطح: الطول.

(9) النزر: القليل، والهذر: الكثير. أي: محكم المنطق، لا يقل فيشعر السامع بالحاجة إلى الفهم ولا كثير يثقل على السامع.

(10) أجهر الناس: أوضحهم علواً في نبرة الصوت.

الناس إذا تكلم، وأجملهم من بعيد، وأحلاهم وأحسنهم من قريب.

لا تشنوه[1] من طول، ولا تقتحمه من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً. له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا لأمره محفود محشور[2].

لا عابس ولا مفند[3].

قال **أبو معبد**:

ـ هذا واللَّه صاحب قريش. . .، لو رأيته لا تبعته.

وفي رواية: لقد هممت أن أصحبه إن وجدت إلى ذلك سبيلاً.

ولقد حدث ذلك. .

إذا ارتحلت **أم معبد** وزوجها **أبو معبد** إلى **المدينة**، فأسلما وبايعا وصحبا النبي ﷺ.

وكان معهما أخ لـ **أم معبد** هو **خنيس**[4] **بن خالد** ـ رضي اللَّه عنه ـ وهو الذي روى الحديث. . . وكان من كرامة اللَّه له أن استشهد يوم الفتح. . . فتح **مكة** وهناك بعض الملاحظات:

أولاً: كانت **خزاعة** قبيلة **أم معبد** وزوجها، حلفاء لـ **عبد المطلب** جدّ النبي ﷺ؛ في الجاهلية، فلما أشرق نور الإسلام، انحازت إلى رسول اللَّه ﷺ فكانوا ـ كما وصفوا ـ عيبه نصح للرسول الأكرم ـ ﷺ ـ حتى أذن اللَّه تعالى بدخولهم في دينه الحنيف.

وعندما تم صلح **الحديبية**، كانوا حلفاء النبي ﷺ، ودخلت **بنو بكر** في حلف **قريش**، ثم أغار **بنون بكر** على **خزاعة** فنقضوا العهد ـ عهد الحديبية ـ، فجاء **عمرو بن سالم** ـ الخزاعي ـ إلى **المدينة** يستنجد برسول اللَّه ﷺ، وكان مما قال ـ في شعر طويل ـ:

---

(1) أي لا يرتد طرفك عنه من طول، ولا تحدق فيه من قصر.

(2) محفود: مخدوم، ومحشود: يحتشدون حوله.

(3) المفند: الكثير اللوم.

(4) وقيل: حبيش.

لأَصمَّ[1] إنـي نـاشِـد مُـحـمّـداً   حِـلـف أبـيـه وأَبـيـنـا الأتْـلـدا

فأجابه ﷺ: نصرت يا **عمرو بن سالم**.

وكان الفتح المبين، والنصر العظيم.

فـ **أم معبد** من قوم هم أحباءُ للَّه ورسوله، وهي فرع من دوحة كريمة.

ثانياً: قيل ـ كما روى **الواقدي** ـ بأن الشاة التي مسح ضرعها رسول اللَّه ﷺ بيده الشريفة واحتلبها، قد عمرت سنين عدداً، غزيرة اللبن وافرة العطاء، ولقد تضافرت الروايات على ذلك، ولا نرى في ذلك عجباً، بل نرى فيه بركة رسول اللَّه ﷺ..!

ثالثاً: لك اللَّه يا **أم معبد**، البدوية الأمية، بنت الصحراء..، من أي جامعة تخرجت؟ وأي علم حصلت؟

ونحن بعد أربعة عشر قرناً بحاجةٍ إلى معجم لنفُك طلاسم عباراتك وكلماتك، ونشرحها، لأنفسنا ولغيرنا.

وأيضاً بحاجة إلى علوم **فسيولوجيه**، كي نُتابع معك الرصف والوصف..، لك اللَّه يا سيدتي!!.

(1) أي: اللهم.

أم عمارة ـ نسيبة [1]

بنت كعب المازنية، الأنصارية

رضي اللَّه عنها[2]

شخصية فذة متميزة . . .

ومثال رفيع من غير تمثال ولا نصب!!

حية في قلوب المؤمنين

وشعله تتوقد

كلما حاولت الكتابة عنها، واستقراء صفحات سفر حياتها، شعرت بالرهبة والخشوع، وصغار وتفاهة يلفان كياني.

سيدتي **أم عمارة** . . .

بكل الإجلال والحب أستميحك العذر في الولوج إلى محرابك، لأحاول متواضعاً أن أنقل إلى بناتنا وأخواتنا وزوجاتنا وأمهاتنا صوراً من إيمانك . . . من جهادك . . ، من أُمومتك . . ، دروساً وعبراً، هن ونحن ـ بأمس الحاجة إليها، في زمن اختلطت فيه الحقائق بالأباطيل، وانقلبت المقاييس، وتاهت الأبصار والبصائر، وطاشت العقول . . ، فلا ندري كيف نسير وإلى أين المصير فلعل **الصحوة** تنالنا جميعاً، وترتفع بنا من وهدة الضياع إلى ذروة الصراط المستقيم . . ، صراط الذين أنعم اللَّه عليهم، برحمة منه سبحانه.

ليس هناك واحد من أبنائها يدعى **عمارة** حتى تكنى به، ولكنه لقب غلب عليها واشتهرت به.

---

(1) نسيبة (بالتصغير) وهو الأشهر، ويروى «نسيبة» بفتح النون وكسر السين.

(2) ترجم لها ابن سعد في «الطبقات» (8/ 412 ـ 416) وابن حجر في «الإصابة» (8/ 261 ـ 262) ترجمة (1419).

كانت في ريعان الصبا وفتوة الشباب، وحديثة عهد بزواج، يوم شرفت وسعدت بلقاء النبي ﷺ في جوف الليل عند **العقبة** من **منى**، مع وفد الأنصار. . ، أسلموا جميعاً وأسلمت، وبايعوا جميعاً وبايعت، وكانت معها أخت لها: **أم منيع**، بايعت هي أيضاً.

روى **الواقدي** عن ابن أبي صعصعة عن **أم عمارة** قالت:

«كانت الرجال تصفق على يدي رسول اللّه ﷺ ليلة العقبة، والعباس آخذ بيد رسول اللّه ﷺ . فلما بقيت أنا وأم منيع نادى زوجي عربة بن عمرو[1]: يا رسول اللّه هاتان امرأتان حضرتا معنا يباعينك. . ، فقال: قد بايعتهما على ما بايعتكم عليه. . ، إني لا أصافح النساء» ونصوص بيعة العقبة هي القاعدة الأولى والأساس الذي قام عليه التحول الكبير في تاريخ الدعوة، من الجهاد السلبي إلى الجهاد الإيجابي، من الصبر على الأذى، والثبات على المبدإ، والتحمل إلى مناجزة الشرك والكفر مناجزة لا تعرف الهوادة، ولا تعرف المساومة ولا الهوان ولا الاستكانة.

جهاد لا يتوقف عند حدود السيف والرمح وساحات الوغى، بل يتعداها جميعاً إلى جهاد الفساد والانحراف، إلى جهاد بناء الذات والمجتمع.

كانت **أم عمارة** ـ رضي اللّه عنها ـ قد تشبعت روح الإيمان والإسلام يوم كان الداعية الأول **مصعب بن عمير** ـ رضي اللّه عنه ـ ينشر الإسلام في **يثرب**، من غير كلل ولا ملل، بالكلمة الواعية الهادئة، والحجة الدامغة، والمنطق العذب، بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولقد استطاع **مصعب** ـ بتوفيق من اللّه تعالى وتدبير ـ أن يجعل من **يثرب** ـ أوسها وخزرجها ـ أنصاراً للإسلام ورسوله.

سأله النبي ﷺ : كيف تركت المدينة؟

قال: تركتها وليس فيها بيت إلا وفيه ذكر اسم **محمد** ـ ﷺ ـ سواء آمن أهل هذا البيت ودخلوا في دين اللّه، أو شغلهم الحديث عن الدين الحنيف الجديد، فكان محور لقاءاتهم ومادة اجتماعاتهم وتحاورهم.

---

(1) هو زوجها الثاني بعد «زيد بن عاصم» والد أبنائها: «حبيب» و«عبد اللّه».

تشبعت **أم عمارة** نفساً وحساً ووجداناً. . ، ثم انطلقت مع وفد **يثرب** إلى **مكة** وبايعت عند **العقبة**.

وكان اللقاء برسول اللَّه ﷺ غاية المنى، وذروة الحب، فختم اللَّه على قلبها وعقلها بخاتم السعادة، والتفاني في الاستجابة.

تلك هي المكونات الأولى، والمؤثرات. . .

ولا عجب بعد ذلك إذا ما رأينا **أم عمارة** في مواقفها وأدوارها و**حوليتها** حول رسول اللَّه ﷺ ترتفع وتسمو. . ، وتصبح من ثم كوكباً متألقاً، لم يخب نوره ولم يذهب ضياؤه، ولا يزال يدور في فلكه.

هناك سمات بارزة في حضور شخصيتها. . !

ولكن أبرزها على الإطلاق جهادها. . . ، وبالسيف!!

يقول **ابن حجر** في **الإصابة** (ج4) (ص 457).

. . . وشهدت **العقبة** وبايعت ليلتئذٍ، ثم شهدت **أحداً** و**الحديبية** و**خيبر** و**القضية**[1] و**الفتح** و**حنيناً** و. . . **اليمامة**.

إذاً. ، فقد شهدت و**حضرت أم عمارة** أعظم الغزوات وأهمها، وأكثرها وكان حضورها ـ رضي اللَّه عنها ـ مميزاً دون باقي النسوة ممن شهدن هذه **الغزوات**، له دوافعه وأسلوبه ووقائعه ونتائجه.

ولنبدأ بـ **أحداً**، وكانت في شهر **شوال** من العام الثالث للهجرة.

وسميت بـ **أحد**، لأن المعركة جرت بين المسلمين والمشركين عند جبل **أحد** في الطرف الشمالي الشرقي من **المدينة**، وهو أكبر جبال المدينة في الحرَّة الشرقية.

تقول **أم سعيد** بنت **سعد بن الربيع**: دخلت عليها ـ أي على **أم عمارة** ـ فقلت: حدثيني خبرك يوم **أحد**. فقالت: خرجت أول النهار ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول اللَّه ﷺ وهو في أصحابه، والريح والدولة للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول اللَّه ﷺ فجعلت أباشر القتال وأذب عن

---

(1) عمرة القضاء.

رسول اللَّه ﷺ بالسيف وأرمي بالقوس حتى خلصت إلى الجراحة.

تقول **أم سعيد**: فرأيت على عاتقها جرحاً له غور أجوف.

لقد اشتهر وعمَّ بين الناس ـ قديماً وحديثاً ـ موقف **أم عمارة** يوم **أحدٍ**، ما كان منها، وما حدث لها فكانوا يتناقلونه على ألسنتهم بإعجابٍ وإشفاق، مقرونين بالحب.

لقد خرجت ـ رضي اللَّه عنها ـ لغير قتال ونزال، خرجت تحمل سقاءً فيه ماء، لإرواء العطشى. . ، ولعلها كانت تقصد أيضاً إسعاف الجرحى ومداواة المصابين، ولم تكن تحمل سيفاً ولا قوساً ولا نبلاً.

فلما وقعت الواقعة، وخالف الرماة أوامر رسول اللَّه ﷺ، وتركوا مواقعهم طمعاً بالغنيمة والسلب، وتبدل الموقف لمصلحة **قريش**. . . ، وسقط العدد العديد من جلة الصحابة صرعى شهداء. . ، ولجَّ رسول اللَّه ﷺ في جبل **أحد** صعوداً، وليس حوله إلا نفر قليل من الصحابة ـ رضي اللَّه عنهم ـ يذبون عنه ويدافعون، ويفتدونه بأجسادهم وأرواحهم. .

وقد كسرت رباعيته ﷺ، شُجَّ وجهه الشريف، وسالت دماؤه الزكية. .

عندئذٍ ألقت **أم عمارة** السقاء وثارت حمية إيمانها تغلي كالمرجل في كيْنُونتها الأنثوية، واختطفت سيفاً من يد أحد الهاربين الفارين، وقوساً ونبلاً ووقفت تدافع عن رسول اللَّه ﷺ ورآها رسول اللَّه ﷺ حوله في موقفها العظيم ودفاعها المجيد، وقتالها دونه. . ، كما رأى عدو اللَّه **ابن قمئة** يقترب منها. . ، فنادى ﷺ على ابنها: أن أدرك أمك. . !

وسمعته **أم عمارة**، ليس بأذنيها فقط، بل بكل جوارحها وأحاسيسها وخلايا الحب الإيماني في كيانها، فقالت: يا رسول اللَّه. . أُدْعُ اللَّه أن نكون رفقاءك في الجنة. . !

إنه غاية ما تتمناه في الدنيا والآخرة.

إنها لا تريد سلامة في بدن وروح، ولا غنى ولا جاهاً، ولا شيئاً من أسباب الحياة، فقط تريد أن تكون من أهل الجنة، وبرفقة رسول اللَّه ﷺ!؟

وهكذا تكون حقيقة الإيمان، ونصاعة اليقين، ونقاء الإسلام، نقولها

لأنفسنا ولأهلينا ولكل العاملين في حقل الدعوة والصحوة، تذكرةً وعبرة.

ودعا لها رسول اللَّه ﷺ فقال: اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة.

وردت **أم عمارة**: ما أُبالي بعد ذلك بما يكون.

وأصابت دعوته ﷺ أهل بيت **أم عمارة** جميعاً، فمات ولدها **حبيب** و**عبد اللَّه** شهيدين في سبيل اللَّه.

ولقد تمكن عدو اللَّه **ابن قمئة** من **أم عمارة** فضربها على عاتقها بالسيف، وأصابها بجرح عميق، ظل يتفاعل على مدى سنوات عمرها حتى لقيت وجه اللَّه تعالى.

لقد حملت من **أحد** وساماً كان مصدر اعتزاز لها، رغم آلامه المبرحة الشديدة، ما يكاد يهدأ قليلاً مع العلاج، حتى ينتكئ من جديد. وحملت أيضاً دعوة من فم رسول اللَّه ﷺ، ومن قلبه الشريف، كانت زادها فيما بقي لها من سنين العمر، ونوراً وضاءً تستهدى به في ظلمات الليالي وحوالك الأيام، تسفح به سواد الوقائع والأحداث، فتعود نبرة مشعة.

ويحكى لنا سيدنا **عمر بن الخطاب** ـ رضي اللَّه عنه ـ عن رسول اللَّه ﷺ قوله الشريف: «ما التفت يوم أحد يميناً ولا شمالاً إلا وأراها تقاتل دوني».

فإلى جانب الوسام الذي حملته **أم عمارة** من يوم **أحد**، وإلى جانب دعائه ﷺ لها أن تكون رفيقته في الجنة، تفوز بشهادة كريمة رفيعة تسمو بها إلى منزلة الأبطال المجاهدين، وهذا قبل أن يفرض الحجاب، ويقال للنساء ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: 33] و[جهادكن الحج].

وتمضي بها سفينة الحياة في موج كالجبال..!

فقد عايشت ـ رضي اللَّه عنه ـ أحداثاً جساماً، في خاصة أهلها، لو نزلت بالجبال الشم الرواسي لجعلتها قاعاً صفصفاً، أو كالعِهنِ المنفوش ولكنها ـ رضي اللَّه عنها ـ كانت في قرارة نفسها، وببركة صحبتها لرسول اللَّه ﷺ ودعائه لها، أصلب عوداً وأشد احتمالاً.

لقد وقع اختيار النبي ﷺ على ابنها **حبيب** ليكون أحد رسوليه إلى **مسيلمة** كذاب بني حنيفة ـ الذي أدعى النبوة، وكان **حبيب** أصغر ولدي **أم**

عمارة من زوجها الأول **زيد بن عاصم**، كان وسيماً، وديعاً، قوي الإيمان، ثابت الجنان، وحبيباً بالفعل إلى قلب **أم عمارة**. فلما بلغ الرسالة وأدّى الأمانة، سأله **مسيلمة**:

ـ أتشهد أن محمداً رسول اللّه..؟ قال: نعم.

فقال:

ـ أتشهد أني رسول اللّه..؟ قال: إني أصم...

فاغتاظ **مسيلمة** أشدّ الغيظ، وثار وهاج، وأمر بتعذيب **حبيب**.. حتى يشهد له، فقطعت أطرافه وأوصِاله، وهو موثق..، لا ينطق إلا بالشهادة للّه بالوحدانية، ولـ **محمد** ﷺ بالرسالة، حتى لفظ أنفاسه وصعدت روحه إلى بارئها ونقل الخبر الفاجعة إلى **أم عمارة**، فجاءها رسول اللّه ﷺ ومعه **أبو بكر وعمر** يواسونها في مصابها الأليم، ويعزونها في **حبيب** الحبيب..، وكانت قد انتكأ عليها جرحها في عاتقها، واشتدت عليها الآلام، وتكأكأت عليها مصائب الأيام.

وتحملت...

ونذرت أن تشهد قتل **مسيلمة** وتشارك فيه، وأن لا يمس جسدها ماء من غسل حتى تبر بهذا النذر، وفاء للّه ورسوله وثأراً لـ **حبيب**.

ولقد كان **الصديق والفاروق** ـ رضي اللّه عنهما ـ يزورانها في بيتها بعد لحوق رسول اللّه ﷺ بالرفيق الأعلى، يطمئنان عليها، ويواسيانها ويكرمانها.

إلى أن كانت حروب الردة، ومعركة، **اليمامة**، ولم يجد الخليفة الصديق ـ رضي اللّه عنه ـ بداً من موافقة **أم عمارة** على الوفاء بنذرها والإذن لها بالخروج مع الجيش للقتال.

وكانت ـ رضي اللّه عنها ـ قد أسنت، ووهن منها الجسم، واشتعل الرأس شيباً، لكن فؤادها ظل في عنفوان فتوته وصباه، يحمل الإيمان، كلمة طيبة كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها..، فمن أين يأتيها العجز.. والجفاف؟؟ والقعود؟؟

ومن تصاريف القدر، العجيبة الغريبة، أن يكون **وحشي بن حرب** ـ قاتل **حمزة** ـ رضي اللّه عنه ـ، هو الذي يقتل **مسيلمة**..، وبنفس الحربة.!!!

عند الالتحام واشتداد القتال كانت **أم عمارة** مع ولدها **عبد اللّه** الذي لم يفارقها وبقي إلى جانبها، يخوضان الصفوف، ويشقانها. .، بحثاً عن **مسيلمة** لبلوغه وإدراك الثأر منه. .

لقد أصيبت يومئذٍ بأكثر من اثنتي عشرة جراحةً في مختلف أنحاء جسمها، وسالت منها الدماء غزيرة، وقطعت يدها من عند عاتقها المصاب لكنها كانت تمضي إلى غايتها غير مبالية، في حالة من فقدان الشعور بالألم. . .

وأشير إليها على **مسيلمة** وهو ممدد طريحاً. . .، وقد اخترقت حربة **وحشي** جسده، وتقدمت منه تطعن وتضرب حتى خمدت أنفاسه!

عندئذٍ اطمأن قلبها بعض الشيء، واستراحت نفسها قليلاً.

ولما عادت إلى المدينة، كانت على موعد. .

فلم يمض سوى زمن يسير حتى أسلمت الروح آمنة مطمئنة، باسمة الثغر، راضية النفس، فغداً تلقى الأحبة **محمداً** وصحبه. . ! وتسعد بالرفقة.

عزيزي القارئ. . .

هذا جانب من جوانب شخصية **أم عمارة** ـ رضي اللّه عنها ـ، وهناك جانب آخر لا يقل أهمية، إذ كانت محدثة راوية، حافظة واعية، نقلت إلينا بعض حديث رسول اللّه ﷺ، فالجانب العلمي عندها له مقامه وله منزلته ومكانته.

وإنك لترى فيما نقلت وروت أحاديث تحمل الفقه والحكم الشرعي.

وعلى سبيل المثال ما رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه عنها:

«أن النبي ﷺ دخل عليها، فقدمت له طعاماً، فقال: كلي. .، قالت: إني صائمة فقال: إن الصائم إذا أكل عنده صلت عليه الملائكة»[1].

وما رواه أبو داود في سننه:

«عن أم عمارة: أن النبي ﷺ توضأ، فأتى بإناءٍ فيه قدر ثلثي المُدّ. .»

---

(1) طبقات ابن سعد (8/ 415).

ـ الحديث؛ وما أخره **ابن منده** عن **أم عمارة** قالت:

«أنا أنظر إلى رسول اللَّه ﷺ وهو ينحرُ بدنه قياماً بالحربة».

وروى **الواقدي**:

قالت **أم عمارة**: كانت الرجال تصفق على يدي رسول اللَّه ﷺ ليلة العقبة، و**العباس** آخذ بيد رسول اللَّه ﷺ، فلما بقيت أنا و**أم منيع** نادى زوجي **عربة بن عمرو**(1): يا رسول اللَّه هاتان امرأتان حضرتا معنا يُبايعنك، فقال: قد بايعتهما على ما بايعتكم عليه..، إني لا أصافح النساء.

رضي اللَّه عن **أم عمارة** وأرضاها، وبوأها في الجنة مثواها، وجعلها لأمهاتنا وأخواننا وزوجاتنا وبناتنا مثلاً يحتذى وأسوة تقتدى.

* * *

---

(1) هو زوجها الثاني بعد «زيد بن عاصم».

رُفَيْدَة الأسلميّة

رضي اللَّه عنها[1]

من الناس من لا تبلغ شهرته مدىً واسعاً ولا ينتشر صيته إلا إذا استوفينا حياته كلها فعشناها وعايشناها، ولممنا جزئياتها بعضها إلى بعض؛ ومن الناس من تكون شهرته وذيوع صيته ودوي اسمه من خلال واقعة واحدة، أو حدث واحد، أو جزئية. . ، تكون بحد ذاتها على ضآلة المساحة الزمنية أو في بالذكر من عقود من السنين، أو أحداث متفرقة.

و**رفيدة** ـ الأنصارية، أو الأسلمية ـ رضي اللَّه عنها ـ من النوع والصنف الثاني.

تطل علينا وتهل من خلال خيمتها. . ، **خيمة رفيدة**، وتصبح علماً يلازم اسمها، على مدى حياتها، وعلى مدى ذكر التاريخ لها.

وكان أول ذكر لها يوم **غزوة الخندق** حين أصيب أكحل[2] **سعدِ بن معاذ** ـ رضي اللَّه عنه ـ بسهم، فجرحه جرحاً بالغاً، فقال رسول اللَّه ﷺ:

«اجعلوه في خيمة **رفيدة** التي في المسجد حتى أعوده من قريب».

إذاً. . ، **رفيدة** كانت معروفة، وكذلك خيمتها. . ، وأيضاً مكان الخيمة ومهامها. كانت معروفة، للقاصي والداني من الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم. ، بأنها تشرف على المرضى والجرحى وتداويهم، وتسعفهم وتقوم على خدمتهم.

وهذا ولا شك يتطلب خبرة في الطب ومعرفة، وعلماً بالعقاقير والأدوية وتصنيعها، والجروح وتضميدها والكسور وتجبيرها. . ، ولقد كانت **رفيدة** ـ رضي اللَّه عنها ـ على هذا المستوى، في حدوده الزمنية، ولا نبالغ

---

(1) ترجم لها ابن حجر في «الإصابة» (8/ 81) ترجمة (422).

(2) الأكحل: كوع اليد. بين الذراع والعضُد.

في ذلك، أو نعطيه مساحة علمية أوسع مما تسمح به بدائية العصر.

أما النفقات والمصروفات فقد كانت من مالها الخاص وجهدها الذاتي، لا تأخذ على ذلك أجراً أو عوضاً، بل كانت تنفق وتبتغي الأجر من اللّه تعالى.

ولك ـ عزيزي القارئ ـ أن تتصور معي مبلغ العلم، وعظيم الجهد، وكثرة الإنفاق، إذا أدركت ما خاضه المسلمون بقيادة النبي ﷺ من غزوات ومعارك وكيف كانت **خيمة رفيدة** تنتقل من ميدان إلى ميدان.!

ولقد تيسر لي أن أكتب عن **رفيدة** ـ رضي اللّه عنها ـ أكثر من مرة وقد شرفني ذلك، وكنت في كل مرة أتخيل الحقيقة المادية بكل أبعادها ومعطياتها، فيعظم الأثر في نفسي، ويضيق عنه عقلي وفؤادي، ويقصّر عنه قلمي.

والحق يقال أنني على اتساع المعرفة ـ بكل تواضع ـ لم أجد في تاريخ الأمم والشعوب مثيلاً لـ **رفيدة** أو صنواً لها، اللهم إلا إذا كان الأمر يتعلق بجهد جماعة أو هيئة، أو سلطة..! أو دولة..!

ونحن حين نقرأ التاريخ **السيرة النبوية الشريفة** نجد أن عدداً من النساء الصحابيات ـ رضوان اللّه عليهن ـ كن يخرجن لمداواة عملهن في **خيمة رفيدة** المعدة لذلك.

والإعداد يعني وجود ما يرقد عليه المصاب من فراش أو غيره، ووجود الإسعافات من أدوات تشريح، وعقاقير، وضماضات وأطعمة خاصة ووجود ممرضات هن الصحابيات يقمن على الخدمة، والعمل والرعاية.

كل ذلك تحت إشراف **رفيدة** وتوجيهها، ومباشرتها ـ أيضاً ـ.

ولقد شبهت خيمتها بـ **المستشفى الميداني** في العرف العسكري المعاصر. إنها بذرة حضارية من بذور الإسلام الأولى.

* * *

أُمّ ورقة الشهيدة
رضي اللَّه عنها[1]

بسم اللَّه الرحمٰن الرحيم

قال اللَّه تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35].

الاستقبالُ العظيم

وخرجت المدينة المنوَّرة على بِكْرةِ أبيها..

وأما المهاجرون فكانوا في لهفةٍ وقلق، وشَوْق ما بعده شَوْق...، أما اليوم فقد زال عنهم ما كانوا منه يخافون.

كانوا في الأيام السابقة يخرجون إلى ضواحي المدينة ينتظرون...، وتطول بهم الساعات، ثم يَعُودون مع غروب الشمس **إلى** المدينة كاسفين.

لقد وافاهم خبر خروج النبي ﷺ من **مكة** في رِحْلة الإِسلام الكبرى، مهاجراً إلى اللَّه...، ولقد تأَخَّر وصوله إلى المدينة!!!، فظنَّ بعضُهُم سوءاً؛ لكن عناية اللَّه تعالى أكبر وأعظم، فحفَّه بحمايته ورعايته، وكفَّ أَيْدي الكُفّار عنه، وبلَّغَهُ غايتَهُ ومُناه.

وها هي طلعتُهُ الشريفة تُشرق عل **يثرب** فتَغْمرها بالنُّور والْفَرْحَة.

وأما الأنصارُ الذين بايعوه على الحق، فكانوا في عِزَّةٍ ظاهرة وسعادةٍ وافرة، يرفعون الهامات تيهاً وفخراً إِذْ أَضْحُوا مَوْئل الدعوة الجديدة والدين

---

(1) قال ابن حجر في «الإصابة» (8/ 289) ترجمة (1535): هي أم ورقة بنت عبد اللَّه بن الحارث بن عويمر بن نوفل الأنصارية.

الحنيف دون أهل الجزيرة العربية، وهذا عِزُّ الدنيا والآخرة جميعاً.

وأما نساؤهم فكانوا في طليعة المهرجان العظيم، يحملْن الدفوف في أيديهِنَّ، وتنطلق ألسنتُهُنَّ بالأهازيج والأغاريد والزغاريد...، وتدور رؤوسهنَّ بنشوة الفرحة الكبرى.

وأما اليهود فكانوا أَشْبَهَ باللُّصوص...، عيون زائغة... وقلوب واجفة... وخطوات مضطربة وأعناق مُشْرئبَّة تتطفَّل...

كانت دور أهل المدينة يومئذٍ خِلْواً من أَهْلها...، الكُلُّ في الطرقات، والجميع في الشوارع والممرات...، وأصوات الناس بالترحيب تشقّ عنان السماء، ورسُولُ اللّه ﷺ يَمضي بيْن الجميع فوق ناقته **القصْواء** يشق الصفوف والكُتَل البشريّة في صعوبةٍ بالغة.

أُمُّ ورقــة

وها هي **أم ورقة** ـ رضي اللّه عنها ـ تقف مع أخواتٍ لها تلوِّح بيديْها مُرَحّبةً بالنبيِّ الكريم، قد ٱنْحَبَس صوتها بسبب عبراتٍ خنقتْها ثم سالت على وجنتيْها.

وحين اقترب النبيُّ ﷺ فوق ناقته من المكان الذي تقف فيه **أم ورقة** لم تستطع أن تحدِّق في الوجه الشريف، رُغم محالاوتها، فَأَغْضَتْ حياءً وانكساراً، وأَحَسَّتْ كأنّما عشيتْ بسبب النُّور الباهر والضِّياء الظاهر...، ثم سرى في كيانها إحساسٌ لا تدري كُنْهَهُ وسِرَّه، غير أَنّها شعرت كأنّما خلقت من جديد، وبُعِثَ فيها إنسانٌ آخر.

الـحـافـظـة

أسلمت **أم ورقة** وبايعتْ، ثم انصرفتْ إلى كتاب اللّه تعالى، تنْهل من معينِهِ الذي لا يَنْضب، تحفظُ آياتِهِ، وتتفقَّه في معانيها وأغراضها، وتُتْقِنُ ذلك غاية الإِتقان.

وتقوم اللَّيْل عابدةً مُتَبَتِّلة، تُصلِّي وتقرأ، وتخشع وتبكي، وتَصِلُ نفسها وذاتها باللّه سبحانه وتعالى.

الـجـامـعـة

ولم تكْتف من ٱهتمامها بكتاب اللّه بهذا القدْر، بل عكفَتْ على جَمْع آياتِهِ

مكتوبةً على العظْم والجلْد والرقائق في دارها مُرتّبة كما كان يأمر رسُول اللّه ﷺ.

لهذا ـ عزيزي القارئ ـ كان بيتُها، وكانت هي **رضي اللّه عنها** مرجعاً من المراجع التي عاد إِليْها الخليفة الصدّيق ـ رضي اللّه عنه ـ، عندما جمع القرآن الكريم من البيوت، ومن صُدور الحفَظَة.

ولقد كانت ـ رضي اللّه عنها ـ من نساء الأنصار اللواتي كان يقصدهُنَّ رسُول اللّه ﷺ ويزورهُنَّ في بيوتهنّ، ويقيل عندهُنَّ.

وسبب ذلك أنَّه ﷺ أَدْرك منذ أيامه الأولى في المدينة مكانة ومقدرة **أُمُّ ورقة** وكفاءتها. . .، وتقواها وورعها وعبادتها. .، واهتمامها بالآي الكريم. . .، فكان يأتيها زائراً بيْن الحين والحين مع بعض أصحابِهِ وإخوانِهِ إكراماً لها وإعزازاً لمكانتها.

وَزِدْناهُم هُدى

ولم تكن هذه الزيارات لتبْعث في نَفْس **أم ورقة** الكبرياء أو التّعالي، بل كانَتْ تزداد تواضعاً وقُرْباً من اللّه ورسُوله، وحَدْباً على المسلمين من الفقراء والضُّعفاء والمساكين، ومعايشتهم ومعاشرتهم. . .

كانت غنيّةً ثريّة، عظيمة الثروة والمال، تمْلك بعض الأراضي الزراعية، لكنها لم يكن ليشْغلها ذلك عن ذِكْر اللّه وعن الصلاة، أَوْ يستهويها فتقع فريسةً له. . .، بل سَخَّرتْه كُلّه للخيْر. . .

وكان يخدمها في بَيْتها جارية مملوكة. . . وغُلامٌ مملوك، ورثتْهُما عن أهلها، فلمّا أَسْلَمَتْ وفَقِهَتْ، ساعَدَتْهُما على استعادةِ حُرِّيَّتهما، وأَعْتَقَتْهما بالتَّدْبير، العبْد المدبِّر هو الذي يُعْتَقُ بعد وفاة صاحِبِه، ويكون وفاء المال من ثُلُث التَّركة؛ وظَلّ ولاؤهما لها، فلازماها يخدُمانِها ويقومانِ على شؤونها.

المُبَشَّرةُ بالشهادَةِ

سمعت **أُمُّ ورقة** ذات يَوْم أَنَّ رسُول اللّه ﷺ قد نَدَب المسلمين من المهاجرين والأنصار للخروج من المدينة وٱعتراض قافلةِ لقريش آيبةٍ من الشام، يحرسُها **أبو سفيان** في بضعة عشر نفراً. . .، ثم الاستحْواذ على ما في القافلة من

عروضٍ وأَمْوالٍ لقريْش، جزاءً بما أَسْلَفَتْ من نَهْب أموال المسلمين في مكّة.

سمعت بذلك من زائرةٍ كانَتْ عندها في بيتها، فاستأْذَنَتْ وقامت على جناح السرعة إلى المسجد، حيث رسُولُ اللَّه ﷺ، فاسْتَأْذَنَتْه وقالت له:

ـ يا رسُول اللَّه... إئْذن لي أَنْ أَخْرُج معكم، أُداوي جَرْحاكُم، وأُمرِّض مرضاكُم لعلَّ اللَّه يهدي إليَّ الشهادة!!!

وهنا ـ عزيزي القارئ ـ أُحِبُّ أَنْ أَقِفَ معك وقفةً قصيرة، وأستميحك عُذْراً في التعليق.

إن دوام العيش واستمرار الحياة مطلبٌ عزيز وغالٍ، والإِنسان بِطَبْعه وتكوينه حريصٌ على ذلك، يبتعد عن كُلّ ما يؤذيه في صحته وجسمه...

والموْت شَبَحٌ مخيف، يتجنّبه وينأى بذاتِهِ عن كُلّ ما يؤدي إليه...، أَمّا إذا كان في سبيل اللَّه وخصوصاً عند المؤمنين به سبحانه، فيكون عندئذٍ غايةً ساميةً شريفة، وهدفاً نبيلاً.

اللَّهُ أكبر...!!

إِنَّهُ ـ ولا شك ـ تبدُّلٌ هائل ضخم في المقاييس والموازين، وكُلِّ الْقِيَم.

ذلك أَنَّ الشهادة مَعْبَرٌ من جحيم الدُّنيا إلى نعيم الآخرة، وانتقالةٌ من وهم الحياة إلى حقيقة الأبديّة والخلود، وهديَّة غالية.

فلا عجب إذا ما قالت **أُمُّ ورقة** ـ رضي اللَّه عنها ـ:

ـ لعل اللَّه **يهدي** إليَّ الشهادة...

فماذا كان جواب الرسُول الكريم، **صلواتُ** اللَّه وسلامه عليه؟

لقد قال:

«إِنَّ اللَّه يهدي إِليك الشهادة...، وقَرّي في بيْتك..، فإنّك شهيدة».

فسكتت وأطاعت، وقَرَّتْ في بَيْتها[1].

---

(1) الحديث بتمامه ذكره ابن الأثير في «أسد الغابة» ترجمة (7627) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 1965).

الإمـــامـــة

قَرَّتْ **أُمُّ ورقة** في بيْتها، ولَزِمَتْ دارها، ولكن أيّ استكانةٍ وأيّ استقْرار؟

لقد جعلت من رُكْنٍ في دارها مَسْجداً ومُصلّى، وجعلت لها مؤذِّناً يرفع الصَّوْت بالنداء الحبيب كُلّما حان وَقْت الصلاة، وكانَتْ تقف في أَهْل بَيْتها للصلاة تؤمُّهم ثُمَّ تَعِظُهُم وتُوَجِّههم، وتتدارس معهم القرآن الكريم.

وأَصْبَح بَيْتُها مدرسة ومُجتمعاً للراغبات من النساء في التَّفَقُّه والتعبُّد والصلاة، والذّكْر والدُّعاء والحديث، وأَصْبَحَت هي ـ رضي اللّه عنها ـ أستاذةً وإمامةً يُشارُ إليْها بالبنان.

وكان من شأْن النبيِّ ﷺ أَنْ يأْتيها زائراً بَيْن الحين والآخر مُسْتَطْلِعاً أحوالها وشؤونها، مُتَفَقِّداً مَسْجدها ومُصلاّها، مُزَوِّداً إيّاها بكُل جديد ومفيد، مُرشداً وواعظاً وناصحاً لها.

ولم يكُن ليأْتيها وَحْده، بل مع جُمْلةٍ من أصحابه وإخوانِهِ، وكان يقول لهم:

ـ انْطلِقوا بنا نَزُور الشَّهيدة.

ويبدو أَنَّ اللَّقب الكريم الذي أَضْفاهُ ﷺ على **أُمّ ورقة** قد غَلَبَ على اسمها، فاشتهرت به، وأَضْحى علماً عليها، تُعْرف وتُنادى بِهِ.

الـشَّـهـادة

أَمْضَتْ **أُمُّ ورقة** حياتها في زمن النبيِّ ﷺ وفي عَهْد الخليفة الأول **الصدِّيق** ـ رضي اللّه عنه ـ على الصورة والكيْفيَّة التي قَدَّمْنا.

وفي عَهْد الخليفة الثاني **الفاروق** ـ رضي اللّه عنه ـ دَنَتْ ساعةُ رحيلها عن الدُّنْيا إلى الآخرة التي كانَتْ تتمناها وتطلبُها وتَسْعى إليها.

وأَيْضاً على نَفْس الصورة التي كانَتْ تَتوخّاها وتَدْأَبُ في سبيلها: شهيدةً. . .، مظلومة. . .، مغدورة.

فقد كان فَتَياها اللذان غَذَّتْهما بإحسانها وفَضْلِها وأَغْدَقَتْ عليهما من عطفها وحنانها، وعظيم رعايتها، غير جديريْن بما أَسلفَتْ وقدَّمتْ، وتنطبق عليهما الحكمةُ المأثورة: «اتّق شَرَّ مَنْ أَحْسَنْتَ إليْه».

إذْ عَزَّ عليهما أَنْ يريا مُدَّة ولائهما لها تطول، وغرَّهما بمالها وغناها الغَرور، واْستَيْقَظَ في نَفْسيْهما غدْرُ الشيطان وفجوره، فدبّرا ذات يَوْم جريمة قَتْلها . . .

فماتَتْ شهيدة الظُّلْم والْغَدْر، كما تنبأ لها رسولُ اللَّه ﷺ وفرّا هاربيْن.

ولكن إلى أيْن؟

فَإنَّ يَدَ العدالة قد أَمْسَكَتْ بهما وأُعيدا إلى المدينة حَيْثُ لقيا جزاءَ ما جَنَتْ أَيْديهما، فقُتلا وصُلِبا ليكونا عِبْرةً لِمَنْ يَعْتَبِر.

وَعَمَّ المدينة حُزْنٌ شديد، فلم تَبْق عَيْن أَلا ودَمِعَتْ حُزْناً وأَسَى على **أمّ ورقة**، ولم يَبْق قَلْبٌ إلا وقد اْنْفطرَ أَلَماً على المؤمنة الصادقة.

ورثاها سيّدُنا **عُمَر** ـ رضي اللَّه عنها ـ، وكان مما يقول: صَدَقَ رَسولُ اللَّه ﷺ حين كان يقول: «انطلقوا بنا نزورُ الشهيدة»[1].

كَلِمَةٌ أخيرة

لا يجب أن يفوتنا ونحن نؤرخُ ونُتَرجم لِـ **أُمّ ورقة** ـ الشهيدة ـ رضي اللَّه عنها، ذاكرين فَضْلها وعلمها وزهدها ومكانتها، ومقام الإمامة الذي تَبَوَّأَتْهُ عن جدارةٍ واستحقاق، في حياة النبيِّ ﷺ، وفي حياة خلفائه من بعده.

لا يجب أن يفوتنا ما كان لها من أثرِ كريم وفَضْلٍ عظيم يوم شَرَح اللَّه صَدْر الخليفة الصِّدِّيق ـ رضي اللَّه عنه ـ لِجَمْعِ القرآن الكريم.

فلقد كانت آيات القرآن الكريم وسُوَرُهُ مخطوطة في الألواح أو محفوظة في الصُّدور، ومنثورة هنا وهناك، في بيوت كُتّاب الوحْي، وبعض الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ، ومنهم **أُمّ ورقة**.

وجاء **عُمر ـ الفاروق** إلى **أبي بكْر الصِّدِّيق** ـ رضي اللَّه عنهما ـ بعد معركة اليمامة أَيَّام حروب الرِّدَّة، يَطْلب إِليه أَنْ يقوم بِجمْع القرآن، خاصَّةً وأن كثيراً من الصحابة الْحَفَظَةِ قد استشهدوا؛ فهو يخشى الضَّياع.

---

(1) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» حديث رقم (1676) والهندي في «كنز العمال» حديث رقم (37595) وذكره ابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 504) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 519).

فنَفَر **أبو بَكْر** من ذلك الرأْي وقال لـ **عمر**:

ـ كيْف أَفْعل ما لم يَفْعله رسُولُ اللَّه ﷺ؟؟

وما زال **عُمَر** يحاول حتى أَقْنع **أبا بكْر**، مُسْتعيناً ببعض الصحابة الذين كانوا موضع ثقة النبيّ ﷺ في كتابة الوحي وحفظ الآيات الكريمة.

وهنا ـ عزيزي القارئ ـ بَدَأَتْ عمليَّة شاقّة دقيقة...

يؤتى ـ مثلاً ـ بما عند أَحَدِ الكتبة من ألواحٍ وأوراق، ثُمَّ تُقارَنُ بما عند الآخرين، ولا يُكتفى بذلك؛ بل لا بُدَّ من المقارنة أَيْضاً بما في صدور الْحَفَظَةِ من آيات الكتاب المجيد، وأَيْضاً لا بُدَّ من التسلسل الترتيبي الذي أَمَرَ بِه النبيُّ ﷺ للآيات والسُّوَر حَسْب ما راجعه الرسُول الكريم على **جِبْريل** ـ عليه السلام ـ.

ولقد كان ما في بَيْت **أُمِّ ورقة** وفي صَدْرِها من حِفْظٍ ـ رضي اللَّه عنها ـ مَوْضع اهتمام **الصِّدِّيق** والعاملين في حَقْل جَمْع القرآن الكريم.

من هنا يتبيَّن لك ـ أخي القارئ ـ مدى ما كانَتْ تتمتّع به هذه الصحابيّة الجليلة من مكانةٍ علمية وثائقية، وما كانت تحظى به من ثقةٍ واحترام الكبار من صحابة رسُول اللَّه ﷺ

أَضِفْ إلى ذلك عُلُوَّ كعبها في فِقه دين اللَّه وفهمه والتجاوُب معه، وميْلها الشديد إلى العبادة والتديُّن والتقوى.

وعلى الرُّغم من غناها وَسِعَةِ ثروتها ومالها؛ إلا أَنّها لم تَتَأَثّر بِحُبِّ الترف واستشراف الرخاه وطلب الجاه.

لقد مَضَتْ على دَرْب الزُّهد في الحياة الدنيا، وتطلَّعتْ إلى ما عِنْد اللَّه في الآخرة، من نعيم مقيم وفَضْل عميم، ومن ثَمَّ جعلت كُلّ همِّها ما هُو أَبْقى وأَخْلَد.

رضي اللَّه عن **أُمّ ورقة**، المجاهدة الصابرة، والإِمامة الصادقة، والشهيدة المغدورة، ورَحِمَها وأَجْزَل مثوبتها.

أمّ كلثوم بنت عقبة

رضي اللّه عنها[1]

قال اللّه تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الممتحنة: 10].

وقال سُبْحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الممتحنة: 12].

توطئة

إِذا ما ذُكر **أَبو جَهْل** ـ عمرو بن هشام ـ، وذُكِرَ **أبو سفيان** ـ صَخْر بن حرْب بن أُميّة ـ، وَذُكر **أُميّة بن خلف**... **وأَبو لَهَبٍ** ـ عبد العُزّى بن عبد المطّلب ـ...

إذا ما ذُكر هؤلاء الرّهْط من قُرَيْش، تبادرت إلى الذّهن فَوْراً صورة رؤوس الشِّرْك وأَعْلاَمُ الظُّلْم؛ وعُنوان الجاهلية...

وإِذا ما ذُكر هؤلاء... ذُكر معهم **عُقْبَةُ بن أبي مُعيْط** ـ أبو الوليد ـ؛ فقد كان واحداً مِنْهُم، له نَفَسُ طباعهم... وحِقْدهم ونفورهم وجُمُوحهم؛ واستبدادهم وتسلُّطهم.

---

(1) ترجم له ابن حجر في «الإصابة» (8/ 274) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 488) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 508).

له من النُّفوذ، وسعة المال، وقُوَّة الشكيمة، وكثرة العشيرة والأتباع ما يؤهّله لأن يكون سيّداً مطاعاً من سادات **أُمُّ القرى**، وقائداً من قادة قريش.

وَلئن رُحْنا نُعَدِّدُ مآثره!!! عَفْواً أيها القارئ العزيز - بل سيئاته وأعماله، ومظاهر حقده وضغينته على الإسلام والمسلمين، لضاق بنا المجال، فقد فاق كُلّ ما ذكرنا وعدَّدْنا في هذا المضمار...

ويكفي أَنْ أذكر لك حادثة واحدة لأنها وحدها تُوحي بما كان قد جُبِل عليه **عُقبة** من عنجهيّة وكبرياء، وكُفْر وشِرْك وظُلْم وتحكُّم...

لقد رَبطَ إبّان حَمْلة تعذيب المؤمنين وفتنتهم **أبا بكر الصديق** و**طَلْحة بن عُبَيْد اللَّه** بِحَبْلٍ واحد، واْسْتَعْمَلَ مَعَهُما كُلّ أساليب الْقَهْر والعذاب ليردَّهما من بعد إيمانهما كافريْن مُشْركين...، فما وهنا وما ضَعُفا وما اْسْتكانا، وظلاّ على ولائهما للحقّ والإيمان...

ومُنْذ ذلك الحين سُمِّيا بـ **القرينين**ورافقهما هذا اللَّقب الكريم طوال حياتهما فما افترقا أبداً... لا في الرأي ولا في المواقف فكانا نِعْم القرينان... في السّراء والضّراء...

ولادتُـهـا

وفي بيْتِ **عُقْبة** الذي كان مَوْئِلاً لِلأَوْثان وأتباعها من الكُفَّار والمشركين...، والذي كان مَحْضِنَ كُلّ مؤامرةٍ على الإسلام ورسُولِهِ وفِتْنةِ المؤمنين...

في هذا البيْتِ الذي كانت تحفُّه، وتنبُتَ في أرجائه وزواياه الأشْواك، نبتَتْ وَرْدة؛ زَهْرَةٌ فَوّاحةٌ عَطِرة..، زاهية الأَلْوان...، عَبِقَةَ الأريج... طيِّبة الأردان... طاهرة مطهّرة...

في هذا البيْت وُلِدَت **أُمُّ كلثوم بنت عُقْبة**...، المسلمة المؤمنة الخالدة... **الممْتَحَنة**...

وأَنْتَ، ولا شَكَّ - أيها القارئ العزيز - تعرف سورة **الممتحنة**، إحدى

سُوَر القرآن الكريم، وكتاب اللَّه العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بيْن يديْه ولا من خَلْفِهِ تنزيل من حكيم حميد. . .

هذه السُّورة الكريمة تحكي قِصَّة **أُمّ كلثوم بنت عُقْبة** ـ رضي اللَّه عنها ـ، فكيْف اُمتُحِنَتْ؟ ولماذا؟ وما هي قِصَّةُ حياتها المجيدة؟ ما ظروفها ووقائعها وأَحْداثَها؟ وإلى ماذا انتهتْ إليْه؟

فإليك ـ عزيزي القارئ ـ في الصفحات التاليات طَرَفاً منها، وصُورَةً عنها، تُجيب عن تلك التساؤلات؛ هداني اللَّه وإيّاك.

النَّشْأة

فتحت **أم كلثوم** عينيْها على بَيْتٍ رَحْبٍ كبير، واسع الأَرْجاء، كثير الغُرَف، ظاهر الغنى والْعِزِّ والرفاهيّة، فيه الأَثَاث الفاخر والرِّياش، وتقُومُ في بعض جوانبه ونواحيه نُصُبٌ كثيرة وتماثيل. . .

كما فتحتْ عينيْها أَيْضاً على أَبٍ حديديّ النظرات، في صَوْتِهِ نَبْرةُ الزعامة وقُوَّة السيادة، ولهجة الأمر والنَّهْي.

يحيط به الأتباع، ويمتثل لأوامره العبيد، يغضُّون أَبْصارهم ويحفظونَ رؤوسهم بَيْنَ يديْه رَهْبَةً وَخَوْفاً.

فكانَتْ **أم كُلْثوم** تَرْتَع في بَحْبُوحةٍ من العيْش، وتَسْعد بهذا العزّ الوافر والغنى الظاهر؛ ولكنها. . . كانت تشعر بالرَّعْشة تسري في كيانها كلّما وَقَع نَظَرها على وَجْهِ والدها. . .، وتَغْرُق خَوْفاً كُلّما وَقَفَتْ بَيْنَ يديْه تَسْتمع لكلماته وتوجيهاته ونصائحه. . .

لقد كان الْجَزَعُ أَبْرزَ مظاهر الاحترام عِنْدها، إِن أطاعت واستمعت فإنما تَفْعل ذلك بدافع الحرْص على أَنْ لا تُؤْذى. . .، لا حُباً. . . ولا تعاطُفاً. . .!

تَعَلُّمها

تَعَلَّمت ودرسَتْ وحفظتْ. . .

وقليلاً ما كان يُعْتنى بأمثالها من الإِناث، فلولا نجابتُها وذكاؤها وحُبُّها للمعرفة لم يَتَسَنَّ لها ذلك.

تَعَلَّمت القراءة والكتابة وأَتْقَنَتْ ذلك، ودرست بعض العلوم المعروفة في تلك الأيام.

وحفظت الشِّعْر والْحِكم والْأَمْثال، وتاريخ العرب، واطلعتْ على بعض جوانب ديانات أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، فكانت واحدة من القلائل الذين يعرفون.

حالةُ المخاض

في هذه المرحلة من العمر والتحصيل، كانت **أم كلثوم** في حالةِ تمزُّقٍ فكريٍّ ونَفْسيّ، لأَنَّ تفتُّحها العقلي والذهنيّ كانا أكبر بكثير من الأوثانِ وطقوس عبادتها...، ترى أَهْل الدّار يقدّمون الذّبائح والقرابين والنُّذور، ويحرقون البُخُور تحت أقدام هذه النُّصُب فتثور في أعماق وجدانها وضميرها ثورة العقل والوعْي...

لكنها تَكْبِتُها بين حنايا ضلوعها خَوْفاً من أبيها **عُقْبة**؛ ولوْ قُدِّر لها أن تَصْرُخ في وَجْهِهِ: أَنْ كفى جاهليَّةً...، لَفَعَلَتْ، ولكن ما باليد حيلة.

الإِيمان والإِسلام

وبُعِثَ **محمد** ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ ونُبِّئ سيد الأنام...، ودعا الناس إلى الإِسلام، ونَبْذِ الأصنام وتحطيم الأوثان، وإخلاص العبودية لِلّهِ الواحد الديّان.

فَسَمِعَت بِهِ وبِدَعْوَتِهِ؛ وكانَتْ تَسْمَع من قَبْل عن صفاتِهِ وأخلاقه، وما يتحدَّث به الناس عَنْهُ، وما يمتدحُونَهُ بِهِ، فتاقَتْ نَفْسُها إلى مشافهته والتحدُّث إليه وسماعه...، وكانَتْ قد شَبَّت وكبِرَت، وبَلَغَتْ مبلغ الإِناث؛ ولكن..! كيف السبيل إلى ذلك؟

وماذا لو عَرَف أبوها **عُقْبَةُ**...، وأخواها **الوليد** و**عمارة** بالأمر؟

وَهُمْ مَنْ هُمْ في عداوتهم للدين الجديد، وتمسُّكهم بدين الآباء والأجداد وعُكُوفهم على الأنصاب والأَوْثان وكُلّ بِدَع الجاهليّة التي ما أَنْزَل اللّه بها من سُلْطان.

اللِّقاء

مَرَّت على **أُمّ كُلثوم** أيامٌ حسبتْها دَهْراً بكامِلِه، وهي تفكِّر في طرِيقةٍ تُوصلها إلى رسُول اللَّه ﷺ، دون أَنْ يعرف أَحَد . .

وأخيراً ٱهْتَدَت؛

إِذِ ٱرْتَدَتْ ثياب خادمتها، وتلثَّمت، وخرجتْ من الدار قاصِدَةً بَيْت **الْأَرْقَم بن أبي الأَرْقَم**. . .

وهناك قَدَّمَتْ نفسها وعَرَّفَتْ بشخصيَّتها!!

فتقبّلها رسُول اللَّه ﷺ بِقَبُولٍ حَسَن، وهَشَّ لها وَبَشَّ، وشَرَح لها مبادئ ما يدعُو إليه، وتلا عَلَيْها بعْضاً من آي الْقُرآن الكريم، ثم دعاها إِلى الإِسلام، فآمنت؛ وصَدَّقَتْ بكلمات ربِّها. . . وكانَتْ من القانتين[1].

الطُّمأْنينة

ولا يفوتنا في هذا المجال أَنْ تتصوَّر وتَتَخيَّل ما كانت عليه **أُمّ كلثوم** من فَرْحَةٍ وسعادةٍ وصفاء نَفْس. . .

لقد وجدت ضالَّة نَفْسها بعد طُولِ حَيْرةٍ وقلق. . .

كانت فيما سبق كأنَّها في بَحْر لُجِّيٍّ تتلاطمُ أمواجُهُ. . . تَعْلُو. . . ثُمَّ تنْخفض. . .، وتُرْغِي. . . ثُمَّ تُزْبِد. . .، لا تعرف سبيلاً للنجاة. . .، أو شاطئ أَمانٍ تَبْلُغُهُ لِتَأْوِي إِلَيْه. . . فَتَنْجو وتَسْتَقِرّ. . .، وها هي الآن قد بلغت مُسْتَقَرَّها ومُسْتَوْدعها، وحَطَّت رحالها بعد طول تجْوالٍ. . .

لقد نَفَذَ شُعاعُ النُبُوَّةِ إلى صميم قلبها، وَسَرَتْ أَضواءُ الرِّسالةِ إِلى أعماق فؤادها، فٱستنار كُلّ ذلك بعد ظُلْمة دامسةٍ وسوادٍ حالك. . .، ورأتْ ذاتها تسيرُ على المحجَّة البيضاء، دون خَوْفٍ أَوْ زَيْغٍ أو اضطراب.

---

(1) ذكره ابن حجر في «الإصابة» (8/ 274).

وَدَّعَتْهُ ﷺ وَخَرَجَتْ من دار **الأَرْقم**؛ وقد شُحِنَتْ بِطاقةٍ هائلةٍ من الإِيمان ودُفْعَةٍ عظيمةٍ من اليقين.

خرجَتْ لا كما جاءت..، لقد نَزَعت لثامها، ورفَعَتْ رأْسها، وشَمَخَتْ بأَنفها وكأنها تتحدّى الكُفْر كُلّه..، والشِّرْك وأَعْوانه... ولو كان فيهم والدها **عُقْبة** وأخواها **الوليد** و**عُمارة**...

التَّحدّي وَجْهاً لِوَجْهِ

دَخَلَتِ الدار، وأعلنت بكُل صراحةٍ ووضوح وجُرْأَةٍ إسلامها، من غَيْر تلجْلُجٍ أَوْ تَرَدُّدٍ...

فنَزَلَ الخبر على **عُقْبة** نزول الصاعقة...، وأَحَسَّ كأَنَّ الأرض تَتَزلْزَلُ من تَحْت قدميْه وتميدُ به ميْداً..، أَوْ كأَنَّ دوّاراً يعصف برأْسِهِ...، فغامتْ عيناهُ ولم يعُد يميِّزُ الأَشْياء إِذْ كَيْف تخرُجُ ابنته **أُمّ كلثوم** عن طاعته وتَنِدَّ عن قطيعهِ؟!

كيْف تتحدّاهُ... وهُو الذي تخافُهُ وتَرْهبُهُ قُرَيْش جميعها؟ ثُمَّ... كيْف يواجه أَنْدادهُ من السادة والزُّعماء بهذا الموْقف؟ وهل يَقْبل أَنْ يَكُونَ مَوضِعَ تَنَدُّرهم وسُخْرياتهم...؟

ارتفعَتْ يدُهُ إلى أَعْلى، وهُوَ لا يدري ماذا يَفْعل، يُريدُ أَن يَضْربَ بها وَجْه **أم كلثوم** ويَصْفعها صَفْعةً يُعيد إليها صوابها، على حدِّ زَعْمه...

لكن صلابة **أم كلثوم** وشجاعتها ونظراتها، وعدم اختلاجها أمامه، جَعَلَتْ يده ترتدّ وتتخاذل...

ثُمّ يتهالك على مقعد قريبٍ أمامه...، وَقُضي الأَمْر.

ماذا يَفْعل

لم يكن **عُقْبة** يمْلك من وسائل القسْر والإِكراه، بالنسبة لابنته المتحدّية، أكثر من أَنْ يضيّق عليها الخناق، ويقيّد من حُرِّية حركتها، يحبسها في الدار حتى لا تخرج ولا تجتمع بـ **محمد**، أو بأَحَدٍ من أصحابِهِ وأتباعه؛

ولكنّها ـ رضي اللَّه عنها ـ لم تكن تعْدم وسيلة الاتصال، وتَبَلُّغ ما

يسْتَجِدّ من وَحْي يوحى بِهِ إلى رسُول اللّه ﷺ، فتحفظ وَتَعي...، وتزداد عِلماً وفقهاً و... إيماناً.

سَجْنُ المؤْمِن خُلْوةٌ مَعَ اللّه

ولقي الضّعفاء من المسلمين صنوفاً من العذاب، وألواناً من الشّدَّة والقسْوة لا تُطاق، فهاجَرَ مَنْ هاجَرَ إلى الحبشة بمشورةٍ من رسُول اللّه ﷺ، وبقي منهم في **مكّة** من بقي...

ثم كانت القطيعة لـِ **بني هاشم** في شِعْبِ **أبي طالب**؛ وٱرْتَحَلَ النبيُّ ﷺ إلى **الطائف** مؤمِّلاً من أَهْلِها خَيْراً...، ثم عاد صِفْر اليديْن إلاّ من عناية الرحمٰن، ورعاية الموْلى الديّان.

وفي موْسم الحج عرض نفسه ودعْوته على القبائل، فلقي تجاوُباً من وفْد أهل **يثرب**.

وبعد مرور عاميْن كانَتْ طلائع المسلمين المهاجرين تُغادِرُ **مكة** باتجاه **المدينة**، ثم هاجَرَ المصطفى ﷺ إلى ديار الذين بايعوهُ وعاهدوه على حَرْبِ الأحمر والأسْودِ من الناس، وعلى نُصْرةِ الإسلام.

موْتُ عُقْبة على الْكُفر

وأُذن للمسلمين بالقتال...، فكانَتْ غَزْوة **بَدْر** أُولى المعارك، وفيها ٱندحر المشركُون وَهُزِموا هزيمةً مُنْكرة، وٱنْتصر المسلمون وعَزُّوا...

في هذه المعركة مات **عُقْبةُ بن أبي مُعَيْط** فحزنت ٱبنته **أُمّ كلثوم** لموتِهِ كافراً، وكم كانَتْ تتمنّى أَنْ يهدي اللّهُ قَلْبَهُ للإيمان، ولكن ما باليد حيلة.

اشـتـداد الأذى

بعد موْت **عُقْبة** انتقلت الولاية على **أُمّ كلثوم** مِنْهُ إلى ولديْه: **الوليد وعُمارة**؛ فكانا أَشَدّ في التضييق والإيذاء، فَظلّتْ صابرة ثابتة تحتسب عند اللّه تعالى بلاءها، وما تُلاقيه مِنْ شِدَّة وعُنْفٍ وقسْوة.

ثمَّ كانت غَزْوتا **أُحُدٍ** و**الخندق** فكان أَخَواها **الوليد** و**عمارة** في طليعة

القرشيين المشركين الخارجين لقتال المسلمين. . .

في كُلّ تلك المراحل كانت **أم كلثوم** ـ رضي اللَّه عنها ـ حبيسةً لا تَعْرِف سبيلاً إلى الخلاص، ولا طريقاً إلى النجاة والفرار. . .

كما كانت ـ رضي اللَّه عنها ـ توّاقةً إلى معرفةِ الأخبار والتطوّرات، ضنينة بالمسلمين أن يُصابوا أو يُهْزموا، يستبدُّ بها الشَّوْق إلى لقاء النبي ﷺ؛ الذي تركت شخصيّته في قلبها ونفسها أعمق الأثر[1]

المهاجرة

وظلَّتْ ـ رضي اللَّه عنها ـ على حالتها تلك، حتى كان **عَهْد الحديبية**؛ وسببُهُ أَنَّ الرسُول ﷺ قد خَرَج بأَصْحابِهِ من **المدينة** قاصداً **مكة** لأداء العُمْرة وزيارة بيْتِ اللَّه الحرام [الكعبة] وتعظيمها.

لكن قُرَيْشاً قالوا: لن يدخلها، أي مكة، علينا عُنْوةً. . .، لذا توقّف الرسول ﷺ ومن مَعَهُ في مكانٍ يُدْعى **الحُدَيْبية** بين **المدينة** و**مكة**. . .

ولم تُفْلح المفاوضات بَيْن الطرفيْن في السَّماح للمسلمين بالقدوم إلى **مكة** ثُمَّ آتفقوا أخيراً على أَنْ يعود المسلمون إلى المدينة عامهم هذا، وفي العام القابل يأْتُون للعُمْرة. . .

واتفقوا أَيْضاً على غَيْر ذلك؛ ووضعوا الاتفاق في صيغةِ بُنُودٍ وشروطٍ عُرفَتْ بـ **عهد الحديبية** أَوْ **صُلْح الحديبية**.

وكان من بيْن تلك الشروط:

أَنَّ من جاءَ إلى المدينة من أَهْل مكة هارباً أَوْ لاجئاً أَوْ مهاجراً فَعَلى رسُول اللَّه ﷺ أَنْ يُعيده ويردّه إلى قريْش، أو يسلّمه إلى أَهْله وأوليائه. . .، أَمَّا مَنْ جاء من **المدينة** إلى **مكة** هارباً أو لاجئاً. . . فلا تردّه قريْش إلى المسلمين!؟

---

(1) رواه ابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 488).

وعلى الرُّغم مما كان في **عَهْد الحديبيةِ** من إجحافٍ وتسليم ـ في الظاهر ـ بحقّ المسلمين، إلاّ أن رسُول اللّه ﷺ كان واثقاً من ربِّه سُبْحانَهُ وتعالى، لهذا ردَّ على سيّدنا **الفاروق** ـ رضي اللّه عنه ـ وغيره، مِمَّنْ عارضوا هذا الاتفاق بقوله:

ـ أَنا عَبْد اللّه ورسُوله ولن يُضيِّعني. . .

وسنحت الفُرْصة لِـ **أم كلثوم** ـ رضي اللّه عنها ـ بالهروب من **مكة**، والهجرة إلى **المدينة**؛ إذ لم تَعُدْ تطيق صَبْراً أَوْ بُعْداً عن إخوانها المسلمين، ومواكبة رسُول اللّه ﷺ والاستمتاع بمرافقته وصُحبته؛ والمساهمة في النّضال. . .

فَفَرَّتْ هاربةً من **مكة** إلى **المدينة**. . .

وهناك رحَّبَ بها رسُولُ اللّه ﷺ وأَكْرَم نُزُلها ومَثْواها، ووصّى بها أَهْله وأَصْحابَهُ؛ فارتاحَتْ نفسها بعد طُول عناءٍ وشقاء.

الـمُـمْـتَـحَـنَـة

وذات يَوْم، وبينما رسُول اللّه ﷺ في مسجده الشريف وَفَدَ عليْه **الوليد بن عُقبة بن أبي مُعيْط** ومعه أخوه **عمارة**. . . يطلبانِ تَسْليم أُخْتهما الفارّة **أم كلثوم** تنفيذاً لِأَحَدِ بُنودِ الاتّفاق [صُلْح الحديبية]. . .

ولم يكن أمام رسُول اللّه ﷺ بموجب العقد المبْرم إلاّ التنفيذ. . . والتَّسْليم. . .، إلاّ أَنّ دُموع **أم كلثوم** وتوسُّلاتها إلى النبيّ الكريم جعلتْهُ يتريَّثُ قليلاً، ويُرْجئ الطالِبيْن إلى اليْوم التالي. . .

ويَبْدُو أَنَّ حرارة الدّمْع الغزير والدُّعاء إلى اللّه تعالى قد فَعَلا فَعْلهما، ولا نشُكّ أبداً بأَنَّ **أم كلثوم** ـ رضي اللّه عنها ـ كانَتْ تُعاني من ظُلْم المشركين؛ وَدُعاءُ المظلوم كما أنبأنا الرسول **الأعظم** ﷺ؛ ليْس بَيْنَهُ وبيْن اللّه حجَاب. . .

فنزل القوْل الكريم على قلْب النبيّ العظيم يقول:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ

﴿عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: 10].

عِنْدئذٍ قام النبيُّ ﷺ بالامتحان المطلوب، ولم تكن **أم كلثوم** ـ رضي اللَّه عنها ـ بحاجةٍ إلى الامتحان، فقد كانت وقائع حياتها فيما سبق هجرتها إلى **المدينة المنوّرة** أعظم امتحان.

ونجحت، وتخطت مرحلة الابتلاء إلى مرحلة الفوْز.

وحينما جاءَ أَخواها في اليَوْم التالي إلى المسجد لمقابلة رسول اللَّه ﷺ، وتنفيذ الوعْد، رفض أَنْ يُسَلِّمها **أَمّ كلثوم** فقد فَرَّق بينها وبينهما الإِسلام، ثم قال:

ـ يأبى اللَّه ذلك...

فخرجا من المدينة خائبيْن، وعادا من حيث قدِما بخُفَّيْ حُنَيْن.

وانتظمت **أُمُّ كلثوم** ـ رضي اللَّه عنها ـ في سِلْك عقْدِ الإِيمان، وموْكب النُّور، مؤمنة صابرةً مجاهدة[1].

الـزّوجـة

وما زالت ـ رضي اللَّه عنها ـ حتى الحين عَزْباء...

فَتَقَدَّم لخطبتها والزواج منها **زيْد بن حارثة** ـ رضي اللَّه عنه ـ حِبُّ رسُول اللَّه ﷺ، بعد فراقه من **زينب بنت جَحْشٍ**...

فقبلتْهُ، وهُوَ الموْلى... وهي بنْت السيِّد القرشيّ...، لقد أَضْحَتْ ـ رضي اللَّه عنها ـ على مُسْتوىً من الإِيمان رفيع لا تتأثَّر بعنعناتِ الجاهلية، وليس ذلك بغريب عليْها، فقد نَشأَتْ عاقلةً ناضجة، وأسلمت طائعة قانعة...

لكن هذا الزّواج لم يَدُم طويلاً، فقد استشْهد **زيْد** يَوْم **مُؤْتَة** ـ رضي اللَّه عنه ـ، فَبَكَتْهُ **أُمُّ كلثومٍ** وحزنت أَشَدّ الحُزْن لفراقه...

---

(1) ذكره ابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 408) وابن حجر في «الإصابة» (8/ 274).

وكانت **أم كلثوم** ـ رضي اللَّه عنها ـ بالإضافة إلى مكانتها ونضوجها ذات جمال وخُلُق، يَطْمع الكثيرون أَنْ يسكنوا إليْها ويَسْعدوا بالاستقرار معها في بَيْت الزوجيّة.

فخطبها **الزُّبير بن العوّام** وتزوَّجها، فولدَتْ له ابنتهما **زينب**، وكان في طَبْع **الزُّبير** شِدَّة وغَيْرة؛ مِمّا جعل **أُمَّ كلثوم** تضيق وتتبرَّم، فطلبت الفراق، لكنَّ **الزُّبَيْر** أَبى.

وفي ذات يَوْم، وكانَتْ حاملاً تعاني من أَلَم الطَّلْق، أَلَحَّت عليْه واشْتَدَّت في طلب التفريق، وكان يتوضّأ، فطلَّقها تطليقَةً...

وخرجَتْ... فَوَضَعَتْ...، وجاء إلى **الزُّبَيْر** مَنْ يخبره بذلك فثار وغضب ثم قال: خدعَتْني خَدَعها اللَّه..

وقصد إلى النبيِّ ﷺ يُخْبِرُه بما حَدَث، فقال له النبي ﷺ

ـ سَبَقَ فيها كتابُ اللَّه...، فاْخْطُبْها!!

فقال **الزُّبَيْر**:

ـ لا تَرْجِعْ إليَّ أَبَداً...

ثُمَّ رَغِبَ فيها **عَبْد الرَّحمن بن عَوْف** ـ رضي اللَّه عنه ـ فَتزَوَّجها، فأقاما في أَسْعَدِ حالٍ، وأَهْنأ بال، وولدت لَهُ ولديْه **إبراهيم وحميداً**؛ ثُمَّ انتقل إلى جوار ربِّه...

ثم تَزَوَّجَها **عمرو بن العاص**، وبقيت في عِصْمته إلى أَنْ أدركتها المنيَّة، وأسلمت الرّوح راضيةً مرضيّة[1].

رضي اللَّهُ عَنْها وأرضاها، وأَعْلى في الجنّةِ مثْواها، وأَلْحقا بها في الصالحين من عباده، وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

---

(1) «الإصابة» لابن حجر (8/ 274) «أسد الغابة» لابن الأثير (5/ 488).

أم سليم بنت ملحان

رضي اللَّه عنها[1]

إن الحديث عن **أم سليم** ـ رضي اللَّه عنها ـ متعدد الجوانب، متشعب الاتجاهات، كثير المنعطفات، فوقائعها بالنسبة لـ« حوليتها » حول رسول اللَّه ﷺ كثيرة جداً، ولكنها كلها تصب في مجرى واحد نستطيع أن نسميه حب اللَّه ورسوله. . ! وهو عنوان يشرف وجودها في دائرة الحب العظيم ومن ثم يتيسر لنا ـ بإذن اللَّه وعونه ـ تناول شخصية **أم سليم** وإبراز معالمها والإحاطة بمؤهلات بروزها وتبوئها هذا المقام السامي.

ونحن إذ نقدمها في هذا الإطار، بكثير من التواضع والاحترام، نرجو اللَّه تعالى أن يبعث في قلوب وأرواح سيداتنا ـ عامة ـ نفحة من نفحات **أم سليم** الزكية الفواحة ـ تنهض بهن من وهدة الخمول والركود، إلى ربوة ذات قرار معين، ولا يبقى نصف المجتمع أسير التقليد الأعمى والهوى المتبع.

هي أنصارية من أهل المدينة، أسلمت مع السابقين والسابقات إلى الإسلام، وقد اختلف المؤرخون في اسمها اختلافاً كبيراً، فمنهم من قال: **سهلة**، ومنهم من قال: **رميلة**، ومنهم من قال: **رميثة**، وقيل: **مليكة**، وقيل: **الغميصاء** ـ أو: **الرميصاء**. . . !

ولعل شهرة الكنية: **أم سليم** هي التي أدت إلى هذا التعدد والتباين أسلمت **أم سليم**، وكانت زوجة لـ **مالك بن النضر** الذي اختلف معها فهو يصر على شركه وقد انغلق قلبه عن الهدى، وغشي بصره عن نور الإسلام، وأدى ذلك إلى الفراق بينهما.

وهذا أول المواقف لـ **أم سليم**؛ فحب اللَّه ورسوله أغلى وأثمن من

---

(1) ترجم لها ابن حجر في «الإصابة» (8/ 243) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 456) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 494).

حب العشير والزوج، ولو كان من أقرب المقربين، حتى ولو كان والد الابن الوحيد.. **أنس** ـ رضي اللّه عنه ـ.

فارقها **مالك**، وفارق المدينة أيضاً..!

لم يطق بقاءه في المدينة مع وجود رسول اللّه ﷺ، واتجه إلى الشام، ثم ما لبث أن مات هناك، بعيداً طريداً شريداً، ليس عن الوطن فقط، بل عن رحمة اللّه تعالى.

وموقف **مالك** هذا يذكرني بحديث لرسول اللّه ﷺ يقول فيه: «إن المدينة لتنفى خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد» ـ؛ وصدق رسول اللّه ﷺ.

ومضت **أم سليم** في الطريق إلى اللّه تعالى...

وإني لألحظ في خطوها قفزاً ووثباً، وسرعة...، إن دل ذلك على شيء إنما يدل على استغراق الذات في الحب..، وبلوغ المدى.

بعد مفارقة **مالك** لها، وشروده..، جاءَها **أبو طلحة الأنصاري ـ زيد بن سهل**[1] خاطباً، وكان لا يزال على شركه ووثنيته..،

فماذا قالت له؟ وهي التي آثرت حب اللّه ورسوله على حب الزوج، ووالد الابن الوحيد...!

قالت وهي في أرقى حالات الإيمان واليقين.

ـ يا **أبا طلحة** ألست تعلم أن إلهك الذي تعبد نبت من الأرض؟[2]

قال: بلى...

قالت: أفلا تستحي تعبد شجرة!!؟

بعد هذا التقريع الشديد واللوم: وتحقير المعبود المنحوت، دونما تردد أو تلجلج، أو تهيب من **أبي طلحة** الذي كان علماً في شجاعته وقوته ومكانته في قومه...، بعد هذا كله تلطفت **أم سليم** فقالت:

إن أسلمت فإني لا أريد صداقاً غيره...!

---

(1) اشتهر بكنيته، وكان يردد: أنا أبو طلحة واسمي زيد وكل يوم في جرابي صيد.

(2) وفي قول: خشبة نجرها لك نجار بني فلان؟

قال **أبو طلحة**:

ـ دعيني حتى أنظر في أمري.

فذهب..، ولم يطل غيابه، ثم جاء فقال: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه.

فقالت لولدها **أنس** ـ ولم يكن قد بلغ الحلم[1]: يا **أنس** زوج **أبا طلحة**.

وتم الزواج

إن **أم سليم** ـ رضي اللَّه عنها ـ كانت أول مسلمة جعلت مهرها وصداقها إسلام الزوج، وهذا فتح جديد، يذكر فيشكر، ويسند فيحمد وهو بالتالي من المواقف التي تسجل لـ **أم سليم** في سفر مجدها وعظمتها وهو ولا شك ـ رافد من روافد النبع العظيم في قلبها: حب اللَّه ورسوله.

ويتدفق نبع الحب النمير، غزيراً براقاً صافياً...

فتأتي **أم سليم** إلى رسول اللَّه ﷺ ومعها ولدها **أنس**، غلام صغير، لم يتجاوز العاشرة من عمره، فتقول:

ـ يا رسول اللَّه، هذا **أنس** يخدمك[2].

فتقبله النبي ﷺ بقبول حسن، وضمه إلى بيته.

ولازم **أنس** رسول اللَّه ﷺ منذ قدومه إلى المدينة حتى لحق بالرفيق الأعلى؛ على مدى عشر سنوات؛ وكان لا يفارقه في حله وترحاله،

لذا وعى عن رسول اللَّه ﷺ الشيء الكثير من أحواله وأفعاله وأقواله وكان ثبتاً ومرجعاً في هذا الشأن العظيم؛ وذخراً.

وهذا ـ أيضاً ـ من نفحات الحب الكبير للَّه ورسوله، الذي ملك على **أم سليم** كل حياتها، منذ أن أسلمت، إلى أن توفاها اللَّه تعالى.

بيت **ملحان**: **أم سليم** و**أم حرام** ـ رضي اللَّه عنهما ـ، هو البيت الوحيد الذي كان يدخله رسول اللَّه ﷺ؛ غير بيوت أزواجه طبعاً.

---

(1) وفي رواية: أنها انتظرت حتى بلغ وأدرك.

(2) وفي رواية: خويدمك «أنس» ـ بالتصغير ـ.

ولعلنا نتساءل عن ذلك . .

فيأتينا الجواب على لسان **أنس** ـ رضي اللَّه عنه ـ.

يقول **أنس**: إن النبي ﷺ كان يزور **أم سليم** فتتحفه بالشيء تصنعه له.

ويضيف ـ رضي اللَّه عنه ـ: لم يكن رسول اللَّه ﷺ يدخل بيتاً غير بيت **أم سليم** إلا على أزواجه . . ، فقيل له، فقال: إني أرحمها، قتل أخوها معي.

يقول **ابن حجر في الإصابة**[1]:

قلت: والجواب عن دخوله بيت **أم حرام** وأختها ـ **أم سليم** ـ أنهما كانا في دار واحدة.

والدخول ـ عزيزي القارئ، وعزيزتي القارئة ـ يعني الزيارة التي كان يتبرك بها أصحاب البيت، وبوجود المحارم، إذ ليس من المعقول عن نبي الرحمة والهدى، والأدب الجم، والشرع الحنيف، إلا أن يكون كما قال عنه ربه ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب: 21].

ومن قدوته الحب الكبير، مدرسة **أم سليم** ـ رضي اللَّه عنها ـ نتعلم درساً جديداً، وما أكثر دروسها، درساً بالغ الوعي والفهم في أصول وقواعد العلاقة الزوجية، قائماً على السكن والود والرحمة. . .

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21].

فقد جاء في الصحيح؛ أن ولداً لها من **أبي طلحة**[2] قد مات، وكان عليلاً يداوي ويعالج، فلما جاء **أبو طلحة** قالت لمن معها في الدار: لا يذكر أحد ذلك لـ **أبي طلحة** قبلي، فلما دخل وسأل عن ولده قالت: هو أسكن ما كان، فظن أنه عوفي، فقام **أبو طلحة** فأكل، ثم تزينت له **أم سليم** وتطيبت، فنام معها، وأصاب منها، فلما أصبح قالت له: احتسب ولدك عند اللَّه. . . !

فخرج **أبو طلحة** حتى أتى رسول اللَّه ﷺ، وهو بادي الحزن، فأخبره بما كان، فقال ﷺ: «بارك اللَّه لكما في ليلتكم»؛

---

(1) الإصابة (جـ 4) (ص442).

(2) يبدو أنه أول أولادها منه.

وحملت **أم سليم** ثم وضعت مولوداً ذكراً هو **عبد اللَّه بن أبي طلحة**، أنجب ورزق أولاداً، قرأ القرآن منهم عشرة كملاً.

إن البيت الإسلامي بمفهومه الشرعي والاجتماعي والأسري، هو اللبنة الأولى في بناء كيان الأمة وصرحها القوي المتين، فلا تسألني ـ عزيزي القارئ ـ بعد ذلك عن سبب الضعف والانهيار والتردي الذي ينذر بسوء العاقبة. . . !!

ولا تنتهي المواقف من **أم سليم** ـ رضي اللَّه عنها ـ حول رسول اللَّه ﷺ، ومعه. . !

إذ يجمع المؤرخون وكتاب السيرة والتراجم أن **أم سليم** ـ رضي اللَّه عنها ـ كانت تخرج مع رسول اللَّه ﷺ في غزواته، مجاهدة بحدود ما تسمح به أنوثتها، وإمكاناتها، دافعها إلى ذلك نبع الحب الذي لا ينضب في قلبها.

ظهر ذلك في أكثر من غزوة، وظهر جلياً يوم **حنين**. . .

ويوم **حنين** يتوسط في التاريخ بين فتح **مكة** وغزوة **الطائف** على التتابع، وهذا يشهد لـ **أم سليم** أنها كانت في جيش المسلمين آنذاك على امتداد الجهاد وعنف القتال وصعوبة وقسوة الترحل.

أخرج **ابن سعد** بسند صحيح: أن **أم سليم** اتخذت خنجراً يوم **حنين**، فقال **أبو طلحة**:

ـ يا رسول اللَّه هذه **أم سليم** معها خنجر. . ! فقالت: إتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت بطنه[1]

وتختم **أم سليم** المواقف بحفظها وروايتها لحديث رسول اللَّه ﷺ، وقد تلقى عنها نفر من الصحابة رضان اللَّه عليهم، منهم ابنها **أنس** و**ابن عباس** و**زيد بن ثابت** و**أبو سلمة بن عبد الرحمن**، وآخرون.

رضي اللَّه عن **أم سليم** وأرضاها، فقد كانت مدرسة بحق. . !!

---

(1) وفي رواية: بَعَجْتُ به بطنه.

أمّ حرام بنت مليحان

رضي اللّه عنها[1]

قال اللّه تعالى :

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : 100] .

وقال رسُول اللّه ﷺ :

« إن الله تعالى لا يَقْبَلُ مِنَ العَملِ إلاّ ما كان لهُ خالصاً، وابْتُغِيَ بهِ وَجْهُهُ »، وصَدَقَ رسُولُه الكريم .

نسبهاونشأتُها

هي : أُمّ حرام بِنْتُ مِلْحان بن خالد بن زَيْد بن حرام بن جندب ابن عامر بن غَنْم بن عديّ بن النجار .

وأُمّها مليكة بنْتُ مالك بن عديّ بن زيْد مناة بن عديّ بن عمرو بن مالك بن النجار .

فهي من ناحية الأب ومن ناحية الأُمّ يلتقي نَسَبُها ببني النجّار، أَخْوال النبيّ ﷺ .

ولقد اختُلِفَ في اسمها، وذَهَبَ المؤرخون فيه مذاهِبَ شتّى، وكذلك النسّابون . . ولا نريد نحنُ أنْ نقفو أَثَرَهُم في تحليلاتهم وتعقّبهم للروايات المختلفة، ويكفينا اللقب، والكُنْيَةُ التي اشتهرت بها وعُرِفت، وهي **أُمّ حرام** ـ رضيَ اللّهَ عنها ـ .

---

(1) ترجم لها ابن حجر في «الإصابة» (8/ 222) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 435) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 484) .

وهي: خالةُ **أَنس بن مالِكٍ** ـ رضي اللَّه عنه، فهي أُخْتُ **أم سُلَيم** زَوْج **أبي طلحة**، وصاحبة الشأْنِ والذّكْر، والمقدّمة عنْد رسول اللَّه ﷺ؛ وكذلك كانَتْ أختها **أم حرام**.

خطبتها

شبّتْ **أم حرام** في ظِلّ جوٍّ كريم، طيّبة المحتد، نجيبة الأصول، ولقيت مُنْذُ حداثَتِها عنايةً ورعاية، عُرِف بهما **بنُو النجّار**، حتى بَلَغَتْ أَشُدّها ونضجت واستوتْ على سوقها، فتاةً ترغَبُ الشبّانُ من أَهْلِ **يثرب** في الإِقتران بها، والعيْش معها.

وتقدّم **عُبَادة بن الصامت** فتى **عَمرو بن عوف** من الخزرج لخطبتها فزوّجها أَبُوها مِنْه؛ فكانَ نِعْم القرين:

ولا يفُوتنا ونَحْنُ نُتَرجم لأم حرام أن نَذْكُر رفيق عُمْرها **عُبادة** ـ رضي اللَّه عنه ـ، فهُو الذي إذا ما ذُكِرَت ذُكِرَ معها، لفضْلِهِ ومكانته وسَبْقِهِ إلى الإِسلام والإِيمان.

فقد سَمِعَ ـ رضي اللَّه عنه ـ بظهور نبيٍّ في مكة يُدْعى **محمد بن عبد اللَّه**، يدعو إلى نَبْذِ عبادةِ الأوثان والأصنام، والتوجّه إلى عبادة الواحِدِ الديّان، وإلى تَرْكِ كُلّ عادةٍ قبيحةٍ ذميمةٍ دَرَجَ عليها مجتمع الجاهليّة، وإلى عَدَم التفريق بَين خلق اللَّه، فلا أحساب ولا أنسابَ، ولا سادة ولا عبيد، إلاّ مؤمنين أو مشركين، ولا ميزة لإِنسانٍ إلاّ بالإِيمان والعمل الصالح.

فأعجب **عُبادَةُ** بذلك، وسعى إلى مكّة مع السّاعين من أبناء الأوس والخزرج، خصوصاً الّذين تأثّروا ودخل الإِيمان في قلوبهم من جراء ما سمعوا من إخوانهم الذين سبقوهم في عام مضى.

وكان **عُبَادةُ** واحداً من بَيْن وفْدٍ كبير تجاوز السبعين من الرجال والنساء، فبايعوا رسول اللَّه ﷺ بيعة العقبة الثانية؛ كما كان واحداً من النّقباء الذين اختارهم ﷺ، وكانوا اثنيْ عشر نقيباً...

اللـقـاء

وعادَ **عُبادة** إلى المدينة، مزوّداً بالدين المتين، وبقوّةِ اليقين، وبإخلاص القلْب لِلّهِ ربّ العالمين.

ونَفحَ زوجته **أم حرام** من فيْض ما تلقَّاه من الحبيب المصطفى ﷺ، وحدَّثها بما شاهد ورأى وسَمِع، فتشوفَت وتشوّقت للقاءِ النبيّ الكريم، في اليوْم المنتظر، يوم قدومه إلى **يثرب** مهاجراً.

وظلّت ـ رضي اللّه عنها ـ في لَهْفَةٍ وحرارة شَوْق حتّى قدِم رسول اللّه ﷺ إلى **يثرب**، وقد سبقه كثير من إخوانِهِ إليها.

ومنذ وطِئَتْ قدماهُ الشريفتانِ أرض **يثرب** تحوّل اسمُها عند الجميع إلى **المدينة المنوّرة**.

ولقد كان، كما وَرَدَ في السّيرة، أوّل نزولِهِ في **قُباء**، ﷺ، وكانت **قباء** سكناً ومقاماً لـ **بني عمرو بن عوفٍ** من أَهْل المدينة، من هنا جاءَت شُهْرة هؤلاء في استضافتهم للمسلمين المهاجرين.

وكان سكنُ **أم حرام** هناك مع زوجها **عبادة بن الصامت** ـ رضي اللّه عنهما.

ولا تَسَلْ ـ قارئي العزيز ـ عن فَرَح **أم حرام** وسرورها الشديدْين، بلقاء النبي ﷺ، إذ كَانَتْ بحكْم موقع منزلها، وبدافع من شوْقها من أوائل الذين استقبلوه، واستشرفوا طلعتَهُ ونورَهُ، وحظوا ببركته الشريفة.

ولقد عَرَفَ ﷺ لأم حرامٍ فَضْلها ومكانَتَها، وحِرْصها على التفقّه والتعلّم، والتعلُّق بأهداب الدينَ، كما عَرَف لها جهادها في سبيل اللّه.

ولكم خَرَجَتْ مع بعض نساء المسلمين في غزوات النبي ﷺ، أو سراياه، مشاركة بما قُدِّر لها من خِدْمة الجنود والمقاتلة، تُسْعِفُ جرحاهم، وتسقي عطاشهم، وتداوي مرضاهم، وتُشَجّع فرسانهم.

ولقد كانت كالظّلّ بالنسبة إلى زوجها **عُبادة** ـ رضي اللّه عنهما ـ لا تفارِقُهُ أبداً، أينما ارْتحل أَو حَلَّ، في جهادٍ وغَزْوٍ.

منزلتها عند النبي

ويحدّثنا التاريخ أن **قباء**، ضاحية المدينة المخضوْضرة الزاهية، كان لها عند رسُول اللّه ﷺ محبَّةٌ، ومقام كريم، فكان يأتيها في أيّام معيّنة، بعد العصر متوضئاً، ثُمّ يصلي فيها المغرب.

وكان كثيراً ما ينزل في بيوت أصحابه وإخوانه، الذي كانوا يتسابقون إلى الفوْز بهذا الشّرَف، فيقيل عِنْدَهم، أو يجالسهم فيحدّثهم، حديثه العذْب الطليّ.

وكان بَيْتُ **أم حرام** ـ رضي اللّه عنها ـ من أكثر البيوت في قباء، حظوةً بالرسُول الأمين، صلوات اللّه وسلامه عليه.

يأْتيها في بَيْتها، فيطعم عنْدها، ويَقيل، ثُمّ يقوم إلى شأنِهِ وحاجته، في الصلاة واللقاء بالأصحاب[1].

ركوب البحر

وفي ذات يَوْم، وبعد أن نال من طعام **أُمّ حرام** أَغْفى قليلاً، فمَدَّتْ يَدَها وهُوَ مستغرق في قيلُولته، إلى رأْسِهِ تُفلّيه.

ولم يمض طويل وقْتٍ حتى استيقظ ﷺ ضاحكاً، فاستغربَت **أم حرام** وقالت:

ـ يا نبيَّ اللّه، بأبي أنْتَ وأُمّي، مِمّ تضحك؟ فقال:

ـ ناسٌ من أُمّتي يركبون هذا البحر، كالملوكِ على الأسرَّة.

فقالت:

ـ يا رسول اللّه... أُدْعُ اللّه أن يجعلني منهم.

قال:

ـ أنْتِ منهم.

ثُمّ غلَبَهُ النَوْم ثانيةً، فلما استيقظ كان كالمرّةِ الأولى ضاحكاً مستبْشراً، فأعادت **أم حرام** السؤال، وهي تظن شيئاً جديداً، فقالت:

ـ يا رسُول اللّه... مِمّ تَضْحك؟

---

(1) ذكره ابن حجر في «الإصابة» (8/ 222) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 485).

فقال:

ـ ناسٌ من أمتي يركبون هذا البحر كالملوكِ على الْأَسِرَّة.

فلمّا رَأَتْ **أم حرام** أن الجواب هُوَ نفسه، أرادت أن تستزيد من دعاء رسُول اللّه ﷺ، فقالت:

ـ يا رسُول اللّه، أدْعُ اللّه أن يَجْعلني مِنْهُم...

فقال ﷺ:

ـ أَنْتِ من الأوّلين[1].

مواقفها

ومَرَّت الأيّام...

أَيَّام الجدّ والمجالدة، ومقارعة المشركين والكافرين من العرب، من **بَدْر** إلى **أُحُدٍ** إلى **الخندق** إلى **الفتح**، مروراً بـ **الحديبية** و**حُنَيْنٍ** و**الطائف**...

وفي كُلٍّ منها كان لـ **عبادة بن الصامت** وزوجته **أم حرام** مواقف ومشاهد، وبطولاتٍ وذكريات.

حتى لحِقَ رسُول اللّه ﷺ بالرفيق الأعلى، وتولّى الصدّيق ـ رضي اللّه عنه ـ الخلافة من بَعْدِه، فأدّت **أم حرام** واجبها نحو اللّه ورسوله والمؤمنين، وحفظت عَهْد النبيّ ﷺ في كتابهِ وسُنّتِهِ، وساهمت مع زوجها ـ رضي اللّه عنهما ـ في حفظ التراث النبوي الشريف من الحديث والسُّنّة.

فكانَتْ عند عروضِ أَمْرٍ أوحادثةٍ تذكّر بما سمعته ووعتْه عن رسُول اللّه ﷺ.

العهد

ثُمّ مضى عَهْد **عُمر بن الخطاب** ـ رضي اللّه عنه ـ و**عبادة بن الصامت** وزوجته تتقدَّم بهما الأيّام، ولكنهما دائماً في حيويّةِ المؤمن وفتوّةِ المسْلم لا تقعد بهما شيخوخة أو كِبَر سِنٍّ عن استمراريّة الجهاد والكفاح.

حتى كان زَمَنُ وعَهْد الخليفة الثالث **عثمان بن عفّان** ـ رضي اللّه عنه ـ، وكان **عبادة** و**أم حرام** قد اتخذا من **دمشق** مقاماً ومستقرّاً، فلما طَلَبَ **معاوية بن أبي سفيان**

---

(1) الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 6/ 423) وابن حجر في «الإصابة» (8/ 223).

والي دمشق، من الخليفة ذي النوريْن أن يأذن له وللمسلمين في ركوب البحر وغزوِ جزيرة **قبرص**، ثم أذِن له الخليفة، داعياً إياه في كتابه الحرْص على المسلمين.

عندئذٍ، تذَكّرت **أمّ حرام** نبوءة رسول اللّه ﷺ، وتاقَتْ نَفْسُها إلى ركوب البحر، تحقيقاً للعهْد والوعد، رغم أنها كانَتْ قد شاخَتْ وأسنّت، وبَلَغَتْ من الكبر عتيّاً.

لا حُبّاً في نُزْهةٍ وارتحال، أو فُسْحةً وسياحةً في أرض اللّه تعالى، ولا طلباً لمغنم أو مكْسَب دنيويّ، وأنى لها ذلك وقد دَنَتْ، أو جاوزَتْ خريف العمر، بل رغْبَةً في الجهاد في سبيل اللّه.

غـزو قـبـرص

وأَلَحَّتْ على زوجها **عُبادة** في المرافقة، وكذلك على الوالي **معاوية** في الصّحْبة، ولم يكن أحدهما ليرفُض طلب الصحابيّة الجليلة صاحبة المقام الرفيع والمنزلة السامية عنْد رسول اللّه ﷺ.

وخرجَتْ مع الجيش الإِسلامي الغازي، من دِمَشْق باتجاه الساحل الشاميّ حَيْث تنتظر السُّفن، ومَرَّت في جبال لبنان العالية الشاهقة ثُمّ دَلَفَتْ إلى السّاحل، وشاهَدَتِ البَحْر للمرّة الأولى في حياتها.

وركبت مع زوجها إحدى السُّفُن التي انطلقت مع الأسطول الإِسلاميّ الأوّل تشق عباب الماء. . .

وكثيراً ما جلست **أم حرام** ـ رضي اللّه عنها ـ عند حافّةِ السفينة ترقُبُ الأمواج العالية، وزَبَدَها الذي يَعْلو كالبهاء، وتتدثّر من الرياح الباردة الرطبة التي تلْفَحُ الوجه والجسم. . .

وتعود بها الذكرياتُ إلى حديث رسول اللّه ﷺ:

ـ «ناسٌ من أُمتي يركبونَ هذا البحر كالملوك على الْأَسِرَّة . . .»

فترى في نَفْسها واحِدَةً من الناس تعلو بها السفينة ثم تنخفض كأنها الأرجوحة، أو سرير الملك الذي يهتزّ بِهِ ويهدْهِدُه. . .، فتصلّي وتسلّم على رسُول اللّه. . .

ثُمّ تنظر حَوْلها فترى في نَفْسها أيْضاً أنّها من الأوائل؛ أوائل المسلمين، وذلك ببرَكَةِ دُعائِه ﷺ.

عندئذٍ تغمض عينيها، وتمْسَحُ عبراتها، وتنظر من ثَمّ إلى البعيد حَيْث الشقّة قد طالَتْ بينها وبين قَبْر الحبيب المصطفى ﷺ.

ولو تحدَّثَتْ لقالت:

ـ ها أنا ذا يا رسول اللَّه، قد ركبت البحْر مع نَفَرٍ من أمتك، وها نحن كالملوك على الأسرة، وها أنا ذا يا رسُول اللَّه في الأولين منهم، صَدَقْتَ يا رسُول اللَّه.

ولقد كان من دواعي غزو جزيرة قبرص، واضطلاع **معاوية بن أبي سفيان** والي دمشق بهذه المهمّة، أن الروم بعد هزيمتهم في جميع أنحاء سورية وبلاد الشام، قد اتخذوا من جزيرة **قبرص** قاعِدَةً لهُم، يخرجُونَ منها بسفنِهِم إلى السواحل الشامية، فيغزون المدن والثغور، وينهبونَ الأرزاق والأقوات، ويغيرون على الحاميات الإسلاميّة الموجودة هناك.

فكان لا بُدّ من تطهير هذه القاعدة البحرية، وتحريرها من سَيْطَرة الروم، كي تظلّ الثغور والمدن الساحليّة الشاميّة في أَمْنٍ وسلام وطُمأْنينة.

ولَقَدْ طَلَبَ **معاوية** ـ رضي اللَّه عنه ـ من ملاّحي المدن البحرية وصُنّاع السُّفُن أن يجهّزوا لهُ أسطولاً من عِدَّة سُفُنٍ ليغزو بها جزيرة قبرص في طائفةٍ من المسلمين.

من قباء إلى قبرص...!

الجهاد

من **قُباء** في جَوْفِ الصحراء، وبَين ثنايا جبال الحجاز، انْطَلَقَتْ **أم حرام** ـ رضي اللَّه عنها ـ، غايتُها اللَّه ورسُوله، ورضوانٌ مقيم في جنّاتِ النعيم؛ لاَ تبتغي عَرض الحياةِ الدنيا، بل أَجْر الآخرة، فهُوَ أَخْلَدُ وأبقى...

وهناك... في عُرْضِ البَحْر حَطّتْ **أم حرام** رحالها إلى الأبد، بعد أن وَخَطَ الشَّيْبُ شعرها، وجَفّتْ عروق الحياةِ في بَدَنِها، وتقوّس ظهْرها...

نَزَلَتْ عن ظهْرِ السفينة مع النّازلين، مُسْتَفْتِحَةً باسم اللَّه، متوكّلةً على

اللَّه، لا تَدْري من أَمْرِ الغَيْبِ شيئاً ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: 34].

ثم اصْطَفّ الجنودُ وتهيأوا للجهاد، . بعد أن رُسِمَتْ خُطّةُ الغزْو والقتال.

استشهادها

وجيء لِـ **أُمّ حرام** بركوبها كي تَمْتَطيه، فلما حاوَلَتِ الصعود إلى ظهْرِ الدابَّة زلّتْ قَدَمها، إذ لم يَقْوِ جسْمُها على الارتقاءِ، فَسَقَطَتْ أَرْضاً. . .

فأسْرَعَ إليها **عُبادة** ـ رضي اللَّه عنه ـ وغَيْرُه من كبار الصحابة يُسْعِفُونها، ولكنها لَفَظَتْ أَنْفاسها، وقَضَتْ نَحْبها، باسمة الثغر، ضاحكة السِّنّ، وضّاءَة الوجْه.

فاسْترجَعَ الجميع، وقام بعض النّسْوةِ بغسْلها وتكفينها وتطييبها ودفْنها.

وكان ذلك في العام السابع والعشرين من هجرة المصطفى ﷺ[1].

واليوم. . .، وبَعْدَ مرور ما يقرب من أربعة عَشَرَ قَرْناً على ذلك الحادث لا يَسَعُ الإنسان المسلم المؤمن، الزائر العابر، والقاصد المسافر، إلى جزيرة **قُبْرص** إلاّ أَنْ يقف بإجلالٍ واحترام أمام رمْسها الطّاهر، وجَدَثها الكريم، قارئاً فاتحة الكتاب، داعياً لأم حرام ـ رضي اللَّه عنها ـ بما هي جديرةٌ به من الدعاء، وما هي أَهْلٌ لهُ من عظيم الأجر والثواب.

مُتذكّراً في وقارِ حديث الرسُول الكريم، ونبوءتَهُ العظمى، عندما كان في دار **أُمّ حرام** يُقيل، والذي جعلت ـ رضي اللَّه عنها ـ منْه مادَّةً للتحفُّزِ والوثوب والجهاد. . . وطلب رضوانِ اللَّه تعالى.

رضي اللَّه عن أُمّ حرام بنت ملحان، المسلمة المؤمنة المبايعة، الزوجة الوفية الصادقة، الصابرة المجاهدة، الغازية الشهيدة.

وأنزلها منازل الأبرار الصالحين، وبوأها من لدُنه درجات الشهداء والمجاهدين.

وألهمنا أن نسترشدَ سبيلها، ونهتدي طريقها، إنه نِعْم المولى ونِعْم النصير.

---

(1) ذكره ابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 485) وابن حجر في «الإصابة» (8/ 223) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 436).

فاطمة بنت الخطاب

رضي اللّه عنها[1]

«نَعَمْ!!! قد أسلمنا وآمنّا باللّه ورسولِهِ فاْصنع ما بدا لَكَ»

فاطمة بنت الخطاب وسعيد بن زيد

توطئة

كُلَّما ذُكِرَ إِسلامُ سيّدنا عمر بن الخطاب رضي ٱللَّه عَنْهُ، ذُكِرَ ٱسم **فاطِمة** رضي اللَّه تعالى عَنْها مَعَهُ.

لقد كانَ إِسْلاَمُ **عُمَرَ** فَتْحاً...

كما كانَ حَدَثاً هامّاً... وتحوُّلاً جَذْرِيّاً وأساسيّاً في مواقِعِ الدَّعْوة الإِسلاميّة في **مكّة**.

إِذِ انْطلقت به الدَّعْوة من السِّريَّة إلى العَلَنِيَّة، وعادَ الذين هاجَرُوا إِلى **الحبشة** فِراراً بِدينِهِم، واهْتَزَّتْ **قريْشٌ** من أَعْماقها...

وأيْضاً: استجابَ اللّه دُعاءَ نبيِّهِ: اللهُمَّ أَعِزَّ الإِسلام بأَحَد العمريْن **عمرو بن هشام** أو **عُمَر بن الخطاب**.

وكانَ بَيْتُ **فاطِمَةَ بنت الخطاب** رضي اللّه عنها الْمِحْضَنَ الذي أَفَرَخَتْ فِيهِ نَفْسِيَّةُ **عُمَرَ** وروحه إِسلامَها وإِيمانها. فجديرٌ بنا أَنْ نَذْكُرَهَا في **الْمُسْلِماتِ الخالدات** مُسْلِمَةٌ جابَهَتْ ثم صَمَدَتْ في وَجْهِ أَصْلَبِ القُرَشِيِّينَ عُوداً وأَشَدّهم بأْساً، فَلَيَّنَتْ عريكتَهُ، وأَسَلَسَتْ قيادَهُ.

رضيَ اللَّهُ تعالى عَنْها، وحَشَرَها مع النبيين والصِّدِّيقينَ والشُّهداء والصّالحين، وحَسُنَ أُولَئِكَ رفيقا.

---

(1) ترجم لها ابن حجر في «الإصابة» (8/ 161) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 363) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 447).

تـقـديـم

لا نَعْرِفُ عَنْ طُفولَةِ **فاطِمَة** الشَّيْءَ الكثير، والمصادِرُ التّارِيخيّة عن حياتها في بَيْتِ أَبِيها **الخطاب ابن نُفَيْل** نادرة.

ولكننا من خِلال بعض الوقائع المذكورة نتصوَّرُ ذلك الماضي ونَتَخَيّله.

في بيت الخطاب

كانَ بَيْتُ **الخطّاب بن نُفيْل** بَيْتاً مخزومياً قُرَشيّاً فهو في الذّرْوة من بُطونِ قُرَيْش، يمتازُ بالشَّرَفِ والرِّفْعَة والاعْتِدَادِ بالْحَسب والنَّسَبِ، ويَتَمَيَّزُ أبناؤه بالفضائِلِ العَرَبِيَّةِ، إلى جانِبِ القُوَّة في تكوينِ الشَّخْصية.

ونَشأَت **فاطِمَةُ** على تِلْك الخِلالِ، ثُمّ دَرَجَتْ على ذلك السبيل، فلمّا اكتمل شبابُها وبَرَزَت أُنوثتُها خَطَبَها **سعيدُ بن زيد بن عمرو بن نفيل** قريبُها، ثم ٱقتَرَنَ بها وأقاما معاً على أَحْسَنِ ما يكونُ الوِفاق، وأَمْتَنِ ما تكونُ الصِّلات، وأوثق ما تكون العلاقات بَيْنَ زَوْجٍ وزَوْجَتِه، يحكُمُ ذلك كله مَحَبَّةٌ وٱحترامٌ متبادَلَيْن، وتفاهُمٌ عميقٌ.

إسـلام سـعـيـد

وكان **خبّابُ بن الأَرَتّ** ـ رضي اللّه عنه ـ من المبشِّرين الذين حملوا الدَّعْوة إلى اللّه، وفَتَحوا بها مغالِيقَ العُقول والأَفهام.

ومن الذين وكل إليهم رسُولُ ٱللّه ﷺ أَمْرَ الإِسلام بعد أَنْ فَقِهُوهُ وٱنْطَبَعُوا به، يرُودُون بِهِ إلى من يَتَوسَّمُون فيهم القبُول والهِداية.

وكانت تَرْبط **خبّاب** إلى **سعيد** صداقَةٌ وثيقَةٌ، فَحَدَّثَهُ بأَمْر الرسالة فأَقْنَعَهُ، ثم أَتى به إِلى رسولِ اللّه ﷺ فأَسْلَمَ بَيْنَ يَدَيْهِ وشَهِدَ لِلّهِ بالوْحدانية ولمحمّدٍ بالرِّسالة.

إسـلام فـاطـمـة

عاد **سعيدٌ** إِلى بَيْتِهِ فاسْتَقْبَلَتْهُ زَوْجَتُه فَحَدَّثَها بما جرى مَعَهُ، وما أقْدَمَ عَلَيْهِ، كما حَدَّثَها عَنْ لِقَائِهِ مع رسولِ اللّه ﷺ وما شَعَرَ بِهِ خلالَ ذلك اللِّقاء مِنْ رُوحانِيّةٍ شفّافَةٍ عُلْوِيَّة، ثُمَّ ظَهَرَتْ على مُحيّاهُ علاماتُ الجِدِّ

والرّصَانة حين أَخَذَ يَشْرحُ لها بَعْض ما يدعو إليه **محمدٌ** من تَغْييرات أَساسِيّة في التَّركيب العقائدي والاجتماعي والسياسي لما تعارَفَ عليهِ النّاس في المجتَمَعِ القَبَليّ الجاهلي.

كانَت **فاطِمَةُ** تصغي إِليْه بكُلّ جوارِحِها وعواطِفِها وعَقْلها، وما أَنْ خَتَمَ كلاَمَهُ حتى شَهِدَت **فاطِمَةُ** بالشّهادَتَيْنِ، فَسُرَّ **سعيد** غايَةَ السُّرُورِ وضَمَّ زَوْجَتَهُ إِلَيْهِ ضَمَّةً أَوْدَعَهَا كُلَّ حنانِهِ ومحبَّته.

البيت المسلم

ورانَ على جَوِّ ٱلْبَيْتِ طائفٌ من الرّحْمن، يُسيِّجُهُ بَالْعِلْم، ويُحَصِّنُهُ بالخُلُق، ويحميهِ من الزَّيْغ والفِتْنَةِ والضَّلالِ، ويأْخُذُ بِيَدِهِ فِي مَدَارِجِ الْمَعْرِفَةِ.

وكان **خبّابُ بن الأرَتِّ** رضي اللَّه عنه يأْتيهم دَوْماً فيزوِّدهم بزادِ القرآن، ويُفَقِّهُهُم في دينِ اللَّه، ويَشْرَح لهم ما استغْلَقَ على عُقولِهِم، ويُنمِّي في قلوبِهِم غَرْسَةَ الإِيمان. ويَحْرِصُ ويَحرِصون على أَنْ لا يَشيعَ خَبَرُ إِسلامهم خَوْفاً من بَطْش **عُمَر** بِهِم وثَوْرَتِهِ المدمِّرة عليهم.

شرارة الإيمان

وفي أَحَدِ الأَيّام بينما كان **عُمَر بن الخطاب** رضي اللَّه عنه. في جماعةٍ من رؤُوسِ قُرَيْشٍ يَجْلِسُون في دارِ النّدوة يتجاذبون أَطْرافَ الحديث، ويتناقشون في أمْرِ الدّعْوة الطارئة التي يحمل لواءَها **محمد بن عبد اللَّه** ويُبَشِّر بها، وما آلَ إِليه أَمْرُ النّاس بَيْنَ مُعْجَبٍ بها ومؤيِّدٍ لها، وبين نافِرٍ منها محاربٍ لها، ويتجادَلُون فيما أَصْبَحَ عَلَيْهِ مُجْتَمعهم ٱلمكّي من تَزَلْزُلٍ وتفكُّكٍ.

بينما هُم في ذلك و**عُمَر** أَكْثَرُهم حماسةً، وأشدهُم ٱنفعالاً، قامَ واقفاً والغَضَبُ بادٍ في عَيْنَيْهِ حمْرةً تَتَوَقَّد، ثمَّ غادَرَهم متوجِّهاً إلى دار «الأَرْقَم بن أَبِي الأَرْقَم» يُريدُ أَنْ يَفْتِكَ بمحمدٍ ويقضيَ عَلَيْهِ ليُريح النّاسَ من شُرورِ دعوته وآثام رسالته، التي ـ كما يدَّعي ـ فَرَّقَت بيْن الأَب وابنه، والزَّوْج وزوجته، وبَذَرت بُذورَ الشّقاق بَيْنَ الأَشِقّاءِ والأَقْرِباء.

كان يَمْضي في طريقة تَهُدُّ ٱلْأَرْضَ خطواتُهُ فيَكادُ يَخرِقُها، فٱلتقاهُ رجلٌ

من بني **زهرة** فَسَأَلَهُ: أَيْن تريد يا عُمَر؟ وأراكَ في سورة غَضبك هائجاً.

فقال له **عمر**:

ـ أريدُ أن أَقتُلَ **محمداً**...

فقال له الرجُل:

ـ وكَيْفَ تأْمَنُ من بني **هاشمٍ** وبني **زُهرة** وقد قتلْتَ محمداً؟

فقال له **عمر**:

ـ ما أراك إلاّ قَدْ صَبَوْتَ!!!

فَأَجَابَهُ الرجُل:

ـ لم أَصْبُ، ولكن... أَفلاَ أَدُلُّكَ على العَجَب... إِنّ خِتْنك **صِهْرَكَ سعيدُ بن زيد** وأُخْتُك **فاطِمَةُ** قَدْ صَبَوا وتركا دِينَكَ...

وهُنا ٱرْتَفَعَتْ دَرَجَةُ حرارةِ حُمّى الغَضَبِ عِنْدَ **عمَر** وقال:

ـ أو قَدْ فَعَلاَ ذلك؟ لَئِن فَعَلا لأَقْتُلَنَّهُما شَرَّ قِتْلَة.

ثم مَضى مُسْرِعاً...، وغَضْبتُهُ تكادُ تَسبِقُ خُطواتِهِ، ولَقَدْ بَلَغتْ ثَوْرَتُهُ حداً لم يعُدْ يُميِّزُ فيهِ الأَشْياء والموجودات. حتى دنا مِنْ مَنْزِلِ أُخْتِهِ **فاطمة**.

اقْتَرَبَ من الباب فوجَدَهُ مُنْفرجاً قليلاً، وحينَ هَمَّ بالدُّخُول سَمِعَ أَصْواتاً تُرَدِّدُ كلاماً لم يَتَبَيَّنْهُ، فَتَسَمَّر في مكانِه وأَصْغى قليلاً ثُم دخَلَ وصوتُهُ يُدَوّي بالنِّداء على أُخْتِهِ.

كان **خبابُ** رضي اللّه عنه في ذلك الحين يَقْرأ على مَسْمَع **سعيدٍ** و**فاطمة** بعض آياتِ القرآنِ الكريم، فلمّا أَحَسَّ بدخولِ **عُمَر** قام وٱخْتَبَأَ.

دخل **عُمَرُ** على أُخته وصِهْرِه قائلاً:

ـ ما هذه الهَيْمَنَةُ التي سَمِعْتُ؟

وكانت **فاطمة** قد أَخَذَتْ صحيفة القرآن فجعلتها تحتها لتُواريَها عن ناظِرَيْ **عمر**.

ثم أَجاباهُ:

ـ ما سَمِعْتَ شَيْئاً...

قال **عمر**:

ـ بلى واللّهِ، لقد أُخبِرتُ أَنَّكما تابَعْتُما مُحَمّداً في دينِه.

ثم هَجَمَ عَلَى صِهْرِه **سعيد** وصَفَعَهُ وبطش بِهِ، فَجَرَتْ دماؤه...

فقامَتْ **فاطِمَةُ** لتُدافِعَ عن زَوْجِها وتَقِفَ حائِلاً بَيْنَهُ وبَيْنَ **عُمَرَ** الغاضبِ الثّائر.

فَضَرَبها هي أيْضاً فشَجَّها.

وكأَنَّ هذا الموْقفَ أَثارَ في نَفْسِيْ **فاطِمة** و**سعيد** إيمانهما المتَحدّي، فقالا:

ـ نعَمْ لَقَدْ أَسْلمنا وآمنّا باللّه ورَسُولِهِ، فَٱصْنع ما بدا لَكَ.

وكان لِمنْظَرِ الدماء التي سالَتْ مِنْ **فاطِمة** و**سعيد** ولِجوابِهِما الذي أجابا بِهِ دونَ خَوْفٍ أَوْ خشيةٍ أثَرٌ في **عُمَر**، فَنَدِمَ على ما بَدَرَ مِنْهُ، وأَسِفَ لتَسَرُّعِه، وهو الذي لم يعُدْ يملك إِزاء هذا الإِصرار والتحدي إلا أَنْ يسْتَسْلم.

فقال لأختِه **فاطمة**:

ـ أعطيني هذه الصّحيفة التي سَمِعْتُكُمْ تقرؤُون آنفاً أَنْظُر ما هذا الذي جاء بِهِ **مُحَمّد**.

فقالت لَهُ أُخْتُهُ:

ـ إنّا نَخْشاكَ عَلَيْها.

فقال **عمر**:

ـ لا تخافي.

وحَلَفَ لها بآلِهتِه لَيَرُدَّنّها إذا قَرَأَها إِلَيْهَا، فلَمّا قال ذلك طَمِعَتْ في إسلامِهِ فقالت لَهُ:

ـ يا أخي، إنّك نَجِسٌ على شِرْكِكَ، وإِنّ لا يَمَسُّها إلا الطّاهر، فقام **عُمر** فاغْتَسَل فَأَعْطَتْهُ الصحيفَة فَقَرَأَها فإِذا فيها:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: 1]

﴿طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى * ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: 1 ـ 5].

قرأ **عُمَرُ** بَعْضَ تِلْكَ الآيات ثم ٱلْتَفَتَ إِلى أُخْتِهِ **فاطمة** وقال:

ـ ما أَحْسَنَ هذا الكلام وأَكْرَمَهُ!!!

فلما سَمِعَهُ **خَبّابُ بن الأَرَتّ** خرج من مَخْبَئِهِ الذي توارى فيه ثم قالَ لعُمَر:

ـ يا **عُمَر**: إِني لأَرجو اللّه أن يكونَ اللّه قَدْ خَصَّك بدعْوَةِ نبيِّهِ، فإِني سمعتُهُ أَمْسِ وهُو يقول:

ـ اللهُمّ أَيِّد الإِسلام بأبي الحكم بن هشام أو بِعُمَر بن الخطاب. فاللَّهَ اللَّهَ يا **عُمر**...

وإِلى هذا الحدّ من التفاعُل النفْسيّ كانت رُوح **عُمَر** رضي اللّه عنه قد أَصْبَحتْ على عَتَبَةِ الإِيمان والإِسلام.

فقال لخِبّاب:

ـ دُلّني يا **خبّابُ** على **محمّدٍ** حتى آتيَهُ فأُسْلِم.

فقال له **خبّاب**:

ـ هو في بيْتٍ عند **الصّفا** في نَفَرٍ مِنْ أصْحابهِ[1].

المـواجـهـة

خَرَجَ عُمَرُ من بَيْتِ أُخْتِهِ **فاطمة** مُتَوجِّهاً إِلى الدّار التي دلّه عَليْها **خبّابُ بن الأَرَتّ** حَيْثُ يوجَدُ رسولُ اللّه ﷺ وأصحابه، خرج متَوشّحاً سَيْفَهُ، وشِحْنَةُ الإِيمانِ تَمْلأُ قَلْبَهُ الذي كثُرتْ خَفقَاتُهُ، لأَنَّهُ مُقْدِمٌ عَلى أَمْرٍ خطير وشأْنٍ عظيم.

ها هو في سَيْرِهِ مُتّئِد الخُطا، هَيِّن الوَقْع، ساهماً سابحاً في أجواءٍ من التّطَلُّعاتِ إِلى المستقْبل يَتَهَيَّبُ المَوْقفَ واللّقاء، وهو الّذي ما هابَ قَبْلُ إِنْساناً، ولا اضْطَرَبَ أَمامَ بَشَرٍ، بَلْ هُوَ الّذي كان يُرْهِبُ الآخَرينَ، فَتَنْخَلِعُ القُلُوبُ لِغَضْبَتِهِ وثَوْرَتِهِ.

---

(1) أخرجه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (167 ـ 168) وذكرها ابن عساكر في «مختصر تاريخ دمشق» (269268) وذكرها السيوطي في «تاريخ الخلفاء» (113 ـ 114) وابن حجر في «الإصابة» (8/ 161) ترجمة (833) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 364).

لقد كان لفاطمة رضي اللّه تعالى عنها ولموْقِفِها الإيمانيّ، العظيم، وتصدّيها لعمر بن الخطاب المتجبّر المتكبِّر الأَثَر الأوَّل.

إِذْ تطامن كبرياؤُهُ، وتلاشى جَبَروتُه، وتبدّدَت مقاوَمَتُهُ شَعاعاً أمامَ صلابَةِ إيمانِها وإِسْلامها.

نَذْكُرُ ذلك لفاطِمة رضي اللّه عنها ولا نَنْساه، ونُنْزِلُهُ من نُفوسِنا وأرْواحِنا مَنْزِلَ الإِكْبارِ والإِجْلال.

وَبِيَدٍ حانيةٍ رقيقةٍ قَرَعَ **عُمرُ** باب بيتِ **الأَرْقَم بن أبي الأَرْقم** ونادى، فلمّا سَمِعوا صَوْتَهُ قامَ رجُلٌ من أَصحاب رسول اللّه ﷺ فَنَظَرَ من خَلَلِ الباب فرأى **عُمَر** متوشِّحاً سَيْفَهُ.

فَرَجَع إلى رسول اللّه ﷺ وهُوَ فَزِعٌ فقال:

ـ يا رسُولَ اللّه، هذا **عُمَر بن الخطاب** مُتَوَشِّحاً السَّيْفَ!!!

فقال **حَمْزَةُ بن عبد المطلب** رضي اللّه عَنْهُ:

ـ إِئْذَنْ لَهُ، فإِنْ كانَ جاءَ يُريدُ خَيْراً بَذَلْنَاهُ لَهُ، وإِنْ كان يُريدُ شَرّاً قَتَلْنَاهُ بِسَيْفِهِ.

فقالَ رسولُ اللّه ﷺ:

ـ إِئْذَنْ لَه...

فأَذِنَ لَهُ الرَّجُل، وفَتَحَ البابَ، ودَخَلَ **عُمر**.

فَنَهَضَ إليه رسولُ اللّه ﷺ حتى لَقِيَهُ عِنْدَ مدْخل الدَّار في الحُجْرةِ الخارِجيَّةِ، ثُمَّ أَخَذَ بِمَجْمَعِ رداءِ **عُمر** وجذبَهُ جذبَةً شديدَةً وقالَ لَهُ:

ـ ما جاءَ بكَ يا ابن الخطاب؟ فَوَاللّهِ ما أرى أنْ تَنْتَهي حتى يُنْزِلَ اللّهُ بِكَ قارِعَةً..

فقال **عمر**:

ـ يا رسولَ اللّه...، جئتُكَ لأُومن باللّه وبرسُولِه، وبماجاءَ مِنْ عِنْدِ اللّه.

فكَبَّر رسولُ اللَّه ﷺ تكبيرةٍ عَرَفَ أَهْلُ البيت من أصحاب رَسُولِ اللَّه ﷺ أَنَّ **عُمرَ** قد أَسْلَمَ، فكبّروا وهلّلوا، وأعلنوا فرْحَتَهُم.

وهكذا. . . أَسْلَمَ **عُمَرُ بن الخطاب** رضي اللَّه عنه، وكان إِسلامُهُ كما قال عنهُ رسولُ اللَّه ﷺ: فَتْحاً.

وسَجَّل التّاريخ لفاطِمَةَ بنتِ الخطاب رضي اللَّه عنها سابِقَتَها تِلْك في أَنْصَعِ صَفْحاتِهِ.

ثم عاشَت **فاطِمةُ** بَقِيَّةَ حياتها بعد ذلك في ظل الإِسْلام، تَنْهَلُ من نميرِ الإِيمانِ الصّافي، وتَرِدُ أعْذَبَ ينابِيعِهِ، فَرَوَتْ بَعْضَ الحديثِ عَنْ رسولِ اللَّه ﷺ.

لقد أَطَلَّتْ **فاطِمةُ** على سِجِلِّ الخالِدَاتِ في التّاريخ من خلال إِسلام **عمر** ويكفيها ذلك مَجْداً وفَخْراً.

رضي اللَّه عنها وأرضاها.

* * *

أم منيع
أسماء بنت عمرو
رضي اللّه عنها

لا أدري ما الذي جعل فقهاء السيرة الشريفة والمؤرخين لا يعطون **أم منيع** ـ أسماء بنت عمرو ـ حقها في البيان والحديث، وتسليط الأضواء على شخصيتها ـ رضي اللّه عنها ـ!!؟

فلعلهم جذبتهم شخصية صاحبتها ورفيقتها يوم بيعة العقبة الكبرى: **أم عمارة**، وشدتهم شدّاً أسر عليهم فكرهم وحسهم وشعورهم، فانطلقوا مع **أم عمارة** ـ رضي اللّه عنها ـ يتتبعون فصول حياتها، جزئية جزئية. . ، وفي أدق التفاصيل، حتى استكملوها.

وحق لهم ذلك، فإن في حياة **أم عمارة** ـ **نسيبة بنت كعب المازنية** ما يستحوذ على العقل والقلب معاً.

ولكنه من البتر التاريخي والتقصير في حق **أم منيع** ـ أسماء بنت عمرو ـ رضي اللّه عنها ـ أن لا نسجلها في عداد الصحابيات والنساء اللواتي كن حول رسول اللّه ﷺ، سواء بذواتهن أو من خلال شخص جعلنه يقوم مقامهن العظيم هذا.

لقد كانت ـ رضي اللّه عنها ـ المرأة الثانية في وفد الأنصار ـ من **يثرب** إلى **مكة** لمبايعة رسول اللّه ﷺ.

تحملت ـ رضي اللّه عنها ـ كل مشاق الرحلة ومتاعبها، وعانت من ظروفها. . .، يحدوها حبّ اللّه ورسوله، ويحفزها الشوق إلى لقيا الحبيب **محمد** ـ ﷺ ـ؛ واستشراف طلته، والاستماع إليه.

أسلمت قبل أن تخرج من **يثرب**، وآمنت. . .، وتشربت روحها كل سمو الدين الجديد الحنيف؛ كانت تسمع من **مصعب بن عمير** ـ رضي اللّه

عنه ـ، أوممن ينقلون عنه، وكان في وجدانها استعداد التلقي، نتيجة الصفاء، والعلو عن أوضار الجاهلية والوثنية.

فلما أذن مؤذن الرحلة لبت واستجابت، وأسرعت بالانضواء تحت لواء الذاهبين إلى **مكة** في فرحة وسعادة.

لقد كانت ـ رضي اللَّه عنها ـ ثانية اثنتين من نساء الأنصار في أعظم عهد وعقد، وبيعة كانت نقطة تحول في مسار الدعوة، ومفترق طريق؛ قدر اللَّه تعالى بها أن تكون المدينة وأهلها كتيبة الإسلام الأولى ودروعه الحصينة ومنطلقه إلى الآفاق باندفاعة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً، لا في القديم ولا في الحديث، ولا في الشكل ولا في المضمون!!

فمن التجني على حقبة بيعة العقبة وعلى أهلها أن لا يعطوا حقهم من الذكر، فرداً فرداً، أو أن يمر الذاكرون لهم على شخصية **أم منيع** مروراً لطيفاً خفيفاً. . . عابراً. . !

جاء في **الإصابة**[1] الترجمة رقم **1520**:

أم منيع والدة **شباث** بمعجمة وموحدة وآخره مثلثه. قيل هي **أسماء بنت عمرو** التي تقدمت في حرف الألف ـ وقد أخرج **ابن سعد**[2] عن **الواقدي** بسند له إلى **أم عمارة** قالت: كانت الرجال تصفق على يدي رسول اللَّه ﷺ ليلة بيعته العقبة **والعباس** آخذ بيده، فلما بقيت أنا **وأم منيع** نادى زوجي **عربة بن عمرو**: يا رسول اللَّه هاتان امرأتان حضرتا معنا يبايعنك، فقال: «قد بايعتكما؛ إني لا أصافح النساء» وقال **ابن سعد** أيضاً أنها شهدت العقبة مع زوجها **خديج بن سلامة**؛ وشهدت **خيبر** أيضاً. اهـ.

وجاء في **الإصابة**[3] أيضاً ـ الترجمة رقم 49:

أسماء بنت عمرو بن عدي بن ياسر بن سواء بن غنم بن كعب بن سلمة، الأنصارية السلمية أم **معاذ بن جبل**، وكنيتها: **أم منيع**.

---

(1) ج (4) (ص477).

(2) في الطبقات.

(3) ج (4) ص (225).

ذكر ابن إسحاق بسند صحيح عن كعب بن مالك أنها كانت مع من شهد العقبة مع السبعين، هي ونسيبة **بنت كعب** وقاله في التجريد؛ وقيل هي: أسماء بنت عدي بن عمرو[1]. اهـ.

إذاً. . .، فقد حضرت **أم منيع** بيعة العقبة مع ابنها الصحابي الجليل **معاذ بن جبل** ـ رضي اللَّه عنهما ـ؛ كما حضرت من بعد وقائع المسلمين مع عدوهم، وشاركت في مهام النساء الصحابيات ـ رضي اللَّه عنهن ـ من إسعافات ومداواة، وسقاية العطشى، وتحضير الطعام، وغير ذلك بما تسمح به الظروف والإمكانات.

ولعل فيما ذكره صاحب **الإصابة** عن حضورها خيبر، وقسمة رسول اللَّه ﷺ لها، ما يوحى ـ بل ويؤكد ـ حضورها فيما سبق **خيبر** أو كفاحها في قتال ومواجهة؛ ذلك أن **أم منيع** ـ رضي اللَّه عنها ـ صاحبة البيعة الأولى لن تتأخر عن الالتزام. . .! بل التفاني في ذلك.

ولئن قدر لـ **أم منيع** رضي اللَّه عنها ـ أن تغطي بعض السحائب على مسيرة حياتها ـ أو تغفلها ـ، فإن في شخصية ابنها **معاذ بن جبل** ـ رضي اللَّه عنها ـ ما يخفف من وطأة هذا التناسي؛ إذ يكفيها ـ رضي اللَّه عنها ـ أن تقدم للإسلام في مطلع النور وانحسار الديجور وانتشار الظهور فذاً من الأفذاذ الأوائل وصحابياً من طرازٍ فريد هو سيدنا **معاذ بن جبل** ـ رضي اللَّه عنه ـ.

ومن حق **أم منيع** علينا، التي قدمت **معاذاً**. .، أن نلقى بعض الضوء على شخصيته، من غير شطط في الحديث، ولا بُعد عن الموضوع، قال عنه صاحبُ **الإصابة**[2].

الإمام، المقدم في علم الحلال والحرام.

قال **أبو إدريس الخولاني**: كان أبيض، وضيء الوجه، براق الثنايا أكحل العينين. وقال **كعب بن مالك** ـ رضي اللَّه عنه ـ: كان شاباً جميلاً سمحاً، من خير شباب قومه. وقال **الواقدي**: كان من أجمل الرجال، وشهد المشاهد كلها، وروى عن النبي ﷺ أحاديث.

---

(1) يعني: تقديم وتأخير بين الروايتين في الأب والجد.

(2) ج (3) ص406.

روى عنه **ابن عباس** و**ابن عدي** و**ابن أبي أوفى الأشعري** و**عبد الرحمن بن سمرة** و**جابر بن أنس** وآخرون من كبار التابعين.

وشهد بدراً وهو ابن إحدى وعشرين سنة.

وأمره النبي ﷺ على اليمن، والحديث بذلك في الصحيح من رواية **ابن عباس** عنه.

وذكر **سيف** في الفتوح بسند له عن **عبيد بن صخر** قال:

قال رسول اللَّه ﷺ لـ **معاذ** حين بعثه إلى اليمن:

«إني قد عرفت بلاءك في الدين والذي قد ركبك من الدين، وقد طيبت لك الهدية، فإن أهدى لك شيء فاقبل».

قال: فرجع حين رجع بثلاثين رأساً أهديت له.

قال بهذا الإسناد:

إن النبي ﷺ قال له لما ودعه:

«حفظك اللَّه من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك ومن فوقك ومن تحتك، وأدرأ عنك شرور الإنس والجن».

وفي سنن **أبي داود** عن **معاذ بن جبل** ـ رضي اللَّه عنه ـ قال:

«قال لي النبي ﷺ: إني لأحبك..» الحديث. في القول بعد كل صلاة.

وعده **أنس بن مالك** ـ رضي اللَّه عنه ـ فيمن جمع القرآن في عهد رسول اللَّه ﷺ؛ وهو في الصحيح.

ويه: عن **عبد اللَّه بن عمرو** ورفعه: **اقرؤوا القرآن عن أربعة** فذكره فيهم.

وقال الشعبي عن مسروق: كنا عند **ابن مسعود** ـ رضي اللَّه عنه ـ فقال: **إن معاذاً** كان أمة قانتاً كان أمة قانتاً للَّه؛ فقال **فروة بن نوفل**: نسيت!!!؟، فقال: ما نسيت.. إنا كنا نشبهه بـ **إبراهيم** ـ عليه السلام ـ.

وقال**أبو نعيم** في الحلية[1]:

إمام الفقهاء، وكنز العلماء، شهد العقبة[2] وبدراً والمشاهد، وكان من

(1) حلية الأولياء (أبو نعيم الأصبهاني).

(2) شهدها مع أمه «أم منيع» رضي اللَّه عنهما.

أفضل شباب الأنصار حلماً وحياءً وسخاءً، وكان جميلاً وسيماً.

روى عنه من الصحابة: **عمر** و**أبو قتادة** و**عبد الرحمن بن سمرة** وغيرهم.

وقال **عبد الرزاق**: أنبأنا **معمر** و**الزهري** عن **ابن كعب** و**ابن مالك**: كان **معاذاً** شاباً جميلاً سمحاً، لا يسأل اللَّه شيئاً إلا أعطاه.

وقال **الأعمش** عن **أبي سفيان**: حدثني أشياخ منا، فذكر قصة فيها: فقال **عمر**: عجزت النساء أن يلدن مثل **معاذ**، ولولا **معاذ** لهلك **عمر** ـ أخرجه **محمد بن مخلد العطار** في فوائده. وفي حديث **أبي قلابة** عن **أنس** ـ عن **الترمذي** وغيره في ذكر بعض الصحابة مرفوعاً:

«وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ».

وفي مرسل **أبي عون الثقفي** عن النبي ﷺ:

يأتي **معاذ** يوم القيامة أمام الناس برتوة ـ أخرجه **محمد بن عثمان بن أبي شيبة** في تاريخه؛ وأورده **ابن عساكر** من طريق عن **محمد بن الخطاب** والرتوة **بفتح الراء المهملة وسكون المثناة وفتح الواو**.

وفي طبقات **ابن سعد** من طريق منقطع: أن النبيّ ﷺ كتب إلى أهل اليمن لمابعث **معاذاً**: **إني بعثت لكم خير أهلي**.

ومناقبه ـ رضي اللَّه عنه ـ كثيرة جداً.

وقدم من اليمن في خلافة **أبي بكر** ـ رضي اللَّه عنه ـ، وكانت وفاته بالطاعون في الشام سنة سبع عشرة، أو التي بعدها وهو قول الأكثر، وعاش أربعاً وثلاثين سنة، وقيل غير ذلك، اهـ.

هذه ـ عزيزي القارئ وعزيزتي القارئة ـ لمحات عن شخصية سيدنا **معاذ بن جبل** ـ رضي اللَّه عنه ـ لا أظن أنها وافية بحقه على التاريخ وعلينا، إنما هي مؤشرات على ما كان يتمتع به من فضل اللَّه عليه، خلقة وخلقاً وعلماً جماً، وحفظاً وذكاء ونباهة.

وعند قول سيدنا **عمر بن الخطاب** ـ رضي اللَّه عنه ـ أتوقف قليلاً:

عجزت النساء أن يلدن مثل **معاذ**...!!

فالبطن الذي حواه واحتمله هو بطن **أم منيع**.

والثدي الذي أرضعه لبناً سائغاً هو ثدي **أم منيع**.

والذراعين اللذين ضماه برفق واعتنيا به هما ذراعا **أم منيع**.

والقلب الذي حنا عليه وعطف هو قلب **أم منيع**.

واللسان الذي علمه النطق ووجهه هو لسان **أم منيع**.

لقد اكتملت فيها معاني الأمومة ومعطياتها، كما اكتملت فيه قدرات الاستيعاب والتلقي، ليكون من ثم رجلاً فذاً، قليلاً ونادراً بين الرجال.

والفضل في هذا كله من قبل ومن بعد للّه عز وجل.

لقد استمرت **حولية أم منيع** حول رسول اللّه ﷺ منذ أن رحلت إلى **مكة** مبايعة، ثم مشاركةً في الغزوات بحدود ما تسمح به أعمال النساء، ثم أهدت **معاذاً** ليكون من أقرب الدوائر حول رسول اللّه ﷺ، وكفى بذلك شاهداً وشهيداً.

نسأل اللّه تعالى لـ **أم منيع** ـ أم معاذ ـ أن يكرم نزلها ويثيبها أحسن الثواب؛ ويلحقنا بها في الصالحين من عباده.

* * *

الخنساء

تماضر بنت عمرو بن الشريد

رضي اللَّه عنها[1]

قال اللَّهُ تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111].

وقالت **الخنساء** عِنْدما بَلَغَها نبأُ مَصْرع أبنائها الأَرْبعة في معركة القادسيّة: «الحمد لِلَّهِ الذي شَرَّفني بِقَتْلِهِم...، وأَرْجو من رَبِّي أَنْ يجمعني بِهِم في مُسْتَقَرِّ رحمته»[2].

نَسَبُها ونشأتها

هي: تُماضَرُ بنتُ عمرو بن الحارث بن الشريد، من قبيلة بني سُلَيْم.

وعُرِفت واشتهرت بلَقَبها **الخنساء**؛ والخنساء في اللغة هي التي تَأَخَّر أَنْفها عن وَجْهها مع ارتفاعٍ في الأَرْنَبة.

ولعلَّ وَجْه **الخنساء** كان فيه شيْء من تلك الصفاتِ فلُقِّبت بهذا اللقب.

نَشَأَتْ في ديار **بني سُلَيْم**، في بوادي الجزيرة العربية، وكانَتْ أكثر القبائل تعتمد على المواشي في شؤون حياتها الإقتصادية والمعيشية؛ لذا كانَتْ تنقُّلاتهم كثيرةً طلباً للعُشْبِ والمرعى.

---

(1) ترجم له ابن حجر في «الإصابة» (8/ 66) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 267) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 387).

(2) قاله ابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 268).

وفي البادية يصفُو وَجْه السماء، وتزدان الرَّوابي في فتراتٍ من السَّنة بالخضرة السندسيّة، ويتكاثر الناس حَوْل الواحات التي يتواجَدُ فيها الماء، سواءً كان من المطر أو من الينابيع الجوفيّة...،

هذه الطبيعة حيناً والجافة القاسية أَحْياناً جعلت من الأعراب سُكّان البوادي أَهْل طَبْعٍ شاعري وفرساناً أَشِدّاء أَقْوياء يتّسِمُون بسماتٍ من غِلْظةِ التعامل وخشونة التواصُل.

في هذا الجوّ... نَشَأَتِ **الخنساء**... وتأقْلَمَتْ وتتطبّعتْ...

وبالإضافة إلى ما ذكرنا من أجواء طبيعية وإقليمية تُسَيْطر على البادية وأهلها، كان هُناك شَيْء آخر، هو فصاحة اللسان واستقامة البيان، فلا يَعْرِفُ اللَّحْنُ سبيلاً إلى أَلْسنتهم...

ومن هذا النَّبْع الرقراق النَّمير إسْتقت **الخنساء** سلامة منطقها والستواء بيانها.

فما كادَتْ تشبُّ وتنهض حتى ظهرت مخايلُ شاعريَّتها في أبياتٍ تقولُها في المناسبات، لا تزيد عن الْبَيْتَيْن أو الثلاثة، تصوِّر من خلالها المناسبة وانعكاسها على نفسيّتها ومشاعرها.

سواء كانَتْ صورة طبيعية، أَوْ حركيّة...، أوواقعةً وجدانية.

الخَنْساء ودُرَيْدُ بنُ الصِّمَّة

إذا كان **عَنْترةُ بن شداد** الْعَبْسِيّ قد حاز شَرَفَ البطولة والفروسية وحيكتْ حَوْل شخصيَّتِهِ القصص والأَساطير، والخرافات أَحياناً، فإنَّ مَرَدَّ ذلك إلى اقْترانِ ميزة الفروسية عِنْده بالشّاعرية؛ فقد كان شاعراً مَطْبوعاً إلى جانب جُرْأته وإِقدامه...

إذا كان **عنترة** كذلك... فإن **دُرَيْد بن الصّمَّة** لا يقلُّ عن **عَنْترة** بطولة وفروسيَّةً وشجاعة، ولكنّه لم يحلِّق في دنيا الخلُود؛ وسببُ ذٰلِكَ أَنَّه لم يكُن ليتمتّع بميزات الشاعر وسجاياه وطبعه، فقَصَّر عن الإشتهار، وعلى الْأَقَلّ في نَسْج الأساطير وحَبْك الخرافات والقصص...

ولكنَّهُ كان مُفْتَخِراً بِنَفْسِه، مُعْجباً بذاته. . .، فيه خُيلاء وكِبر. . .

فَيُحكى أَنَّ **دريْداً** مَرَّ ذات يَوْم بناحيةٍ ديار **بني سُلَيْم** قَوْم **الخنساء**، عند ماءٍ لهُم، فرأى **الخنساء** وهي تَهْنأُ بعيراً لها[1]، وقَدْ تَبَذَّلَتْ[2] . . .، فوقف يرقُبُها من بعيدٍ، حتى فرغت من عملها، فخلعت عنها ثيابها فاغتسلت، فرأى من محاسنها ما مَلَكَ عليه لُبَّه وَعَقْله، وأثار فيه كوامن الإِعجاب. . .

وعرف أَنَّها **تُماضر بِنْت الشريد** فتَغَنّى بها منشداً:

حيُّوا **تُماضر** وٱربعوا صحبي ... وقِفُوا فإِنَّ وقوفكُم حَسْبي

أَخُناسُ قَدْ هام الفؤاد بكم ... وأصابه نبْل من الحُبِّ

ما إن رَأَيْت ولا سمعت به ... كاليوم طالي أَيْنق جَربِ

متبذّلاً تبدو محاسنُهُ ... يضع الهناء مواضع النُقْبِ

متحسِّراً نَضَح الهناء بِهِ ... نَضْح العبير بريْطة القلْبِ

فسليهم عني **خُناس** أَذا ... غَضّ الجميع الخطْب ما خطْبي[3]

ثم جاء إلى أبيها خاطباً في اليوْم التالي؛

فقال له أبوها:

ـ مرحباً بك يا **أبا قُرَّة**، إنك الكريم لا يُطعَن في حَسَبِه، والسيّد لا يُرَدُّ عن حاجته، والفحْل لا يُقْرعُ أَنْفه؛ ولكن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيْرها، وأنا ذاكرُك لها، وهي فاعلة.

انصرف **دُرَيْد**. . . ودخل الأبُ على ٱبنته وقال لها:

ـ **يا خنساء**؛ أتاكِ فارسُ **هَوَازِن** وسيِّد **بني جُشَم** ـ **دُرَيْد بن الصِّمَّة** يخطبك، وهُوَ مِمَّن تعلمين. . .

فقالت:

ـ يا أَبَتِ أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرِّماح، وناكحة شيْخ **بني جُشَم**. . !!

---

(1) تهنأ: تطليه بالقطرن.

(2) تَبَذَّلتْ: لَبِسَتْ البسيط من ثيابها.

(3) ذكره ابن حجر في «الإصابة» (8/ 66).

وكان **دُريد** في ذلك الحين قد بدأ يخطو نحو الشيخوخة والهرم؛

فلما أتى **دُرَيْد** يستطلع ردَّها؛ قال له أَبوها:

ـ يا **أبا قُرَّة** قد، امتنعتْ؛ ولعلّها أَنْ تجيب فيما بعد. . .

لكن **دريْداً** لم يَيأس وعاوَدَ الكرَّة، فٱزداد نفورها مِنْه. . . ثُمّ ترجمت ذلك في أَبْياتٍ قالتها:

أَتخْطبني هبلت على **دريْد** وقد طردْت سَيِّد آل بَدْر

معاذ اللَّه ينكحني حَبَرْكي يقال أبوه من جُشم بن بكر

ولو أفنيْت في جُشَم هديا لقد أَمْسَيْت في دنسٍ وفقْر

ويُقال بأن أخاها **مُعاوية** قد حاوَل أَنْ يُكْرهها على الزواج من **دُرَيْد** في غياب أَخيهما **صَخر** الذي كان بالنِّسْبة إلى **الْخَنْساء** كُلّ شيءٍ في حياتها، فأبَتْ واستعصمتْ، وقالت:

تباكرُني حميدةُ كل يَوْم بما يُولي **معاوية بن عمرو**

فَإلاّ أُعْطَ من نفسي نصيباً فقد أَوْدى الزمانُ إذا بـ **صَخْرِ**

شاعِرِيَّتُها

ظَلَّت **الخنساءُ** تقول البيْتين والثلاثة، أو أكثر قليلاً ـ كما أَسْلَفْنا ـ تَبَعاً لِلْمناسبات والوقائع التي تُثير إحساسها ومشاعِرها، فَتُتَرْجم ذلك كلماتٍ وأَبْيات.

ولكن كوامن الثورة الشعْريّة عندها ظَلَّتْ مكْبوتة مقهورة حتّى تَفَجَّرت رثاءً يَقْطُرُ أَلَماً وَدُمُوعاً وحُزْناً، وحلّقت في دُنيا الشِّعْر حتى بلغت قِمَّة الفُحُول. . .

لقد كانت **الخنساء** مُحِبَّةً لِأَخَويْها: **صَخْر**[1] **ومعاوية**، وكانت إلى **صَخْر** أَحَبّ وأَقْرَب، وهُوَ يستحقّ ذلك بمَا فُطِر عليه من شبابٍ غضٍّ وخُلُقٍ سامٍ وشجاعةٍ وإقدام، وسخاءٍ كبير، وحنانٍ بالغ. . .

يعطف على **الخنساء** ويحبُّها، ويَنْفحها على الدوام بأُعطياتِهِ، ويحنو

---

(1) كان «صخر» أخا لي الخنساء من أبيها. و«معاوية» أخا شقيقاً من أبيها وأمّها.

عليْها حُنُوّ الْأَبِ والْأُمّ والزَّوْج والشقيق، كان باختصار مَنْبَعَ الحُبِّ عندها.

ويبدو أَنَّ **صَخْراً** قَدْ حاز فَضْل السيادة والقيادة في عشيرته بما أُوتيه من صفاتٍ وسجايا...

ولقدخَرَج **صخر** ذات يَوْم ـ على عادةِ العرب في الغزو ـ للإغارة على **بني أَسَدٍ**؛ فأُصيب بِطَعْنَةٍ، طعنه بها **أبو نَوْر الأسدي**، فمرِض بسببها قريباً من سنةٍ، ثم مات...

وكان قَدْ سَبَقَه في الموْت **معاوية**، إِذْ قتله **هاشم** و**زَيْد** ـ الْمُرِّيَّان ـ؛ عِنْدَئذٍ تدفَّقتْ **الخنساء** في الرِّثاء، كالبركان الخامد الذي يتفجَّر بسبب من الْأَسْباب، ثُمَّ يَقْذِفُ الْحِمَم واللَّهَبْ؛

وهكذا نَشْعُرُ مع **الخنساء**...

نُحِسُّ بالحرارة الدافقة اللاّهبة تَسْطع وتَلْسَعُ مع كُلّ كَلِمَةٍ... بل مع كُلّ حَرْفٍ؛

تقول **الخنساء** في رثاء **صَخْر**:

أَعَـيْـنَـيَّ جُـودا ولا تـجـمـدا ... ألا تـبـكـيـان لِـصـخْـر الـنَّـدا
ألا تَـبْـكـيـان الـجريء الـجـمـيـل ... ألا تَـبْـكـيـان الـفـتـى الـسـيِّـدا
طـويـل الـنّـجـاد، رفـيـع الـعـمـاد ... سـاد عـشـيـرتـه أَمْـردا
إذا الـقـوْم مـدّوا بـأيـديـهـم ... إلـى الـمْـجـد مـدَّ إلـيْـه يـدا
فـنـال الـذي فـوق أيـديـهـم ... من الـمـجـد، ثـم مـضـى مُـصْـعِـدا
يُـحـمِّـلـه الـقـوْم مـا عـالـهُـمْ ... وإن كـان أصـغـرهـم مـوْلـدا
تـرى الـمـجْـد يـهـوي إلـى بَـيْـتِـهِ ... يـرى أَفْـضـل الـمـجْـد أن يُـحْـمـدا
وإِنْ ذُكِـرَ الـمـجْـد أَلْـفَـيْـتـه ... تَـأَزَّرَ بـالـمـجْـدِ ثُـمّ ٱرتـدى[1]

كما قالتْ في رثاءِ **معاوية**:

ألا لا أَرى في الناس مثل **معاوية** ... إذا طرقَتْ إحدى اللّيالي بداهية

(1) رواه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 387) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 267) وابن حجر في «الإصابة» (8/ 66).

بداهيةٍ يصغى الكلاب حسيسها ... وتخرج من سِرِّ النجيِّ علانية
وكان لزاز الحرْب عند نُشُوبها ... إذا شَمَّرتْ عن ساقها وهي ذاكية
وقوّاد خَيْل نحو أخرى كأنَّها ... سعالٌ وعقْبان عليها زبانية
بلينا وما تبلى تعار وما ترى ... على حدث الأيام إلاّ كماهِيَهْ
فَأَقْسَمْتُ لا يَنْفكّ دمعي وعَوْلتي ... عليْك بحُزْنٍ ما دعا اللّه داعية

كانت عبراتُها كلمات، ودموعها حروف، وأحزانها وآلامها قصائد من عيونِ الرِّثاء، يحفظها الرواة ويرددونها، فتناقلها البيداء من كثيبٍ إلى وادٍ إلى نَجْعٍ، إلى كل مكانٍ في جزيرة العرب؛ فَعَرف القاصي والدّاني بحُزْنها وألمِها، وشِدَّة نكبتها، وزاد شِعْرها في شُهْرةِ **صَخْر** و**معاوية**. . .

وأتاها الزائرون من كل مكان يَسْأَلُونها ويُشافهونَها ويعايشون مِحْنَتها؛ ولقد قيل لها ذات يَوْم:

ـ صِفي لنا أَخَوَيْك: **صَخْراً** و**معاوية**.

فقالت:

ـ كان **صَخْر** واللّه جُنَّة الزمان الأغْبَر، وذُعافُ الخميس[1] الأحمر؛ وكان واللّه **معاوية** القائل الفاعل.

قيل لها:

ـ فَأَيُّهما كان أَسْنى وأَفْخَر؟

قالت:

ـ أما **صَخْر** فَحَرُّ الشِّتاء، وأما **معاوية** فَبَرْدُ الهواء.

قيل لها:

ـ فأيُّهما أَوْجَعُ وأَفْجَع؟

قالت:

ـ أمّا صَخْر فَجَمْرُ الْكَبِد، وأمّا **معاوية** فسقام الجسد.

وأَنْشَدت:

أَسَدانِ مُحْمَرّاً المخالب نجدَةً ... بحران في الزمن الغضوب الأَنْمر

---

(1) الخميس: الجيْش والزّعاف: السُّم.

قَمَرانِ في النادي رفيعا مَحْتِدٍ ... في المجْد فَرْعا سُؤْدد مُتَخَيَّر

أُمْسياتُ وذكرى

وكُلّما أمسى اللَّيْل وٱدلَهَمَّ الظلام غشيها الحُزْن والأَسى، وزادها السَّواد والقتامة هياجاً على **صَخْرٍ** وذكراه، فكانت تردد وتقول:

يؤرِّقني التذكُّر حين أُمْسي ... وَيَرْدعني مع الأحزانِ نُكْسي
على **صَخْر** وأَيُّ فتىً كـ **صَخْر** ... ليوم كريهة وطعان خلْس
وعانٍ طارقٍ أو مُسْتَضِيفٍ ... يروّع قلبه من كُلِّ جَرْس
ولم أَرَ مِثْله رزْءاً لِجِنٍّ ... ولم أَرَ مثله رزْءاً لإِنْس
أَشَدَّ على صروف الدَّهْر منه ... وأفضل في الخطوب لكُلّ لبْس
ألا يا **صَخْر** لا أَنْساك حتى ... أفارق مُهْجتي ويُشَقُّ رمْسي
ولولا كثرة الباكين حَوْلي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
ولكن لا أزال أرى عَجُولاً ... يساعد نائحاً في يَوْم نَحْسِ
تفجُّع والهاً تبكي أخاها ... صبيحة رُزئِهِ أَوْ غبَّ أَمْسِ
يُذكِّرُني طُلُوع الشَّمْس صَخْراً ... وأَبْكيه لكُلّ غُروب شمْسِ
وما يَبْكُون مِثْل أخي ولكن ... أُعزّي عَنْه نَفْسي بالتَّأَسّي

إِسْلامُها

مَرَّت على **الخنساء** سنوات طويلة من عُمْرها، طفولة وصِباً وشباباً، ثم تَفجُّعاً وحَسْرةً على أَخويها **صَخر** و**معاوية**. . . وهي في مَنْأَىً عن الإِسلام الذي ٱمتدَّ مداه، وأَوْرف ظِلُّهُ في كثيرٍ من أنحاء شبه الجزيرة. . .

ولكنها كانت في غَيبةٍ عنه، وذلك لسببيْن، أوّلهما تأخّر إسلام قومها **بني سليم** وثانيهما حُزْنها على أَخَوَيْها الذي شَغَل كُلّ حياتها وعَطّلَ العقْل وشَلَّهُ تماماً. . .

ثم وَفَدَتْ مع قومها إلى المدينة عام ثمانٍ من الهجرة، وكان رسُول اللَّه ﷺ في استعداده لِلْفَتْح، فتْح **مكة** فانْضَمُّوا إليه، وحَسُنَ إسلامُهُم، وشاركوا في كُلّ الغزواتِ بعد ذلك.

تقدير النبيِّ ﷺ لـ« الخنساء »

ـ رضي اللَّه عنها ـ

كانَتْ شُهْرَتُها ـ رضي اللَّه عنها ـ قد ذاعتْ وطار صيتُها في كُلِّ مكانٍ، وخاصَّةً من خلال مراثيها التي سارت بها الرُّكْبان؛ وهي إلى شاعريتها صاحبة شخصيّةٍ قويّةٍ، تتمتّع بالفضائل والأخلاق العالية، والرأْي الحصيف.

لِذَا أَكْرمها النبي ﷺ، وقَدَّر منزلتها ومقامها في العرب وَقَوْمها؛ فبادَلَتِ **الخنساء** كُلَّ ذلك الإِكرام والتقدير بما يليق.

وكان النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّ أَنْ يَسْتَمِعَ من **الخنساء** نَفْسها ما قالتْهُ في أَخَوَيْها؛ فكانَتْ تُنْشِدُ بَيْنَ يَدَيْه قصائِدها؛

والرسُول **عليه الصلاة والسلام** قد أُوتي جوامع الْكَلِم، يُقَدِّر حَقّ التَّقْدير القيمة البلاغيَّة والبيانيّة، ويعرفُ مَنْزِلة الفصيح مِمَّن يَتَفَاصح؛ فكان إذا سَمعَ **الخنساء** أعجبتْه واستزادها بقوله: هِيهِ يا **خُناس**. . . ؛ ثُمَّ يُحرِّك يديْه بإشاراتٍ تُنْبئُ عن استحسانِهِ. . .

ويُروى أَنَّ رسول اللَّه ﷺ لما وَفَدَ عليه **بنو طيئٍ** مُسْلمين، قال له عَدِيُّ بن حاتم الطائي:

ـ يا رسُولَ اللَّه إِنّ فينا أَشْعر الناس وأَسْخى الناس وأَفْرَس الناس.

فقال له عليه السلام:

ـ سَمِّهِمْ. . .

فقال **عَدِيّ**:

ـ أَمَّا أَشْعَرُ الناس فـ **أمرؤ القَيْس**، وأما أَسْخى الناس فـ **حاتم بن سَعْدِ** ـ يعني أباهُ ـ؛ وأمّا أَفْرَسُ الناس فَـ **عمرو بن معدي كرب**.

فقال له رسُول اللَّه ﷺ:

ـ لَيْس كما قُلْت يا **عديّ**. . . ، أَمّا أَشْعَرُ الناس فـ **الخنساء بنت عمرو**؛ وأَمّا أسخى الناس فـ **محمد** ﷺ؛ وأَمّا أَفْرَسُ الناس فـ **عليُّ بن أبي طالب**.

الحكْمةُ على لسانها

ويَبْدو أن شدَّة وَجْدها على أَخَوَيْها قد ألهَبَتْ مشاعرها وأَحاسيسها وصقلتْها وهذّبتْها، ثم فَجَّرتْها ـ كما أَسْلَفْنا ـ، فَجَرَتْ حِكماً بالغةً نطق بها لسانها.

ولقد قيل لِـ **جرير** ـ الشّاعر ـ:

ـ مَنْ أَشْعَر الناسِ؟؟

فقال:

ـ أنا لوْلا **الخنساء**...

فقيل له:

ـ لِمَ فَضَلَتْك؟

فقال:

ـ لِقَوْلِها:

إن الزمان ليفْنى ماله عَجَب أَبْقى لنا ذنباً واستأصل الرأْس
إن الجديديْن في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفْسد الناس

الانقلاب العظيم

مع ما رَأَيْنا آنِفاً من معالم شخصيَّة **الخنساء** في بداوتها، وجموحها، وفصاحتها وعاطفتها، وشاعريّتها، ورثائها الطويل وقلْبها العليل...

مع كُلّ ذلك حَدَث انقلاب عظيم في حياتها منذ أَسْلَمَتْ وآمنت وبايَعَتْ، ثُمَّ فَقِهَتْ وتفهَّمت دين اللَّه؛ وأَضحت إنساناً آخر...

تخضَعُ كُلّ الأُمور عندها، شخصيَّة أو عامّة، لكتاب اللَّه وشَرْعه، فهو المقياسُ الأوْحد ولا شَيْء سواه.

قال لها سيّدنا **عمر بن الخطاب** ـ رضي اللَّه عنه ـ ذات يَوْم:

ـ ما أقْرَحَ مآقي عينيك؟

فقالت:

ـ بكائي على السادات من مُضَرٍ...

فقال لها:

ـ يا **خنساء** إِنَّهُم في النّار!!

فأجابت:

ـ ذاك أَطْوَلُ لِعويلي عليهم؛ وكُنْتُ أبكي لِـ **صَخْر** على الحياةِ فَأَنا اليَوْم أبكي لهُ من النّار.

وأقامت **الخنساء** وَفيَّةً على عقيدتها، متشبّثَةً بدينها وَإِيمانها؛ وغَذَّت أبناءَها بحُبِّ اللّه والجهاد في سبيله، وربّتْهم على الْفضائل والأخلاق.

ولمّا كان يَوْم **القادسيَّة** خرجَتِ **الخنساء** مع المسلمين، وفيهم قومها **بني سليم** إلى العراق، وكان معها أبناؤها الأَرْبعة، وقد أَضْحوا رجالاً، مسلمين شُجعاناً.

وهناك وقَبْل بدء القتال وَصَّتْهم فقالَتْ:

ـ يا بَنِيَّ... لقد أَسْلَمْتُمْ طائعين، وهاجرتُمْ مختارين، ووالله الذي لا إِلٰه إلا هُو إِنكم بنو امرأةٍ واحدة ما خُنتُ أباكُم، ولا فَضَحْتُ خالَكُم، ولا هجَّنْتُ حَسَبَكُم، ولا غَيَّرتُ نَسَبَكُم، وقد تعلمُون ما أَعَدَّ اللّه للمسلمين من الثوابِ الجزيل في حَرْب الكافرين، واْعلموا أَنَّ الدَّارَ الباقية خَيْر من الفانية، يقول اللّه تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200] فإذا أَصْبَحْتُم غداً إن شاء اللّه سالمين، فاْغدوا إلى قتال عدوِّكم مُسْتَبْصرين وباللّهِ على أعدائه مُسْتَنْصرين، فإذا رأيْتُمُ الحرْب قد شَمَّرتْ عن ساقها، واضطرمت لظَى على سياقها، وجعلت ناراً على أَوْراقها، فَتيَمَّمُوا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها، تَظْفَروا بالغُنمِ والكرامة في دار الْخُلْدِ والمقامة.

وخَرَج الأبناء الأربعة واحداً تِلْو الآخر للقتال؛

وحين خَرَج أَوَّلهم أَنْشَدَ:

يا إخوتي إن العجوز الناصحة ... قد نصحتْنا إذْ دعتْنا البارحة

مـقـالـة ذات بـيـان واضـحـة ... فباكروا الحرْب الضروس الكالحة
وإنـمـا تـلـقـوْن عـنـد الـصـائـحـة ... من آل ساسان الكلاب النابحة
قد أَيْقَنُوا منكُم بوقْع الجائحة ... وأَنْـتُـم بَـيْـن حـيـاةٍ صـالـحـة
أَوْ مَـيْـتـةٍ تـورث غُـنْـمـاً رابـحـة[1]

وتقدَّم إلى الميدان، وما زال يقاتل ويطاعن حتى استشهد.

ثُمَّ تبعه الثاني وَهُوَ يقول:

إنَّ الـعـجـوز ذات حَـزْم وجَـلَـد ... والـنـظـر الأوفـق والـرأْي الـسَّـدَد
قـد أمـرتْـنـا بـالـسـدادِ والـرَّشَـد ... نـصـيـحـةً مـنـهـا وَبَـرّاً بـالْـوَلـد
فباكروا الحرْب حُماةً في العدد ... إمّـا لِـفَـوْزٍ بـاردٍ عـلـى الـكـبـد
أَوْ مـيـتـة تُـورِثُـكُـم عِـزَّ الْأَبَـد ... في جَنَّة الْفِرْدَوْسِ والعيش الرَّغَد[2]

وقاتل حتى استشهد؛

فنزل الثالث إلى الميدان وهُوَ يردِّد:

واللَّهِ لا نَعْصي العجوز حَرْفا ... قـد أمـرتْـنـا حَـرْبـاً وعَـطْـفـا
نُـصْـحـاً وبَـرّاً صـادقـاً ولُـطـفـاً ... فبادروا الحرب الضروس زَحْفا
حـتـى تَـلُـفُّـوا آل كِـسْـرى لَـفّـا ... أو يكشفوكُم عن حماكُم كَشْفا
إنا نرى التقصير مِنْكُم ضَعْفا ... والقتل فيكم نجدةً وزُلْفى[3]

وَحَمَل حملاتٍ شديدة على الكافرين، ثم سقط شهيداً.

فَتَبِعَهُ الرابع إلى الميدان منشداً:

لَـسْـتُ لِـ«خَـنْـسـاء»ولا لِـلأَقْـرم ... ولا لِـ«عمرو» ذي السّناءِ الْأَقْدم
إن لم أَرِدْ في الجيش، جيْش الْأَعْجَمِ ... ماضٍ على الحوْل خِضَمٍّ خَضْرم
إمـا لِـفَـوْزٍ عـاجـلٍ ومَـغْـنَـمِ ... أو لـوفـاةٍ فـي الـسـبـيـل الْأَكْـرَم[4]

وقاتل هُوَ أَيْضاً حتى قُتِل...

---

(1) رواه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 388) وابن حجر في «الإصابة» (8/ 67).

(2)و(3)و(4) ذكرهم ابن حجر في «الإصابة» (8/ 67) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 388).

وحُمِل الْخَبَرُ المفْجِعُ إلى **الخنساء**، ولكنها تلقّتْهُ بِصَبْرٍ وَجَلد، وكأنها تتلقّى نَبأ زفاف كُلّ واحدٍ منهم إلى عروسه في الجنّة.

وقالت بصِدْق إيمان ووفاءٍ ويقين:

«الحمدُ لِلَّهِ الذي شَرَّفَني بِمَوْتِهِم، وأَرْجُو مِنْ رَبِّي أَنْ يجمعني بِهِم في مُسْتَقَرِّ رَحْمتِهِ».

وهذه العبارة ـ عزيزي القارئ ـ هي الْعُنْوانُ الأكْبَرُ على الانْقلاب العظيم في حياةِ **الخنساء**؛ فلم تَقُلْ شِعْراً ولا نطقَتْ ببيْتٍ في حياة **الخنساء**؛ قلم تَقُلْ شِعراً ولا نطقتْ بِبَيْتٍ منه، فيه رثاء على أَحَدٍ من أولادها، ولكنَّها قالت قَوْلة الإِسلام...

وهذه عِنْدنا أَبْلَغ وأَعْظم وأسمى من كُلٍّ ما أَنْشَدَتْ وقالت.

الـوفـاة

وقفلت **الخنساء** عن ميدان **القادسية** وقد فَتَح اللَّه على المسلمين.

عادَتْ إلى **المدينة** فاْستقبلها سَيِّدنا **عُمَر** ـ رضي اللَّه عنها ـ وعزّاها في أبنائها، ورتّبَ لها أُعْطياتِهم[1]...

ثُمَّ انصرفت إلى البادية، إلى مضارب قومها **بني سُلَيْم**، وَقَدْ أَنْهَكَتْها الأَيَّام والأَعْوَام، وجَفَّتْ مياهُ الحياة ودماؤها من عروقها...، وما لبثت أَنْ فارقت الحياة مع مَطْلع خلافة سيدنا **عثمان** ـ رضي اللَّه عنه ـ.

رضي اللَّه عن **تماضر بنت عمرو بن الشريد** ـ الخنساء ـ المؤمنة المسلمة، وغَفَرَ لها، ورحمها..، ووفّاها بما أَسْلَفَتْ مقاماً كريماً في جَنّات النَّعيم.

---

(1) ذكره ابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 268) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 389).

الشيماء

أخت رسول اللّه ﷺ من الرضاعة

رضي اللّه عنها[1]

يا ربنا أبق لنا محمدا حتى أراه يافعاً وأمردا
ثم أراه سيداً مسودا وأكبت أعاديه معاً والحسدا
وأعطه عزاً يدوم أبدا

كان هذا الدعاء والحداء على لسان **الشيماء**، تردده وتترنم به عندما كانت تحمل **محمداً** الصغير ـ ﷺ ـ حين كان مسترضعاً **في بني سعد** تساعد أمها **حليمة** في تحمل العبء؛ سواء في البيت، أو حين تغدو إلى المراعي، وكان ذلك قبل أن يدب على قدميه ويمشي.

كانت **الشيماء** في حدود ما بين الرابعة إلى الخامسة من عمرها فكانت على درجة من الوعي تسمح لها بملاحظة التبدل والتغير في حال الأسرة، من شظف وبؤس إلى رغدٍ وبحبوحةٍ، ومن عسرٍ إلى يسرٍ وتدرك أن هذا التغير كان بفضل بركة هذا الصغير الذي حل بين ظهرانيهم..، فينطق لسانها ـ عفواً ـ بهذه الأهزوجة والأغرودة.

ذكر ذلك **محمد بن المعلى الأزدي** من كتاب **الترقيص**.

ومما يروى في هذا الصدد أن **أبا عُروة الأزدي** كان إذا أنشد هذا يقول:

ـ ما أحسن ما أجاب اللّه دُعاءَها.

والشيماء أو **الشماء** لقب غلب على اسمها الحقيقي، اشتهرت به وعرفت، قال **أبو عمر** ـ ابن عبد البر ـ في **الاستيعاب**: **الشيماء أو الشماء اسمها: حذافة**.

(1) ترجم لها ابن حجر في «الإصابة» (8/ 123) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 425) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 325).

وذكر **ابن إسحاق** من رواية **يونس بن بكير** وغيره أن إخوة النبي ﷺ من الرضاعة:

عبد اللّه و**أنية** و**حذافة** بنو الحارث. و**حذافة** هي **الشيماء** غلب عليها ذلك.

وخلال أربع سنوات من مقامه ﷺ في **بني سعدٍ** انطبعت حياة أسرة **الحارث** بطابع جديد، وتغيرت تغيراً كبيراً على مختلف الصُّعُد، فكانت شخصيته ﷺ هي المحور الذي تدور حوله كل تلك المتغيرات.

ولكن...

هناك سؤال يطرح نفسه في موضوع أسرة **حليمة**، وهو سؤال دقيق بالغ الحساسية:

لماذا لم تبادر الأسرة بعد نبوة **محمد** ـ ﷺ ـ إلى الإسلام، سواء في **مكة** قبل الهجرة، أو إلى المدينة بعد ذلك؛ وهي ترى وتسمع و... تعرف من أخباره ﷺ كل يوم الشيء الكثير؟ لماذا لم تسارع إلى **محمد** الذي رأت منه في طفولته ما لم يره غيرها، من الخير والكرامة؟ ورغم كل الحب الذي نشأ بين الأسرة وبين الطفل الكريم.

لماذا تأخر إسلام الأسرة إلى ما بعد **حنين** في العام الثامن للهجرة؟

فبعد فتح **مكة** تجمعت قبائل **هوازن** و**ثقيف** و**بنو بكر بن سعد** وغيرهم، وأجمعوا أمرهم على قتال **محمد** ـ ﷺ ـ، وقد استبدت بهم حمية الجاهلية، وصور لهم غرورهم أنهم ورثة **قريش** في الزعامة والقيادة، فهم أهل لذلك!!

وقد بلغ تعدادهم ما يزيد على ثلاثين ألفاً، خرجوا بكل عدتهم وعددهم، وأخرجوا معهم نساءهم وذراريهم ومواشيهم، بناءً على طلب **مالك بن عوف** الذي اختاروه قائداً لهم.

وكان تجمعهم في وادي **حنين** بين **الطائف** و**مكة**.

وهناك كان الصدام والقتال، الشرس العنيف...!

يقول اللّه تعالى:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ

﴿تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 25 ـ 27].

ولقد نظر بعض المسلمين يومئذ إلى أنفسهم فأعجبتهم كثرتهم، فقالوا: لن نغلب بعد اليوم من كثرة...! ولم يردوا الأمر في النصر إلى من بيده مقاليد السموات والأرض؛ فحاقت بهم الهزيمة مع بدء القتال، وزلزلوا زلزالاً شديداً، وتفرق أكثرهم...

وكان بطل الموقف يومئذ في استعادة كفة الميزان إلى رجحان الإيمان شخص واحد، علم الناس الثبات على الحق مهما كانت الأخطار، ومهما كانت الظروف، إنه رسول اللَّه ﷺ، الذي نادى في الناس:

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وهو ـ ﷺ ـ راكب على بغلته **دلدل**[1].

إن الخيل قد يصيبها نوع من الجفلة عند قعقعة السلاح فترتد..، أما البغال فإنها تندفع إلى ما يوجهها إليه فارسها ولا تدبر، وتلك من معالم شجاعة الفرسان الذين يمتطونها في المعامع.

ثبت النبي ﷺ، والتف حوله مئات من الصحابة، تداعوا إليه، وكروا معه، وأيد اللَّه الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين.

وتشتت جمع المشركين، ووقع القتل والسبي..، وكثرت مغانم المسلمين من النساء والنعم.

وفي **الجعرانة** جاءت **الشيماء** التي خرجت مع قومها **بني سعد** تستأذن على رسول اللَّه ﷺ ترجو الخير عنده.

فأذن لها، وهو لا يعرفها..، حتى قالت:

ـ يا رسول اللَّه إني لأختك من الرضاعة..!

فقال ﷺ: وما علامة ذلك؟

---

(1) دلدل: البغلة التي أهداه إياها المقوقس القبطي صاحب الإسكندرية ومصر ـ للنبيّ ﷺ.

قالت: عضة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك...!

وعادت الذكرى برسول اللَّه ﷺ إلى أيام الطفولة، رغم مرور عقودٍ من السنين، وتجلت له صورة الأيام التي قضاها في **بني سعد**...، فعرف صدق **الشيماء** فيما تقول[1].

إنه ﷺ كما وصفه ربه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

عندئذ...، وكانت **الشيماء** ما تزال ما تزال واقفة تسأل العفو في ضراعة فبسط رسول اللَّه ﷺ لها رداءه ـ إكراماً لها ـ، وقال لها هاهنا..! وأجلسها بجانبه.

ثم قال لها: إن أحببت فأقيمي عندي محببةً مكرمة..، وإن أحببت أن ترجعي إلى قومك أو صلتُكِ».

فقالت: بل ارجع إلى قومي. فأسلمت، فأعطاها رسول اللَّه ﷺ ثلاثة أعبد وجارية، وأعطاها نِعماً وشاة[2].

رحم اللَّه **الشيماء** ورضي عنها، وأكرم مثواها ونُزلها.

---

(1) ذكره ابن حجر في «الإصابة» (8/ 123) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 325).

(2) «الاستيعاب» لابن عبد البر (4/ 425) ترجمة (3447).

ضباعة القشيرية

رضي اللَّه عنها[1]

قال اللَّه تعالى:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشرح: 1 ـ 8].

ـ وسُئِلَ رسُولُ اللَّه ﷺ عن المرأةِ الصالِحَةِ فقال:

ـ «هي التي إنْ نَظَرَ إليها سَرَّتْهُ، وإنْ غاب عنْها حفظتْهُ في مالِهِ وعِرْضِها».

وصدَقَ رسُولُهُ الكريم

نَسَبُها ونشأتها

هي: ضُباعةُ بنت عامر بن قرْط بن سلمة بن قُشَيرْ بن كعْب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

والنسب الذي ينتهي إلى **عامر بن صعصعة** عند العرب، ينتهي إلى أرومةِ المجد، ودوْحة الشرف والسُّؤْدَد، والمكانة العالية.

في هذا البيت الكريم وُلِدَت **ضُباعةُ**، وفي أفيائه وظلالِهِ رتعت، وتَحْت سقفِهِ تلقَّتْ مبادئ المعرفة، بلاغةً وفصاحةً وبياناً.

وكانَتْ إلى جانب هذا جميلةً بارعة الجمال، ذات قامةٍ ممشوقة، وهامةٍ عالية، ووجْهٍ يقارع البدْر جمالاً ووضاءةً، وبَشرةٍ بيضاء ناصعة، وشَعْرٍ فاحمٍ يحاكي اللّيلَ سواداً، غزيراً طويلاً.

ما سَمِعَ بها أَحَدٌ من شُبَانِ العَرَبِ وفتيانهم إلا وتمنّى أن تكون له زَوْجَةً وأَليفةً.

---

(1) ترجم لها ابن حجر في «الإصابة» (8/ 133) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 333) وابن عبد في «الاستيعاب» (4/ 429).

خـطـبـتـهـا

وجاءَ إلى أبيها **عامر بن قرطٍ**، ـ **هوْذةُ بن علي الجعفي** خاطباً، فقبِلَ به وزوّجها مِنْهُ. . .

ولكن حياتهما الزوجيّة لم تَدُمْ طويلاً، فقد توفِّي عنها **هَوْذَةُ** وهي لا تزال في ميْعة الصّبا؛ وكان غنيًّا واسع الثروة، كثير المال، فورثَتْ عَنْهُ **ضُباعةُ** مالاً وافراً، وعقاراً. . .

وعادت إلى بَيْتِ أَبيها وفي حلقها غُصّة، وفي قلبها حَسْرَة، وفي عينها عَبْرة، حَيْثُ صُدِمَتْ في زواجها الأوّل ولم تكُنْ قد استمتعتْ طويلاً؛ وتأيمَّتْ شابّةً فتيّةً لم تتعدَّ العقد الثاني من عُمْرها.

أقامت في بَيْتِ أَبيها وهي تعاني من أَلَم المصاب والصّدْمةِ المبكّرة، وكان لها ابن عَمٍّ يحبّها ويرغَبُ في الزواج منهَا ويألف عشرتها، ولكنه كان رقيق الحال قليل المال، وكانت هي من ناحيتها ترغَبُ في ابن العمّ هذا وتحبُّهُ وتتمنّاه، لكنها كانت خاضِعةً لرأي أبيها **عامر بن قرط** لا تُبْرِمُ أمْراً دونَهُ، ولا تقطع برأيٍ دون مشورتِه، حتى ولو كان الشأن يتعلّق بصميم حياتها، وخصوصيّاتها.

أضف إلى ابن عمِّها هذا، الذي لم يذكر لنا التاريخ اسمَهُ بل اكتفى بإيراد صفته ورغبته وحُبّه، أضف إليْه **هشام بن المغيرة** السيّد القرشّي والرجُل البارز في عشيرته، فقد كان هُوَ الآخر مُغْرماً بـ **ضُبَاعَة** مفتوناً بِسِحْر جمالها، وحُلْوِ منطقها، وعذْب حديثها، وفتنة بهائها.

لكن أباها **عامر بن قُرْط** أعْرَض عن هذين وزوّجها الزواج الثاني من رجُلٍ لا يقلّ شهرةً ولا مالاً ولا مكانةً عن **هشام**، هذا الرجُل هُوَ **عبد اللّه بن جُدْعان**. . .

والذي جعل والدها يقبله ويرحّب به ويُسْرع في تزويجها منه، كثرة مال **عبد اللّه**، وغناهُ العريض، الذي طَبّقَتْ شهرته الآفاق. وعظيم شهرته التي كانت لا تخفى على أَحَدٍ من أهل الحضر والمدر.

عبد اللّه بن جُدْعان. . . كان على مستوى الرؤساء والزعماء من الْعَرَب

قاطبة، ليس في قبيلتِهِ وَحْدها، بل في كُلّ البطون والعشائر.

وعندما جُهزَت **ضُبَاعَةُ** إلى **عبد اللّه** زوجها الجديد، وحُمِلَتْ إليْه لحق بها ابن عمّها المفتون بها، المتولّه بحبّها، حتى حاذى هوْدجها فأحسَّتْ به، وكانَتْ تحبّه كما ذكرنا، فقال لها:

ـ يا **ضُباعة**... الرّجالُ البُخْر أَحبّ إليْك كنايةً عن عبد اللّه بن جُدْعان أم الرجال الذين يطعنون السّور كنايةً عن نفسه.

فقالت:

ـ بل الرجالُ الذين يطعنون السُّور[1].

قالت ذلك لتعبّر لَهُ عن حُبّها إيّاه، ووفائها لَهُ، لكنها غَير قادِرة على التصدي لإرادة أبيها ومخالفة رغبته؛ فهي تخضع كلّيةً لرغبة الوالد، ولا تدري سبيلاً إلى الفكاك من أَسرِ التسلّط عليها. ثُمّ استمرّتْ في طريقها إلى زوجها الجديد **عبد اللّه بن جُدْعان**، وعاد ابن عمّها يطوي قلبه على حُبّه، خالي الوفاض، لم يفُزْ بطائل.

طلب الطلاق

ومات والدها **عامر بن قرط**...

فأتاها في غفلةٍ من زوجها **عبد اللّه بن جدعان ـ هشام بن المغيرة** الذي كان يحبها حتى العبادة، وكان من رجال قريش المعدودين، ومن رؤوس الأسياد والأشراف في قريْش، فهمَسَ لها في أذنيها، وأيقظ ما كان غافلاً من حُبّهما وقال:

ـ أرضيت **يا ضُباعة** لجمالك وهيئتك بهذا الشيْخ اللئيم **أي عبد اللّه بن جدعان**، سليه الطلاق حتى أتزوّجَك.

وكان والد **ضباعة** في ذلك الحين قد تُوُفي، فأصبحت في وضْعٍ يمكنها من التحرُّك بإرادةٍ مطلقة، ودون ضَغْطٍ.

وفي ذات يَوْمٍ قالت لزوجها **عبد اللّه بن جُدعان**:

ـ أريدُك أن تطَلقني يا **عبد اللّه** فقد كرهْتُ العيْش معك[2].

---

(1) و (2) ذكره ابن حجر في «الإصابة» (8/ 133).

شروط زواجها

ولم يفاجأ **ابن جدْعان** بالطلب، فقد كان عارفاً ومُدْرِعاً لماضيها، وإحساسها بالكراهية له؛ فقال لها:

ـ قد بلغني أن **هشام بن المغيرة** قد رغب فيك، ولَسْتُ مطلقاً لك، حتى تحلفي لي أَنّكِ إن تزوَّجْتِ **من هشام**، أن تنحري مائة ناقةٍ سُودَ الحدْق، بين **إساف ونائلة**[1]، وأن تغزلي خيطاً يُمَدّ بين أَخْشَبَيْ[2] مكة، وأن تطوفي بالبيْت عُريانة. . .

كانت شروط **ابن جدعان** قاسية صعبة، وكأَنّها نَوْعٌ من التعجيز، حتى لا تتمكن **ضباعة** من التنفيذ، وتبقى في مِلْكِهِ وبيْتِهِ وبَينَ يَدَيْه؛

إلا أن رغبتها في الخلاص من **ابن جدعان** كانَتْ أَشَدّ وأقوى وأعظم من شروطه، ولو سخَّرت كُلّ إرادتها وعَزْمها في سبيل ذلك، فقالت **ضباعة** بعد صَمْتٍ قليل، وصَبْر غير طويل:

ـ دعْني أنظُرْ في أمري.

فتركها **ابن جُدْعان** فَتْرةً للتفكير والرّدِّ على شروطه.

وأَرْسَلَتْ **ضُباعة** إلى **هشام بن المغيرة** تخبرُهُ بشروط **عبد اللّه بن جدْعان** زوجها، فجاءَ إليها على عَجَلٍ وقال:

ـ أما نَحْرِ مائةِ ناقةٍ فهُوَ أَهْونَ عَليّ من ناقةٍ **أنحرها** عنك. وكان كما علمت غنيًا ثريًا سيّداً.

وأضاف **هشام**:

ـ وأما الْغَزْلُ فأنا آمر نساءَ بني المغيرة قومه يَغْزِلْنَ لك، وأما طوافك بالبيْتِ عُريانة، فأنا أسألُ لكِ قريْشاً أن يُخْلو لك البيْت ساعةً، فسليه الطلاق[3].

التحدي

وأُحِبُّ قَبْل أن أسترسل في الحديث عن **ضُباعة** وأمورها وشؤونها

---

(1) إساف ونائلة: ضمان كانا مقدَّسين عند العرب.

(2) الأخشبان: جبلان من جبال مكة.

(3) «الإصابة» لابن حجر (8/ 133).

وتفاصيل حياتها، أحبُّ أن أتحدَّث عن الطواف بالبيت في الجاهلية، قبل بعثة سيدنا **محمد** ﷺ، وقَبْل الإِسلام؛ فنقول:

لقد كان الطواف بالبيْت وتعظيمه من رواسب دينِ إبراهيم ﷺ عند العرب، ولكن مع كثير من الانحراف والابتعادِ عن حقيقة مِلّة **إبراهيم** والحنيفية السَمْحاء.

إذ كان طوافهم يُصَاحبُهُ التّصْفيرُ والتصفيق، وذلك كما عَبّر عنه القرآن الكريم، مكاءً وتصْدية، أما الإِحرام فقد أضحى عِنْدَهم تعريةً كاملة للجسد،

كُلّ ذلك جَعَلَ موضوع الحجّ يأخُذُ صِفَة السّخْرية والهزء واللَّعب، والنزول إلى الدَّرْك الأسْفل من الحيوانية والبهيميّة والحُمْق.

ولهذا طلب **ابن جدعانٍ** من **ضباعة** أن تطوف بالبيْتِ عُريانة، كنوعٍ من التحدّي.

وقبلَتْ **ضُباعةُ** التحدّي بتشجيع من **هشام بن المغيرة**، وسألت **ابن جُدْعان** الطلاق للمرّة الثانية، معلنة قبولها بشرُوطِهِ، فطلقها، وربط التّنْفيذ بالإِبرام، كما حَلَفَتْ له أنها ستقوم بالوفاء بالوعد والعَهْد.

الطواف

ووفى لها **هشام** بما وَعَدَ من نحرِ النّياق، وغَزْل الخيْط الطويل، أما الطواف بالبيْت فيُحكى عنه ما يلي:

روى **ابن عباس** ـ رضي اللَّه عنه ـ عن **المطلب بن أبي وداعة السهمي** الذي كان لِدَةً لرسولِ اللَّه ﷺ، في مِثْلِ سِنّه وعُمْرِه قال:

ـ لمّا أَخْلَتْ قريْش لـ **ضُباعة** البيْت خرجتُ أنا ومحمد، ونحن غلامانِ فاستصغرونا، فلم نُمْنَع، فنظرنا إليها لما جاءَت، أي ضُباعة، فجعَلَتْ تَخْلَعُ ثَوْباً ثَوْباً وهي تقول:

اليومَ يبدو بعضه أو كُلّه ... فما بدا مِنْهُ فلا أُحِلُّهُ

تعني جسدها.

حتى نَزَعَتْ ثيابها، ثُمّ نَشَرَتْ شَعْرها، فغطى بطنها وظهرها، حتى

صار في خُلْخالِها، فما استبانَ من جسدها شيء، وأقْبَلَتْ تطوفُ وهي تقولُ هذا الشّعْر[1].

إسلامها

كُلُّ تِلْكَ الأحداث والوقائع في حياةِ **ضباعة** إنما كانَتْ قَبْل إسلامها واتّباعها رسول اللّه ﷺ، ودخولها في الدين الجديد.

ولم تَمْضِ أَعْوَام حتى مات زوجها **هشام بن المغيرة** وكانت قد أنجبَتْ مِنه وَلَدها **سَلَمَة**.

ثُمّ بُعِثَ رسول اللّه ﷺ بالإسلام، يستنقذ به أُمّةَ العَرَب من وهْدَةِ الشرْكِ والوثنية والفجور، ويرتفع بهم، وبالإنسانية، إلى قمّة التوحيد والفضائل.

ولقد رأت **ضباعةُ** في الدين الجديد ما يريحُ النّفْس والقلْب والعقْل، وينْزع بالفرْدِ إلى العلاء، وينزّه المجتمع عن كُلّ رذيلة، وكانَتْ ـ رضي اللّه عنها ـ ميّالة بحُكْم نضوجها واستواء تفكيرها إلى الخير والحق، فآمَنَتْ برسُول اللّه ﷺ، واتّبَعَتْ سبيله.

أسْلَمَتْ **بايَعَتْ** ولم تَخْشَ أحداً من الناس، لا من قومها وعشيرتها، ولا من سادة قريشٍ ومستبدِّيها.

ونَذَرَتْ نفسها جنديَّةً تدافع عن الدين الجديد، وتدعو إليْه، وتجاهد فيه، غايتها رضى اللّه ورسوله.

ويحكى في هذا الصّدَد فيُقَال:

روى **عبد الرحمن العامري** عن أشياخ من قومِهِ قالوا:

أتانا رسول اللّه ﷺ ونَحْنُ بـ **عكاظ**[2]، فدعانا إلى نُصرتِهِ ومَنَعَتِهِ، فأجْبنَاه.

ثم جاء رَجُل يُدْعى **بَجْرِ بن فراس القشيري**، فَغَمَزَ شاكِلَة ناقة رسول اللّه ﷺ، فقمصَتْ به فألْقَتْهُ؛ وعندنا يومئذٍ **ضُباعة بنت عامرِ بن قرط**، وكانت من النسوة اللاتي أسْلَمْنَ مع رسول اللّه ﷺ بمكّة.

---

(1) «الإصابة» لابن حجر (8/ 133).

(2) سوق كان يقام في الجاهلية يجتمع فيه الناس للشعر والتجارة وغيرهما.

فأسرَعَتْ **ضباعةُ** إلى فَزَارة بني عمها أي مكان إقامتهم ومضاربهم فقالت **منادية**:

ـ يا آل عامر، ولا عامر لي، أيُصْنع هذا برسول اللَّه ﷺ بيْن أظْهُرِكُم، ولا يمنعه أَحَدٌ مِنْكُم؟

ويبدو أن نداء **ضباعة** ـ رضي اللَّه عنها ـ هذا، قد أَثَر في القوْم واستثمار حماسَهُم.

فقام ثلاثَةٌ من بني عَمّها إلى **بَجْرة**، فأَخَذَ كُلّ رجُلٍ مِنْهُم رجُلاً، فَجَلَدَ به الأرض، ثُمّ جَلَسَ على صَدْره، ثُمّ علاَ وَجْهَهُ لطْماً.

ورأى ذلك رسول اللَّه ﷺ فقال داعياً:

ـ اللهُمّ بارِكْ على هؤلاء.

ولقد نال الثلاثة ـ كما تقول الرواية، ودون ذكر أسمائهم ـ بركة المصطفى ﷺ، إذ أسلموا جميعاً وماتوا شهداء[1].

وتحمَّلَتْ **ضُباعة** ـ رضي اللَّه عنها ـ قسْوة الحياةِ بـ **مكّة** طوال إقامةِ المسلمين فيها، مُنْصَرِفَةً إلى تربية ولدها **سلمة** وتلقينه مبادئ الإسلام، وتنشئته النشأة الصالحة في ظل الإيمان، وتعرضت ـ رضي اللَّه عنها ـ لضغوط أهل زوجها وأَهْلِها ولكنها صَمَدَتْ واحْتَمَتْ بدينها، واعتصمت بإيمانها، فكان لها ربُّها خير حافظ وهو أرحم الراحمين.

لم تَبْرَح **مكّة** مهاجرة إلى أي مكان، وظلّت مقيمةً فيها حتى كانت الهجرة إلى يَثْرِب، عندئذٍ شَدّتِ الرّحال وانطلقت مع ولدها **سلمة في**... سبيل اللَّه.

أخلاقها

ولا يظنَّنَّ إنسانٌ أبداً أن **ضباعة** ـ رضي اللَّه عنها ـ كانَتْ في جاهليّتها، وقبل الإسلام، فتاةً مستهترةً، لا تقيم للخُلُقِ أو الشرف وَزْناً،

---

(1) رواه ابن الأثير «أسد الغابة» (5/ 333) وذكرها ابن هشام في «السيرة النبوية» (1/ 164).

وأنها تجرّدَتْ من ثيابها إرضاءً لِرَغبةِ عاطفتها وتعلّقها بـ **هشام بن المغيرة**. . . أَبَداً. . . أبداً. . .

ذلك أن زواجها من **ابن جُدْعانٍ** لم يكُن باختيارها، أو بمحضِ إرادتها، ولَقَدْ كانَتْ مكرهةً على ذلك، ثُمّ إنها ذاقَتْ في حياتها مَعَهُ الأمرَّيْن، وحين طلبَ إليها تلك المطالب المعجزة، حَوّلتها إلى **هشام** الذي كان حُبّه لها يتجاوز كُلّ الصعاب، ولو قُدّر له أن يفعل المستحيل لما قَصّر، وسرعان ما استجاب لها.

وضمِن أَهَمّ مَطْلَبٍ، وهو خُلُوّ البيْتِ من الناس أي الكعبة حتى تطوف به عُريانة، ولقد كان من رحمة اللّه بها أن كساها شعراً غزيراً في رأسها، غطى كُلّ أنحاء جَسَدها، فَلَمْ يَبْدُ مِنْهُ شيء.

ولهذا ردّدت:

اليوم يَبْدو بعْضُهُ أَوْ كُلّه فما بدا مِنْهُ فلا أُحِلّه

أي إن بدا من جسمي بعضه أَوْ كُلّه، فهو حرامٌ عليّ وعلى الناسِ جميعاً؛ وعلى الأخص، مَنْ يرغبون بي زَوْجَةً.

توبتها

ولئن كانَتْ ـ رضي اللّه عنها ـ في جاهليتها تعتز، قليلاً أو كثيراً، بجمالها، فإنها في إسلامها قد تبدّلَتْ لديْها القيم والموازين وأضحى الدين والخَلُق والإيمان، مقومات شخصيتها، وموازين الناس والأفراد عِنْدها، وهي المعايير التي ترفع الناس أو تخفضهم في نظرها.

ومصْداق ذلك.

أن رسول اللّه ﷺ قد رَغِبَ في الزواج منها، بعد الهجرة، فخطبها إلى ابنها **سلمة**، فقال:

ـ يا رسول اللّه ما عَنْكَ مَدفع، أفأستأمِرُها؟

قال ﷺ:

ـ نعم.

فأتاها، فقالت **ضباعة** المسلمة المؤمنة القانتة:

إنا لِلَّه **وإنا إليه راجعون** أفي رسول اللَّه تستأْمِرُني؟ عجباً بل أنا أسعى لأن أُحْشَرَ في أزواجه ﷺ إِرْجع إليْه فقُلْ له نعم قبل أن يبدو له أي قَبْل أن يُغَيِّرَ رأيه.

فرجع **سلمة** فقال ما أوصتْهُ أُمّه، فسكت النبيّ ﷺ ولم يقُلْ شيئاً.

وكان قد قيل له بعد أن ولّى **سلمة**:

إن **ضُباعة** ليْسَتْ كما عَهِدْتَ، فقد كثرت غضون وَجْهها، وسقطت أسنانُها من فمها.

لقد كانت **ضباعة** ـ رضي اللَّه عنها ـ على قاب قوسين أو أَدْنى أن تكون من أُمّهاتِ المؤمنين، ولكن للَّه في تدبيرِهِ شؤون وحكم.

رضي اللَّه عنها، وغفر لها، ورفع منزلتها ومقامها، وحَشَرها في جناتِ النعيم مع الصديقين، وألحقنا بها في الصالحين من عباده.

خولة بنت ثعلبة
رضي اللّه عنها(1)

قال اللّه تعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۞ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۞ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: 1 ـ 4].

نَسَبُها ونشأتها

هي: خولةُ بنت مالك بن ثعلبة بن أَصْرَم بن فِهْر بن ثعلبة بن غنم بن عَوْف بن عمرو بن عوْف.

وبنو عمرو بن عَوْف من أشراف يثرب وسَراتهم وأغنيائهم، فيهم أصالة العرب وشهامتهم، وفروسيتهم وضيافتهم.

والذي يَطَّلِعُ على ظروف ووقائع هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة، يرى دائماً اسم **بني عمرو بن عَوْف** في مقدّمة المضيفين لكثيرين من المسلمين.

في هذا الجوّ المشبع بالأريحية العربية، وكرم الضيافة، والشرف والسؤدد، وُلِدَت **خولة** ـ رضي اللّه عنها ـ ونشأتْ وترعْرَعتْ ثُمّ تَربَّتْ في بَيْتٍ كريم تربية عِلْم وفصاحةٍ وأدَب.

فشبَّتْ عالمةً بَليغة القوْل والبيان، فصيحة اللّسان، كاملة المروءة والأخلاق.

---

(1) ترجم لها ابن حجر في «الإصابة» (8/ 68) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 269) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 390).

وكانَتْ على قِسْط من الحُسْنِ والبهاء، لفَتَ إليها الأنظار، فرغب فيها كثيرٌ من شباب **يَثْرب**، وودّوا الاقتران بها، والزواج منها، إلا أنها في النهاية كانت من نصيب أحد أبناء عمومتها، وهُوَ **أوس بن الصامت** أخو **عُبادة بن الصامت** ـ رضي اللّه عنهما ـ.

فخطبها من أبيها، وأَعْرَس بها، وعاشا فَتْرةً من الزّمن على أحْسَن وأهنأ ما تكون الحياة الزوجية.

وكان **أَوْس** أكبر من أخيه **عبادة** ـ رضي اللّه عنهما ـ فلما أَظَلّ الإسلام **يثرب** دخلا جميعاً فيه، وأسلمت أيْضاً **خَوْلة** وكانت ـ كما عَلِمْتَ ـ جيّدة الفهم ناضجة العقل، ففقهت وحفظت، ولازمت بيوت أزواج النبيّ ﷺ، وكانَتْ أكثر ما تتردّدُ على بَيْتِ **عائشة** ـ رضي اللّه عنها ـ.

كما شارك زوجُها **أوْس** في تحمُّل تَبعاتِ الجهاد، وشَرَفِ النضال تحت راية المصطفى ﷺ . . .

الزوجة الوفية

ولكن لا تمضي الحياةُ على وتيرةٍ واحدة، وهنا لا ندري ما الذي أصاب **أوْساً** في **عَقْلِهِ**، فجعله رجُلاً سريع الغضب، عصبي المزاج، حادّ الطبع، بَين الفينة والفيْنة.

ذلك أن كُتُبَ التاريخ ومراجِعَهُ لا تذكر السبب سوى أن **أوس بن الصامت** كان رجُلاً به لَممٌ، أي تنتابُهُ بين الحين والحين حالات من الهياج العصبي، وفقدانٌ للسيطرة على الإتزان فيبدُو هائجاً شديد الثّوْرة.

لم تحدثنا كتب التاريخ ومراجعه ـ مثلاً ـ عن مَرَضٍ أَلَمّ به، أو واقعة معيّنة هي التي كانت السبب في هذا التبدُّل والتغيُّر.

لكن **خولة** السيّدة الناضجة، والزوجة الوفية كانت تتحمّل هذا العيْب الطارئ في حياة **أوْسٍ** وتُغْضي عنه، وتساير الأمور ومُجْرياتِ الأيام بحكمةٍ وصَبْر، حِرْصاً منها على استمرارية الحياة، وحتّى لا تكونَ عُنْصر هَدْم لعش الزوجية الصغير الذي يضمها مع **أوس**.

وهذا ـ ولا شك ـ منتهى الإيمان والصبر والاحتمال، لتكون ـ

رضي اللَّه عنها ـ بعد ذلك قدوة صالحة لغيرها من المسلمات.

طـلاقـهـا

وحَدَث ذاتَ يَوْم أن دَخَلَ **أوس** الدار على **خَوْلة** وهُوَ في أقصى حالةٍ من حالات صَرَعِهِ وَلَمَمِهِ، وأَسْمَعَها كلاماً جارحاً قاسياً، فاحْتملتْهُ، وسكتت، لكنّه اشْتَدّ في التقريع واللّوْم، فأجابته على قوْلِهِ، إذ لم تعُدْ تطيق السكوت، فثار ثوْرة هائلة، وأَعْنَفَ في الرّد والكلام...

فاضطرّت إلى الإِجابة، وذَرّ قَرْنُ الشيطان بينهما، فما كان من **أَوْسٍ** إلا أن مَدّ يده ليصفعها، ويَضربها، فأمسكت به، لكنّه تمادى في ثورتِهِ وهياجِهِ، فدفعتْهُ عنها، فسقط أرضاً.

وقد يطرأ على الذّهْنِ سؤال:

كيْف تستطيع امرأةٌ أن تَغْلِبَ رجُلاً إلا في الحالات النادرة؟ والجواب: أن **أوْساً** كان قد ضعُفَ وشاخ وكبر في السنّ، فلم تعُدْ بِهِ قدْرة على المقاومة.

بهذا تمكنَتْ **خولةُ** من رَدّه عنها، ودفْعِ أذاه.

حين حَدَث ذلك، قام **أَوْس** من سقطتِهِ، وقد عاودَتْهُ بعض ترسُباتِ الجاهليّة في أَعْماقِهِ، وقال في غضب شديد:

ـ أَنْتِ عليّ كظهْرِ أمي.

وهذه عبارة كانَتْ عند العرب في جاهليّتهم تعني الطلاق، أي أَنْتِ محرّمةٌ عليَّ حُرْمة ظَهْرِ أمي.

الزوج المذنب

ثمّ غادر الدار، وجلست **خولة** ـ رضي اللَّه عنها ـ حزينة بائسة، تفكر بحسرةٍ فيما انتهى إليه أَمْرُ علاقتها المقدّسة بـ **أوْس**.

وبعد قليل من الوقْتِ عاد **أوس** إلى الدار، وقد هدأت نفسه وذهبت عَنْه حالة اللّمَم، وصفا فؤاده، دَخَلَ على **خولة** واقترب منها، وراح يلاطفها، ويسايرها، ثُمّ أراد أن ينال منها ما ينال الرّجُل من زوجته، فأَبَتْ عليه وقالت:

ـ ما أظن إلا أنك قد حَرُمْت عليّ...

ثُمّ أَحَسَّ كُلٌّ منهما بَعْدَ هذه الثوْرة الجامحة بالنَّدَم الشديد. . . ، فقد كانا مُحِبِّين، مُتعلقين ببعضهما كثيري الغيرة. . . ،

ثم لبثا فَتْرةً صامتين لا يتكلّمان، وقد عَلَتْ وجُهَيْهما قَترةُ الحزْنِ والألم على ما فَرَّطا، **أوْس** بما قال، **وخولةُ** بما فَعَلَتْ. . . ، ثم قال **أوْس**:

ـ الحقُّ مَعَكِ يا **خولة** ما أراكِ إلاّ قد حرمْتِ عليَّ. . .

فاستدْركت **خولةُ** وقالت:

ـ ولكن يا **أوْس** ما ذكرْتَ طلاقاً، وإنما كان هذا التحريم فينا قَبْل أن يُبْعَثَ رسول اللّه ﷺ، فَأْتِ رسولَ اللّه فَسَلْهُ عما صَنَعْتَ. . .

فَرَدّ **أوْس**:

ـ إني لأستحي يا **خولةُ** مِنْهُ أن أسألَهُ عن هذا؛ فَأْتي أَنْتِ رسُول اللّه ﷺ، عسى أن تكسبينا مِنْهُ خيْراً تفرّجين به عنّا ما نَحْنُ فيه مما هُوَ أَعْلَمُ بِهِ[1].

اجتماعها برسول اللّه

فقامت **خَوْلةُ** فلبست ثيابها ثم خرجَتْ حتى أَتَتْ دار **عائشة** ـ رضي اللّه عنها ـ ثم دَخَلَتْ على رسول اللّه ﷺ.

ثم قالت:

ـ يا رسول اللّه إن **أوْساً** مِنّي مَنْ قد عرفْت، أبو ولدي، وابن عمّي، وأحبّ الناس إليّ، وقد عَرَفْتَ ما يصيبه من اللّمَم، وعَجْز مقدرته، وضعف قُوَّتِهِ، وعِيَّ لسانِهِ، وأحق من عاد عليه أنا بشيءٍ إن وَجَدْته، وأحق من عاد عليّ بشيء إن وَجَدَهُ هُوَ، وقد قال كلمة، والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً، قال:

ـ أَنْتِ عليّ كظهْرِ أمي.

فقال رسول اللّه ﷺ:

ـ «ما أراكِ إلا قد حَرُمْتِ عليْه».

هنا. . .

---

(1) ذكره ابن حجر في «الإصابة» (8/ 69) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 260) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 390).

الـشــرط

تأثّرتْ **خَوْلةُ**، وراحَتْ تُجادِلُ رسُولَ اللّه ﷺ فيما حَدَث، وماذا قال **أوْس** وأن قوْلتَهُ إنما هي من آثار الجاهليَّة، ومخلّفاتها في نفوس الناس؛

فكان ﷺ يجادلها، ويردُّ أَقْوالها، ولا يحْكُم برأْي قَبْل أن يَفْصِلَ في ذلك وَحْي اللّه تعالى وشرعه.

عندئذٍ توجَّهَتْ **خولة** بلسانٍ ضارع، وقلْبٍ خاشع، ووجْهٍ دامعٍ إلى السماء. وقالت:

ـ اللهُمّ إني أشكو إليك شِدَّة وَجْدي، وما شَقّ عليَّ من فراقه؛ اللهُمّ أنزل على لسان نبيّك ما يكون لنا فيه فَرَج...

وتحدّثنا السيدة **عائشة** ـ أم المؤمنين ـ رضي اللّه عنها ـ، عن ذلك فتقول:

ـ لقد بكيْتُ وبكى من كان معنا من أَهْلِ البيْت، رحمْةً لها، ورقّةً عليها، وبينما هي كذلك بَين يدي رسول اللّه ﷺ تكلمه...، كان رسول اللّه إذا نزل عليْه الوحي يغطّ في رأْسِهِ، ويتربَّدَ وَجْهُه، ويجدُ بَرْداً في ثناياه، ويعرق حتى يتحَدَّرَ فيه مثل الجمان.

وأردَفَتْ **عائشة** ـ رضي اللّه عنها ـ تقول موجّهة كلامها إلى **خَوْلَة**:

ـ يا **خَوْلة** إنّه لَيَنْزِلُ عليْه، ما هُوَ إلا فيك.

فقالت **خولةُ**:

ـ اللهُمّ خَيْراً فإِنّني لم أَبْغِ من نبيِّك إلا خَيْراً.

وتابَعَتْ **عائشة** ـ رضي اللّه عنها ـ تروي، قالت:

ـ فما سُرِّيَ عن رسُولِ اللّه ﷺ حتى ظَنَنْتُ أن نَفْسها (أي خولة) تَخْرُجُ فَرَقاً من أن تنزل الفُرْقة.

فسُرِّيَ عن رسُول اللّه ﷺ وهو يبتسم، فقال:

ـ يا خولة...

قالت:

ـ لبَّيْك.

ونهضَتْ قائمةً، فَرِحاً بتبَسُّم رسُول اللّه ﷺ.

ثم قال:

ـ قد أَنْزَل اللَّه فيك وفيه؛ ثُمّ تلا عليها قوْل اللَّه تعالى:

بسم اللَّه الرحمن الرَّحيم

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ * ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

ثم قال ﷺ:

ـ «مُريه أن يَعْتِقَ رقبة».

فقالتْ:

ـ وأيُّ رقبة؟! واللَّه ما يجد رقبةً ومالَهُ خادم غيري.

فقال:

ـ «مُريهِ فَلْيصُمْ شهريْن متتابعين».

فقالت:

ـ واللَّه يا رسول اللَّه ما يقْدِرُ على ذلك، إنّه لَيَشرْبُ في اليوم كذا وكذا مَرّة، قد ذَهَبَ بَصَرُه مع ضعف بدنِه، وإنما هُوَ كالخُرْشافة[1].

فقال:

ـ «فمريه فليطْعم ستين مسكيناً»...

قالت:

ـ وأنّى لهُ هذا؟ وإنما هي وجْبَة.

قال:

ـ «فمريه فلْيأْتِ **أُمّ المنذر بنت قَيْس** فلْيَأخُذْ منها شَطْر وسْقٍ تمْراً فيتصدَّقَ به على ستين مسكيناً».

---

(1) نبات معروف بأرضي شوكة.

تـوبـة أوسـا

فنهضَتْ إلى دارها حامدةً شاكرة مسرورة، فَوَجَدَت **أَوْساً** جالساً عند الباب ينتظِرُ أَوْبتها بفارغ الصّبْر، فلما رآها هَبّ واقفاً، ثم سألها:

ـ ما وراءَك يا **خَوْلَةُ**؟!

قالت:

ـ خَيْراً وأَنْتَ ذميم، قد أمَرك رسول اللَّه ﷺ أن تأْتي **أم المنذر بنت قيس** فتأخذ منها شَطْر وسق تمْراً فتتصدَّق به على ستين مسكيناً؛

وتُكمل لنا **خَوْلة** الرواية فتقول:

ـ فذهَبَ من عندي يعدو حتى جاء به على ظهره، وعَهْدي به لا يَحْمِلُ خمسة أُصْوُعٍ فجعل يُطْعِمُ مُدَّيْن من تَمْرٍ لكُل مسكين.

وفي رواية:

قالت **خولة**:

ـ قال رسول اللَّه ﷺ: «فإنا سنعينُكِ بعذْق من تمْر».

قالت:

ـ فقُلْتُ يا رسُول اللَّه وأنا سأُعينُهُ بعذْقٍ آخر.

فقال:

ـ قد أصَبْتِ وأَحْسَنْتِ فاذهبي فتصدقي به عَنْه، ثم استوْصي بابن عمِّكِ خيْراً.

قالت: فَفَعَلْتُ[1].

حـيـاتـهـا

ثم مَضَتْ سفينةُ العمر في عُباب يَمّ الحياة، تمشي متهادية بـ **خَوْلة وأَوْس**.

فقام ـ رضي اللَّه عنه ـ بما قُدّر له أن يقوم به من جهادٍ في سبيل اللَّه، وأَسْهَمَ بِقِسطِهِ المشكور في خِدْمةِ الإسلام.

كما أَدَّت **خَوْلةُ** ـ رضي اللَّه عنها ـ واجبها في رعاية شؤون

---

(1) الحديث بتمامه ذكره ابن حجر في «الإصابة» (8/ 69) وابن الأثير في أسد الغابة» (5/ 269).

بيتها وزوجها وأهلها، ورَعَتْ أبناءها حق الرعاية، وأدّبتْهم أَحْسَنَ تأديب حتى نشأوا في ظلّ الإِسلام، فتياناً وفتياتٍ، غصوناً مثمرةً زكيّة الرائحة وارفة الظلال.

وعَرَف أَكْثَرُ الصحابة ـ رضوان اللّه عليهم ـ فَضْلَ **خَوْلة** ومكانتها، فأجزلوا في احترامها وتقديرها وتوقيرها، وخاصّةً خليفتيْ رسول اللّه ﷺ من بعده، **الصدّيق** و**الفاروق** ـ رضي اللّه عنهما.

لقاؤها مع عمر رضي اللّه عنه

ويُروى أنّه في زمن **عُمَر** ـ رضي اللّه عَنْه ـ، وكان خارجاً من المسجد ومعه الناس، فمَرّ على عجوزٍ استوقفتْه فوقف، ثُمّ سلَّمتْ عليْه وقالتْ:

ـ هيهاً يا **عُمَر** عَهِدْتُكَ وأنت تُسَمّى عُمَيْراً في سوق **عُكاظ** ترعى الصبيانَ بعصاك، فلم تذهب الأيام حتى سُمّيت عُمَرَ، ثُمّ لم تَذْهَبِ الأيّام حتى سُمّيت أمير المؤمنين. . .

فاتّق اللّه في الرَّعيَّة، واعْلم أنه من خاف الوعيد قرُبَ عليه البعيد، ومن خاف الموْت خشي الفوْت.

فقال **الجارود العبدي**، وكان مع عُمَر:

ـ لَقَدْ أكثرَتِ على أمير المؤمنين أيّتُها المرأة. . .

فقال **عمر**:

ـ دعْها أما تعرفِها. . .؟ هذه **خَوْلَةُ بنت ثعلبة** التي سَمِعَ اللّهُ شكواها من فَوْق سبْع سماوات، والتي أنزل فيها ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾، فـ **عُمَر** أحق واللّهِ أن يَسْمعَ لها؛ واللّه لو أنها وقفت إلى اللّيْل. . .، ما فارقْتُها إلا للصلاة، ثم أَرْجِعُ إليها[1].

تلْك ـ عزيزي القارئ ـ هي المكانة التي بلغتها **خولة بنت ثعلبة** ـ رضي اللّه عنها ـ عِنْد كبار الصحابة، وخلفاء النبيّ ﷺ.

---

(1) «الإصابة» لابن حجر (8/ 69) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 390).

ومن ثَمَّ تُغْفِل مراجع التاريخ الزمن الذي توفّيَتْ فيه **خَوْلة**، إلاّ أننا نُدْرك أنها شاخت وأصبحت عجوزاً في عَهْدِ **عمر**.

رضي اللّه عن **المجادلة** ـ خولة بنت ثعلبة ـ الصحابية المسلمة المؤمنة، والزوجة الوفية، والناصحة الصادقة.

وأنزلها منازل الصديقين والشهداء الصالحين، وحسُنَ أولئك رفيقاً.

وألحقنا بها في الصالحين من عباده، إنه سميع مجيب.

* * *

أُمّ شريك
عزية بنت جابر
رضي اللَّه عنها[1]

قال اللَّهُ تعالى:

﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ [الأحزاب: 50].

وروى **جابرٌ** رضيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال:

ـ حدَّثَتْني **أُمُّ شريكٍ** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ أنَّها سَمِعَتْ رسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول وهُوَ يَذْكُرُ الدّجَّال:

ـ يَفِرُّ النّاسُ مِنْهُ في الجبال.

قالت:

فَقُلْتُ يا رسُول اللَّه فَأَيْنَ الْعَرَبُ يَومئذٍ؟

قال:

ـ هُمْ قليل.

نسبها

هي: غزِيَّةُ بِنْتُ جابر بن حكيم، من بني دَوْس، من الأَزد.

إسلامُها

دَوْس، هي قبيلة **أبي هُريْرة** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ، الحافظ الواعي، الذي رافق النبيّ ﷺ ولازمَهُ سنواتٍ، والْتَقَطَتْ أُذُنُهُ المرهفة وصَدْرُهُ

(1) ترجم لها ابن عبد البر في (الاستيعاب) (4/ 496) وابن حجر في «الإصابة» (8/ 247) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 460).

الرحْب، من الْفَمِ الشريف، أَطْيَبَ الْكلِمِ، وأَرْفَعَ الحكمة، وأَبْيَنَ القوْل.

مِنْ هذه القبيلة آمَنَ بَعْضُ الناس، وارْتحلوا مع **أبي هُرَيْرة** إلى المدينة المنوّرة؛ لموافاة رسُول اللَّه ﷺ.

وكان من بَيْنِهِم رجُلٌ يُدْعى: **أبا الْفكَر**، وهو زوْجُ **أُم شريك**.

جـرأتـهـا

أما **أُمّ شريكٍ** فقد بَقِيَتْ حيث تقيم قبيلة **دَوْسٍ** في مكانٍ يسمّى **ذا الْخَلَصَة**، بانتظار أن تلحق بزوجها **أبي الْفكر** بعد ذلك، وحين تَسْنَحُ الظروف.

ولقد اهْتَمَّ واغْتَمَّ بعض كبار قبيلة **دَوْس** لإسلام أولئك النّفَر الذين ذهبوا إلى المدينة، لمبايعة **محمد** ومتابعته ـ ﷺ ـ.

وسَرَتْ بين المشركين هَمْهَمَةٌ تحوَّلَتْ إلى صَخَب وثَوْرة.

إذْ كيْف يَخْرُج بعضٌ منهم عن طاعتهم ومشورتهم؟ وكيف يسمحون لِأَنْفُسِهم بالصَّبْوَةِ عن دين الآباء والأجداد؟ وكيْف يكفرون بـ **اللاّتِ** و**العُزّى** وغيرهما من الأرباب؟

وجاءَ أَهْلُ **أبي الفكَرِ** إلى **أمّ شريك**، كما جاء أهل كُلِّ من آمن إلى من بَقِيَ فيهم من أقربائه وأنسبائه وذُريّته.

فقالوا لها:

ـ لعلّك على دينه؟ أي دين أبي الفكر، بلَهْجَة التهديد، ونَبْرَةِ الوعيد، وحُمَّى الْغَضَب تتوقّد في عيونهم كالْجَمْرِ الملْتهب.

فقالت ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ دُون وَجَلٍ أَوْ خوْف:

ـ إي واللَّه إنّي لعلى دينه.

قريش وأُمّ الشريك

فثاروا وهاجوا وماجوا، ولوّحوا بأيْديهم يمنةً ويَسرة، وكأنها الرماح المشْرَعة، أو السُّيوف اللامعة، وقالوا:

ـ لا جرَمَ..! واللَّهِ لنُعذِّبَنَّكِ عذاباً شديداً.

ولقد كان التعذيب، وما يزالِ، سبيلاً أوْ وسيلةً من وسائل الترهيب في إكراهِ الناس على أَمْرٍ، أَوْ صَرْفهم عن أَمْرٍ إلى آخر.

ولقد كانت **قُرَيْش** هي الرائدَةُ لكُلّ العرب آنذاك في فِتْنَةِ المسلمين، أو ضعاف المؤمنين لإجبارهم على الرجوع عن دين **محمَّدٍ**، وقَسْرِهم على الباطل.

فمِنْ قريْش تعلَّمَتْ أَكْثَرُ القبائل، وتابعتها على ضلالها وغطرستها وغرورها وجبروتها.

العذاب

فحملوا **أمّ شريك** من دارها، وأخرجوها من ديارها، وذهبوا بها بعيداً في الصحراء، وأركبوها فوق جَمَلٍ وصَفَتْهُ ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا فقالت:

ـ وحملوني على جَمَلٍ ثفال، شَرّ ركابهم وأَغْلَظِه، أي كأنّهُ حَجَرُ الطاحون لشدَّةِ حركته، وقَسْوَة اهتزازه.

وهذا جزْءٌ من العذاب؛ أضافوا إليه إطعامها الْخُبْزَ الجاف بالْعَسَلِ الحارّ، في البيداء القائظة، دون أن يُعْطُوها قطرة ماءٍ واحدة، لتطفِئَ غُلّتها، أو تخفف ظمأها...

إيمانها

وساروا بها تَحْت وهج الشمس اللاهب حتى توسَّطت الغزالةُ كبدَ السماء، وتعاقدَتْ أشعّتُها على صَفْحَةِ الرّمال، فبدا الجوُّ وكأنّه قِسْطٌ من فيح جَهَنّم.

عندئذٍ توقفوا عن المسير، ونزلوا فضربوا أَخْبِيَتَهُم وخيامَهُمْ، واستراحوا في ظِلِّها الظليل يَنْعَمُون بالطعام والشراب، وتركوا **أمّ شريكٍ** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ في الخلاء، تَضرِب الشَمْس بسخونتها رَأْسَها وبَدَنها، حتى غُشِيَ عليها، وفَقَدَتْ كُلّ حِسٍّ أَوْ شعورٍ بما حَوْلها.

وتَصِفُ لنا ذلك فتقول:

وتركوني في الشمس حتى ذهب عقلي وسَمْعي وبَصري.

ولم يَنْفَعْها ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ إقبال اللَّيْل، فقد كان أَشَدّ وطْأَةً من

النهار، تتدنّى فيه الحرارة إلى حدّ كبير، ويَشْتَدّ البَرْد؛ فكما كانتْ تعاني من القيْظِ في النهار كانَتْ تُعاني من الصقيع في اللّيْل.

واسْتَمرَّ القوْم في تعذيب **أُمّ شريكٍ** ثلاثة أيّام، كانت كافيةً من الناحية الزمنيّة للقضاء على أمثالها من الناس، ولكن اللَّه تعالى كان يمدّها بالعوْنِ والعافية، والصَّبْر على البأساء والضّرّاء.

ثُمّ جاؤوها وفي ظنّهم أنّها قد لقيت من العذاب ما يكفي لصرفها عن متابعة الدين الجديد، وإقناعها بتغيير الموقف، وإلاّ فإن الهلاك ينتظرها...

جاؤوها فقالوا لها:

ـ أتْركي ما أَنْتِ عَلَيْه...

فتقول:

ـ فما دَرَيْتُ مما يقولُونَ إلاّ الكلمة بعد الكلمة.

هذا ما عَلِقَ بذهنها، والتقطَتْهُ أُذُنُها، ولكن لسانها ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ عجَزَ عن الجواب، حاوَلَتْ تحريكه بكلمة: لا، ولكن دون فائدة فقد يَبِسَ في فمها، بعد أن جَفّ ريقها، فكأنّه قطعةٌ من الخشب الصلب...

لكنها استطاعَتْ أنْ تحرّك إصبعها السبّابة، نحو الأعلى، مُشيرةً بالتَّوْحيد.

فما ازداد القوْمُ إلاّ غَضَباً وطغياناً وكُفْراً. فأهملوها وتركوها لعلَّها تحسّ بوطْأَةِ الموْت والهلاك فتستغيث، وتغيّر رأيها، وانصرفوا عنها.

وبلَغَ الجهْد بـ **أُمّ شريك** أَوْجَهُ، وقَاربَتْ أنفاسُها من النهاية، عندئذٍ أَحَسَّتْ ببُرودةٍ على صَدْرها، رغم لظى الشّمْس، فإذا بدَلْوٍ مُتَدَلٍّ من أعلى رأسها، تَنْسكِبُ مياهُهُ فَتُطْفِئ حرارة جوفها، ثُمَّ يَقْتَرِبُ بتؤدةٍ من فمها ليعطيها شُرْبَةً واحدةً... لا غير.

ثُمَّ يَرْتَفع فحاولت الإمساك به لتَشْرَب أكثَر وأكثر، ولكن على غير طائل، وإذا به معلّقٌ بَين السماءِ والأرض؛ بعيداً عن متناوَلِ يدها.

ثُمَّ دُلِّيَ إليها ثانيةً، فشرِبَتْ منْهُ نَفَساً، ثُمّ رُفِعَ إلى المكان الذي كان عليْه من قبل، بَين السماءِ والأرض...

ثُمّ دُليّ ثالثةً فَشرِبَتْ منْهُ حتّى ارْتَوَتْ، وأفاضَتْ من مائة على رأسها وبَدَنها، حتى تبلَّلَتْ ثيابها، وكأنها خار-جة من بِرْكة ماء.

وَهُنا نُحِبُ أن نتوقّف قليلاً عند أمرين اثنين:

الأمر الأول: ماء الدّلْوِ الّذي شربت مِنه **أمّ شريكٍ،** ثم أراقتْهُ على نفسها، فهذه كرامةٌ أكْرَمَ اللَّهُ تعالى بها هذه المؤمنة الصادقة الثابتة على الإيمانِ واليقين، التي لا تخشى عذاباً ولا رهقاً في سبيل اللّه.

وسواءٌ كان الماء حقيقةً أمْ سراباً، فإنّ طُمأْنينة الإيمان واليقين التي خالطت قَلْبَ **أمّ شريك** وأضْحَت جُزءاً مِنه، جَعَلَتْ من حرارة الشمس وسُخونَة الهواء بَرْداً وسلاماً، وماءً زلالاً قراحاً.

والأمر الثاني: هُوَ الحكمةُ في كيْفيَّة الشُّرْب، حِكْمَةٌ صِحيةٌ طبيّة، إذ لوْ أخَذَ الظامئ، الشديد العطش، الماءَ دُفْعَةً واحدةً لأضَرَّهُ وآذاه، أما أن يأخُذَهُ بالتدرّج، وعلى مراحل، كما حَدَث لأمّ شريكٍ ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ ففي ذلك الفائدة كُلّ الفائدة.

قصة الفارس

وهنا تحضُرُنا قِصّة ذلك الفارس الذي كان يجُوبُ الصَحْراء فوق فَرَسِهِ حتى أنهكهُ الجهْد، وأضناهُ العطش، ثمّ رأى خَيْمَةً مَضْروبةً في مُنْبَسَطٍ من الأرض ومُسْتَقَرّ. . .

فقصدها، وسأل أَهْلها أن يَسْقوه بعض الماء، فَخَرَجَتْ إليْه فتاةٌ من الخباء، حاملة كوزاً من الماء وقَدَّمَتْهُ له، فتناوله الفارس لِيَشْرَبَهُ، فإذا ببعض القشّ يعلو سَطْحَهُ، فراح يُبدِّدُ القش عن فم الكوز، ثُمّ يَشْربُ رُوَيْداً رُويْداً. . .

فلمّا انتهى، وحمدَ اللّه، شكر الفتاة، ثُمّ سألها:

ـ أَلَيْس من ماءٍ أنظف من هذا عِنْدَكم؟

فقالت الفتاةُ الذكيّة:

ـ ماؤنا أيها الفارس نظيف، إنما أنا الذي وَضَعْتُ الْقَشّ على فم الكوز.

فأبدى الفارسُ تعجُّبَهُ وقال مُسْتَغْرِباً:

ـ ولِمَ؟

فقالت:

ـ لقد رأيْتُكَ مبلّلاً بالْعَرَق، وحُمْرَةُ القيْظ تكاد تفجّر عروق جَبْهتِك ووجنتيك، فخِفتُ إن أَنْتَ شربْت الماء دُفْعَةً واحدة أَنْ تتأذّى وتُصاب بالضّرَر؛ لأنك سَتُقبلُ عَلَيْهِ بِنَهَمِ الظامئ.

وكان من أمر الفارس بعد ذلك أن تزوّج هذه الفتاة الذكيّة، إعجاباً منه بها.

إسلام أعدائها

وبعد هذا الاستطراد، نعودُ إلى **أُمّ شريكٍ** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ إذ جاءَها القوْم المعذبون ليروا ما حَلّ بها، وهل غيَّرت رأيها، فهالُهم ما شهدوا!!!

رأوها مستريحةً نشيطة، مبلّلةَ الشَعْرِ والوجهِ والثوب، فكيف استحْصلت على الماء، ومن أين جاءها؟ لعلّ أحَدَهم ساعَدَها خِفْيَةً عن الباقين.

وقالوا:

ـ من أَيْن لك هذا يا عَدُوَّة اللَّه؟

قالت:

ـ إن عَدُوَّةَ اللَّه غيري، مَنْ خالف دينه، وأمّا قَوْلكم من أَيْنَ هذا؟ فمن عِنْدَ اللَّه، رزقاً رزقنيه اللَّه.

ولم يصدّقوا عيونهم وآذانهم، فانطلقوا مُسْرعين إلى قِرَبِهِم، وإداواتهم، فوجدوها مُوكأةً[1] لم تُحَلّ. . .

عندئذٍ لم يجد الظالمون مناصاً من التسليم والاسْتِسْلام، ولم يجدوا مَوْئلاً غير الإيمان والإسلام.

فقالوا بلسانٍ واحد:

ـ نَشْهَدُ أَن ربّكِ هُوَ ربُّنا، وأن الذي رزقَكِ ما رزقكِ في هذا

---

(1) مربوطة.

المَوْضع، بعد أن فَعَلْنا بِكِ ما فَعَلْناه، هوَ الذي شَرَع الإسلام.

ثُمّ أسلموا وآمنوا، وانطلقوا من فَوْرهم، دون الرجوع إلى ديارهم نحو المدينة؛ وبايعوا رسُول اللّه ﷺ، وأقاموا هناك، يَعْرفون فَضْلَ **أُمّ شريك** ومكانتها عند اللّه ورسوله.

العطاء

وكان **أبو الفكر** زوجها قد تُوُفيّ، وكانت **أُمّ شريك** قد أَسَنَّتْ وكبرت، ولكنها كانت تحتفظ بِمسْحَةٍ من الجمال، فوهَبَتْ نفسها للنبي ـ ﷺ ـ وقالت:

ـ إنّي أهبُ نفسي لَكَ وأتصدَّق بها عليْك، فقبلها النبي ﷺ.

فقالت **عائشة** ـ رضيَ اللّهُ عَنْهَا ـ.

ـ ما في امرأةٍ، حين تَهَبُ نَفْسَها لِرَجُلٍ، خَيْر...

فَرَدّتْ **أُمّ شريك**:

ـ أنا تِلْك.

وسمّاها اللّه تعالى مؤمنة، وأنزل فيها قُرْآناً: ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾.

فقالت **عائشة**:

ـ إن اللّه ـ تعالى ـ ليُسرعُ لكِ في هواكِ.

قصة العُكَّة

ويُحكى أنّه كان لِـ **أمّ شريكٍ عُكّة**، وعاءٌ يوضع فيه السَّمْن، تعيرها من أتاها، فاستامها رجُلٌ، أي ساومها على شرائها؛ فقالت:

ـ ما فيها رُبّ...

ثُمّ نفختْها وعلّقتْها في الشمس لِتَجفّ وتنظف...

وتدخلَتْ إرادةُ اللّه تعالى في **عُكّة أُمّ شريك**، فإذا هي مملوءة سَمْناً.

فكان يُقال في كُلّ المدينة: «ومن آياتِ اللّه عُكَّةُ أم شريك».

والبركة الحاصلَةُ في هذه العُكّة، أنها كانت تهدي بها سَمْناً لرسُول اللّه ﷺ.

ومما يُحكى، أن صِبْيانها طالبوها ذات يَوْم بِسَمْنٍ، فقامت إلى العُكّة

لتنظُرَ إليْها، فإذا بها تسيل، فصبَّتْ لهُم مِنْهُ، فأكلوا حيناً، ثم عادَتْ لترى ما بقي، ثم صبّتْهُ كلّه. . . .

وقصَّتْ على رسُول اللَّه ﷺ ما حَدَث؛ فقال:

ـ أَصَبَبْتِهِ؟ أما إنّك لو لم تَصُبِّيه لقامَ لَكِ زَماناً.

مـوتـهـا

واسْتَمَرَّتْ ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ في ميدانِ الْبرّ وصِلَة الضعفاء المعوزين بكُلّ ما تَيَسّر لها مِنْ مال وعطاء، سيِّدة من المسلمات الخالدات، طيّبة السّمْعةِ، كريمة الصّيت؛ مقدّرة مُحْتَرَمَةً من الجميع.

لقد وهَبَتْ **أمّ شريك** نَفْسها لرسولِ اللَّه ﷺ فقبِلَ منها ذلك ولم يتزوّجها، ولم يَدْخُلْ بها.

وظلّت طيلة ما بقي لها من العُمْر والحياة، تَحْمِل هذه الصفة الكريمة، واللقب الجميل، **امرأةٌ مؤمنة**. . .

ثُمّ أُسْدِل السّتار على فَصْلٍ من أَمْجَدِ الفصول في حياة المؤمنات القانتات العابدات، وطويت صفحة في هذا السجل العظيم.

ولا نَعْلَمُ بالضَّبطُ تاريخ وفاةِ **أمّ شريكِ** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ رَغْمَ كثرة المصادر التاريخية التي تحدَّثَتْ عن إسلامها وإيمانها، ووهبتها نفسها لرسول اللَّه ﷺ.

رضي اللَّه عنها، مسلمة مؤمنة معذّبةً صابرة، وكريمة خَيِّرةً سخيّةٌ، وامرأةً اقترنَ اسمُها باسم أشرف الأسماء وأكرمها وأعظمها، اسم **محمد** ﷺ.

وأَنْزَلها منازل الأبرار الصالحين، مع الصِّدِّيقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً.

أُمّ رومان

زوجة الصديق وأُمّ الصديقة

رضي اللَّه عنها[1]

تَـوْطـئـة

رُوي عن رسُول اللَّه ﷺ قَوْله: «من سَرَّهُ أن ينظر إلى امرأةٍ من الحُورِ العين فَلْيَنْظُر إلى أُمّ رومان».

وإني لا أتصوّر أن رسُول اللَّهِ ﷺ قد عنى بقوله هذا وضاءَة **أُمّ رومان** أو جمالها أو بهاءَها... أبداً!! إنما كان يعني طهارة القلب وصفاءَه، وبراءة النفس المؤمنة من الدنس وقدسيّتها، تلك النفس التي تجمّلتْ بها **أُمّ رومان** رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ.

فما من مَوْقِفٍ وقَفْتُهُ مع مراحل حياتها المباركة إلاّ وأُخِذْت بشخصيّتها الْفَذَّة، زوجةً... وأمًّا... وصحابيَّةً جليلة.

زوجةً لأبي بكرٍ الصديق ـ رضي اللَّه عنه ـ، وأُمًّا لعائشة، أم المؤمنين ـ رضي اللَّه عنها ـ، وصحابيَّةً آمنت وصدَّقَتْ وأسلمت؛ صَبَرَتْ وتحَمّلَتْ وهاجرتْ وجاهدت... وروَتْ عن رسُول اللَّه ﷺ، وروى عنها بعض الصحابة، فأسهمت في إثراء التراث الإسلامي.

فكانت ـ رضي اللَّه عنها ـ علماً من الأعلام، وخالدةً في الخالدات من المسلمات الأوائل اللواتي قامت على أكتافهن دعوةُ الإسلام، تربيةً لأولادهن وتهذيباً، وتوجيهاً وإرشاداً.

ولا أنسى موقفها يَوْم حادثة الإفْك، يوم رُميَتْ الصديقة **عائشة** ـ رضيَ

---

(1) ترجم لها ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (8/ 276) وابن حجر في «الإصابة» (8/ 232) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 447) وابن عبد البرّ في «الاستيعاب» (4/ 489).

اللَّهُ عَنْهَا ـ ابنتها بالإفك، وافْتُري عليها، فقد تجلّى إيمانها في أروع صورةٍ وأسمى هيئة، وبلغت أقصى الذُّرا في الصّبْر والاحتساب.

وتتجمّع المواقف الجليلة في حياةِ **أُمّ رومان** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ لتكوِّن شخصيتها الرائعة، ولتستحق عن جدارةٍ هذه الشهادة العظمى، من أعظم الخلق ورسول الحق وسيد الأنام، فيقول في حقها: «من سَرَّه أن ينظر إلى امرأةٍ من الحور العين فلينظر إلى أمّ رومان».

فهنيئاً لكِ سيْدتي هذا المقام...

وإلى اللقاء مع مراحل حياتك ومواقفك الرائعة على الصفحات التالية.

نسبها ونشأتها

هي: أم رومان[1] بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عقاب بن أذينة بن سُبيع بن دهمان بن الحارث بن غنم بن مالك بن كنانة.

نشأت في منطقةٍ من أرض جزيرة العرب تدعى **السّراة** مع قومها وأهلها، حتى إذا أصبحت كاعباً، ونضجت أُنوثَةً، رغب في الزواج منها أحد الشّبان البارزين في الحي وفي القوم، ويدعى: الحارث بن سخبرة بن جرتومة بن عارية بن مرة بن جشم بن الأوس بن عامر بن حفير بن النمر بن عثمان بن نصر بن زهران بن كعب، من الأزد.

فزوجها أبُوها من هذا الشاب، فعاشت **أمّ رومان** معه فترة حتى ولدت له ولدهما: **الطفيْل**.

إلى مكة

ويبدو أن زوجها **الحارث** كان في تَوْقٍ إلى الإقامة بمكة، مجاوراً لبيْتِ اللَّه الحرام، راغباً في حياةِ قريْش ونمطها...

فقصد مكة مع زوجته وطفله.

وعلى عادة العرب في ذلك الحين، كان لا بُدّ للحارث من أن يَدْخُلَ

---

(1) لم أجد في طبقات ابن سعد ولا في كتاب الإصابة أو أسد الغابة أو الاستيعاب اسماً صريحاً لأم رومان سوى الكنية.

في حِلْفِ أحد الأشخاص البارزين في مكة، ويحتمي به وينتصر ويقوى. . . . فحالف **عبد اللَّه بن أبي قحافة** ـ أبو بكرٍ الصديق ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكان ذلك قبل الإسلام، وقبل ظهور النبي ﷺ، داعياً إلى اللَّه تعالى.

العُرْفُ والتقليد

وبعد فترةٍ من الزمن أقامها **الحارث** مع زوجته **أمّ رومان في** مكة اخترمتْه يد المنون، وتوفاه اللَّه تعالى، فبقيت **أمّ رومان** وحيدة ترعى وليدها **الطفيل**. . .

وكان من تقاليد العرب المتّبعة في ذلك الحين أن الرجل منهم إذا أراد أن يكرم صاحبَهُ بعد مماتِهِ بنى بامرأتِهِ وتزوج من أرملته محافظة منه على العهد والوعد.

لذا تقدم أبو بكر الصديق ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ للزواج من **أمّ رومان**، فقبلت له ورحّبت، وضمّهما بيت الزوجية.

وكان **أبو بكر** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ متزوجاً قبلاً، وعنده من الولد **عبد اللَّه وأسماء** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ.

وولدت **أمّ رومان** لأبي بكر ولديْن آخرين هما: **عبد الرحمن وعائشة** ـ أمّ المؤمنين ـ.

إسلام أم رومان

لم يتأخر إسلام **أمّ رومان** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ أبداً. . . فما أن آمن **الصدّيق**[1] بدعوة صديقه ورفيقه **محمد بن عبد اللَّه**، وأسلم وجهه وقلبه للَّه، وعاد إلى داره متهلل الأسارير، تنطق قسماته بالبشر، حتى حدّث **أم رومان** بما كان. . . فآمنت معه وأسلمت، فاستكتمها الأمر، إلى أن يقضي اللَّه أمراً كان مفعولاً. . .

البيت المسلم

فتحت **عائشة** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ عينيها وقلبها على جوٍّ تشع في أرجائه أضواء الإيمان وتنتشر في جنباته ريّا الإسلام، بَيْن أبٍ راكع ساجد

---

(1) كان الصديق رضي اللَّه عنه أول الرجال إسلاماً.

وأُمٍّ عابدةٍ متعبّدة، ورسُولٍ كريم ونبيٍّ عظيم يشرِّف الدار بين الحين والحين بطلعته وإهلاله، وكانت **أمّ رومان** تلقى النبي ـ ﷺ ـ بالبشر والحبور، وتضيفه أحسن الضيافة، وتقدّم له كُلّ وسائل الراحة والأمن والهناء. . .

وبهذا ـ عزيزي القارئ ـ كانت دار **أبي بكرٍ** بالنسبة إلى رسول اللّه ﷺ مأوى كريماً ومقيلاً عزيزاً، وبَيْتاً إسلامياً طيباً، عنواناً ورمزاً.

صبرها وتحمّلها

كانت أيام **مكة** بالنسبة إلى المسلمين الأوائل أياماً صعبة، قاسية مريرة، تحمّلوا خلالها من جبروت الكفر وطغيان الشرك ما تنوء بحمله الجبال الرواسي، فكانت **أمّ رومان** ـ رضيَ اللّهُ عَنْهَا ـ بالنسبة لزوجها الصدِّيق نعم الزوجة الصالحة، تخفف عَنْه آلامه وتواسيه في ساعة الشدّة، وتبسط له وجهها وثوبها، وتقوم على رعاية أسرتها حق القيام، لا تؤاخذه فيما ينفق على الدعوة، بل تشاركه الحماس والتأييد في ذلك.

ولقد عرف واشتهر عن **أبي بكر** ـ رضيَ اللّهُ عَنْهُ ـ أنّه كان من أثرياء **مكة** بحُكْم التجارة الواسعة التي كان ينهض بها ويقوم، ولقد أنفق في شراء حُرّية الكثيرين من ضعاف المسلمين مالاً كثيراً، حتى اشتدّت عليه وعلى بيته وأهله في بعض الأحيان وطأة الحياة وقسوة العيش؛ فما كانت **أمّ رومان** لتتأفّف أو تتضجّر، بل تصبر محتسبة ذلك عند اللّه تعالى.

كما أنها ربّت ولديها **عبد الرحمن** و**عائشة** أحسن التربية ورعتْهما أحسن الرعاية، وسدَّدت في ذلك حتى بلغت أسمى الذُّرا.

المصاهرة النبوية

تعاقبت الأيام والسنين على المسلمين بمكة، بين هبوب وركود، وقبل أن يأذن اللّه تعالى لرسوله وللمؤمنين بالهجرة إلى المدينة. . . رأى النبيُّ ﷺ في منامه **جبريل** الأمين يحمل إليه صورة **عائشة بنت أبي بكرٍ** على سُرْقَةٍ من حرير ويقول له:

ـ «هذه زوجتك في الدنيا والآخرة». . .

وانصياعاً لأمر اللَّه تعالى فاتَحَ النبيُّ ﷺ صديقه ورفيقه في الأمْر؛ فقال أبو بكر:

ـ إنها ما تزال صغيرة يا رسُول اللَّه[1] . . . ولكني سأرسلها لك لتراها.

وعاد **أبو بكْرٍ** إلى داره، وعلامات الحيْرة والتردد بادية في وجهه، فسألته **أم رومان** عمّا يهمّه. . . فحدَّثها في الأمر، فلم تبتئس ولم تحزَنْ، بل انفرجت أساريرها، وسُرّت أيّما سرور، إذ كانت مصاهرةَ النبي ﷺ شرف لا يدانيه شرف، وراحت من ثَمَّ تحدّث زوجها الصدِّيق وتسايره حتى ذَهَبَ ما بِهِ من وقع المفاجأة.

على بركة اللَّه

ودخلت **عائشة** بَيْتَ النبي ﷺ حاملةً بيدها جفنةً فيها تَمْرٌ وقالت كما علّمها والديها:

ـ هذا كُلّ ما عِنْدنا يا رسُول اللَّه. . .

فنظر إليها النبيُّ ﷺ مليًّا ثم قال:

ـ على بركة اللَّه. . .

وعادت **عائشة** إلى حضن أُمِّها وحِجْر أبيها فسألها عما قاله رسُول اللَّه ﷺ فَأَخْبرتْهما بما سَمِعَتْ من فمه الشريف، وهي لا تدري أَمْرِ ذهابها وعودتها شيئاً، ولا بما يترتّب على ذلك.

ثم اتفق النبيُّ ﷺ مع الصديق على خطبة **عائشة** والبناء بها بعد ذلك ريثما تكتمل نضجاً وأنوثةً.

ولقد تم ذلك في هدوءٍ واطمئنان، ودون عجيج أو ضجيج.

المهاجران

ازداد أذى المشركين للمسلمين، وتفاقم طغيانهم وظلمهم واستبدادهم، وبلغوا الذروة يَوْم عَوّلوا على قَتْل نبيهم، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

---

(1) اختلف في سن عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ إذ ذاك، فقد قيل إنها كانت في الثامنة وبعضهم قال في التاسعة من عمرها.

وكان النبي ﷺ قد أذن لأصحابه بالهجرة إلى **المدينة المنوّرة** بعد أن بايعه أهلها من **الأوس** و**الخزرج** على نصرة الدين، وحَمْل لواء الإسلام. فتقاطرت وفود المهاجرين، فرادى وجماعاتٍ إلى **يثرب**. . . .

وأخذ **أبو بكر** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يستحث رسُول اللَّه ﷺ كي يأْذَنَ له ولأهله بالهجرة، فيؤخره النبي ﷺ بانتظار أمْرِ اللَّه تعالى. . .

وكانَتْ **أمّ رومان** تسأل زوجها الصدِّيق كلما عاد من عند رسُول اللَّه ﷺ: هل أذِن له بالهجرة، رغبةً منها في الالتحاق بالمسلمين الذين سبقوا إلى **يثرب** خلوصاً وتحوّطاً من أذى المشركين وعذابهم، فكان ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يجيبها بالنَّفْي، فتسكت وتصْبِر. . .

وفي ذات يَوْمٍ طلب النبي ﷺ من **أبي بكْرِ** أن يهيّء الزّاد والراحلة، لشخصين اثنين!!

وكم كانت فرحة الصدِّيق بالغة. . . ولكنه تذكّر أَهْلَهُ. . . زوجته **أمّ رومان** وبناته وأبنائه فماذا يفعل بهم جميعاً؟! هل يَتْرُكُهُم بَيْن يدي قريش رهينةَ تَضْغَط بهم على إيمانِهِ وإسلامه؟!

ولقد رأتْه **أمّ رومان** واجماً مهموماً، فسألته عن السبب فَأَخْبَرها، فتبسَّمت ابتسامةً أشرق فيها الإيمان مضيئاً مُشِعًّا فوق ثغرها، ثم قالت:

ـ إنّ لنا في آل بيت رسُولِ اللَّه أسْوة. . .

واضطلعت ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ بعبءٍ جسيم طيلة أيّام الاختفاء في الغار، متحمّلةً شِدَّة التقريع القرشي والسباب الجاهلي، خصوصاً عندما وقف **أبو جهل** بباب دار **أبي بكْرٍ** يهدّد أهلها ويتوّعدهم، وأيضاً عندما لطم **أسماء**[1] ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ.

وازداد تحمّل **أمّ رومان** للمسؤولية عندما أَصْبَحَ النبي ﷺ وصاحبه في المدينة، في منأىً عن أذى قريش. . .

(1) أسماء بنت أبي بكر، أخت عائشة من أبيها رضي اللَّه عنهم.

فكانت ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ نعم المؤمنة الصابرة، تتولى شؤون بَيْت الزوجية والحفاظ عليه من كل سوء، وتدفع عنه عادية الظلم، وتنتظر الفرج القريب، واللحوق برسول اللَّه ﷺ والمؤمنين في **المدينة**.

التذكير والبناء

وكان خروجها ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ من مكة مهاجرة إلى المدينة هي وأهل بيتها، مع خروج بنات النبي ﷺ . . .

وهناك استقبلهم الرسول الكريم وصديقه الصدِّيق والمسلمون جميعاً أحَرَّ استقبالٍ وأطيبه. . .

ومضت الأيام. . . .، وشُغل النبيُّ ﷺ بأمور المسلمين أيّما شغل، وانصرف بكلّيتِهِ إلى بناء المجتمع الجديد، ونَسِيَ تماماً ما كان من شأن خطبته لِـ **عائشة في مكة**. . . وكذلك والدها **الصدِّيق** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ.

وفي ذات يَوْم قالت **أم رومان** لأبي بكر زوْجها:

ـ يا أبا بكْر ألَا تذكِّر رسُول اللَّه ﷺ بأمْرِ **عائشة**!!

فنظر إليها مُبْتَسِماً، وقد اتسعت دائرة عينيْه، كَأَنَّه تنبَّه وتذكّر أمراً طال عليه الأمد، ثم قام من فَوْره إلى رسُول اللَّه ﷺ وحَدَّثه بالأمر، واتفقا على كل شيء، ولم يكن **أبو بكر** ليقترح على النبي ﷺ أبداً. . .، فقد كان يكفيه شرف المصاهرة.

وشمّرت **أم رومان** عن ساعد الجد، وقامت على قدم وساقٍ تُدبّر شؤون ابنتها التي ستدخل بَيْت أكرم زوج. . .

ودخل ﷺ بـ **عائشة** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ وبنى بها؛ ومن ثَم كان يتردد على بَيْت **أبي بكر** و**أمّ رومان** كأنّه يتردّد على بيته وأَهْلِهِ، فقد كان يجد لدى هذه المرأة المؤمنة قلباً فياضاً بمحبّته ورعايته، ونفساً طاهرة نقيّة، وروحاً تزخر بالإيمان. . .

وكانت المصاهرة الجديدة سبباً من أسبابِ تقوية الوشائج بَيْن الصديقيْن وبَيْن البيتيْن.

الشاكرة

تعاظمت فرحةُ **أُمّ رومان** بما كانَتْ تراهُ من حَدْب النبيّ ﷺ على **عائشة** ومحبته لها، وشدّة عطفه عليها، وتعلُّقِهِ بها، وإيثاره لها. . .

وما غرّها ذلك أبداً ولا استخفّها، بل ظلَّت رزينة عاقلة، لأنها تدرك أن ذلك تدبير من اللَّه تعالى وعناية منه، فشكرته سبحانه بالطاعة له والإقبال الشديد على عبادته. . .

حديث الإفْك[1]

ومرت أعوام. . .

وخرج النبي ﷺ من المدينة على رأس جيشٍ من المسلمين لتأديب **بني المصطلق** واصطحب معه من زوجاتِهِ **عائشة**. . .

وبعد أن تم النصر للمسلمين ولقي الأعداء القصاص العادل جزاء غدرهم ونفاقهم ووزِّعت الأسلاب. . .

التقى عند حوض الماء الذي يَسْتقي منه الجند أنصاري ومهاجري فتزاحما، وكاد تزاحمهما يؤدي إلى اشتباك بين الطرفيْن، ومما زاد في تأجيج نار الفتنة قولة المنافق **عبد اللَّه بن أبيّ بن سلول**: «لئن رجعنا إلى المدينة لِيُخْرِجَنّ الأعزّ منها الأذلّ».

وقيّض اللَّه في ذلك الحين من ينقل إلى الرَّسول ﷺ خَبَر الشجار ومقالة **ابن سلول** فرأى من الحكمة أن يشغل الناس عن الفتنة. . . فأمر بالمسير على الفوْر بعد أن أقاموا للاستراحة من عناء المعركة. . .

في ذلك الحين. . . كانت **عائشة** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قد خرجت من خبائها لقضاء حاجةٍ بعيداً عن أعينُ الناس وهي لا تدري مما حدث شيئاً، وأوْغلت في الابتعاد، وحين رحل القَوْم رُفع هَوْدجها من مكانه ظناً من القائد أنها بداخله، ومضى المسلمون في طريقهم إلى المدينة.

---

(1) حديث الإفك، رواه الإمام أحمد (25680) والبخاري (2593) ومسلم (2770)، وغيرهم بألفاظ متقاربة، من حديث السيدة عائشة رضي اللَّه عنها.

ولما عادت **عائشة** من قضاء حاجتها افتقدت عقداً كانت تزيّن به جيدها فلم تجدْهُ، فرجعت حيث كانت ولملمت حبّاته المتناثرة ثُمّ آبت.

وحين بلغت مكان الهودج لم تجد أثراً ولا نفراً... فارتاعت وجزعت وألّم بها خوف شديد ثم لبثت في مكانها لا تدري ماذا تفعل...

ولقد كان من عادة رسُول اللَّه ﷺ القائد الخبير أن يرسل إثْر كل غزوةٍ رجلاً من صحابته اسمه: **صفوان بن المعطّل** يستدرك ما فاته المسلمون أثناء رحيلهم.

وفوجئت **عائشة** بخيال فارسٍ يرود المكان فأَرْخت حجابها، وعندما لمحها **صفوان** غَضّ من بصره وقال في دهشة:

ـ ظعينة رسول اللَّه...!؟ ما خَلّفك ـ رحمك اللَّه ـ؟ وما الذي أخَّرَك؟

وما لبث أن نزل عن بعيره وتأخّر حتى ركبت **عائشة** ثم تقدّم يقوده.

وشُغل رسول اللَّه ﷺ بمصير **عائشة** واهتم لأمرها...

وما أن أطلّ موكبُ **صفوان** و**عائشة** على المدينة حتى لمحه **ابن سلول** الجالس مع جماعةٍ من أصحابه المنافقين، فاستيقظ الحقد في قلبه، ووجد المادة التي يستخدمها لينفِّس بها عن حقده وحسده على رسول اللَّه والمسلمين، فقال:

ـ أيها الناس... ظعينة نبيّكم عادت في ركاب رجل، واللَّه ما نجت منه ولا نجا منها.

وسَرَتْ أكذوبة **ابن سلول** مسرى النار في الهشيم، وتناقلتْها الألسنة تصريحاً وتلميحاً.

ودخلت **عائشة** منزلها خالية الذهن، لا تدري من أمْرِ هذا الإفْك والافتراء شيئاً.

ووصل الهمس إلى أذن رسول اللَّه ﷺ، فعاش فترة من الحيْرة والقلق كانت تبدو على محيّاهُ الشريف، وتظهر في تصرفاته، وكانت **عائشة** تعلّل تلك الظواهر في وجه النبي ﷺ وانصرافه عنها إلى انشغاله بأمور الدعوة وشؤون المسلمين.

وحين استفحل الأمر، وقد شعرت ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ بالمرض يداهمها

اسْتأذَنَته ﷺ أن تذهَبَ إلى بيت أبيها لتقوم أمها ـ **أمّ رومان** ـ على خدمتها ورعايتها، فلقي طلبها هذا سرعة استجابةٍ من رسول اللَّه ﷺ مما جعلها تحزَنُ وتتوجّس. . . لأنه ﷺ لم يكن ليطيق فراقها وابتعادها عنه. . .

وكانت أمها ـ **أمّ رومان** ـ قد علمت بما يقال ويُشاع، ولقد أُغمي عليها ساعَةَ عرفت ذلك لكنها كتمتْه عن ابنتها رحمة وشفقة.

دخلتْ **عائشة** بَيْت والديْها الحزينيْن اللذين ما انفكّا يدعوان اللَّه سبحانه أن يبرّئ ساحة ابنتهما. . .

وقَضَتْ في بَيْت والديْها قرابة العقديْن من الأيام حتى أبلَّتْ وشُفيَتْ. . .

وفي يَوْم خرجَتْ مع إحدى النساء لقضاء بعض الأُمور، وبينما هُنَّ في الطريق عثرتِ المرأة بطرفِ ردائها فقال:

ـ تَعِسَ **مِسْطح**:

فردّتِ **عائشة** بحدَّةٍ:

ـ بئس لعمْر اللَّه ـ ما قُلْتِ في رجُلٍ من المهاجرين شهِد بَدْراً. . .

فقالت المرأة: تدافعين عَنْهُ: !! أوَما بلغك الخبر يا بنت **أبي بكْرٍ**؟

فأجابت **عائشة** بدهشةٍ: وما الْخَبَر؟؟

فأخبرتها المرأةُ بحديث الإفك وما يُشاع **عنها** وما يروّجه دُعاة السُّوء والفاحشة من أقاويل.

وكان **مِسْطح بن أثاثة** واحداً مِمّن أطلقوا لألسنتهم العنان ينالون به من شرف **عائشة**.

وعادت **عائشة** إلى بَيْت أبيها شاكيةً باكية، وراحت تلومُ أمها **أمّ رومان** على كتمانها الأمْر عنها.

فقالت **أمّ رومان** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ وهي تخفف من حدّة غضب **عائشة** والدموع تغسل وجهها:

ـ أيْ بُنَيّة. . هوِّني عليْك الشأن، فواللَّه لَقَلَّ ما كانت امرأةُ حسناء عند زَوْج يحبها ولها ضرائر إلاّ كَثْرن وكثر عليها الناس.

وقَبَعَتْ **عائشة** في الدار، عازفة عن الناس، متواريةً عن الأنظار، لا تأكل ولا تشرب... لا تغفو ولا تنام، تبكي وتنتحب، والأُمّ المؤمنة الصابرة الحزينة تواسيها وتخفف عنها.

واستشار النبيُّ ﷺ بعض أصحابه ماذا يفعل، فمنهم من أشار عليه بتطليقها ومنهم من أشار بالإمساك عليها إلى أن يقضي اللّه أمراً كان مفعولاً.

ثم قَصَد إلى دار **أبي بكر**... فَرَحّبَ به الجميع، وجلس ﷺ قُبالة **عائشة** وقال:

ـ يا **عائشة**... إنه قد كان ما بلغك من قول الناس، فاتّقي اللّه، فإن كنت قد قارفْت سوءاً مما يقولون فتوبي إلى اللّه... إن اللّه يقبل التوبة من عباده...

وخُيّم الصَّمْت المطْبق على المكان، وران على الجميع السكون الشامل، ثم انفجرتْ **عائشة** قائلة لأبويْها: **الصدِّيق وأمّ رومان**: ألا تجيبان..؟؟ فقالا: واللّه ما ندري بماذا نجيب..!! فانخرطت في البكاء والنحيب وقد تقطعت نياط قلبها، ثم قالت: واللّه لا أتوبُ إلى اللّه مما ذكرتَ أبداً... واللّه إني لأعلم لئن أقررْت بما يقول الناس، واللّه يعلم أني بريئة مما يقولون لأقولَنَّ ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدّقوني، إنما أقول كما قال **أبو يوسف**:

ـ فصبْرٌ جميل واللّه المستعان على ما تصفون...

بعد لحظات... شعر رسول اللّه ﷺ بأن الوحي يكاد يتنَزَّل عليه، فَسُجِّي في ثوبه، وأَتَتْه **عائشة** بوسادةٍ من أدمٍ وضعتْها تحت رأسه، وفزِع الجميع... إلا **عائشة** الطاهرة البريئة...

وحين استفاق النبي ﷺ من غشية الوحي قال:

ـ أبشري يا **عائشة** قد أنزل اللّه براءَتَك.

فصاحت: الحمد للّه...

وتلقّتها **أمّ رومان** بَيْن ذراعيها تربّت على ظهرها وكتفيها، وهي تردّد معها: الحمدُ لِلّه.

وتلا النبيّ ﷺ قول اللّه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ . . . ﴾ [النور: 11] إلى آخر الآية.

وعادت **عائشة** إلى بَيْتِ النُّبوَّة مُبرَّأة محترمة، مقدَّرة معزّزة مطهّرة. . . وسَجَدَتْ **أُمّ رومان** شاكرة حامدة.

الـوفـاة

كانتْ هذه الفترة من حياة **أم رومان** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ من أقسى ما عانَت وواجهت، ولقد أثّر فيها ذلك تأثيراً كبيراً، وخَطَّ على صفحة فؤادها أخدوداً عميقاً من الألم والحزن. . .

ولما كانت السنة السادسة من الهجرة(1)، مَرِضَتْ **أمّ رومان** فلازمتها **عائشة** بعض الوقت تقوم على خدمتها ورعايتها، حتى توفاها اللّه تعالى. . . فبكتها **عائشة** بالدمْع الهتون(2). . .

ولقد نزل رسُول اللّه ﷺ إلى رمْسها عند الدفن ودعا لها، تكريماً وتعظيماً وعِرْفاناً. . .

ثُمّ قال قولته الشهيرة: «من سَرَّه أن ينظر إلى امرأةٍ من الحُور العين. . . فلينظُر إلى أُمّ رومان»(3).

رضي اللّه عنها وأرضاها، وجعل أعلى الجنان مَثْواها، كفاءَ ما آمنت وصَبَرت وجاهدت وهاجرت وتحَمّلتْ.

وألحقنا بها في الصالحين من عباده.

---

(1) وفي رواية أخرى أن وفاتها ـ رضي اللّه عنها ـ كانت في السنة الخامسة.

(2) «الاستيعاب» لابن عبد البرّ (4/ 490) و«الإصابة» لابن حجر (8/ 234).

(3) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (الحديث: 34418) وذكره السهمي في «تاريخ حبان» (199) وابن سعد في «طبقاته» (8/ 277).

أمة بنت خالد

ابن سعيد بن العاص «بنت الهجرة»

رضي اللَّه عنها[1]

توطئة

كان ـ ولا يزال ـ للمرأة في الإسلام دَوْرٌ ومكانة. . .

دور المؤمنة العاملة، سواء كان ذلك في إطار البيْتِ الزوجي كزوجةٍ يسكن إليها زوجها ويرتاح إلى وجودها ويطمئن إلى دِفْء روحها وحنانها، أوْ أُمٍّ تَحْدب على أولادها فترعاهم وتغذيهم وتربيهم، وتعلمهم الكتاب والحكمة، وتُنَشِّئهم على التقوى والإيمان. . .

أو متعلّمة متعبّدة متفقّهةٍ عاملة. . . ترتشف العلم من أصفى ينابيعه، من القرآن والسنة، وتتعبَّد في المحراب متبتِّلةً متقرّبةً إلى ربّها، وتتفقّه في دين اللَّه وفي شؤون علوم الحياة، وتنتفض من ثَمَّ إلى ميدانِ العمل مشاركةً مساهمةً. .

ولقد كان للمسلمات الخالدات الأوائل ـ رضي اللَّه عنهن ـ دَوْرٌ أي دَوْرٍ في كل ما ذكرنا، وبهذا تَبوّأن المكانة اللائقة بهنّ على مرّ التاريخ، وأصبحتْ أسماؤهنّ في بطونِ الكتب وأسفاره علاماتٍ بارزة لأمته، ومصابيح هُدى. . .

وأُمّ **خالدٍ** ـ رضيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ واحدةٌ من هؤلاء. . .

فإلى صفحات حياتها الجليلة نقلّبها ونقرؤها، ونتعلّم منها:

نسبها

هي: أمَةُ بنت خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس.

---

(1) ترجم لها ابن سعد في «طبقاته» (8/ 234) وابن حجر في «الإصابة» (8/ 16) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 219) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 352 ـ 353).

وأُمَّها: هُمَيْنَةُ بنت خلف بن أسعد بن عامر بن بياضة بن سُبَيْع من خثعمة بن سعد بن مليح بن عمرو بن خُزاعة[1].

نشأتها

كان **خالد بن سعيد بن العاص** مِمَّنْ آمنوا مبكّرين في **مكة** ومن الأوائل الذين انتظموا في سلك الإسلام، وأعلنوا الطاعة للرحمن، وبهذا كان مخالفاً للكثيرين من آل أمية ابن عبد شمس.

ولقد لقي من قومه وعشيرته عنتاً وشِدَّةٍ، وظلماً وافتراءً، وتضييقاً وقسوة، فكان يحتمي إلى اللّه، ويسأله العافية في القلْب والبدن.

وكانت زوجته **هُمَيْنةُ بنت خَلَفٍ** التي أَعْرَس بها من قريب، قد دخلَتْ هي أيضاً في دين اللّه، فكانت تواسيه عند عودته إلى الدار بلطفها وعذوبة لفظها، ورقة أخلاقها ودماثة طباعها، وتتحمل معه وعنه بعض الأذى، ما أمكنها ذلك.

الهجرة إلى الحبشة

وحين طما ظُلْم قريشٍ وجبروتها، أذِنَ رسُول اللّه ﷺ لأصحابِهِ بالهجرة نجاةً لهم بدينهم ويقينهم، وحدّد لهم أرض الحبشة مهاجراً، لأن فيها **النجاشي** الملك الذي لا يُظلمون عنده. . .

فَوَجَدَ **خالد** بذلك فرصةً طيبة وسانحة كريمة، فأزْمع أَمْرَهُ على الرحيل مع الراحلين، ومما شجّعه على ذلك وُجُودُ **عثمان بن عفان** - رضيَ اللّهُ عَنْهُ - في موكب المهاجرين، فهو قريبه ومن ذوي رحمه؛ وكذلك **رقية** بنت رسُول اللّه ﷺ - زوجة **عثمان**؛ وبهذا وجدت **هُمَيْنة** زوجة **خالد** متنفّساً لها وأنيساً وعزاءً.

في أرْض الحبشة

ما إن شعر المسلمون المهاجرون إلى الحبشة ببعض الاطمئنان بين ظهراني النجاشي، حتى فوجؤوا بوفْدٍ من قريش يتبعهم إلى هناك ليفسد عليهم مقامهم، ويغري النجاشي ببعض الهدايا ليسلّمه الفارين من المسلمين. . .

---

(1) هذا نسبها كما جاء في طبقات (ابن سعد) (ج8) (ص234).

لكن مسعى الوفد اللئيم لم يلْق ترحيباً ولا استجابةً، وأقام المهاجرون ينعمون بحريّة العبادة... وحريّة الحياة...

في تِلْك الأيام، كانت **هُمَيْنة** قد جاوزت أشهر الحمْل، وقاربت الوضْع، وَدَخَلَ عليْها زوجها **خالد** يَوْماً فوجدها تتلوّى وتتألم وتئن...، فأدرك صعوبة الموقف، لذا أسْرَع إلى إخوانه المسلمين يطلب نجدتهم ومساعدتهم، فخرجت معه بعض النسوة إلى داره، حَيْث اجتمعن حول **هُمَينة** يواسينها ويساعدْنها، حتى أَقَرّ اللَّه عَيْن الجميع بمولودةٍ مُباركةٍ، أسماها والدها: **أَمَه**.

النشأة الغريبة

طالت إقامة **خالد** وأهله في الحبشة سنوات، وهي مُدَّة إقامة المهاجرين هناك...، إذ استمرّت إلى يَوْم أن فتح اللَّه على المسلمين **خيبر**.

أثناء تلك السنوات كانَتْ **أَمَةُ** تَتَقَلّب في مراحل عُمْرها الأولى، نجيبةً ذكية واعية، فتلقّت عن أَبَوَيْها مبادئ الدين وقواعده، وأصوله وفروعه، ووعت معنى ومغزى وجودها في الأرض البعيدة عن الوطن الأصيل...

وسمعت منهما ذكر رسُولِ اللَّه ﷺ، وصفاته وأقواله، والمراحل التي مَرَّت بها دعوة الإسلام، وعرفت ما كان عليه الناس من عبادة الأوثانِ والأصنام.

وهزتْها من الأعماق هجرةُ أبويْها اضطراراً، وخروجهما من ديارهما مع غيرهما من المسلمين قَسْراً...، فطوت جوارحها وجوانحها غيظاً وحقداً على الكافرين المشركين.

وبحكم عشرتها لأترابها من بنات الحبشة أَلِفَتْ بعض العادات غير العربية، وأتقنت لغة الأحباش تكلُّماً وتفاهماً، وتأقْلَمَتْ مع الجوّ العام لِتِلْك البلاد، ولم تشعر بوحشةٍ، طالما أنّها تعيش ضمن أُسرتها الصغيرة، والجو الإسلامي المحدود..

لكنّها كانت في شوقٍ دائمٍ إلى لقاءِ رسُول اللَّه ﷺ والتشرُّف بطلعته، وتتمنّى أن يكون ذلك اليوم قريباً...

الــوداع

بعْد سنواتٍ من إقامة المسلمين المهاجرين في أرض الحبشة، ارتأوا أنْ يغادروها إلى المدينة، وقد أعَزَّ اللَّه الإسلام، ونصر رسُوله على أعدائه في مواطن كثيرة، فتجهّزوا للمغادرة، واستعدّوا للرحيل. . .

ولا تسلْ عن فَرْح **أَمَة** بذلك، إذ كادت تطير من السعادة. . . ، لقد حَلّ اليوم المنتظر الموعود، ولن تكون إلا أيام قلائل حتى تلقى الأحبة: **محمداً** وَصَحْبه. . .

وعند الشاطئ كانَتْ **أَمَةُ** مع والديها والمسلمين يستعدون لركوب سفينتيْن كبيرتين تقلُّهم بعيداً. . .

والنجاشي بأُبّهتِهِ وعظمته، بحاشيته وسلطانه، وبجمع غَفيرٍ حوله يُودِّعون المسلمين المهاجرين، راجين لهم سلامة الوصول. . .

ويقول النجاشيُّ للمسلمين موصياً:

ـ لا تنسوا أن تقرؤوا السَّلام مني إلى رسُولِ اللَّه ﷺ. . .

فَوَعَتْ ذلك **أَمَةُ** واحتفظت بِهِ، وتمنَّت أن تكون أوّل الناقلين لهذا السلام[1].

الــلـقـاء

وصل المسلمون المهاجرون العائدون إلى المدينة، فعلمُوا أن رسُول اللَّه ﷺ في جيشٍ من المسلمين يحاصرون **خيبر**. . . ، فبعضهم أقام في المدينة ليستريح من عناء السفر، ومشقة الانتقال، وآخرون آثروا أنْ يستمروا في المسير إلى **خيبر** للقاء النبي ﷺ، وكان على رأس هؤلاء **جعفر بن أبي طالب** ـ رضي اللَّه عنه ـ.

فلما وصلوا كان النصر على يهود خيبر قد تمّ للمسلمين وفتح اللَّه على رسُولِهِ حصونها المنيعة، ودَحَرَ الشرك وأَهْلَه. . .

فقال ﷺ وهُو يستقبل المهاجرين العائدين:

ـ لا أدري بأيهما أفرح: بِفَتْحِ خيبر؟ أم بقدوم جعفر؟!

(1) ذكره ابن حجر في «الإصابة» (8/ 16).

ولا يذكر التاريخ لنا أن **خالد بن سعيد** وأَهْلَهُ قد رافقوا **جعفر** إلى **خَيْبر** للقاء رسُول اللَّه ﷺ.

و**أَمَةُ** لم تحدِّث بذلك، غَيْر أنها لم تَنْس أن تذكر أن النجاشي قد حَمّل المسلمين أمانة السلام على رسُول اللَّه ﷺ، فلمّا أتمّوا نَقْل السلام تَقدَّمَتْ من النبيّ ﷺ في شوقٍ ولهفةٍ وحُبّ، باسمة الثغر ضاحكة الوجه مستبشرة، وبلّغتْ رسُول اللَّه ﷺ سلام النجاشي... فضحك لها النبي وهَشّ لِلقائها، وكان قد عَرَف من هِي، وكنّاها منذ ذلك اليوم بـ **أم خالد**، وكانت لا تزال في أول صباها، وآخر مراحل طفولتها، ولم تقترن ولم تلد...

ولقد رافقْتها هذه الكنية طول عُمْرها، وحَرِصَتْ عليها تيمُّناً بتشريف النبيّ ﷺ لها.

المتعلّمة العالمة

كانَتْ **أَمَةُ** ـ رضي اللَّه عنها ـ تتمتّع بذكاءٍ خارق وفطنةٍ بالغة وحُبّ كبير للاستزادة من الفقه، خصوصاً من الفم الشريف، فم رسُول اللَّه ﷺ، فاشتهر عنها أنها كانت حريصة على الحرص على لُقياهُ ومشافهتِهِ في دور نسائه، أو عند زيارتِهِ لوالدها **خالد** في داره.

فأضحت من خلال ذلك غزيرة المعرفة واسعة الاطلاع، فلا عجب أن حدثت عن رسُولِ اللَّه ﷺ بعد لحوقه بالرفيق الأعلى، وروت عنه، واعتبرها بعض العلماء المؤرخين عالمة فقيهة؛ وجعلوها في مصاف الصحابيات الشهيرات.

وإنه لتأخذك الدهشة ويتملّكُك العجب الشديد حين تعرف أن **أمة** ـ رضي اللَّه عنها ـ كانت في حياة النبي ﷺ ما تزال في آخر مراحل عمرها الطفوليّ، وعلى أوّل عتبات الصّبا...، فهي ما تزال صغيرةً إلى حدٍّ ما، ولكنها كذلك من ناحية السن، أما من ناحية الفهم والإدراك فقد كانت تسبق عمرها بكثيرٍ من السنين.

الهدية النبويّة

ما نسي النبيُّ ﷺ وَجْهَ **أمة** الباسم وهي تُقرِئُه السلام من النجاشي،

وفمها ينطق بالعربية بلكنةٍ أعْجمية **حبشية**، وكيْف كانت عيناها تَشعّانِ بالحُبِّ واللهفَةِ وصِدْق الشعور. . .

كانت هذه الصورة لِـ **أمة** ـ رضي اللَّه عنها ـ تتراءى دوماً للنبيّ ﷺ، فيسأل عنها، ويقرّبها ويدنيها إذا رآها، ويجيبها إن سَأَلتْ، وكثيراً ما كانت تسأل.

وتحدثت **أَمة** عن هديّةٍ أهداها لها رسُول اللَّه ﷺ فتقول:

أُتي رسُولُ اللَّه ﷺ بثيابٍ فيها خميصةٌ سوداء صغيرة، فقال:

ـ من تروْن أكسو هذه الخميصة؟ فأسكت القوم. . .، فقال:

ـ إئتوني بأُمّ خالد. . .

فأُتي بي إلى رسُول اللَّه ﷺ أُحْمَل فَأَلْبَسنيها بيده وقال:

ـ أَبْلِي وأخلقي بقبولها.

مرتيْن أو ثلاثاً.

وجعل ينظر إلى عَلَم في الخميصة أصفر أو أحمر فقال:

ـ هذا سنا يا أم خالدٍ، هذا سنا يا أم خالد.

ويشير بإصبعه إلى العلم.

وتقول **أمة**:

ـ والسنا بلسان الحبش: الحسن.

ولقد ظلّت **أَمَةُ** حريصةً على هذه الخميصة، لمعناها الكبير، زمناً طويلاً، حتى شاخت وكبرت، حَدَّث بذلك كثير من المؤرخين وكتاب السيرة[1].

الــزواج

حين نهدت **أَمَةُ** واستدارت، وأصبحت في مرحلةِ الصِّبا، بدت في العيون حسناء جميلة، جَمّة الأدب، رفيعة الخلق، وافرة العلم. . .

فتمناها كثير مِن الشباب زَوْجَةً، ورغبوا في الإقترانِ بها، والعيش في كنفها. . .

---

(1) ذكره ابن سعد في «طبقاته» (8/ 234) وابن حجر في «لإصابة» (8/ 16).

لكن نصيبها كان مع **الزُّبَيْر بن العوام** حواريَّ رسُول اللَّه ﷺ وابن عمّتِهِ، وأحد فرسان الصحابة وشجعانهم...،

فعاشَتْ **أمةُ** مع **الزبَيْر** زمناً، ولم يفترقا حتى استشهد يَوْم معركة الجمل التي وقعت بين **عليٍّ بن أبي طالبٍ** كرَّم اللَّه وجهه، وبين **طلحة بن عُبَيْد اللَّه والزبير** من جهةٍ ثانية.

لم ترفض **أمة** الزواج من **الزبير** حين تقدَّم لها، رغم أنَّه كان متزوجاً من **أسماء بنت أبي بكرٍ** ـ رضي اللَّه عنه ـ وكان له منها أكثر من ولد، فقد كانت **أمةُ** واثقة من نفسها، وقُدْرتها على التكيُّف مع هذا الوضع الاجتماعي الجديد.

في بَيْت الزوجية

انتقلت **أمةُ** من بَيْت والديها **خالد وهُمَيْنة** إلى بَيْت الزوجية، فكانت بالنسبة إلى **الزبيْر** صَدْراً حنوناً يرتاحُ إليْه، وقلْباً كبيراً يتّسع لكُلّ شِدّة طَبْعه وحِدَّته...

وعملت ما وسعها الجهْد إلى أنْ تؤمّن له جَوّاً من الاستقرار والسعادة داخل جدران البيْت، فأدّى ذلك إلى اجتذابه، فتعلّق بها أشدَّ التعلّق، وملكت عليه كل وجدانه وأحاسيسه.

وبالإضافة إلى القيام على رعاية شؤون الزوج والاهتمام به وتوفير كل الأسباب لإسعاده، لم تكن **أَمَةُ** لتنسى واجب الأمومة تجاه ولديْها من **الزُّبَيْر، وعمرو وخالد**.

فاهتمّت بهما غاية الاهتمام، تربيةً وتوجيهاً وتعليماً، ورعايةً...، فنشآ نشأةً طيبة مباركة، وكانا مثاليْن من أمثلة الأبناء المسلمين حقاً، ديناً وعلماً وخلقاً... ونموذجاً يحتذى.

ولم تنسى **أَمَةُ** اسمْ أبيها **خالد بن سعيد** المؤمن المهاجر، والمسلم التقي الورع الذي كان لها في أطوار نشأتها وتكوّنها أمَلاً وقُدْوة...، فحين ولدت ولدها الثاني أسمته على اسم أبيها تَيَمُّناً وتحبُّباً، ولكي يَظلَّ دويُّ الاسم في أذنيها قائماً مُسْتمراً.

النّـهـايـة

وأزقت شمس حياتها على الغروب. . .

وكانت قد شاهدت تطوراتٍ كثيرةٍ على صعيد التاريخ الإسلامي، من عَهْدِ النبوّة إلى عَهْد الخلفاء الراشدين، إلى منتصف العهد الأموي، على الأرجح.

ونُرَجّح ذلك لأن بعض التابعين الذين رووا عنها وحدثوا، ذكروا أَنَّهُمْ لقوها وقد عجزت وشاخت، وبلغت من الكبرِ عتِيّاً.

يقول ابن سعد في طبقاته(1):

أخبرنا محمد بن عمر، حدّثني جعفر بن محمد بن خالد بن الزبير عن إبراهيم عن عقبة قال: سمعت أُمّ خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص، وهي عجوز كبيرةٌ ولدت بأرض الحبشة، فقلتُ لها:

ـ أَسَمِعْتِ من رسول اللَّه شيئاً؟

فقالت:

ـ سمعتُ رسول اللَّه ﷺ: يستعيذُ من عذاب القبْر.

رحم اللَّه **أمة بنت خالد** ـ أم خالدٍ ـ ورضي عنها ـ وأجزل مثوبتها، وأسْكنها من الجنة أعلى المنازل، وحشرها مع الذين أنعم عليهم.

غفر اللَّه لنا وَلَها

كـلـمـة أخـيـرة

يكثر الحديث عن الهجرة إلى الحبشة. . .

ولا يتعدى القوْل فيها عند الكثيرين مجال الرواية التاريخية، أو الحدث المرحليّ في مسيرة الدعوة، وما رافق ذلك من وقائع، سلبيَّة أو إيجابية، في محيط الجماعة المهاجرة، والفئة القليلة المؤمنة، وما أحاط بها من صلاتٍ وعلاقاتٍ مع النجاشي وقومه.

ولكن وجود تلْك القلّة القليلة من المسلمين المهاجرين يحمل في طيّاته أكثر من معنى، سواء ملأ ناحية الحافز إلى الهجرة، أو من ناحية الإقامة التي امتدّت إلى سنوات طوال ج أَوْ من ناحية التكوين النفسي والوجدانيّ لأولئك الأفراد.

---

(1) (8/ 234 ـ 235).

والذي يُلْفت النَّظَر أن يكثر المؤرخين والمترجمين وكُتّاب السِّيرة يَصفون هِجْرتهم بأنها فرارٌ بدينهم، وهذه الصفة وإن كانت تحمل بعض الحقيقة غير أنها لا تحمل الحقيقة كلّها. . .

ولم يحاول قلم من الأقلام أنْ يطلق للدراسة العنان، أَوْ يُسلّط الأضواء على تلك المرحلة، ليستخرج ما أحاط بها مِن معانٍ وعِبَر ودروس، ليكون التاريخ بالنسبة لنا ولأجيالنا مَدْرسةً، تؤدي قسطها في التربية والتوجيه، لا حكايات تُرْوى للتسلية، ولا نظلُّ نُنْعتُ بأنّنا أمة تعيش على ذكريات أمجاد الماضي.

لقد اشتدّ الأذى بالمسلمين في مكّة، وسُلِّط على البعضِ مِنْهُم صنوفٌ من العذاب المهْلك، فَهَلْ تراجَعَ أحدٌ منهم عن دينه وإيمانِهِ؟

هذا سؤالٌ له قيمته وله دلته، وله أبعادُه ومراميه.

والجواب: هُوَ أنّ أحداً من الذين عُذّبوا كَفَر باللّه بعد إيمانه، أَوْ نكص على عقبيْه، بل كُلُّهم استمسك بالعروة الوثْقى، وَصَبَر حتّى كتب اللّه ـ تعالى ـ له الفرج؛ أَوْ منهم من قضى نَحْبه مثل يّة ـ أم عمّار ـ رضي اللّه عنها ـ.

إذن. . .، كانت الهجرة نوعاً من الحماية وليْست جُبْناً أَوْ خوْفاً. . . أَوْ ضعفاً. . . ذلك أن فيها أيضاً مقاساة ومعاناة، مقاساة البعدْ عن الوطن، ومعاناة الغربة عن الأهل والدّيار، يتحمّلونه بطيبة نَفْسٍ ورضًى في سبيل اللّه.

أما كلمة فرار فإني لا أَسْتسيغها وأَرْبأ بالرَّعيل الأوَّل ـ رضوان اللّه عليهم ـ أنْ يكونوا قد فرّوا.

ثم إن المواجهة التي كانت بَيْن **قائد** المهاجرين ـ جعفر بن أبي طالبِ ـ رضي اللّه عنه ـ وبين وافد قريش علي النجاشي ـ عمرو بن العاص ـ في طلب هؤلاء، هي أَبْلَغُ دليل وأَنْصَعُ بيانٍ على الشجاعة الأدبيّة التي تحلَّى بها المهاجرون.

وأيْضاً. . .

لقد كانت هذه الهجرة مرحلةً دراسيَّة، استوْعب منها أصحابها كثيراً من الدروس والْحِكم، ومن ثَمَّ ترقُّوا إلى مرحلةٍ أعلى، فقد كانت اندفاعةُ **جعفر** ـ رضي اللّه عنه ـ يوْم غزوة **مُؤْتة** عُنْواناً على تكوُّنه الإسلاميّ العظيم، حَيْث

خَتَم حياتَهُ القصيرة بالشّهادة، فلحق بجنان الخُلْد وهو في ريعان الشباب فتًى غَضّاً؛ يرفْرِف بَيْن ظلالها وأغصانها بجناحيْه كما حدَّثنا الصادق الأمين **صلوات اللَّه وسلامه عليه.**

لقد قُطِعَتْ يمين **جعفر** وهو يحمل الراية يوم مؤتة، فأبى إلاّ أن تظل راية الإسلام عاليةً خفاقة، فاحتضنها بيُسْراه، والدَّم يَنْزف منه، والألم يَعْتصر ذرات كيانِهِ ويَفْري قلبه، ولكن أيُّ أَلَم؟ إنَّهُ الألَم خشية الهزيمة، إنَّهُ ألم الروح لا ألم الجسد.

ثُمَّ قُطِعَتْ يسارُه...

ثم مضى إلى بارئه رُوحاً تسعى نحو عِلِّيين.

وأَبْدَلَهُ اللَّه تعالى بيديْه جناحيْن يطير بهما في الجنة؛ هكذا حَدَّثنا رسُول اللَّه ﷺ.

فَهَلْ بَعْد هذا من إِصْرارٍ على كلمة «فِرار...»!!!

والنّماذِجُ يا عزيزي القارئ كثيرةٌ لا تُحْصَى ولا تُعَدُّ، إنّها كُلّ واحدٍ من أولئك الذين أو اللواتي تربُّوا في مدرسة النُّبوَّة، وصقلتْهُم وهذَّبتهم يدُ الرسُول الأعظم، صلوات اللَّه وسلامه عليه.

أَمَّا **أَمَةُ بنت خالد** ـ رضي اللَّه عنها ـ فهي التي أَوْحتْ لي بالحديث عن الهجرة والمهاجرين، لأنها واحدةٌ من نماذج الهجرة...

إنها لم تهاجر...، ولكنها وُلدتْ هناك، وتربَّتْ هناك، وتيقْلمت هناك، وعايشت معاني الهجرة ومراميها...

وصيغت صَوْغاً فريداً، خالصاً من شائبة اللاّتِ والعُزّى، لم ترهما، ولم تطأْطئ لهُما هامةً ولا جبيناً، نائيةً عن رجْس قريْشٍ وطُغْيانها...

لقد فتحت بصرها وبصيرتها على نور الإيمان وهداية الإسلام ونصاعةِ المحجَّة، فأنبتتْ من كل زوْج بهيج، وكانت صورة ساميَةً من صور المؤمنات السابقات، و**المسلمات الخالدات** ومثلاً يُحتذى للأولين والآخرين.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: 180 ـ 182].

هند بنت عتبة

زوجة أبي سفيان

رضي اللَّه عنها[1]

قال اللَّه تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الممتحنة: 12].

توطئة

مما يقولُه علماء النَّفْس: أَنَّ الشخصيَّة الإِنسانية التي لا تعرِفُ حدًّا وَسَطاً، تنحى في موقفها السلبيّ تجاه أَيّ أَمْرٍ من الأُمور إلى أَقْصى طاقاتها، وكذلك تفعل في مواقفها الإِيجابيّة.

وكذلك كانت **هِند بنت عُتْبة** ـ غفَر اللَّهُ لها ورضي عنها. . .

فهي في مواقفها العدائية للإِسلام وللرسول ﷺ نزعت إلى القمّة فبدت رَأْس المعارضة، وعُنْصراً مُبادياً في التّحدي والمواجهة، بل تخطَّت الكثيرين مِنْ رجالات قريْشٍ وزعاماتها، قوْلاً وفعْلاً وتدبيراً. . .

تحرّض بِلسانها، وتؤذي بيدها مشاركةً في الحرْب والمعارك، وتأتمر مع المؤتمرين فتُنسِّق في خُطط الْغَدْر والمكْر.

ولما أَذِن اللَّه تعالى لها بالْهِداية، والتوبة مما كانت فيه من الضلالة والشِّرْك، بَرَزَتْ بشخْصيتها القويّة على نَفْس المستوى السابق، تأييداً للإِسلام وتفاعُلاً مع الإِيمان، وسَيْراً حثيثاً على طريق الرحمن.

---

(1) ترجم لها ابن سعد في «طبقاته» (8/ 235) وابن حجر في «الإصابة» (8/ 205) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 416) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 474).

كانَتْ على رأْس المسلمات المبايعات لرسُول اللّه ﷺ بعد فتْح مكة بل كانت المحاورة الإِيجابية لأركان البيْعة. . .

وحطمت بيديْها صنماً في بَيْتها كانتْ تعكف عليه، وتخاطبُهُ:

ـ كُنّا مِنْك في غُرور. . .

وشاركت في القتال يوْم اليرموك ذبًّا عن دين اللّه، وحرَّضَتْ على الثّباتِ والصَّبْر.

وَبَعْد. . . فهيّا ـ عزيزي القارئ ـ إلى صفحات حياتها نستقرئها وتتأمّلها ففيها الريّ بعد الظمأ، والمثل والعِبْرة. . .

نَسَبُها[1]

هي: هند بنت عُتْبة بن ربيعة.

---

(1) قال ابن حجر في «الإصابة» (8/ 205 ـ 206): هي هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشية العبشمية والدة معاوية ابن أبي سفيان أخبارها قبل الإسلام مشهورة وشهدت أحداً وفعلت ما فعلت بحمزة ثم كانت تولت على المسلمين إلى أن جاء اللّه بالفتح فأسلم زوجها ثم أسلمت هي يوم الفتح وقصتها في قولها عند بيعة النساء وأن لا يسرقن ولا يزنين فقالت وهل تزني الحرة وعند قوله: ﴿**ولا يقتلن أولادهن**﴾ وقد ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً مشهورة ومن طرقه ما أخرجه ابن سعد بسند صحيح مرسل عن الشعبي وعن ميمون بن مهران ففي رواية الشعبي ولا يزنين قالت هند وهل تزني الحرة ولا تقتلن أولادكن قالت أنت قتلتهم وفي رواية نحوه لكن قالت وهل تركت لنا ولداً يوم بدر وسؤالها عن أخذها من مال زوجها بغير إذنه ما يكفيها وهل عليها فيه من حرج مخرج في الصحيحين وفيه خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك وولدك وهو من رواية هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة وشذ عبد اللّه بن محمد بن عروة فقال عن هشام عن أبيه عن هند أخرجه ابن منده وأوله قالت هند إني أريد أن أبايع محمداً قال قد رأيتك تكفرين قالت أي واللّه ما رأيت اللّه تعالى عبد حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة واللّه إن باتوا إلا مصلين قياماً وركوعاً وسجوداً قال فإنك قد فعلت ما فعلت فاذهبي برجل من قومك معك فذهبت إلى عمر فذهب معها فاستأذن لها فدخلت وهي متنقبة فذكر قصة البيعة وفيه ما قدمته وفيه فقالت: إن أبا سفيان رجل بخيل ولا يعطيني ما يكفيني إلا ما أخذت منه من غير علمه الحديث وفيه عن مرسل الشعبي المذكور قالت هند قد كنت أفنيت من مال أبي سفيان فقال أبو سفيان ما أخذت من مالي فهو حلال وقال ابن سعد قال الواقدي لما أسلمت هند جعلت تضرب صنماً لها في بيتها بالقدوم حتى فلذته فلذة فلذة وتقول كنا معك في غرور قال أبو عمر ماتت في خلافة عمر بعد أبي بكر بقليل في اليوم الذي مات=

فهي **عَبْشميّة**؛ والعبشميون من قريش هم كل من انتسب إلى **عَبْد شَمْس**؛ وكانوا في الذؤابة من القوْم، مثل **بني مخزوم** و**بني هاشم** و**بني تميم**، ولكُلِّ فريق قيادتُهُ ومسؤوليّته.

ولادتها ونَشْأتها

وُلِدَتْ قبل الْبِعْثة ببضعة سنين، وكما يقولون: وُلِدَتْ وفي فمها مِلعقَةٌ مِنْ ذهب؛ فقد كان والدها **عُتبة** من أَثْرياء **مكة**، وسيد من ساداتها، يتمتّع بنُفُوذٍ واسعٍ ورأْيٍ مُطاع وسطْوةٍ بالغة...

وعلى عادة السُّراة فَقَدْ لقيت **هند** منذ يوم ولادتها كل رعايةٍ وَحَدْب وحنان.

وكانت مخايلُ الذكاء والفطنة تلُوحُ من خلالِ تصرفاتها، ونضوجها المبكّر، ولم تكن هذه الصفاتُ وَحْدها هي التي تُبْرزُ معالم شخْصيتها، بل كانت على جانبٍ من البهاء والحسْن والجمال.

ولقيت **هِند** أَيْضاً اهتمام أَبيها في تعليمها وتَثْقيفها، وقليلاً ما كانت القراءة والكتابة تأْخُذُ طريقها إلى البيوتات القرشية إلا إذا كان الأفراد مهيئين لها، وعلى الخصوص بيوت السادة والكُبَراء.

ولقد أَتْقَنت **هِندٌ** الفصاحة والبلاغة والبيان، وحفظت كثيراً من الشِّعْر، وكانَتْ ذَوّاقةً فنظمت أَيْضاً وأَنشَدَتْ.

وٱكتملت أنوثَةً وجمالاً...

فزادها كُلّ ذلك اعتداداً بِشَخْصيتها وٱعْتزازاً وشُهْرَةً، وبَدَتْ في الوسط

= فيه أبو قحافة كذا في وقد ذكر صاحب الأمصال ما يدل على أنها بقيت إلى خلافة عثمان بل بعد ذلك لأن أبا سفيان مات في خلافة عثمان بلا خلاف وقال هذا قال رجل لمعاوية زوجني هنداً قال إنها قعدت عن الولد ولا حاجة إلى أزواج قال فولني ناحية كذا فأنشد معاوية:

طلب الأبيض العقوق فلما ... أعجزته أراد بيض الأنوف

يعني أنه طلب ما لا يصل إليه فلما عجز عنه طلب أبعد منه ثم رأيت في طبقات ابن سعد الجزم بأنها ماتت في خلافة عثمان.

النسائي في **مكّة** فتاةً يتمنّاها كثيرٌ من الْفِتْيان زوجةً له ورفيقةً لِعُمْرِهِ يأْنس بها، ويَسْعد بعِشْرتها، وتكون مَوْئلاً طيّباً لِأُسرةٍ سعيدةٍ فَذَّة.

الزّواجُ الأوّل

وتقدَّم لخطبتها والزواج مِنْها أَحَدُ السادة الْأَثرياء، شابٌ نابِهٌ واسع الثروة اسمُهُ **الفاكهة بن المغيرة** وينتسب إلى بني مخزوم.

فاستشارها والدها **عُتْبَةُ** في ذلك، فوافقت، وزُفَّت إلى **الفاكهة بن المغيرة**...

وكان **الفاكهةُ** مُولعاً ومُوَلَّهاً بـ **هِنْد**، شديد الْغَيْرةِ عَلَيْها؛ وبادلتْهُ حُبًّا بحب وهَنِئاً بهذا الزواج فَتْرةً من الزَّمن لَيْسَتْ بالطويلة، لم تَبْلُغ السَّنَة.

وكان لـ **الفاكهة** بَيْتٌ للضيافةِ بارزٌ من البُيُوت، يَغْشاهُ الناس مِنْ غير إِذْن، وهذا وَجْهٌ من وجوه الكرم الذي تميّز بِهِ **الفاكهة**.

ولم تمكث معه هند طويلاً.. بل افترقا وتأيمت عند أبيها.

الزّواجُ الثاني

أَبو سُفْيان ـ صَخْر بن حَرْب

وَدَخَلَتْ **هِنْد** في دَوْر جديدٍ من حياتها...

دوْر تَأَلَّقت فيه وَبَرَزَتْ، وأخذت وَضْعها على الصعيد القبليّ في الزعامة النّسائية المعارضة للدين الحنيف.

وكانت **هِنْد** في معارضتها واقعة تحت تأثير نزعتيْن: **أُولاهُما**: تعلّقها بدينِ الآباء والأجداد، **والثانيةُ**: عُقْدة الزعامة والسيطرة.

ولْنَعُدْ إلى مُجريات الْأَحداث...

بعد أَنْ ظهرت لِلْمَلأ براءة **هند** مما رماها به **الفاكهة بن المغيرة** وعادت إلى **مكة** ناصعة السُّمْعة نظيفة الصفحة... اشْرأَبَّت أعناق الشباب والفتيان مِنْ جديدٍ تتطلّع إليها وتتمنّاها...

ويَبْدو أَنّ طُلاّبها كانوا كثيرين؛ كما يبدو أن والدها **عُتْبة** قَدْ حدَّثَها بهذا الصَّدد، إِذْ قالت لهُ ذات يَوْم:

ـ إني امرأةٌ قد ملكْتُ أمري فلا تزوّجني رجلاً حتى تعرضُه عليّ. . .

وهي بهذا إِنّما تُريدُ التريُّث في الاختيار، كما تريدُ أَيْضاً أَنْ يكون لها الرأَي الأول دون أبيها. . ، فقال لها:

ـ لكِ ذاك.

قال لها ذات يوم:

ـ إنّك قد خطبك رجُلانِ من قومك، ولستُ مُسمِّياً لك واحداً منهما حتى أَصِفَهُ لك، أما الأوّل: ففي الشرف الصميم والحسب الكريم، حسن الصحابة سريع الإِجابة، إن تابعتيه تَبِعَكِ، وإن مِلْتِ كان معك تقضين عليه في مالِهِ، وتكفّين برأيك عن مشورته. وأما الآخر: ففي الحسب الحسيب والرأَي الأريب، بَدْر أرومته وعزّ عشيرته، يؤدّب أهله ولا يُؤدِّبونه، إن اتبعوهُ أَسْهَلَ بهم، وإن جانبوهُ تَوَعَّر عليهم، شديد الْغيْرة، سريع الطيرة، صعب حجاب القبة، إن حاج فغير منزور، وإن توزع فغيْر مقهور، وقد بيَّنْتُ لك كليْهما.

استمعت **هِنْد** إلى هذا الوصْف، ثم قالتْ:

أما الأوّل فسيّد مضياع لكريمتيه، مؤاتٍ لها فيما عسى أن تَقْتص أن تلين بعد إبائها وتضيع تحت خبائها، إن جاءته بولدٍ أَحْمقَتْ، وإن أَنجبت فَعَنْ خطأٍ ما أنجبت؛ إِطْوِ ذكر هذا عَنّي ولا تُسمِّهِ لي.

وأما الآخر فَبَعْلُ الحرَّة الكريمة، إني لِأَخلاق هذا لواقعة، وإِنّي لهُ لموافقة، وإني لآخذه بأَدَب البعْل مع لُزومي قُبَّتي وقِلَّة تَلَفُّتي، وإِنّ السَّليل بيني وبينه لَحَريّ أن يكون المدافع عن حريم عشيرته الذائد عن كتيبتها، المحامي عن حقيقتها، المتثبِّت لأرومتها، غير مُواكِلٍ ولا زمّيل عند صعصعة الحروب[1].

لقد آثرت **هِنْد** صاحب الشّخصية القويَّة، فكان **أبو سفيان** ـ صَخْر بن حَرْب بن أُميّة بن عَبْد شَمْس.

---

(1) رواه ابن سعد في «طبقاته» (8/ 235 ـ 236).

رَبيبة الجاهليَّة

وَتَزَوَّجا. . .

وعاشَتْ **هِند** في كنَفِ **أَبي سُفْيان** غَيْر ذائبةٍ أو فانية، بل متميِّزَة الشخصيّة صاحبة رأْي ورُؤية، خصوصاً على صعيد ما يُواجه قريْشاً مِن تَغْيير جَذْريٍّ في مُعْتَقدها وأُسْلُوب حياتها، فكانت عنيفةً شديدةً في التَّصدّي للإِسْلام والمسلمين، ذات بأْسٍ وَقُوَّة، تنفخ ريح الحقْد في نار الغضب، فيزْداد الكُرْهُ ويعلُو اللَّهبْ. . .

حتّى كان يوْم الْفجيعة الكُبْرى لها. . .

يوم **بَدْرٍ**؛ حين قُتِلَ أَبُوها **عُتْبة** وعمُّها **شيبة** وأَخُوها **الوليد**!!!

كان زوْجُها **أبو سُفْيان** يَوْمئذٍ على أموال قريشٍ وتجارتها، غائباً عن المعركة، عائداً بالقافلة من الشّام إلى الحجاز، ولقد ساحَلَ بالْعيرِ عندما عَلِمَ بخروج النبيِّ ﷺ والمسلمين للتصدي لَهُ واعتراضه، وأَرْسَلَ إلى قرْيشٍ في مكة يستحثُّها على إنْقاذ أَمْوالها. . .

هاجَتْ هائجة الناس، وخرجوا خُرُوجَهُم المعروف المشهور. . .

وَأَصَرَّ **أبو جَهْل** ـ عمرو بن هشامٍ ـ على مُناحَرة المسلمين ومواجهتهم رغْم نجاة القافلة. . .

واسْتَنْصَرَ رسُول اللّه ﷺ ربَّهُ على الأعداء، فَأَيَّده بالملائكة وَثَبَّت الْقِلَّةَ المؤمنة، حتى دارت الدائرةُ على المشركين، وسقط العديد منهم صَرْعى مُعفَّرين بالتُّراب ملطخين بالدماء، وأُسر الكثيرون، وَفَرَّ الباقون لا يلوون على شَيْء.

وكان ـ كما أسلفْنا ـ من بيْن القتْلى والد **هند** وأخوها وعمّها. . .

فكانت ثورة النَّفْس عِنْدها في الأوْج، حُزْناً وهَمّاً وغمّاً. . .، فأنشدت ترثيهم:

إِبْكي عميد الأَبطحيْن كليْهما ... وحاميهما من كُلِّ باغٍ يريدها

أبي **عُتْبة** الخيرات ـ ويْحك فاعلمي ـ ... و**شيْبة**؛ والحامي الذّمار **وليدها**

أولئك آل المجد من آل غالبِ ... وفي الْعِزّ حين يُنْمى عديدها

وقالتْ أيضاً:

أَعَيْنَيَّ جُوداً بِدَمْعٍ سَرِبْ ... على خَيْر خنْدفٍ لم ينقلب

تداعى لهُ رَهْطُهُ غُدْوَةً ... بنو هاشم وبنو المطّلب

يذيقونه حدَّ أسيافهم ... يعْلونه بعد ما قد عطب

يجرّونه وعفير التُّراب ... على وجْهه عارياً قَدْ سُلب

وكان لنا جبلاً راسياً ... جميل المرآة كثير الْعُشُب

الحقْدُ والثّأْر

وليس لواحدة مثل **هِنْدٍ** في قُوَّة شَخْصيتها وشدَّة حقدها على الإِسلام وجموح عاطفتها نحو عصبيّتها القبليّة الجاهلية، أَنْ تكْتفي بقوْل الشعر تُنفِّسُ بِهِ عَنْ حُزْنِها وأَلَمِها، فكان لا بُدّ من الثّأْر.

وبعد أَنْ تقصَّتْ **هِنْد** أَنْباء معركة **بَدْر** وعرفت تفاصيلها واستقرَّ لديها أن **حمزة بن عبد المطلب** ـ رضي اللَّه عنه ـ، عمَّ رسُول اللَّه ﷺ هُوَ الذي قَتَل أَباها وفَعَلَ الأفاعيل في قريشٍ يَوْم **بَدْر**، توجّه كل حقدها نحوه والثَّأْر مِنْه، وأَضْمَرَتْ أَنْ تمثّل به وتَأْكل مِنْ كبِدِه، كما أَفْرى كبدها غمًّا وحُزْناً على أَحبِّ الناسِ إليْها.

في أُحُدٍ

وترجمت **هند** حِقْدها إلى ثأْرٍ عمليٍّ...

فقد كانَ لِـ **جُبَيْر بن المطْعِم بن عديّ** غلامٌ يُدْعى **وَحْشِيّ بن حَرْب** من أحابيش **مكّة**، يقذف بالحربة قَذْف الأحابيش فلا يُخْطِئ، وكان قد مَنّاهُ مولاهُ **جُبَيْر** بالعتْق والحريَّة إِنْ هُوَ قَتَل **حمزة بن عبد المطلب**، في معركة الثأر المنتظرة بيْن قريْشٍ والمسلمين...

وكانت **قريش** تستعد لذلك اليوْم استعداداً كبيراً وهائلاً، وَمِنَ الصُّدفِ أن يُضْحي **أبو سفيان** ـ زوْج **هِنْد** ـ على رأْس القيادة السياسيّة والعسكريَّة لِـ **قريش**، بعد مَوْت **أبي جَهْل** وغيره من الأرهاط والسادة في **بَدْر**...

وكانَتْ **هِنْد** تنتظر اليوْم بفارغ الصَّبْر، وتُذْكي حماس زَوْجها وتَسْتعجله وتَسْتحثُّه؛ وكانت كُلَّما رَأَتْ **وَحْشيًا** شَجَّعَتْه، وَوَعَدَتْه بالعطاء الجزيل، وتقول له:

ـ اشْفِ واشْتَف **أبا دسْمة**...

وَخَرَجَتْ **هِنْد** في خمس عشرة أمرأةٍ مع جَيْش المشركين؛ ولما الْتقى الجيشانِ ودنا بعضُهُم من بعض، قامت **هند** في النسوة اللواتي معها يَضْربْن بالدفوف خَلْف الرجال ويحرِّضْنهم على الْقتال ويُنْشدْن:

نَحْنُ بناتُ طارِق[1] نمشي على النَّمارق[2]
إن تُقْبِلُوا نعانق أو تُدْبِروا نُفارق
فراق غير وامِق[3]

ثم ينطلق صَوْتها مُجَلْجِلاً من دُونِ الأُخريات:

إِيهاً بني عَبْد الدار إِيهاً حُماةَ الْأَدْبار
ضَرْباً بِكُلِّ بتّار

وكان ما كان من أَمْرِ المعركة، من نَصْر المسلمين أوّلاً، ثم هزيمتهم، ووقوع العديد مِنْهُم شُهداء، وعلى رَأْسِهم سيِّدُهم **حَمْزَةُ بن عبد المطلب** ـ رضي اللَّه عنه ـ، الذي تحيَّن له **وحشيٌّ بن حَرْب** الفُرْصة حتى تمكَّن منه فقذفه بالحرْبةِ فَخَرَّ صَريعاً...

وأَقْبَلَتْ **هِنْد** مع النِّسْوة يُمَثِّلْنَ بالقتْلى الشهداء أَبْشَعَ تَمْثيل، يَجْدَعْن الآذان والأُنوف، حتى اتَّخَذَت **هند** من آذان الرجال وأُنُفِهم خُذماً وقلائد، ومَنَحت **وَحْشيًا** خِذمها وقلائدها وقِرْطها وحُليَّها...

ثُمَّ بَقَرَتْ بَطْنَ **حمزة** وأَخْرَجَتْ كبده فلاكتْها فلم تستطع أن تسيغَهَا

(1) الطارق: نجم في السَّماء.
(2) النمارق: الوسائد.
(3) الوامق: المحبّ.
ذكره بتمامه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 464) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 416).

فلفظتْها؛ وَعَلَتْ فوق صَخْرةٍ مُشْرِفة وَصَرَخَتْ بأعلى صَوْتها:

نَحْنُ جَزَيْناكُم بِيَوْم **بَدْر** والحرْب بعد الحرْب ذاتُ سُعْرِ

ما كان عن **عُتْبة** لي من صَبْر ولا أخي وعمِّه وبكري

شَفَيْتُ نَفْسي وقضيتُ نَذْري شفيْتَ **وَحْشيّ** غليل صَدْري

حتى ترمَّ أَعْظُمي في قَبْري فَشُكْر **وَحْشيّ** عليَّ عُمْري

دَوْلَةُ الإِسلام

واسْتمر نَجْمُ الإِسلام في صُعُود وأَخَذَت دولتُهُ وكيانها في التَّبْلوُر، خصوصاً بعد **الخندق** و**الحديبية** و**عُمرةُ القضاء**، ودخول القبائل في دين اللّه أَفْواجاً...

وَحَدَث أَنْ نَفَضَت **قُرَيْش** عَهْد **الحديبية** بتأييدها قبيلة **بكْر** على **خُزاعة**، فَشَدَّ **أبو سُفْيان** الرحيل إلى **المدينة** ليسدَّ هذه الثَّغْرة، ولكنَّهُ لم يَلْق الاستقبال الحسن، فارْتَدَّ على عقبيْه إلى **مكّة** مذموماً مَدْحوراً، خالي الوفاض؛ فلما استمعت **هنْد** منه إلى الوقائع والتصوّرات قالت له:

ـ قُبِّحْتَ من سفير قَوْم...

لقد كانت في كثير من الأَحيان تَخْرُج عن طوْرها، وتستيقظُ في أعماقها ثَوْرةُ عِزَّتها وسوْرَةُ غضبها، فتقولُ قَوْلاً مُنكراً لا تُراعي فيه قواعد اللياقة الزوجية ولا أُصُول العشرةِ الزوجيّة.

إسلامُها ـ رضي اللّه عنها وغفَر لها ـ

وهنا، نَدْخُلُ في الطَّوْر الثالث من أَطْوار حياتها، وهو الطَّوْر الذي يُشَرِّفها فِعلاً، ويرفَعُ من مقامها حقاً، إنّه دَوْر إِسْلامها وجهادها في سبيل اللّه.

فلمّا رَجَعَ **أبو سُفْيان** سِلْماً من عند النبيِّ ﷺ إلى **مكة** في ليْلة الفتْح، صاح في أَنْديَةَ الناس قائلاً:

ـ يا معشر قُرَيْش... أَلا إِنّي قد أَسْلَمْت فَأَسْلِموا، فإن محمداً قد أتاكم بما لا قِبَلَ لكُم بِهِ...، مَنْ دَخَلَ البيْت فهو آمن، ومن دَخَلَ دار **أبي سفيان** فهو آمن، ومن أَغْلَق بابَهُ فهو آمن...

فوجئت **هِنْد** بما قاله، وكأنّ نازلةً من السّماءِ خَرَّتْ عليْها، فقامت في وَجْهِهِ كالمجنونة تَصْرُخُ وتقول:

ـ بئْس طلِيعةُ القوْم أَنْت، واللَّه ما خدشْت خَدْشاً...، يا أَهْل مكّة عليكم بالحميتِ[1] الدَّسم فاقْتُلُوه...

لكن صَرْختها هذه ذَهَبَتْ أدراج الرّياح ولم تَلْق من الناسِ آذاناً صاغية... وَدَخَل رسُول اللَّه ﷺ والمسلمون معه **مكة**، كما دَخَلَ النّاسُ في دين اللَّه أَفْواجاً، وخطب ﷺ في الجموع، وعفا عَمَّن ظلمه من أَهْل **مكة** بقوْله:

ـ اذْهَبُوا فَأَنْتُم الطُّلَقاء...

وفي صباح اليوْم التالي حَدَث الإِنقلابُ العظيم، إذ فاجأَتْ **هِنْد** زَوْجها **أبا سُفيان** بقولها:

ـ إنّما أُريدُ أَنْ أُتابَع محمداً...

فالتَفَتَ إليْها متعجِّباً وقال:

قد رأَيْتك تكرهين هذا الحديث بالأَمس.

قالت:

ـ إنّي واللَّه ما رأيْتُ أَنْ عُبِدَ اللَّه حق عبادتِهِ في هذا المسجد بْل الليلة، واللَّه إِنْ يأْتوا إِلاّ مُصلِّين قياماً وركوعاً وسُجُوداً...

وهذه ولا شك ـ عزيزي القارئ ـ لَفْتة إنسانٍ ناضجٍ واعٍ يُدْرك الحقائق ويتبعها بعد أَن ران الجهْل على قلْبه وعَقْلِهِ رِدْحاً من الزمن.

فقال لها **أبو سُفيان**:

ـ إنّك قد فَعَلْتِ ما فَعَلْتِ فٱذهبي برجُل قومك معك.

فذهبت إلى **عثمان بن عفّان** ـ رضي اللَّه عنه ـ، فذهب فٱسْتَأْذن لها فَدَخَلَتْ متنقِّبة متنكِّرةً لِحَدَثِها، وما كان من صنيعها بـ **حمزة بن عبد المطّلب** ـ رضي اللَّه عنه ـ، فهي تخاف أَنْ يأْخذها رسُول اللَّه ﷺ بذنْبها ذلك.

---

(1) الحميت: الشديد.

فقالت:

ـ يا رسُول اللّه، الحمد لِلّه الذي أَظْهر الدين الذي اختاره لِنَفْسه لِتَنْفعني رَحِمُك، يا **محمد** إنّي امرأةٌ مؤمنةٌ باللّه مُصدِّقة برسوله؛ ثُمَّ كَشَفَتْ عن نقابها وقالت: أنا **هند بنت عُتبة**.

فقال رسُول اللّه ﷺ:

ـ مَرْحباً بك.

فقالت:

ـ واللّه ما كان على ظهر الأرض أَهْل خباءٍ أَحبُّ إليَّ أن يذلُّوا من خبائك، ولقد أصبحتُ وما على ظهر الأرض أَهْل خباءٍ أَحبُّ إليَّ من أن يعزُّوا من خبائك.

البيعةُ والحوار

لقد جاءته ـ رضي اللّه عنها وغفر لها ـ مع بعض النّسْوة يُعْلِنَّ إسلامَهُنَّ ويُبايعْنَهُ، فقال لهُنّ ﷺ:

ـ «تُبايعْنني على أَلاّ تُشْرِكْن باللّه شيئاً».

فقالت **هِنْد**:

ـ واللّه إنك لَتأْخُذُ علينا أَمْراً ما تأخذه على الرجال، وَسَنُؤْتيكه. قال:

ـ ولا تَسْرِقْن...

فقالت:

ـ واللّه إنْ كُنْت لأُصيبُ من مالِ **أبي سُفْيان** الْهِنَةَ بَعْد الْهِنَّةِ[1]، وما أَدْري أكان ذلك حلالاً لي أم لا.

ويبدو أَنَّ **أبا سُفْيان** كان قد حَضَر المجلس بعدهُنَّ.

فقال:

ـ أما ما أَصَبْتِ فيما مضى فَأَنْت مِنْه في حِلٍّ.

فقال رسُول اللّه ﷺ متعجباً من تصرُّف **هِنْد** الثَّريَّةَ، العزيزة النَّفْس:

---

(1) الهنةَ: الشيء القليل الهيّن.

ـ وإِنَّك لَـ **هِنْد بنت عُتْبة**؟؟!!

فقالت:

ـ وأنا **هِند بِنْتُ عُتْبة** فٱعْفُ عما سَلَفَ، عفا اللَّه عَنْك.

ثم تابع ﷺ المبايعة، فقال:

ـ «ولا تَزْنين»...

فقالت **هِنْد**:

ـ وهل تَزْني الحُرَّةُ يا رسُول اللَّه؟

لقد استيقظت في نَفْس **هِنْد** كُلّ معاني الشَّرف وكُلّ عناصِر العزّة والسُّؤدد، وانتفضَتْ كأنها لسعتْها عَقْرَب، وعادَتْ بها الذاكرة إلى سنين خَلَتْ، إلى يوْم زوْجها الأوّل **الفاكهة بن المغيرة** وما كان من شأنها وشأنه...

ثم قال ﷺ:

ـ «ولا تَقْتُلْنَ أَوْلادكُنَّ»...

فقالت **هِند** مُعَرِّضةً:

ـ قَدْ ربَّيْناهم صغاراً وقتلتَهُم يَوْم **بَدْرٍ** كباراً، فَأَنْت وهُم أعلم.

فضحك **عمر بن الخطاب** ـ رضي اللَّه عنه ـ من قوْلها حتى ٱسْتَغْرب.

ثم تابع ﷺ يقول:

ـ «ولا تأْتين بِبُهتانٍ تَفْترينه بَيْن أيديكُنَّ وأَرْجُلِكُنَّ».

فقالت:

ـ واللَّه إن إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أَمْثل.

قال:

ـ «ولا تَعْصينني في معروفٍ».

فقالت:

ـ ما جلسنا هذا المجلس ونَحْن نريد أَنْ نعصيك في معروف.

فقال ﷺ لِـ **عُمَر**:

ـ «بايعْهُنَّ واستغْفِر اللَّه لهُنّ».

فبايعهُنَّ **عُمَر**؛ ذلك أَنَّ رسُول اللَّه ﷺ لم يكن يصافح النساء ولا يمسُّ

امرأةً ولا تمسّه، إلاّ امرأة أحلّها اللَّه له، أو ذات محرمٍ مِنْه[1].

بَعْد الإِسلام

عُرِفَتْ هِنْد ـ رضي اللَّه عنها ـ كما قُلْنا في التوطئة بِتَطَرُّفها وجنوحها إلى أَقْصى حَدٍّ، سواء في جاهليتها أو إسلامها، لذلك اشتهرت بأنها منذ أسلمت حَسُنَ إسلامها؛ فلقد عادَتْ إلى دارِها بَعْد المبايعة، وتناولتْ فأْساً وراحَتْ تَضْرِبُ صنماً لها في الدار وتقول له: كُنّا مِنْك في غُرور.

وأَقَرَّ النبيُّ ﷺ **هنداً** و**أبا سفيان** على نكاحهما الأوّل.

وجاءت ذات يَوْم إلى رسُول اللَّه ﷺ تقول:

ـ يا رسُول اللَّه إِنّ **أبا سفيان** رجُلٌ مِسّيك، فَهَلْ عليَّ من حَرَجٍ أَنْ أطعم من الذي لهُ عيالنا؟

فقال:

ـ «لا حَرَج عليك أَنْ تطعميهم بالمعروف، خذي من مالِهِ ما يكفيك أَنْتِ وولدك»[2].

وبعد انتقال النبيّ ﷺ إلى الرفيق الأعلى ثبتَتْ **هِنْد** ـ رضي اللَّه عنها ـ على إسلامها ولم ترتدَّ ولم تتزعْزع في إيمانها.

شهدت ـ رضي اللَّه عنها ـ معركة اليرموك، فكانت كما رُوي تحرِّض المسلمين على القتال وتقول:

ـ عضدوا الغُلْفان بِسُيُوفِكُم يا مَعْشر المسلمين.

في خلافة عُمَر ـ رضي اللَّه عنه ـ

يُرْوى أَنّ **عُمَر** ـ رضي اللَّه عَنْه ـ نهى **أبا سُفْيان** عن رشّ باب منزلِهِ ـ في مكة ـ لِئَلاّ يمرّ الحاجُّ فَيَزْلِقُونَ فيه، فلم يَنْتَهِ...

---

(1) ذكره ابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 416) وابن سعد في «طبقاته» (8/ 237) وابن عساكر في «مختصر تاريخ دمشق» (27/ 189).

(2) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الأقضية باب (4) حديث رقم (7) وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (25/ 172) وابن سعد في «طبقاته» (8/ 237).

ومرَّ **عُمَر** فَزلق ببابه فَعَلاهُ بالدِّرَّة وقال له:

«أَلَمْ آمُرُكَ أن لا تَفْعل هذا» . . . ؟!

فَوَضَعَ **أبو سُفْيان** سَبَّابَتَهُ على فِيهِ خَشْية أن تَسْمع **هِنْد** من الداخل، فَتَشْمت به.

فقال **عُمَر**: الحمد لِلَّهِ الذي أراني **أبا سُفْيان** ببطْحاءِ **مكّة** أَضْرِبُهُ فلا يَنْتَصِر، وآمُرُهُ فَيَأْتمر.

وسمعتْهُ **هند** فقالت:

ـ احْمِدْهُ يا **عُمَر** فإنَّك إن تَحْمَدْهُ فَقدْ أُوتيت عظيماً، أي أحمد اللَّه تعالى.

النُّفُور بيْن هِنْد وأبي سُفْيان

وهبَّت ريحُ الشَّحْناء والبغضاء بين **هند** و**أبي سُفْيان**. . .

ولما ولّى **عُمَر بن الخطّاب** ـ رضي اللَّه عنه ـ **يزيد بن أبي سُفْيان** ما ولاّهُ من الشّام خَرَج إليه أَخُوهُ **مُعاوية**؛ فقال **أبو سُفْيان** لِـ **هِنْدٍ** مُدِلاً:

ـ كيْف ترَيْن؟! صار ابْنك تَبَعاً لابني[1] !!!

فقالت:

ـ إنِ اضطرب حَبْل الْعَرَب فستعلم أَيْن يَقَع ابنُك مما يكونُ فيه ابني.

وكأَنَّ **هِنْداً** كانت تتطلَّع من زَمَنٍ بعيد إلى الإِرهاصات التي سَمِعَتْها عن صعُود نَجْم معاوية، وأنه سَوْف يكون ذا شأنٍ عظيم؛ ولذا كانَتْ تُرْقِصُهُ وهُو صغير وتداعبْه منشدةً:

إنَّ بُنَيَّ مُعْرِقٌ كريم ... مُحبَّبٌ في أَهْلِهِ حليم

ليس بفحّاشٍ ولا لئيم ... ولا بطُخْرورٍ[2] ولا سؤوم

صَخْر بني فِهْر به زعيم ... لا يخْلف الظَّن ولا يخيم

وتوفّي **يزيد بن أبي سفيان** ـ رضي اللَّه عنه ـ فَوَلّى **عُمَر معاوية** مكانه.

---

(1) كان يزيد ومعاوية كُلاً من أُمّ.

(2) أي سيّئ الْعِشرة.

فقالت **هند** لولدها ناصحةً:

ـ واللَّه يا بُنيَّ إِنَّه لَقَلَّ ما ولدت حُرَّةٌ مثلك، وقد استنهضك هذا الرجل **عُمَر**؛ فاْعمل بموافقته أَحْبَبْتَ أَمْ كرِهْتَ.

الساعِيَةُ على نَفْسِها

افترق الزّوْجان؛ **هند** في طريق، و**أبو سفيان** في طريق آخر...

وتأبى عزيزة النَّفْس أَنْ تكون عالَةً على أَحَدٍ؛ فجاءت **هِنْد** إلى أمير المؤمنين **عُمر بن الخطاب** ـ رضي اللَّه عنه ـ فاْستقْرضَتْه من بَيْت المال أربعة آلاف دِرْهم، تَتَّجِرُ فيها وتضمنُها؛ فأَقْرَضها.

فَخَرَجَتْ بالمال إلى بلاد **كلْب** فاشْتَرَتْ وباعَتْ؛

ثم بلغها أَنّ **أبا سُفْيان** وولده **عمرو** قد أَتَيا **معاوية** في الشام، فَخَشِيَتْ أَنْ يُعْطيهما شيئاً من بَيْت مال المسلمين، ثم يحاسبه عليْه **عُمر** أَشَدَّ الحساب؛ فَأَتَتْ دمشق مُسْرعةً؛ ودخلت على **معاوية** الذي فوجئ بقدومها؛ فقال لها:

ـ ما أَقْدَمَكِ يا أُمَّه؟!

ـ النَّظَرُ إليْك...، أَيْ بُنَيّ إِنَّه **عُمَر**... وإِنّما يعمل لِلَّه، وقد أتاك أَبُوك فخشيتُ أَنْ تُخْرِج إليْه من كُلّ شيء، وأَهْل ذلك هُو؛ فلا يعلم الناس من أَيْن أَعْطيته، فيؤنّبك **عُمَر** فلا يستقبلها أبداً...

فبعث **معاوية** إلى أَبيه وأخيه بمائة دينارٍ وكساهُما وحَمّلهُما؛ فتعظّمها **عمرو**، وتألَّم في نَفْسه، كيْف يستخفّ بهما **معاوية** ويقلّل من شأْنهما؛ فقال له أَبوه:

ـ لا تعظّمها... فإن هذا عطاءٌ لم تَغِبْ عنه **هند** ومشورةُ قد حَضَرتْها.

مِنْ مأْثور كلامها

فمن كلامها أنها قالت حين أتاها نَعْي **يزيد بن أبي سُفيان**، وقد قال لها بعضُ المعزِّين:

إِنّا لنرجو أن يكون في **معاوية** خَلَفٌ من **يزيد**.

فرَدَّتْ:

- مِثْل **معاوية** لا يكون خَلَفاً من أَحَدٍ، فواللَّه لو جُمِعَتِ العربُ من أَقْطارها ثُمَّ رُمِيَ بِهِ فيها، لَخَرَج من أَيّ أَعْراضها شاء.

وقيل لها:

- إن عاش **معاوية** سادَ قَوْمه.

فقالت:

- ثَكِلْتُهُ إنْ لَمْ يَسُدْ إلاّ قومه.

وقالتْ: المرأةُ غِلٌّ ولا بُدَّ لِلْعُنُق مِنْه، فانْظُر من تَضَعُها في عُنُقِك.

وقالت أيضاً: إنما النساءُ أَغْلال فَلْيَخْتَرِ الرَّجُل غِلاً لِيَدِهِ.

الــرّاويــة

جاء في تاريخ **ابن عساكر** أنها رَوَتْ عن النبي ﷺ، وروى عنها ابنها **معاوية بن أبي سفيان** و**عائشة أم المؤمنين** - رضي اللَّه عنهما -.

لكن الإمام **ابن الجوزي** يقول في **المجتنى**: لا نعلم أَنّ **هند بنت عُتبة** أَسْنَدَتْ عن النبي ﷺ شيئاً.

توفيت **هند** - رضي اللَّه عنها - في خلافة **عُمر بن الخطاب**، في اليوم الذي مات فيه **أبو قحافة** والدُ **الصدِّيق** - رضي اللَّه عنهم -.

غَفَرَ اللَّه لها، ورحمها، ورضي عنها.

وآخر دعْوانا أنِ الحمدُ لِلَّهِ رب العالمين

كعيبة الأسلمية

رضي اللّه عنها[1]

بسم اللّه الرحمن الرحيم

قال اللّه تعالى:

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: 23، 24].

وقال رسُول اللّهِ ﷺ: «النِّساءُ شقائِقُ الرِّجال» وصدق رسُولُه الكريم.

حديث الْقَلْب

وقالت الفتاة تحدِّثُ صاحبتها:

ـ لو رأَيْته يا **كُعَيْبة**...!! لا يستطيعُ الإنسان مهما أُوتي من متانة الأعصاب وقُوَّة الإرادة ونفوذ البصر أنْ يحدّق في وجْهه الشريف...، نُورٌ غامر وشُعاعٌ باهر..، تذوب النُّفُوس رقّة وحياءً بين يديْه، ويحسُّ الإنسان بخفّةٍ في كيانِهِ وبدنِهِ، فكأنَّه يحلِّق في عالمِ عُلْويٍّ شفيف، ولا تملك النفس البشرية إلاّ التسليم...

لو رأيْتهِ يا **كُعَيْبة**...!!

فقال **كُعيبة** وهي تتملْمل في مقْعدها:

ـ لقد شوَّقتني يا أختاه إلى هذا اللقاء، وإنّني لأشْعر بندم شديد إذْ فاتني اليوم شرف الاستقبال العظيم، ولوْلا أنَّ اللَّيْل قد دَخَلَ وَعَمَّ الظلام لسعيْتُ إليه في دار ضيافته عند **أبي أيُّوبِ** مُرَحّبةً ومبايعة...

(1) ترجم له ابن حجر في «الإصابة» (8/ 176) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 387) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 461) و«أعلام النساء» (4/ 245) و«تجريد أسماء الصحابة» (2/ 300).

فقالت محدِّثتها مقاطعة:

ـ أما الاستقبال يا **كُعيبة** فحدِّثي عنه ولا حَرَج، لقد كانت **يثرب** كلها في شرف الاستقبال، شيبها وشُبّانها، نساؤها ورجالها، أطفالُها وشُيوخها، حتّى اليهودُ خرجوا من قبيل حُبِّ الاستطلاع...

لقد كان مهرجاناً رائعاً لم تَشْهده **يثرب** من قَبْل...

قالت **كُعَيبَةُ** وقد جرى الدَّمْع من مُقْلتيْها:

ـ أَلِهذا الحد يا أُخْتاه..!! هنيئاً لك يا رسُول اللّه... وهنيئاً لِـ **يثرب**، أَوْسِها وخَزْرَجِها بك أيها النبيُّ الكريم، والرسُول العظيم.

وتَعْساً لك يا كُعَيْبة ـ قالت تُخاطِبُ نفسها ـ؛ لقد فاتَكِ يَوْم الْعُمْر.

فقالت الأُخرى:

ـ لا تَثْريب عَلَيْك يا **كُعَيْبَة**؛ فإن غداً لناظِرِه قريب.

قالت: **كُعَيْبة**:

ـ تعلمين يا أُخْتاه أُنّني لوْلا أنْشغالي في معالجة ومداواة قريبٍ لي يكادُ يُشْرف على الهلاك لما تأخَّرْتُ عن استقْبال الرسُول الحبيب، والتَّشَرُّفِ بطلْعتِهِ...

ولسوْف أُبَكِّر غداً ـ إن شاء اللّه ـ في المثولِ بيْن يديْه ومُبايعته، فإنّ شوقي لا يُوصَفُ، ومحبّتي لا تُقدَّر...

بَيْن يَدَيْ رَسُول اللّه ﷺ

لم تَنَمْ **كُعَيْبَةُ** ليْلتها،..

فقد كانت تنتظر بُزُوغَ الفجْر وإشراق الصَّباحِ لتُبادِرَ بالذَّهاب إلى دار **خالد بن زيد** ـ أبي أَيُّوب الأنصاري ـ رضي اللّه عنه، حَيْثُ ينزل النبيُّ ﷺ ضَيْفاً..، كيْ تَسْعَدَ باللِّقاء، وتحظى بالشَّرَفِ العظيم، وتُعاهد المصطفى ﷺ على خدمة الإسلام، والتّفاني في حُبِّ المسلمين، وبَذْل الوُسْع والطاقة لرفْع راية الحق...

وعرف النبي ﷺ مكانة **كُعَيْبة** في المدينة، وخصوصاً في قوْمها **بني أسْلَم**

إذْ كانَتْ عارفةً وخبيرة في شؤون علاج المرْضى ومداواتهم، ومتخصِّصة في هذا الميدان، قد أُوتِيَتْ مهارةً وحِذْقاً. . .

لم تدرس في مَعْهدٍ، ولم تتخرَّج في كُلِّية، ولم تتدَرَّبْ في مستشفى. . .، ولكنها بذكائها الفِطْريّ، وَوَعْيها ونباهتها استطاعت أن تكون **طبيبةَ** أهل المدينة دون منازع، ومَوْضع ثقتهم الكُبْرى.

استقْبلها ﷺ وَرَحَّبَ بها. . .، وبايعها على الإسلام.

وما كان أَسْعدها في ذلك اليْوم الذي حظيت فيه بتقدير النبي واحترامه ومحبّته، ودعائه لها بالخير والبركة.

بَيْنها وبيْن نَفْسِها

فخرجت من حضرتِهِ وهي مُمْتلئة عِزَّةً باللَّهِ ورسُولِهِ، فَرحةً جَذِلة، تكادُ لا تحسُّ بقدميْها تطآنِ الأرض، فكأنّها ملاك يَرِفُّ بجنَاحيْه في عنان السماء، ويُحوِّمُ في الفضاء. . .، عالياً. . . عالياً. . . فَوْق مادِّيَّة الكون والناس.

في مَوْكِبِ الإيمان

وسارتْ **كُعَيْبةُ** مع موكب المؤمنين والمؤمنات. . .

تتفقّهُ في كتاب اللَّه، وتسمع من رسول اللَّه، وتشارك مع أخواتها في تشييد صَرْح الوجود الإسلامي في المدينة لَبِنَةً لَبِنَة. . .، وترفع معهم ومعهُنَّ بُنيانه عالياً سامعاً.

وحين أَذَّن مُؤَذِّنُ الجهاد، وَأُذِن للمسلمين في القتال وردِّ عُدْوان المعتدين ونَشْر تعاليم الدين، ورفْع راية سيِّد المرسلين، وتحطيم طواغيت الشِّرْك في نفوس الكافرين.

عندئذٍ شَمَّرت **كُعَيْبةُ** عن ساعد الجد، إذ جاء دَوْرُها، وحانَ حين نشاطها.

خَيمَةُ كُعَيْبة

نَصَبَتْ في فناء المسجد النبويّ الشّريف خَيْمةً كبيرة كانت عندها، ثُمَّ جَهَّزَت جانباً مِنْها ببعض **الأَسِرَّة الخشبيّة**. . .، جَعَلَتْ فوقها فراشاً حَشْوُهُ اللِّيف وغيره، وفي جانبٍ آخر بعض العقاقير والأدوية. . والأدوات اللازمة

لمداواة الجرْحى والمصابين، بحدود ما كانت تسمح بِهِ إمكانيات تلْك الأيّام.

إِذَنْ...، كانَت خيمتُها في فناء المسجد بمثابة مُسْتَشفَى عَسْكَرِياً...؛ وكانت هي ـ رضي اللَّه عنها ـ أَوَّل طبيبةٍ لِجُنْدِ اللَّه.

أوَّلُ الْعَمَل

استقبلت بعض جرْحى معركة **بَدْر**، فعالجتْهم وواستْهم، وأَشْرفت على راحتهم والعناية بهم حتى تَمَّ شفاؤهم، وأمْضُوا فَتْرة نقاهتهم، ثُمَّ غادروا المستشفى [الخيمة] إلى منازلهم ودُورِهِم.

وكم كانت سعادتُها غامرةً، ونَفْسُها بالْفَرْحَةِ عامِرَةً وهى ترى رسُول اللَّه ﷺ يدخُلُ الخيْمة لِيَحْنُو على إخوانِهِ وَأَصْحابِهِ، فَيُشْرق النُّورُ في أَنْحاء الخيمة، ويَسْري فيها من بركة النبيّ ﷺ ما يجعلها أَهْلاً لِلثّقة، ومَوْطناً لِلْبُرْءِ والشّفاء...

وبهذا كانت تَزْداد فعالية نشاطها، وفَرْحة فؤادها، وخصوصاً عندما كانَتْ تسمع دعوات النبيّ ﷺ لها بالخيْر والْيُمْن والتوفيق.

يَوْم أُحُدٍ

أما يَوْم **أُحُدٍ** فقد كان يوم الحُزْنِ الكبير في حياتها...

لقد أَصَرَّ شباب المسلمين على الخروج من **المدينة** لملاقاة أعدائهم، ومواجهة قريش...، حتى لا يُنْعَتَ المسلمون بالجُبْنِ والخوْف...

وكان اللِّقاء بَيْن المؤمنين والمشركين عند جَبَل **أُحُد** وهناك استطاع المسلمون أنْ يربحوا الجوْلة الأولى من المعركة ويُلْحِقُوا بقريشٍ هزيمة مُنْكرة، إلاَّ أَنَّ تخلِّي رُماةَ المسلمين عن مواقعهم الاستراتيجية التي حدَّدها لهم رسُولُ اللَّه ﷺ بدَّلت الموقف ورجَّحتْ كفَّة المشركين، ومُني المسلمون يومئذٍ بخسارةٍ لم يعرفوها من قَبْل...

لقد تفشّى القتْل فيهم حتى جاوز عدد شهدائهم السبعين شهيداً، على رأسهم أَسَدُ اللَّه ورسُوله **حمزة بن عبد المطّلب** عمّ النبيِّ ﷺ.

ولم يستطع المسلمون نَقْل من أُثْخِنَ مِنْ جَرْحاهم إلى **المدينة**...،

ولفظ أكثرهم أنفاسهم الزكيَّةَ الطاهرة في الميدان، وتخضّبَتِ الأرض بدمائهم الغالية . . .

فكان ذلك مدعاةَ حُزْنِ **كُعَيْبة**، ولو أنها كانَتْ قريبة بخيمتها من ساحة القتال لأسعفت بعضهم وأنقذتْهم من براثن الموْت. ولكن قضاء اللَّه تعالى كان لهُم بالمرصاد، فنالوا الشهادة. . .، وتفتَّحتْ لهُم أَبْواب السماء. . .، وٱزَّيَّنَتْ لهُم الجنان.

وأكبَّتْ المؤمنة الدؤوب **كُعَيْبةُ بنتُ سعدِ الأسلميَّة** على مداواة ومعالجة بعض الجرْحى، وسهرتْ على راحتهم، وأتَمَّتْ مهمّتها بنجاح. . .

دَرْسُ أُحُـد

ولقد تعلّمت من **أُحُدٍ** دَرْساً. . .

لقد تعلَّمتْ أن تكون بخيْمتها قريبةً من ميدان القتال، ومعنى ذلك أن تكون خيمتها **مستشفى ميدانياً** بالتعبير الإصطلاحي الحديث؛ مستشفًى متنقِّلاً. . . خفيفاً. . .، لا يعوقُهُ عن أداء مهمته أيّ عائق. . .

ولك أن تتصوَّر ـ عزيزي القارئ ـ كم لاقَتْ **كُعَيْبة** ـ رضيّ اللَّه عنها ـ من المتاعب والمصاعب لتأمين ذلك، وفي عَصْرٍ كانت وسيلة التنقُّل فيه. . . الجمالُ فقط.

يَـوْم الـخَـنْـدق

ففي يوم **الخندق** خرجت **كُعَيْبة** بخيمتها مع الجيش ونصبْتها عند الخط الخلفيّ للقُوّات الإسلاميّة، واستعدَّتْ للعمل إذا ما وَجَبَ ذلك.

ولقد كان من نصيبها أَنْ تقوم برعاية بطلٍ من أَبْطال المسلمين، وسيّدٍ من سادات الأنصار، ومؤمنٍ نَذَر نَفْسه لِلَّه. . .، هو **سَعْد بن معاذٍ** ـ رضي اللَّه عنه ـ، لقد أُصيب بسهم في ذراعه، وكانت الإصابةُ بالغةً شديدة، فتلَّقتْه **كُعَيْبة** في مستشفاها المتنقّل، وبذلتْ كُلّ ما في وُسْعها، وما حصَّلَتْه من خِبْرَةٍ ومهارة ومعرفة لمعالجة البطل وإنقاذ حياته. . .

ولقد اكْتَظَّتْ خيمتها أكثر من مَرّةٍ بالقادة والزائرين يطمئنّون على **سَعْد**؛

وشَرُفَتْ برسُول اللَّه ﷺ يزور **سعداً** ويواسيه ويَمْسح رأسه بيده الشريفة ويدعو له بالشّفاء السريع العاجل. . .، ويُثْني على **كُعَيْبة** ونشاطها وخدماتها الجلّي. . .

عـطـاؤها

وكما أعطى ﷺ للجُنْد أَسْهُماً ونصيباً من المكاسب والمغانم وأسلاب العدوّ أَعْطى **كُعَيْبة** وخَصَّها بنصيب وحظٍ وافر، جزاءً وفاقاً لما كانت تبذله من عظيم الجهد والعطاء من ذات نَفْسها.

ولئن كان وجودها مع خيمتها يوم الخندق في الميدان، وقريباً من المعركة. . . مدعاة فَخْر واعتزاز ومَوْضع إكبارٍ وإعجاب. . .

فماذا تقول في يومَ **خَيْبر**؟؟

إلى خَيبر

خيبَرُ البعيدة عن المدينة المنوّرة قرابة مائة وستين كيلومتراً. . .، تنتقل إليها **كُعَيْبة** بمستشْفاها الميداني وكامل تجهيزاته لتؤدي واجبها نحو اللَّه تعالى وإخوانها في الإسلام؛ تِلْك ـ لَعَمْري ـ أسطورة من أساطير التاريخ، ومعجزة من معجزات الدين الحنيف الّذي كوَّن الإنسان تكويناً جديداً وفريداً. . .

ولقد كان يوْم **خيبر** بمعاركه العديدة، وأيّامه المجيدة من أيّام **كُعَيبة** إذ أَدَّتْ يومئذٍ واجبها على أتمِّ وَجْهٍ وأكمله. . .

فَنَفَلها رسُول اللَّه ﷺ كما نَفَل الفرسان الأبطال، وشكر لها سَعْيها، وسَهَرها، وَجُهْدها، ودعا لها بالخيْر والبركة، وهذا أعظم النَّفْل وأكبر العطاء.

ولقد ظَلَّت ـ رضي اللَّه عنها ـ أمينةً على رسالتها التي نذرت لها نَفْسها، وضَحَّت بكُلّ متْعةٍ من مِتَع الحياة في سبيل ٱبتغاء وَجْه ربّها، وجنّةٍ عرضها السماوات والأرض أُعِدَّتْ للمتّقين.

وإنّي لأتخيَّلُ **كُعَيْبَةَ** ـ رضي اللَّه عنها ـ في جنانِ الخُلْد، تُظلّلها خيمةٌ من الرضى والرضوان. . .

نسيجها من النَّعيم، تَحُفُّها وتَغْمرها يَدُ الرحمن الرحيم، وتمدُّها بكُلِّ عطاءٍ كريم.

مِسْكُ الْخِتام

ويسكُتُ التاريخ بعد ذلك عن باقي أَيّام **كُعَيْبة**، ويصمتُ صَمْتاً مطبقاً، فلا نَسْمع ولا نَقْرأ عن باقي أَيّام عُمْرها؛ سواء في حياة النبيِّ ﷺ، أَوْ بَعْد لحوقِهِ بالرفيق الأَعْلى. . .

وكأنَّها ـ رضي اللَّه عنها ـ قد أَدَّتْ قِسْطها للعُلى، واكتفى المجْد مِنْها بأَيَّامٍ غُرٍّ خَتَمَتْها في **خَيْبر**.

وهناك حقيقة ـ عزيزي القارئ ـ لا بُدَّ من التحدُّثِ عنها، والإشادَةِ بها، وهي إيمانُ الأنصار وإسلامُهُم وجهادُهم.

لقد كانوا ـ فِعْلاً ـ عُدَّة النبيِّ ﷺ في دَعْوته وجُنْد الحقّ في غزواتِهِ، وأبطال الإسلام في مُقارعة الشِّرْك وأَعْوانه.

كانوا يعايشون اليهود، ويتحمّلُون منهم كُلّ أَلْوان المهانَةِ والاحتقار، فيشعرُون إزاءَهم أنهم أَقَلّ شأناً وقيمة فيتألّمون ويُعانون.

كان اليهود يتباهون على أهل **يثربِ** بأنهم أصحاب كتابٍ سماويّ ودينٍ ربّانيّ، ويتباهُون حتى على غير أهلِ المدينة من أعراب الحجاز وقبائل الجزيرة، ويفرضون أَنْفُسهم على الكُلّ مَرْجعاً وحكماً في شؤون العقائد والأَدْيان.

فلمّا دعا رسُول اللَّه ﷺ أَهْل **يثرب** إلى الإيمان أَسْرعوا مُلَبِّين، واستجابوا طائعين، واحتضنوا الدعوة بِصِدْقٍ ويقين.

وأهمُّ الأسباب في ذلك ثلاثة:

أولاً: لأن اللَّه تعالى أراد لهُم الفضْل والخير.

ثانياً: لمواجهة اليهود وإخراس أَلْسنتهم وإبطال حُجَجهم ودعاويهم.

ثالثاً: لِعَصبيَّةٍ قبليّة. . .، فقد كان أَخْوال النبيّ ﷺ من أَهْل **يثرب**، من **بني النجّار**.

وحَمَل الأنصارُ لواء الدَّعْوة، واحتضنوا صاحبها بَيْن جوانحهم، وجعلوهُ في سُوَيْداء قلوبهم، وبذلوا كُلّ غالٍ ونفيس في سبيل رِفْعةِ الإسلام ومَجْده.

رجالاً وشيوخاً، شُبّاناً وفتياناً، شِيباً وكُهُولاً ونساءً. . .، ومن بَيْن أولئك النسوة: **كُعَيْبَةُ بنتُ سَعْدٍ** ـ رضي اللَّه عنها ـ.

لقد عاشت الدعوة في صميم قلبها، وَتَغَذَّتْ من دمائها وَدَفْق عواطفها، وأعطت **كُعَيْبة** لربِّها ورسُولها أقصى العطاء، وبَذَلَتْ في سبيلهما غاية الْمُنى؛ لا طمعاً في كسْبٍ، ولا حُبًّا في مَغْنَم، بل سَعْياً إلى الجنّة.

وكان ذلك دَيْدَنُ الأنصار عموماً. . .

فَحُقَّ لهم أن يَقُول عَنْهم سيِّدُ الأوّلين والآخرين، ورسُولُ ربِّ العالمين:

«لو سَلَكَ الناسُ شِعْباً وسَلَكَ الأنْصارُ شِعْباً، لَسَلَكْتُ شِعْب الْأَنْصار، اللهُمَّ ٱرْحَم الأنصار وأبناءَ الْأَنْصار».

دعوةٌ كريمة، من فَمٍ كريم شريف، نالت الأنصار، فحازَتْ **كُعَيْبَةُ** مِنْها نصيباً، فهنيئاً لها.

اللَّهُمَّ لا تَحْرِمنا أَجْرَهُم، ولا تَفْتِنّا بعدهم.

والحمدُ لِلَّهِ رب العالمين

حمنَة

بنت عمة رسول اللّه ﷺ(1)

توطئة

عزيزي القارئ:

ما من شك أنك تذكرُ قصة حياة الصَّحابيّ الجليل، المهاجر الدائم، شهيد **أُحد**، **مُصْعب بن عُمير** ـ رضي اللّه عنه ـ، الذي كان أنموذجاً رفيعاً وعالياً في الإيمان باللّه ورسُوله، والتضحية في سبيل اللّه.

وبَيْن قِصّة حياتِهِ وقصة حياة **حَمْنة** ـ المسلمة الخالدة ـ تلازُمٌ وتعاون وتكامل، ذلك أنها كانت زوجته وقرينته...

وهي ـ رضي اللّه عنها ـ بِدَوْرها قد أدّت قسطها للعلى والمجْد، هجرةً وجهاداً وتَضحيةً وصَبْراً.

وعلى الرغم من قِصَر الحياةِ الزوجية التي قضياها معاً، فقد كانا مَثَلاً رائعاً في الحب والتفاني والتزاوج، إذ كُلّ يجد في رفيقه وصاحبه الشخصيَّة التي تكمّله.

ونحن حين نعرضُ لحياة **حَمْنَة** ـ رضي اللّه عنها ـ بالسَّرْدِ والرواية والتحليل لا يسعنا أن نُغفل الجانب الآخر المكملّ لها، شخصيّة **مصعب** ـ رضي اللّه عنه ـ، دون التطرق للتفصيل، حتى لا تطغى، ولا يضيع الموضوع الهدف.

وعلى الرغم من أن حياتهما الزوجية لم تثمر سوى ابنةً طواها النسيان والزمن، إلا أنها أثمرتْ خلوداً في التاريخ له معانيه السامية وأبعاده العميقة.

والآن، هيا إلى حياة **حَمْنَة** نقلّب صفحاتها ونستلهم العبرة منها.

---

(1) ترجم له ابن حجر في «الإصابة» (8/ 53 ـ 54) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 253) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 374) وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (8/ 241).

نسبها

هي: **حَمْنَةُ** بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد.

وأمها: أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ؛ فهي بنت عمّة رسول اللَّه ﷺ.

نشأتها

جاء والدها **جحش بن رئاب** إلى مكة في الجاهلية، وكان منظوراً في قومه **بني أسد**، له مركزه ومكانته.

فلما حلَّ في **مكة** دخل في حِلْف **حَرْب بن أمية بن عبد شمس** على عادة أهل الجاهلية، حينئذاك؛ ثم رغب في الزواج.

وكان بناتُ **عبد المطلب بن هاشم** كثيرات، وكُنَّ ذوات حسب ونسب وشرف، أكثرهن على جانبٍ من العلم والفصاحة، وكُلُهُنَّ يتمتّعن بالخلق والتهذيب، فتقدَّم **جحش** لخطبة إحداهُنّ **أُمَيْمة** والزواج منها، فرحَّب به **عبد المطلب**، وتم القران.

وولدت **أُمَيْمة** أولاداً كثيرين، كانت **حَمْنَةُ** من بينهم.

ويبدو أنَّ صفات الحسن والجمال كانت قاسماً مشتركاً بين البنات والبنين، فكانوا جميعاً مَحَطَّ أنظار الناس يتطلعون إليهم رغبةً بهم ذكوراً وإناثاً دون تفريق.

أضف إلى ذلك ما كان يتمتّعون بِهِ من حَسَبٍ رفيع ونسبٍ كريم وعِلْمٍ وفصاحة.

في هذا الجو نَشَأَتْ **حَمْنةُ**، وهي تصغُر أُخْتها **زينب** التي زوّجها النبيُّ ﷺ من مولاهُ **زيْد بن حارثة**، ثُمّ أضحت زوجةً له بعد استشهاد **زيد** في غزوة **مُؤتة**.

درجَتْ **حَمْنَةُ في مكّة**، وكانَتْ مخايل النجابة والْحُسْن تكبُرُ فيها مع سنين عُمْرها، وتأقلمت منذ طفولتها مع الجوّ الإيمانيّ العام الذي لفّ أُمّها وإخوتها، وعاصَرَتْ ـ وهي طفلة ـ جَوّ الجهاد الأَكبر الذي عاناهُ المسلمون من قُرَيْشٍ، وتحمّلوه بِصَبْر بالغ...

وكانت تَسْمَعُ وهي بمكّة عن الشّاب **مُصْعَب بن عُمَيْر**، أَجْمَل فتيانِ قُرَيْشٍ وأكثرهم غِنًى ودلالاً، وتصيخُ بأُذنيْها للحديث عن بذخِهِ وترفه في ثيابِهِ وتأنُّقِهِ، والْعِطْر الذي كان يَفوح من بُرْديْه حين يخطر في أسواق **مكة**، غادياً رائحاً. . .، فَتُعْجب بذلك وتنجذب إلى **مُصْعب**، متمنيّةً إيّاه قريناً. .

ولكن ها هُوَ **مُصْعب**. . . القرشِيُّ الوثنيُّ، المدلّلُ المرفّه، يدخُلُ في حَوْزةِ الإسلام، يؤمن بَيْن يديْ رسُول اللّه ﷺ، فيلْقى من جَرّاء ذلك العذاب الأكبر، والهون الأعظم، تحرمُهُ أُمُّه من كل عطاء ونَفْح، وتمنعُهُ من كُلّ درهمٍ ودينار، وتحبسُه لتقسره على العودة إلى الشّرْك، فيأبى عليْه إيمانُهُ ذلكَ، ويضرب بعرض الحائط كل مغرياتِ الدُّنْيا وزخرف الحياة. . . إذ وَجَدَ في الإيمان والإسلام، وطلعة النبي العظيم روحاً وريحاناً وجَنَّة نعيم.

هنا، ازداد تشوُّف **حَمْنَة** إلى **مُصْعب**، ورغبت فيه أكثر من ذي قَبْل، بينها وبَيْن نفسها، ولم تُفْصح لأحَدٍ عن شَوْقها وحُبِّها المكتوم، وأقامت على ذلك زَمَناً.

الداعيةُ المهاجر

ووفد إلى **مكة** في الموسم طائفةُ من أهل يثرب، فلقيهم النبيُّ ﷺ وعرَّفهم بنفسه وبدعْوتِهِ، وشرح لهم أصول وقواعد دعوة الإسلام، ورغّبهم فيها، فاستجابوا لَهُ، وآمنوا بِهِ، وطلبوا إليْه أن يُرْسل معهم مِنْ أصحابِهِ مَنْ يعلّمهم أمور الدين ويفقّههم فيه، ليكونوا على بيّنةٍ مع الله ورسولِهِ.

وكان **مُصْعَبُ** في ذلك الحين قِمَّةً شامخةً من قِممَ الفقه والفهم والعبادة، فاختاره النبيُّ ﷺ داعيةً، ورفيقاً ومعلّماً للوفد اليثربي.

وشَدَّ **مُصْعب** الرحال إلى **يثرب** منتشياً فرِحاً لحُسْنِ ظن الرسول الكريم به، واختياره لهُ، وهو يعلم في نفس الوقت مدى خطورة الأمر الذي وُكِلَ إلَيْه.

وهناك. . . في المدينة المنوّرة، استطاع **مصعب** ـ رضي اللّه عنه ـ بما أُوتيهِ من إيمانٍ وحِنكةٍ وجلد أن يَلجَ إلى قلوبِ الناس جميعاً قبل أن يَدْخُلَ دورهم ومنازلهم، وأن يؤثّر على الرأي العام تأثيراً بيّناً. . .

نعرف ذلك من جوابِهِ الذي أجاب بِهِ الرسول ﷺ حين سأله كيْف خَلَّف المدينة وراءه، إذ قال **مصعب**:

- لم يبق فيها بيت إلاّ وفيه ذكر اسم **محمد**. . .

كانَتْ **حَمْنَةُ** في ذلك الحين تدرج نحو الصّبا، وتتكامل نمُوّاً وفُتُوَّةً وتزدادُ تَشَوُّقاً لسماع أخبار **مُصْعب**، وهُوَ يزداد في نظرها سُمُواً وقيمة، ويرتفع في قلبها مكانةً، ليحتَلَّ منه الذروة؛ دون إفصاحِ أو بيان شعور.

الهجرة

ولَمّا حانَ حين الهجرة إلى المدينة، وبدأت وفود المسلمين تتواكب وتتابع من مكة، فرادى وجماعات. . .

كانَت **حَمْنَةُ** - رضي اللَّه عنها - تأخذ موقعها بَيْن أَهْلها. . . صابرة مُحْتسبة. . .، تلاقي مع ما يلاقون صنوف الجهد والتّعب والنصب، حُبًّا باللَّه ورسولِهِ، وتفانياً مع دينِهِ ودعوته الحق.

ولقد لقيت من مشقّةِ الطريق وطولها ما تنوءُ بِهِ الجبال الرواسي، من حَرّ الشمس اللاهبة، ورمال الصحراء المتّقدة، والكثبان والتلال والجبال. . . ووعورة المسالك والدروب،. . .

شأن غيرها من المهاجرين والمهاجرات في سبيل اللَّه.

فرحة العُمْر

استقر المسلمون في المدينة المنورة، وبدأ رسُولُ اللَّه ﷺ يرسي دعائم المجتمع الجديد، ويضع قواعد الدولة الإسلامية، وينظم أمور الحياة، ويستعد مع إخوانه للإنطلاقة الكبرى، وهي تحرير الإنسان العربي من ربقة الوثنية وأغلال الشرك، وتطهير الديار من أوضار الأصنام والأوثان، من ثَمّ إعداد المسلمين ليكونوا رُوّاد فَتْح في أصقاع الأرض، مشارقها ومغاربها، ليرفعوا عن كاهل الإنسان أثقالَ الظلم والاستعباد، ويطلقوه من قيود الجهل. . .

وكانت قريش تمثل بالنسبة إلى العرب عموماً والمسلمين خصوصاً أكبر

القوى في الجزيرة العربية؛ فإذا ما أُرغم أنفها وذُلَّ كبرياؤها فَقَد انفسحت الطريق وتعبّد السبيل إلى الغاية الكبرى والهدف المنشود.

لذا كانت المواجهة في **بَدْر** تحمل أكبر المعاني وأثقل التبعات، والحدّ الفاصل بَيْن انتصار الإيمان، بما يحمل من قيم الحق والخير والعدل، أو هزيمته...، لقد كانت امتحاناً للنبوَّةِ والرسالة وصدْق الدعوة، وكانت فرقاناً... أيضاً.

وكم فُتِنَتْ **حَمْنَةُ** برؤية **مُصْعبٍ** وهو عائد مع جيش المسلمين المنتصر من **بَدْر** وقد تهلّل وَجْهُهُ، فازداد إشراقاً على إشراق، ونوراً على نور، وبهاءً على بهاء... وجمالاً ساحراً أخّاذاً...

لقد كان يسير قريباً من رسُول اللَّه ﷺ تشعّ عيناه بضياءِ الإيمان، وكأنهما مَنْبع رقراق يتدفق مائه غزيراً صافياً...، أَوْ بَرْقاً ساطعاً ينير الظلمات، ويدخل إلى صميم قلْب **حَمْنة**؟!

وكم كانَتْ فَرْحتها حين جاءَهم خاطباً لها...

وما أَسْرَعَ ما تجاوَبَتْ، في خَفَرٍ وحياء، نمّتْ عنهما ابتسامة مضيئة ارتسمت فوق ثغرها.

ثم دَخَلَتْ إلى غرفتها تُلَمْلِمُ دمعتيْ فَرَحٍ سالتا على خَدَّيها.

وبارك رسُولُ اللَّه ﷺ هذا الزواج السعيد، ودعا للعروسيْن أن يوفقهما اللَّه تعالى، ويسبغ عليهما من فيض رحمته ونِعَمِهِ.

في بَيْت الزَّوجيَّة

دَخَلَتْ **حَمْنَةُ** بَيْتَ الزوجية، وظَلَّلها مع **مُصْعَب** سقفُ واحد، وتحقّقت لديها الأُمنية الحالمة التي طالما داعبتْ خيالها ردْحاً طويلاً من الزمن.

وأَنِسَ كُلٌّ من الزوجيْن إلى صاحِبِهِ، فلم يعكّر صَفْوَ حياتهما شَيْءٌ، أو ينغّصْ عليهما.

ومَضَتْ بهما سفينة الحياة تتهادى في ريحٍ رخاءٍ على صفحةِ الماء.

كانت **حَمْنَةُ** ربَّةَ بَيْتٍ صالحة، تقوم على خدمة زوجها ورعاية شؤونه، وتوفير أَسْباب السعادة والهناء في أجواء البيت.

كما كان **مُصْعب** ـ رضي اللَّه عنه ـ من جانبه زوْجاً كريماً وفيّاً، مُحبّاً لزوجته وربيبة حياتِهِ، لا يدخُلُ عليها إلا مبتسماً، فيزداد وجْهُهُ النضير بهاءً وجمالاً، وتزداد **حَمْنَةُ** من جانبها إقبالاً عليه وحُبّاً له، وتعلُّقاً به.

وما أرْوَع البُيُوتَ إذا كان الطرفانِ فيها الزوْج والزوجة على قسط وافرٍ من الأدب والخلق وحُسْن التربية، فتغدو بذلك نموذجاً حيًّا للسعادة، يُقتدى بها ويُنْسج على منوالها.

ما سَمِعَ أحدٌ من الزَّوْجين كلمة نابية أو ملاحظةً قاسية أو جفْوةً في المعاملة، بل كانت الكلمة الطيبة والبسْمة الرقيقة واليد الحانية هي عنوان التعامل بَيْن **مُصْعبٍ** و**حمْنة**.

وكانت **حمنة** ـ رضي اللَّه عنها ـ تعرف ما قاساهُ زوجها **مُصْعب** من أُمّه حين أسلم وآمن، وما لقيه من سُوءِ المعاملة، حَبْساً... وتجويعاً... وحرْماناً.

كانَتْ تعرف ذلك كُلّه..، وتدركُ أن من واجبها أن تعوّضه عن حِضْن الأمّ وحنانها، فآلت على نفسها أن تكون له زوجةً وأُمّاً في آنٍ معاً.

وأَفْلَحَتْ في هذا، ونجحت في الامتحان وأدّت دورها على أكمل ما يكون.

فلا عجب أن يبادلها **مصعب** ـ رضي اللَّه عنه ـ حُبّها وعطفها وحنانها، فكان لها نِعْم الزوْج، ونِعْم الراعي الصالح.

حامل اللواء

كانت هزيمة قريش في **بَدْر** كالريح العاتية التي هَزَّتْ جذور شجرة كرامتها، أو كالعاصفة التي صَفَفَتْ جبهة عزتها وكبرياءَها، أو كالطوفانِ الذي طما على سُمْعتها وهيبتها بَيْن العرب...

فأرادت أن تثأر، وتجهزت لذلك، وأعدَّت عُدّتها، وحشدت حشودها وخرجت من مكة بقضّها وقضيضها، رجالاً ونساءً، ركباناً ومشاةً، حتى نزلت بجموعها عند جبل **أُحُدٍ** في ظاهر المدينة.

وصلت أنباءُ ذلك كُلّه إلى رسُول اللَّه ﷺ عن طريق عيونِهِ من أَخْلَصَ

أصحابه وأذكاهم، الذين تخصّصوا في ذلك؛ فَرَأى أنْ يكون القتال عند أطراف المدينة لا خارجها بحيث يحتمي المسلمون بها ويتحصّنوا، ويختاروا ميدان القتال فلا يُفْرض عليهم.

خصوصاً وأنه ﷺ كان قد رأى رؤيا لا تُبَشِّر بِخَيْر، فعرض خطته ورأيه على أصحابه. . .

فقام نَفَرٌ من شَبَاب المسلمين المتحمّسين يعارضون محتجين بأن قريشاً سَوْف تنعتهم بالجبن والخوف إن هُم احتموا بالمدينة؛ وقال آخرون أنهم لم يشهدوا **بَدْراً** فلا يريدون أن تفوتهم فرصة المواجهة وإظهار البطولة، وكان **حمزة بن عبد المطلب** ـ رضي اللّه عنه ـ أكثر المعارضين حماسة، فحلف أن لا تمس المياهُ بدنه ولا يغتسل حتى يلقي العدو.

فَنَزَل رسُول اللّه ﷺ عند رأيهم، ورضخ مكرهاً على الخروج.

وأخذ **مُصْعَبُ** ـ رضي اللّه عنه ـ يدّرعُ ويتهيّأ ويلبس لبوس الحرْب والقتال، و**حَمْنَةُ** تساعِدُه على ذلك. . .

ولكنها كانت واجفةً مضطربةَ، ترتعش يداها وتزيغ عن التحديق في وَجْهِ **مُصْعب** عيناها، خصوصاً عندما كان يتحرّك الجنين في أحشائها. . .، وكأنها كانت تنظر إلى الغد وما يضمرهُم من أنباء حزينة.

وراح **مُصْعب** يربّت على كتفيها، ويكفكف دموعها، ويهدئ من روعها ثم يضمها، إلى صَدْره ضمة يودعها كل حنانِهِ ومحبّته.

وأَبَتْ **حَمْنَةُ** أن تقعد مع القاعدين، رغم ترجّي **مصعب** لها وإلحاحه عليها، إذ أصَرَّت على الخروج لتشارك في الجهاد، لا قتالاً ولا ضرباً ولا طَعْناً، بل مداواةَ للجرحى، وسقاية للعطشى، وإسعافاً لمن هو بحاجةٍ إلى الإسعاف. . .

كانت تمضي مع النسوةِ في مؤخرة الجيش الزاحف إلى **أُحُدِ** مَزْهُوَّةً بِرَجُلها الذي كان يسير في المقدّمة حاملاً لواء رسُول اللّه ﷺ، متقدّماً الصفوف، متعطشاً إلى القتال ذوْداً عن دين اللّه. . .

ولقد قاتل في ذلك اليوم قتالاً بطوليًا رائعاً، حتى إذا ما انتصر

المسلمون وَفَرَّ المشركون، وَغَرَّ بعض المؤمنين نَصْرُهم فخالفوا أَمْرَ نبيِّهم، انقلب ميزان المعركة لغير صالحهم.

الشهيد

كان الرماة الذين أوكل إليهم رسُول اللَّه ﷺ أَمْر حماية مؤخرة الجيش الإسلامي المقاتل يرابطون فوق تلٍّ مرتفع، فلما لاح النَّصر وبدت تباشيره، تركوا أماكنهم ونزلوا إلى الميدان ليفوزوا بالغنائم قَبْل أن يجهز عليها الآخرون...

فالتفّ عليهم من خلفهم فرسان قريش وأمعنوا فيهم ضرباً وتقتيلاً وأفقدوا الجيش الإسلامي نشوة النصر والظفر، وأوقعوا البلبلة في صفوفه...

فَفَرَّ أكثر الناس لا يلوون على شيء، وسقط العديد من كرام الصحابة شهداء في الميدان، وصَعَّد رسُول اللَّه ﷺ مع قِلَّةٍ قليلة في الجبل يحتمون بِهِ من الضربِ والطعن والرمي...

وكان **مُصْعب** ـ رضي اللَّه عنه ـ قد تعرّض لأقسى الهجمات، لأنه يحمل اللواء، فلما تكأكأ عليه المشركون وأحاطوا به، صَمّم على الشهادة ضنًّا براية رسُول اللَّه أن تقع وتسقط...

قطعت يمينه... فاحتضن اللواء بيساره، ثم قطعت، فاحتضنه بين عَضُدَيْه حتى جاءته الضربة القاتلة، فسقط مضرَّجاً بدمه.

وكانَتْ **حَمْنَةُ** في آخر الصفوف تسعى بين الجرحى والعطشى، تداوي وتسعف، وتحثّ الجند على القتال، وهي لا تدري من أمْر زوجها الحبيب شيئاً...

واحرباه!!!

يقول **ابن سعد** في الطبقات[1]:

أخبرنا خالد بن مخلد البجلي ومحمد بن عمر قالا: حدّثنا عبد اللَّه بن عمر عن عبد اللَّه بن إبراهيم عن أبيه عن محمد بن عبد اللَّه بن جحش قال:

قمن النساء حين رجع رسول اللَّه ﷺ **أُحد** يسألْن الناس عن أهليهن فلم

(1) (8/ 241).

يخبرن حتى أَتَيْن النبيّ ﷺ، فلا تسأله امرأة إلاّ أخبرها، فجاءته حمنة بنت جحش فقال:

ـ يا **حمنة** احتسبي أخاكِ عبد اللَّه بن جحش.

قالت:

ـ إنا للَّه وإنا إليْه راجعون، رحمه اللَّه وغفر له.

ثم قال:

ـ يا حمنة احتسبي خالك حمزة بن عبد المطلب.

قالت:

ـ إنا للَّه وإنا إليه راجعون. رحمه اللَّه وغفر له.

ثم قال:

ـ يا حمنة احتسبي زوجك مصعب بن عمير.

فقالت:

ـ يا حَرْباه.

فقال النبي ﷺ:

ـ إن للرَّجُل لشعبة من المرأة، هي له شيء.

وقال لها النبي ﷺ:

ـ كيف قلت على **مصعب** ما لم تقولي على غيره؟

قالت:

ـ يا رسُول اللَّه ذكرْتُ يُتْم وَلَدِهِ.

أمّ اليتيمة

عاشت **حمنة** بعد ذلك أياماً حزينة، تذكُرُ **مصعباً** وحبّها لَهُ، وتتراءى لها صورته في يقظتها ومنامها بَيْن الحين والحين، فتذرف الدمع السخين، حتى وضعت، وكان المولود بِنتاً حُلْوَةً جميلة، فيها الكثير من قسماتِ الأب والأم...، فكانت سلواها وعزاءها.

المجاهدة

لم تقعدها المصيبة الفادحة عن واجبها ورسالتها، فقد كان إيمانها باللَّه

قوياً متيناً، تلجأ إليه في ساعة الشدة والمحنة عابدةً داعية، فتجد في كنف المولى عزّ وجلّ أصفى الأجواء وأطيبها...

ثم كانت تخرج مع النبيّ ﷺ والمسلمين إلى القتال في غزواتهم وتؤدي قِسْطها فيما اعتادته من مداواة الجرحى وسقاية العطشى.

ولقد قسم لها رسُولُ اللَّه يَوْم **خيبر** وأعطاها من المغانم ثلاثين وسْقاً.

الزواج من طلحة

وتقدّم لها **طلحة بن عُبَيْد اللَّه** راغباً فيها...، فلم تمانع، وبارك النبيُّ ﷺ هذا الزواج، فعاشت **حمنة** في كنفِهِ أياماً وسنين عدداً.

وولدت له ولدَه **محمداً** السجّاد؛ الاسم المشهور، لما جُبِلَ عليه من الطاعة والعبادة والتقوى، والعلم والكرم[1].

ولقد عوّضها اللَّه تعالى عن **مُصْعبٍ** خَيْراً فعاشت أياماً طيبة مع **طلحة** يحبها ويحدب عليها، ويقدّر منزلتها ومكانتها.

ولكن الأيام لا تمضي على وتيرةٍ واحدة، فهي بين صعودٍ وهبوط، وكأن **حمنة** المؤمنة كانت على مِحكّ الإبْتلاء من اللَّه عزَّ وجلَّ؛ فبعد استشهاد الخليفة الثالث **عثمان بن عفان** ـ رضي اللَّه عنه ـ اتخذ **طلحة** و**الزبير** مع أم المؤمنين **عائشة** ـ رضي اللَّه عنهم ـ موقف المطالبة بدم **عثمان** وتطوّر الخلاف بينهم وبين **عليٍّ** كرّم اللَّه وجهه إلى حدّ المجابهة العسكرية.

وفي معركة الجمل سقط **طلحة** شهيداً، وتأيمَت **حُمْنَةُ** للمرة الثانية، فانكفأت على نفسها حزينة باكية، صابرة محتسبة، تلوذُ بإيمانها...

النـهـايـة

ولا ندري بالضَّبْط سنة وفاتها ـ رضي اللَّه عنها...، بعد أن قطعت شوط الحياة.

ولكنا نستطيع القول أن **حَمْنة** في السابقات من المسلمات الصحابيات،

---

(1) قال ابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 253): «تزوّجها طلحة ابن عبيد اللَّه، فولدت له محمداً وعمران ابني طلحة».

خالدة على مرّ التاريخ، سطرت في سجل الخلود صفحةً ناصعة وأثراً عظيماً.

رضي اللَّه عنها وأرضاها، وأكرم نُزُلها ومثواها، وبوّأها من جنانِ الخُلْد مقامها. وألحقنا بها في الصالحين من عباده؛ إنه أكرم مسؤول وأعظم مأمول. والحمد للَّه أولاً وآخراً.

كلمة أخيرة

إلى فتاة الإسلام، بَنْت اليوم وأُمّ المستقبل.

إنه لتستوقفني بخشوع وإكبار وإجلال صورة **حَمْنة** وهي تتلقّى من فم رسُول اللَّه ﷺ استشهاد أخيها وخالها وزوْجها يَوْم **أُحَدُ**...

لقد احتسبت الجميع عند اللَّه تعالى بصبرٍ وإيمان، وما نَدَّتْ عنها كلمةُ حُزْن إلا حين بُلِّغتْ فجيعتها في بَعْلها حبيبها ورفيق حياتها **مُصْعب ابن عُمَيْر**.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: 187].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾ [الروم: 31].

فإليْك يا فتاتي هذه الصورة المشرقة للزوجة المسلمة تحتذينها وتقتدين بها فتبني لنا جيلاً جديراً بحمْل راية الإِسلام وإعلاء كلمة اللَّه. والسلام عليْكِ.

سلمى

قابلة أولاد النبي ﷺ[1]

توطئة

يختلف عمل كُلّ إنسانٍ عن الآخر ليكون أثرُهُ في قومِهِ ومجتمعه وأُمته خالداً ـ مذكوراً ومشكوراً ـ؛ فكل واحدٍ من موقع عمله وحيِّز وجوده، يستطيع بما قُدِّر لَهُ، وبما أُوتيهِ من كفاياتٍ شخصية أن يترك الأثر الطيب، والذكر الحميد، و**سلْمى** مولاةُ رسُول اللَّه ﷺ في عداد **المسلمات الخالدات** اللّواتي كُنّ من طَرْزٍ رفيع ومَثَلٍ عالٍ بَيْن الناس.

ولقد أهّلها لبلوغ تلك المكانة أمريْن اثنيْن، أوّلهما أنها كانَتْ قابلة أولاد النبيّ ﷺ جميعاً. . .، وثانيهما أنها كانت ملازمة لبيْتِ النبُوَّة، فكانت ترى وتسمع، لذا حدَّثَتْ عَنه ﷺ، فَدَخَلَتْ حوْزةِ المحافظين على السنّة الشريفة، وأضْحَتْ روايةً من رواة الحديث يُسْتقى منها ويؤثر عنها.

والقابلة ـ عزيز القارئ ـ هي التي تقوم على توليد الحامل واستقبال المولود، وإجراء المقتضى واللازم، من إسعافاتٍ طبية وغيرها، للمرأة التي وضَعَتْ، وكذلك للطفل الوليد.

ولسوف نرى من خلال سَرْد قصة حياةِ **سلمى** ـ رضي اللَّه عنها ـ أنّها لم تكن متطفّلةً على هذا العمل، بل كانت أصيلة محترفة، تتقنه إلى حدّ بعيد، ولو كانت وسائلها في ذلك الحين بسيطةً بدائية، فإلى صفحات حياتها نقلّبها.

مؤلاة صفية بنت عبد المطلب

رضي اللَّه عنها

هل تذكر **صفيّة بنت عبد المطلب**؟ عمَّةُ النبي ﷺ. . . .؟

---

(1) ترجم لها ابن سعد في «طبقاته» (8/ 227) وابن حجر في «الإصابة» (8/).

لقد كانَتْ من فتياتِ **مكة** المعدودات، فصاحةً وبياناً وقُوَّة شخصيّة...، تزوّجها في الجاهليّة، قبل الإسلام، **الحارث بن حرب بن أميّة بن عبد شمس**، فولَدَت له ذكراً سمّاه **صفيًا** تيمُّناً باسم زوجته التي كان يُحبُّها ويحترمها، ثُمّ توفي عنها فَتَزَوَّجَها **العوّام بن خويلد** فولدت له **الزُّبَيْر بن العوّام** وغيره من الإخوة.

صفيَّةُ ـ رضي اللَّه عنها ـ هي التي وقَفَتْ وراء إسلام ولدها الشاب **الزُّبير** تؤيّده وتدفَعُ عنه وتنصره، وكانت قد آمنت بدعوة ابن أخيها **محمد بن عبد اللَّه** صلواتُ اللَّه وسلامه عليه.

وهي التي تحمّلت أعباء الهجرة، ومشّقّة الطريق، ووعثاء السّفر، وألم الحنين إلى الوطن.

وهي التي حاولوا يَوْم **أُحُدٍ** أن يُبعدوها عن ميدانِ المعركة كي لا ترى ما فُعِلَ بأخيها **حمزة** ـ رضي اللَّه عنه ـ، فَأَبَتْ حتى وَقَفَتْ عند جسده المسجى وقد بُقِرَ بَطْنُه ومُثّل به أَبْشع تمثيل، ثم قالت في إيمانٍ وصَبْر: لا حَوْل ولا قُوَّة إلا باللَّه، إنا للَّه وإنا إليه راجعون.

وهي التي نزلت يوم الخندق من حصن النساء، حين رَأَتْ يهودياً يطيف بالحصن، فتناولَت عموداً قتلتْهُ به...

على يدها الكريمة ونهجها السليم تربَّتْ **سلمى** ونشأت، ولا ندري عن نَسَبِها ومولدها شيئاً.

كانت مولاةً لِـ **صفية** ـ رضي اللَّه عنهما ـ، فتاةً في مقتبل العمر، تعملُ في إطار المملوكية والخدمة، لا تأخُذُ أجراً ولا مالاً، إنما تكتفي بالأكل والشرب والكسوة، ولعل سُوءَ حَظّها قد أوقعها في الأَسْر حين غُزِي قومها، على عادة العرب في الجاهلية، فبيعتْ في الأسواق بَيْع الرقيق، ومن ثَمَّ دَخَلَتْ في ولاَيَة صَفِيَّة وَخِدْمتها.

ولا ندري أيْضاً مِمَّنْ تعلَّمت أعمال القابلة ومهنتها، فأتقنتْها أيما إتقان، وكانت في ذلك صاحبة شُهْرةٍ وصيتٍ حَسَن.

ومما يُرْوى عنها أنها لم تكُنْ تُقْدِمُ على توليد حاملٍ إلاّ وقد هَيّأَتْ

كُلّ لوازمها وما تحتاجه من أدواتٍ ووسائل؛ لكن الرواة لم يذكروا لنا ما هي بالتفصيل.

قابلةُ خديجة أول زوجات النبي ﷺ

تزوّج رسُولُ اللَّه ﷺ من **خديجة بنت خويلدٍ** ـ رضي اللَّه عنها ـ وكان في الخامسة والعشرين من عُمْره. فحملت بأولى بناتِهِ ﷺ ـ **زينب** ـ رضي اللَّه عنها ـ.

وكانت عَمّتُهُ **صفية** مِمَّنْ يتردَّدنُ على دارِهِ، وبُصُحْبتها مولاتها **سلمى**، فيواسين **خديجة** في فترةِ حملها...

أما **سلمى** فكانت تُعِدُّ نفسها وتَعِدُها أن تكونَ القابلة في اليومِ الموعودِ المشهود، لتقوم بتوليد **خديجة** والقيام على شؤونها، وتكون لها البشرى العظمى عند **محمد بن عبد اللَّه** الأمين، بولادة غلامٍ..!!

ولما آن أوانُ الوضْع، شَمَّرَتْ **سلمى** عن ذراعيها، واكبَّتْ على عملها...، فلما وَضَعَتْ **خديجة** أُنْثى أسقط في يد **سلْمى** وحاولتْ أنْ لا تكون المبشّرة، على عادة أهل الجاهلية الذين كانوا يتشاءمون من الإناث، كما قال اللَّه تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: 58، 59].

لكن البسمة التي عَلَتْ ثَغْر **محمد** الشريف أَزالَتْ ما بها من أَسى، وأذْهَبَ ما كان في نفسها من هوان، وازدادت اطمئناناً وفَرَحاً حين شكرها على عملا ونَفَحَها ما تستحقُّه من أَجْر.

وكيْف لا يكون من المصطفى ﷺ ذلك؟!! وهو النبيُّ المنتظر الذي سَوْف يَقْلب قيم الجاهلية وأعرافها رأساً على عَقِب.

القابلة المتخصصة

وأضحت **سلمى** ـ رضي اللَّهِ عنها ـ القابلة المتخصصة لبيْتِ **محمد** و**خديجة**، رغم وجود غيرها في **مكة** مِمَّنْ يمتهِنّ هذه المهنة، ويحترفْن هذه الحرفة.

وتتابع البنات والبنون من أَبْناءِ الأمين، حتى كان مَوْلد **فاطمة** الزهراء ـ

رضي اللَّه عنها ـ فكانت **سلمى** ترى في وَجْهِ الأم الحامل تورُّداً، وتفتّحاً وطهارةً، وصفاءً ما بعده صفاء، إذ كان الحمل بـ **فاطمة** وولادتها إرهاصاً بقُرْب نبوتِهِ وبعثته ﷺ.

وقد لاحظ ذلك الكثيرون ممن كانوا يحيطون بالبيْتِ النبوي الكريم، وليس **سلمى** وحدها.

الإسلام والإيمان

وبُعِثَ النبي ﷺ رسُولاً إلى العالمين، ليُخْرِجَ النّاس من ظلماتِ الجاهلية إلى نور اليقين، ويهتدوا إلى اللَّه تعالى من ضلالات الشرك والوثنيّة.

وما أسْرَعَ ما لبَّتْ **سلمى** النِّداء، ودخلت في دين اللَّه، وآمنت برسُولِهِ ﷺ وازداد من جرّاء ذلك تعلُّقها بالبيْتِ الكريم، وملاصقتها له بعد أن كانت تتردَّد عليه من قبل، من حينٍ إلى حين.

ولا يمكن لمسلم ولا مسلمةٍ أن تكون قد خلصت من أذى المشركين وظلمهم وسخريتهم، وكانت **سلمى** ـ رضي اللَّه عنها ـ واحدةً من المسلمات اللواتي لُذْنَ بجنب اللَّه، واحتمينْ بحماه، وتحمّلْنَ في سبيله صَعْبٍ وذلول.

ومضَتْ على الطريق غير مبالية.

الـــزواج

كان **أبو رافِعٍ** ـ رضي اللَّه عنه ـ مَوْلًى لرسول اللَّه ﷺ، آمن وأَسْلَمَ مُبَكِّراً، وكان يرى **سلمى** تتردَّدُ على البيْت النبوي، فوقعت من قلْبِهِ موقعاً حسناً، ونزلت من فؤاده منزلاً طَيِّباً.

ويبدو أنّه قد أَلْمح بذلك أمام النبيّ ﷺ، فوافقه المصطفى على ما أراد وانتوى، وحدَّث عمَّتَهُ **صفية** ومولاتها **سلمى** بذلك فَوَجَدَ تَجاوُباً، وعلى الفوْر زوّجهما وبارك لهما وعليهما.

مولاة رسُولِ اللَّه ﷺ

وبحكم هذا الرباط المقدَّس الجديد، دخلت **سلمى** في ولاية النبي ﷺ، خصوصاً وأن **صفيّة** قد وافقت، فكأنها قد تنازلت عن ولاية **سلمى** لها، ومنذ ذلك الحين أصبحت **سلمى** تُدْعى مولاة رسول اللَّه ﷺ.

المهاجرة

وقَبْل الهجرة. . .

لقد ذَرَفتْ **سلمى** دموعاً سخينةً يوم وفاة **خديجة** ـ رضي اللَّه عنها ـ، وكانت قد لازمتْها يَوْم اشْتَدّ عليها المرض، والمسلمون في **شعب أبي طالبٍ** يعانون من القطيعة والحرمان. . .

وكيف لا تألم **سلمى**؟! وكيف لا تبكي؟! و**خديجة** ـ رضي اللَّه عنها ـ كانت تحنو عليها وتثق بها، وتقرّبها منها.

وحقُّ الوفاء على **سلمى** أن تكونَ ذاكرة شاكرة.

وها هي مع آل بَيْتِ النبيّ تَغُذُّ السَّيْر من **مكة** إلى **المدينة** التي سبقهم إليها رسُول اللَّه ﷺ، فيقطعون البوادي والقفار، يهبطون الوديان ويعلون الكثبان، يحدوهم الشوق إلى لقاء الحبيب، والأمان من فتنة المشركين وأذى الظالمين.

المؤمنة المجاهدة العاملة

وانخرطت **سلمى** في موكب المؤمنات المجاهدات العاملات، فكانت تخرج مع الجيوش الغازية تقوم بما تؤهله لها أنوثتها من العمل، سقايةً ومداواةً وإعداد طعام، وغير ذلك.

البشرى الكبرى

حتى كان اليوم العظيم. . .

فلقد أرسل رسُولُ اللَّه ﷺ رسائله إلى الملوك والرؤساء في فارس والشام ومصر، وأطراف الجزيرة يدعوهم وقومهم إلى الإسلام والإيمان، ويحملهم تَبِعَة المخالفة والمعاندة.

فَردَّ بعضهم ردوداً طيبة، ورد آخرون ردوداً قاسية ظالمة، فاجرة، وكان **المقوقس** ـ عظيم القبط في مِصْر كريم الخلق، ليّن الجانب، لطيف الرَّدّ، فأرسل مع رسول رسُول اللَّه ﷺ هديَّةً. . .

وكان من جملة الهدية فتاةٌ تُدْعى **مارية** وأُخْت لها تدعى سيرين، فبنى

رسُول اللَّه ﷺ بـ **مارية** وأعطى أختها لشاعر الأنصار **حسّان بن ثابت**.

حَمَلَتْ **مارية** من رسول اللَّه ﷺ فكانت موضع حنانه ورعايته، خاصةً وأنَّ غيرها من نسائه لم يحملْنَ. . . ،

كانت **سلمى** مولاته ﷺ تلاصق **مارية** وتراعيها في فترة الحمل، حتى كان يَوْم الوضْع. . .

فأقامت بجانبها تقدّم لها كل ما يلزم، وقامت على ولادتها خير قيام، وكم كانَتْ فَرْحة **سلمى** حين وقع الوليد **إبراهيم** بَيْن يديها. . . ، فلما أتمت عملها، نادت على زوجها **أبي رافع** وأبلغته النبأ السعيد، وطلبت إليْه أن يُسْرع في إبلاغ النبي ﷺ. . .

فطار **أبو رافع** مُسْرعاً يسابق الريح حتّى وافى النبيّ ﷺ وأَخْبَرَهُ بالبشرى، فسُرّ ﷺ بالغ السرور، وَوَهَب لأبي رافعٍ غُلاماً جزاء ما نَقَل إليه من خَبَرٍ كريم سارٍّ، ثُمَّ قصد ﷺ إلى بَيْتِ **مارية** حيث كانت تقيم في ضاحية **العوالي**، وهناك استقبلته **سلمى** مبشرةً متهلّلة الوجه، فتبسّم لها ﷺ ونَفَحها ببعض الأَعطية، وأَقْبَلَ على الأم **مارية** مواسياً وعلى الطفل الولد مُداعباً، وأسماهُ **إبراهيم** تيمُّناً باسم جدّه أبي الأنبياء ﷺ.

في بَيْتِ فاطمة

وبَيْت **فاطمة وعليّ** ـ رضي اللَّه عنهما ـ فَرْعٌ كريم من الدَّوحة الشريفة. . . فلما حَمَلَتْ **فاطمة** حملها الأوّل، لازمتها **سلمى** ووقفت نفسها على خدمتها ورعايتها مدة الحمل، حتى كان الوضْع، وولدت **حَسَناً** ـ رضي اللَّه عنه ـ فبلغَتِ السعادة عند **سلمى** أوْجها وذرْوتها، ولقيت من المصطفى ﷺ تكريماً وعطاءً. . .

تتابع حَمْل **فاطمة** فولدت **حُسَيْناً** وزينب **وأم كلثوم** ـ رضي اللَّه عنهم أجمعين، وكانت **سلمى**، كعادتها هي القابلة المتخصصة، وصاحبة اليد، وموضع الثّقة في قلب النبي ﷺ.

سلمى الحزينة

لم يتم **إبراهيم** ابن النبي ﷺ عامه الثاني، إذ داهمه المرض، واشتدت

عليه وطْأَةُ الحمى، وقامت **سلمى** ـ رضي اللَّه عنها ـ على تمريضه والاعتناء به ومداواته، بما توفّر بين يديها من وسائل، وما تعارف عليه الطب في ذلك الحين، ولكنها أفلست، فقد كان قضاء اللَّه أكبر وأعظم، فلفظ الولد الصغير أنْفاسَهُ وهو بَيْن يَدَيْ والده الشريفتيْن.

كانت **مارية** الأم أشد الناس حُزْناً وألماً، وكانت تقف قريباً من رسُول اللَّه ﷺ، فشرقت بالدمع ولم تَقْو على الصراخ. . .، أما **سلمى** التي كانَتْ تراقب وترى فقد دارت بها الدُّنيا، وكاد يُغْمى عليها، وكادت تشق ثوبها وتصْرخ لولا الهيبة من رسُول اللَّه ﷺ.

كانت **سلمى** ترى في الوليد **إبراهيم** أملاً. . .، وتتصوّر أنّه ابنُها، فهي أوّل من استقبلتْه بَيْن يديها، وداومت على العناية به، وبذلت في ذلك وُسعها. . .، وها هُوَ الأمل المشرق يذوي ويذبل، ثم يزول.

وكان في ذلك حكمة لا يعلمها إلا اللَّه تعالى.

ومضت أيام العُمْر بـ **سلمى**. . .

وشَهِدَتْ بعض الغزواتِ مع رسُول اللَّه ﷺ فأسْهَمَ لها من الغنائم، وخَصّها ببعض العطايا.

كما رافقتْه ﷺ في حجّة الوداع، وأَدَّتِ الفريضة، وكحلتْ عينيها بمراتع مكة وربوعها، حَيْث تفتّح صباها وَوَعَتِ الحياة، وأطفأت غُلَّة شوقها إلى الوطن.

المحدّثة

ومن خلال رواية العلماء عنها نعلم أن **سلمى** ـ رضي اللَّه عنها ـ قد طال بها أَمَدُ العُمْر إلى ما بعد وفاة النبي ﷺ ولحوقه بالرفيق الأعلى.

وبهذا كان لـ **سلمى** نَصيب وسَهْم في تغذية المادة العلمية للتراث الإسلامي.

ولا نجيز لأنفسنا القول بتحديد سنة وفاتها ـ رضي اللَّه عنها ـ حَيْثُ لم تذكر لنا ذلك كُتُب السيرة أوِ التراجم.

رضي اللَّه عن **سلمى** قابلة أولاد النبي ﷺ وَأَهْل بيته، ومستودع مكنوناته، وجزاها عما قَدَّمت خير الجزاء وأوفاه، وأثابه من لدُنْه أعظم الثواب وأسماه.

واحدة من بيت النبوّة

من عادتنا عند الترجمة أن نثبت في مقدمة الترجمة نسب صاحبها أو صاحبتها، ولكننا لم نستطع أن نفعل ذلك إزاء ترجمتنا لِـ **سلمى** ـ رضي اللَّه عنها ـ والسبب كما قدّمنا جهالة ذلك. . .

ولكن. . . تُرى هل يغضّ ذلك من شخصيتها، أَوْ يؤثر على كوْنها واحدةً من **المسلمات الخالدات**؟!

أبداً ـ عزيزي القارئ ـ، إذ يكفي **سلمى** مكانةً وفخراً أنّها واحدةٌ من بَيْت النبُوَّة، لازمتْهُ منذ نعومة أظفارها، وعاشت فيه ولَهُ، وتأصَّلَتْ فيها معانيه السامية وأخلاقه الرفيعة، ونهلتْ من غزير فَضْلِهِ وعلمه.

وهذا يكفيها.

رضي اللَّه عنها وأرضاها.

خاتمة

وهل نمرّ عزيزي القارئ بكلمة **بيت النبوّة** مروراً عابراً، أو نلامسها ملامسةً سطحية دون أن نغوص إلى أعماقها لنُدْرك أبْعادها.

إن حقّها علينا كبير، وكبيرٌ جداً، ليس له حدود أوْ سُدود، إنّه البيْتُ الذي شَعَّ فيه نور الوحْي الإلٰهي، يتنزَّلُ آياتٍ بيّناتٍ على قلب الرسول الكريم، ثم يسطع بعد ذلك على الأقربين أوّلاً والأبعدين ثانياً.

إن أهل البيْت، أو آل البيْت هُمْ أوّل المسلمين الذين كانوا يعايشون المصطفى ﷺ، ولستُ أعني بآل البيْت بناته وذريّته من **فاطمة** ـ عليها السلام ـ، أبداً. . .

فكُلُّ زوجاتِهِ ـ رضي اللَّه عَنْهُنَّ ـ ومواليه، ومن عاش في كنفه، هم آل البَيْت النبوي الكريم.

لقد جاء **سلمان الفارسي** ـ رضي اللَّه عنه ـ من أقاصي الأرض، من بلاد فارس، نازحاً عن الأهل والديار، باحثاً عن الحقيقة، حاملاً بِيَدِ مصباح الضمير واليقين، مفتشاً في بيْداء الجهل والوثنيَّة والشرك، لعلّه يهتدي إلى الحق. . .

وألقتْ به عصا التَّسْيار والتنقّل في رحاب **يثرب**، مكْرها على خدمة أحد اليهود، رقيقاً يُباع ويُشرى في سوق النخاسة، حتى أكرمه اللّه بالإسلام، ودخل في دين اللّه، قرير العيْن مطمئن الفؤاد، ثم استقرَّ به النوى، وربح شيئيْن: هُداهُ بعد الضياع والحيْرة، وحرّيتُه بعد الرقِّ والعبودية، إذ أعانَهُ إخوانُهُ من المسلمين على شراء نَفْسه من سيّده اليهودي.

وهل يكون المنعتق من ربْقة النار، والهارب من طُغيان المجوسية عَبْداً لغيْر اللّه؟؟

سليمانُ هذا ـ عزيزي القارئ ـ نسبُهُ القريب أَنَّهُ فارسيّ، فلذا كان يُقالُ لهُ **سلمان الفارسيّ** وهذه شهرته، أما نسبُهُ البعيد الكبير، العظيم الجليل، فهُوَ الذي أطلقه عليه سيدنا رسُول اللّه ﷺ:

«سلمانُ مِنّا آل البيْت»

ليس هُو من الذريَّةِ، وليس من الأولاد ما كان محمد أَبا أَحَدٍ من رجالكم ولكن رسُولَ اللّه وخاتَمَ النبيِّين.

وليس **سليمان** أيْضاً مِمَّنْ دخلوا في ولاية النبيّ ﷺ بالفِعْل..

ولكنه من **آل البيْت**...

نسباً إسلامياً طاهراً كريماً.

وعلى هذا الأساس نقول إن **سلمى** ـ رضي اللّه عنها ـ هِيَ مِنْ بَيْتِ النُّبُوَّة.

عاشَتْ حياتها: طفلةً وشابةً وسيِّدةً... بَيْن جدرانه الكريمة، ورحابِهِ الطاهرة، وتأقْلمت كينونتها في أجوائه العابقة بأريج الوحي وشذا الآي الكريم.

وأميلُ إلى الاعتقاد بأنَّ **سلمى** ـ رضي اللّه عنها ـ كانَتْ حريصةً على أنْ تكون مُتَخَصِّصة في عملها الطبّي على بَيْت النبوَّة، لا تُمارِسُهُ في غَيْره ولا تضطلع بأعبائه إلا في هذا الإطار، وحسبها ذلك فخراً.

لقد أَذَّن **بلال** ـ رضي اللّه عنه ـ لرسُولِ اللّه ﷺ، وامتنع بعد لحوق الرَّسُول بالرفيق الأعلى على أن يؤذّن أبداً...

ونَحْنُ نعرف مدى العلاقة التي كانت تربط بين **الصدّيق** الخليفة الأوّل وبَيْن **بلال** رضي اللَّه عنهما. . .

فأبو بكر هو الذي رافق **بلالاً** في رحلته إلى الشام، وقابلاً سويَّة راهب **بصري** ـ بُحيْرا ـ. . . . ، وتصادقا منذ ذلك الحين. . .

وأبو بكر هو الذي دَفَع ثمن **بلال** لأميَّة بن خلف، ثم أَعْتَقُه حُرًّا لوجْه اللَّه، تخليصاً له من العذاب والفتنة، وتحريراً له من ذُلّ العبودية.

هذه الدَّالَّةُ لم تُخوِّل **أبا بكْر** ـ رضي اللَّه عنه ـ أَنْ يَقْسِرَ **بلالاً** على الأذان بعد وفاة رسُول اللَّه ﷺ. . . وتَرَكَهُ حُرّ الإرادة.

ومن ثَمّ عُرِف ـ رضي اللَّه عنه ـ بقلب مُؤذّن الرَّسُول.

وكذلك **سلْمى** ـ هي قابلة أوْلاد النبيّ ﷺ، عايشت حُرْمة البيْت الطاهر، واطلعت على أخَصّ خصائصه، ونذرت نفسها لهُ، فكانت واحدةً من بيْتِ النبوّة.

ونِعْم الشرف، ونعْمتِ المكانة، وهنيئاً لِـ **سلمى** مقعدها الكريم في الحياة الدنيا، ومقامها السامي في الدّار الآخرة.



بنات
الرسـول ﷺ

زينب الكبرى
بنت رسول الله ﷺ
رضي اللّه عنها

قال اللّه تعالى:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا * يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا * وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا * وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: 40 ـ 48].

وقال **أبو العاص بن الربيع** زَوْج زينبَ رضي اللّه عنهما:

ذَكَرْتُ زيْنَبَ لـمّـا ورَّكَـتْ إرَمـا ... فَقُلْتُ سُقْيا لِشَخْصٍ يَسْكُن الْحَرَما

بِنْتُ الأَمين جزاها اللّهُ صالِحةً ... وكُلّ بَعْلٍ سَيُثْني بالذي عَلِما

* * *

توطئة

حدَّثوا أن الأَخْنَسَ بن شريق الثقفي أتى **أَبا الحكم بن هشام بن المغيرة ـ أبو جَهْلٍ** ـ فَسَأَلَهُ:

ـ يا أَبا ٱلْحكم، ما رأْيُكَ فيما سَمِعْتَ من مُحَمَّد؟

فأَجاب:

ـ ماذا سَمِعْتُ؟ تنازعْنا نَحْنُ وبنو عَبْد مناف الشَّرف: أطْعموا فَأَطعمْنا، وحملوا فَحَمَلْنا **أي الدِّيات**، وأعطوا فأَعطينا، حتى إذا تحاذَيْنا على الرّكب وكُنّا كَفَرَسَيْ رهان قالوا:

ـ مِنّا نبيٌّ يأتيه ٱلْوَحْي من السَّماء. . . فمتى نُدْرِكُ مِثل هذه؟ واللَّه لا نُؤْمن بِهِ أَبَداً ولا نُصَدِّقُه!!!

* * *

لقد كان تَصَوُّرُ الجاهليَّةِ ٱلْقُرَشيَّةِ للنُّبُوَّةِ تَصَوُّراً مُركَّباً مُعقّداً يَنْبُع من تقاليد بيئَتِها، وسُخفِ نَزْعَتِها، المختلِطِ بعنجهيَّةٍ فارغَة وكِبْرٍ أَجْوَف، ولم يُدْركوا أن رسالة محمدٍ ﷺ ودعوته إنّما هي رحْمةٌ مُهْداةٌ إلى البشريّةِ قاطبةً، والعالم أَجْمع وثورةٌ تحريريَّةٌ لِعقْلِ ٱلإِنسان ونَفْسِهِ.

نسبها ونشأتها

وُلِدَتْ زَيْنَبُ رضي اللَّه عنها قَبْل بعثةِ والدها ﷺ بعَشْرِ سنين، وكانت باكورة زواجه من أم المؤمنين **خديجة بنت خُوَيْلدٍ** رضي اللَّه عَنها، وهي أَكْثَرُ أخواتها شبهاً بأَبيها ﷺ[1].

وهي تنْتَسِبُ إلى أَشْرَفِ أَبَوَيْنِ في الوجود، فوالدها هو محمد ﷺ المبعوث رَحْمَةً للعالمين، إمام الأَنبياء، وقُدْوة المُرْسلين، وقائِد الغُرّ ٱلمحجَّلين، عليه وعلى آله وصحبه ٱلأَبْرار الطاهرين أزكى الصلاة وأَطْيَبُ التسليم. وأُمّها هي سيِّدةُ نِساءِ العالمين، ذُرْوَة قريشٍ نَسَباً وشرفاً وفَضْلاً وعِلْماً، زَوْجَةُ أَحبّ خلق اللَّه إلى اللَّه، محمد ﷺ.

نشأتها

خَرَجَتْ إلى ٱلدُّنيا في أَكْرَم مَنْبتٍ، أَنْبَتَتْها سُلالَةٌ قرشيَّةٌ عريقة أصيلة، ما عرف العرب أَعَزّ منها ولا أَنْقى، واستقْبلها بَيْتٌ كريم البنيان طاهر الأَردان، استقبالاً لم تظفر بمثلهِ تِرْبٌ لها، لأَنها كانت ثمرةَ زواج سعيدٍ قام على ٱلحُبّ المتبادل، والمودَّة الخالصة، والاحترام العظيم، ولقد رأى فيها الأَب الكريم **صلوات اللَّه وسلامه عليه** صورةً لطيفةً من زوجته ٱلحبيبة، التي أَنْسَتْهُ بحنانها الغامر وحدبها الكبير، كل ما عاناهُ في طفولتِهِ من قسْوةِ ٱلْيُتْم.

---

(1) «الاستيعاب» / 4/ 409 ـ 410) «الإصابة» (8/ 91) ترجمة (464) «أسد الغابة» (5/ 298 ـ 299) «الطبقات» (8/ 30).

وكانت ٱلأُمّ العظيمةُ **خديجة** ترى فيها فِلْذةَ حيَّةَ من زَوْجها ٱلحبيب العزيز، الذي بَهَرها مُنْذُ عرفَتْهُ بجلالِ طَلْعتِهِ، وأَسَرها بمهابَتِهِ ونُبْل شَخْصيته، وفتَنَها بجميل خِصالِهِ، فَتَفتَّح لهُ قَلْبُها المغْلق بسبب زواجٍ سابقٍ غَيْر موفّق، فأَقْبَلَتْ على ٱلحياةِ من جديد.

* * *

ولقد كانت **زَيْنَبُ** ـ رضي اللَّه عنها ـ بإطْلالتها الأُولى على بيتِ ٱلْنبوّةِ ريحانةَ تفيض عَلَيْهِ طيباً عابقاً، وبَهْجةً غامرة.

وعُهِد بها على عادَةِ أشْرافِ ٱلْعَرَبِ إلى ٱلْمُرْضعات، فَلَما أَخَذَتْ حَظّها ونَصيبَها، تَلَقَّفَها ٱلْبيْتُ الكريم ثانِيَةً بِشَوْقٍ بالغ، وعطفٍ غامر.

* * *

ولمّا شَبّت رضي اللَّه عنها؛ بادَرَتْ أُمّها بتدريبها على المشاركَةِ في عِبْءِ المنزل، وأَخذَتْها على التَّمْرين مأْخَذَ ٱلجدّ، وحاوَلَتْ أن تُبْعدَها قَدْر الإمكان عن عَبَثِ الطفولةِ ولَهْوها؛ فكانَتْ ـ وهي لا تزال فتاةً صغيرةً ـ لشقيقتها ٱلْصُغْرى **فاطمة** ـ رضي اللَّه عنهما ـ نِعْم المربِّية وٱلرّاعية ٱلْصّالحة، تَرْعى شُؤونها، وتُلاعِبُها وتقومُ على خِدْمَتِها.

وحين اكْتَمَلَتْ أُنوثَتُها، تَقَدَّم لخطبتها ابن خالتها **أَبُو ٱلْعاص بن الربيع** الذي كان كثيرَ التعلُّق بخالَتِهِ **خديجة** التي كانَتْ تُنْزِلُهُ مَنْزِلَ الابْن، وتغْمره بعَطْفِها وحنانِها.

وكان **أَبُو العاص** يرى **زَيْنَب** كُلّما جاء إلى بَيْتِ خالتِهِ فَيُؤْخَذُ بجلال مَرْآها، وعُذُوبَةِ حديثِها، وذكاءِ ملامِحِها، ولُطْفِ طباعِها، وتفَتُّح أُنوثتها. . .

وكانَتْ **زَيْنَبُ** ـ رضي اللَّه عنها ـ تَرْتاحُ إلى مَحْضَرِه، ويطيبُ لها أنْ تُصْغي إلى أَخْباره وما فيها من طرائِفَ وغرائب.

وهكذا تَفتَّح ٱلْقَلْبانِ، وأَحسّا لَمْسة الحُبّ الرقيقة السّاحرة تُحرّك وِجْدانهما وعاطفتهما.

* * *

تَقَدَّم **أبو العاص** لخطْبة **زَيْنَب** فأَحْسَنَ رسولُ اللَّه ﷺ لِقاءَهُ، وأَصْغى إليه

بكل جوارِحِه، ولكنّه اسْتَأْذَنَهُ في سؤَال صاحِبَةِ ٱلشَّأْن، ثم أتى رسُول اللّه ﷺ إلى ابْنَتِهِ قال لها:

- **بُنَيَّتي زينب**، إنّ ابن خالتك **أبا العاص بن ٱلربيع** ذَكَرَ اسْمَك..

فسكتتْ **زَيْنَبُ** حياءً ولم تُحِرْ جواباً، لكنّ خفَقات القلْب الطّاهر، وإغضاء النّظر حياءً كانا خَيْر جواب.

فعاد ﷺ إلى **أبي العاص** وصافَحَهُ مُهَنِّئاً وداعياً مباركاً.

في بيت الزوجية

وفي بَيْتِ الزوجية أَظَلّت **زَيْنَبَ** وزوجها **أبا العاص** سعادةٌ غامرةٌ، وحُبٌ مُتبادَل، فَنَهَلا من رحيق الوُدِّ أَصْفى شرابٍ وأَنْقاهُ.

وكان **أبو العاص** بحُكْم تجارَتِهِ ومكانَتِهِ في قوْمِهِ كثير ٱلسَّفر؛ يَغْدو إلى الشام فيغيب أيّاماً وليالي، فتُعاني **زينب** من أَلَم الفراق، ويُعاني هُوَ من أَلَم البُعاد، ولقد هاجَ بِهِ ٱلشَّوْق مَرَّةً في إِحْدى رِحْلاتِهِ فأَنْشدَ يقول:

ذَكَرْتُ **زَيْنَبَ** لما ورّكتْ إرَما فقُلْتُ: سُقْيا لِشَخْصٍ يَسْكُنُ الْحَرَما
بِنْتُ الأَمين جزاها اللّهُ صالِحَةً وكُلّ بَعْلٍ سيثْني بالذي عَلِما[1]

* * *

وضَعَتْ **زينب** لِأَبي العاص ولَدَيْن: **عليًا وأُمامة** فاكْتَمَلَتْ بهما فَرْحة البيت، وٱمْتلأَت جوانبُه سعادَةً وهناءةً.

ولكن...

وفي ذات يَوْم، وبينما كان **أبو العاص** في إِحْدى رحْلاتِهِ حَدَثَ ٱلأَمْر ٱلْعظيم ونُبِّئَ رسُول اللّه ﷺ بالرّسالة.

وتابَعَتْ **زيْنَبُ** أباها، شأْن أُمِّها وأَخواتها وأَهْلِها، ولمّا عادَ ٱلزَّوْج من رِحْلَتِهِ حَدّثَتْهُ بما حصل أَثْناءِ غيابِهِ.

---

(1) ذكره ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (8/ 32) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 410) بتمامه.

مفترق الطريق

وقال **أبو العاص** لزوْجَتِهِ الحبيبة:

ـ واللَّه ما أبوكِ عِنْدي بمتَّهم، وليس أحبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أَسْلُكَ مَعَكِ يا حبيبَةُ في شِعْبٍ واحد، لكنّي أَكْرَهُ لَكِ أن يُقال إِنّ زَوجَكِ خَذَل قوْمَهُ وكَفَرَ بآلهة آبائه إِرْضاءً لامْرأَتِهِ، فَهَلاّ قدَّرْتِ وعَذَرْتِ!!

وهُمَا بعناقٍ... ثُمَّ ما لبِثا أَنْ تراجعا فَجْأَةً. وكأنّ حاجزاً قَدْ قامَ بَيْنَهما فَحال دُونَ بُغْيتهِما، وانْكفآ...

ولم يناما لَيْلَتَهُما، ولا اللَّيالي التي بَعْدها، وسادَ جَوَّ المنْزِل قَلَقٌ وهمٌّ وحَذَرٌ، وانْقَلَبَ ٱلنّعيم إلى جحيم.

* * *

المؤمنة الصابرة

اشتدّ أذى ٱلْكُفّار والمشركين لِرَسولِ اللّه ﷺ وٱنْفَرد ﷺ بأَهْلِهِ وبالمؤْمنين في شِعْب **أبي طالبٍ** سنين عدداً، قد فُرِضَتْ عَلَيْهم ٱلمقاطَعَةُ وٱلْمُباعَدَةُ، فكانَتْ **زينَبُ** ـ رضي اللّه عَنْها ـ تأْلَمُ وتحْزَنُ، وتبكي أَحْياناً، ثم تصْبر على قضاء اللّه، أَمَلاً بالْفَرَجِ وٱلْضياء، بَعْد ليل دامسٍ من ٱلْعذاب...

وقد رأى رسولُ اللّهِ من المشركين كثيرَ الأذى، وعظيمَ الشدَّة، خصوصاً إذا ذهبَ إلى الصلاةِ عندَ البيت، وكان من أعظمِهم أَذًى لرسولِ اللّه جماعةٌ سُمُّواً لكثرةِ أذاهم بالمستهزئين، وأَوَّلهُم وأَشدُّهم أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القُرَشيّ. قال يوماً: يا معشر قريش إنَّ محمَّداً قد أَتى ما ترون من عيبِ دينِكم وشتم آلهتِكم وسبّ آبائكم. إني أَعاهِدُ اللّهَ لأجلسنَّ له غداً بحجر لا أُطيقُ حملَهُ فإذا سجدَ في صلاته رضختُ به رأسَهُ فأسلِموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنعْ بي بعدَ ذلكَ بنو عبدِ مناف ما بدا لهم. فلما أصبح أخذ حجراً كما وصفَ ثم جلس لرسولِ اللّهِ ينتظرُهُ وغدا ﷺ كان يغدو إلى صلاته وقُريش في أَنديتهِم ينتظرون ما أبو جهلٍ فاعلٌ، فلما سجد ﷺ احتملَ أبو جهلٍ الحجر أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزِماً من الفزع، ورمى حجره من يده، فقام إليه رجالٌ من قريش فقالوا: ما لك يا أَبا الحكم؟

قال: قمتُ إليهِ لأَفعلَ ما قلتُ لكم، فلمّا دنوتُ منه عرض لي فحلٌ من الإبلِ، واللَّهِ ما رأيتُ مثله قط هم بي أن يأكلني.

فلمّا ذُكر ذلك لرسولِ اللَّهِ قال: ذاكَ جبريل، ولوْ دَنا لأَخَذَهُ.

وماتَتْ **خديجة** الأُمّ ٱلرؤوم...

ومات **أبو طالبٍ** العمُّ ٱلحنون...

واستبدَّتْ بقريشٍ نَزْعَةُ ٱلْجَهْلِ وٱلْشِّرْك والإيذاء.

فراح الألم يُمزِّق قَلْبَ **زينَبَ** عليْها السلام، ويَفْري كبَدَها.

الهجرة

وأَصْبَحَتْ ذاتَ يَوْم، وقد طَبَّقَ أجواء مكّة خَبَرُ مُطارَدَةِ قُرَيْشٍ لرسول اللَّه ﷺ الذي خَرَج من **مكّةَ** إلى **يَثْرِبَ** مهاجراً، فلما عَلِمَتْ بوصُولِهِ سالماً اطمأَنَّتْ وسَعدتْ...

وبَعْد أَيّامٍ جاءَ من يَثْرِبَ مُوفَدٌ فَصَحِبَ أُخْتيْها **فاطمة** **وأم كلثوم** وبقيت زينَبُ في **مكّة** فِي مَنْزِلِ زَوْجها **أبي العاص** تنتظر قضاءَ اللَّه وأَمْرَهُ.

الأسير

وخَرج **أبو العاص** مع قُرَيْشٍ في نفيرها لحمايةِ تجارتها التي تَعَرَّضَتْ لِتَهْديد المسلمين، ودارَتْ رحى القتال، وانْتَّرَ ٱلمسلمون، ووَقَعَ **أبو العاص أسيراً**.

ولما استعرض رسولُ اللَّهِ ﷺ ٱلأَسْرى نحّى **أَبا العاص** جانباً وقال لأَصْحابه.

ـ ٱستوْصوا بالأَسْرى خَيْراً.

وكانت **زيْنَبُ** في وضْعٍ لا تُحْسَدُ عَلَيْه، وحين بَدأت عمليَّةُ فداءِ الأَسرى، كانت رضي اللَّه عنها راغبةً في عَوْدةِ زَوْجها إليْها مُسْتثيرةً هِمَّة والدها العظيم لذلك، فاستخْرجَتْ من صُنْدوق ثيابها وحلِيِّها قِلادَةً كانتِ لأُمها **خديجة** رضي اللَّه عنها، وأهدتْها إليها يَوْم عُرْسها. ثم حَمّلتها لشقيقِ زَوْجها **عمرو بن الربيع** كي يُقَدِّمها فِدْيةً عن زوْجها.

ولم يكدْ ﷺ يرى تلك القِلادَةَ حتى رَقَّ لها رِقّةً شديدة، وخَفَقَ ٱلْقلب الكبير لِلذِّكرى العظيمة.

وأَطرَقَ ٱلحاضرون من ٱلصّحابة خاشعةً أَبصارُهم وقد أُسروا بجلالِ ٱلموقف وروْعته.

وبعْد صَمْتٍ طويل قال ﷺ:

ـ «إن رأيْتُم أن تُطْلِقوا لها أسيرها وتَرُدُّوا عليها مالَها فٱفْعلوا»!!!

فقالوا جميعاً:

ـ نعَمْ يا رسول اللّه(1).

الفراق

لكنّ النبيّ ﷺ أَوْصي أَبا العاص أن يُرْسِلَ زينب ويتركها فإن الإِسلام قَدْ فَرَّق بينهما.

وعاد أبو العاص إلى مكة فاستقْبلَتْهُ زيْنَبُ هاشّةً باشّة، فَرِحَةً مُرَحّبة، وكان هو بادي الوجوم، ظاهِرَ ٱلحُزْن، ثم قال:

ـ جئتُكِ مُوَدّعاً يا زينب...

وأَخْبَرَها بما وعَدَ أَباها من رَدِّها إليْه.

وعلى مضضٍ خرجَتْ زينب من مكّة، وودّعتْ أبا العاص وداعاً مؤَثّراً، فقال لها:

ـ مهما يَحْدُث يا زينب فسأبْقى على حُبّك ما حييتُ وفيًا، وسَيبْقى طَيْفُكِ أبداً مِلْءَ هذه ٱلدار التي شَهِدَت أَحْلى وأَطْيب أيام حياتنا.. ومَسَحَتْ زينَبُ دُمُوعها المترقْرِقة. وٱنْصَرَفَتْ.

ولكنّ قُرَيْشاً تصدَّتْ لها ومَنَعَتْها وأعادتْها إلى مَكّة، ورُوِّعَتْ عليها ٱلْسلام بما حَدَث لها، وكانت حاملاً، فَنَزَفَتْ دماً وأَجهَضَتْ، وحماها أبو العاص عندهُ حتى استعادَتْ قُوّتها وعافيتها، وٱغْتَنَمَ يَوْماً غَفِلَتْ فيه قُرَيْش عنها، فأَخرجها بصحبةِ أخيهِ كِنانَة بن ٱلربيع حتى أَبْلَغَها مأمنها عند رسول اللّه ﷺ. وعاد كِنانَةُ يُرَدِّدُ وينشد:

عجِبْتُ لـ هبّارِ وأوْباش قومِهِ   يريدون إخْفاري بِبنْتِ محمد

---

(1) ذكره ابن حجر في «الإصابة» (8/ 91) «السيرة النبوية» لابن هشام (2/ 297).

ولستُ أبالي، ما حييتُ، عديدَهُم   وما اسْتَجْمَعَتْ قبضاً يدي بمهنّدي

في الأسر مرة ثانية

خرج **أبو العاص** إلى ٱلْشام في عيرٍ لقُرَيْش، وبَلَغَ رسُول اللَّه ﷺ أنّ تلْكَ العير قد أَقْبلَتْ من الشام. فأرْسل **زيْدَ بن حارثة** ـ رضي اللَّه عنه ـ في مائة وسبعين راكباً فَلَقُوا العير بناحية **ٱلْعيص** في جُمادى الأُولى سنةَ ستٍّ من ٱلهجرة، فأَخذوها وما فيها من الأَثْقالِ، وأَسَروا جَماعةً مِمَّن كانُوا في حراسَةِ القافلة، مِنْهُم **أبو العاص بن الربيع**.

ودَخَلَ **أبو العاص** على **زينبَ** مُسْتجيراً فأَجارتْهُ، فلما صلى رسول اللَّه ﷺ الفجْر قامَتْ **زينَبُ** على باب أبيها مُسْتَشْفِعةً وقالت:

ـ إنّي قد أَجَرْتُ **أبا العاص بن الربيع**...

فخرج ﷺ وقال:

ـ «أيها النّاس هل سَمِعْتُم مِمَّا سَمِعْت»؟

قالوا: نَعمْ.

قال:

ـ فوالذي نَفْسي بيدِه ما علمْتُ بشيْءٍ مما كان حتى سَمِعْتُ ٱلذي سمعْتُم: «المؤمنون يد على من سواهم يجير عليهم أدناهم» وقد أَجَرْنا مَنْ أَجارَتْ.

فلما انْصَرَف ﷺ إلى منزله دَخَلَتْ عليه **زينب** فَسَأَلَتْهُ أن يَرُدّ على **أبي العاص** ما أُخِذَ مِنْهُ، فَفَعل، وأَمَرها أن لا يقْربها فإنّها لا تَحِلُّ لهُ ما دام مُشْرِكاً.

* * *

ورَجَعَ **أبو العاص** إلى مكّة فأَدّى إلى كُلِّ ذي حقٍّ حَقَّه، ثُمَّ أَعْلن إسلامَهُ في نادي قُرَيْشٍ وعلى رُؤُوس النّاس، وانصرف إلى المدينة، مُسْلماً مُهاجراً، وردَّ عليه رسُولُ اللَّه ﷺ **زيْنَب**، فاجتمع ٱلْشَمْل، واكتمل العقْد، وخيَّم على الدار ما كان مِنْ قبلُ من حُبُورٍ وسرورٍ وسعادة.

* * *

الفراق الأبدي

مضى على ٱلزَّوْجين عام واحد في ٱلمدينة يعبّان من السعادة والفرحة، ثُمَّ كان الفراق الذي لا لقاءَ بَعْده، إذ ماتَتْ **زينبُ** رضي اللّه عنها ـ في مُسْتَهَلِّ السنة الثامنة للهجرة متأثّرة بمرضِ النّزْف الذي لازمها مُنْذُ هِجْرتها.

وبكاها **أبو العاص** بُكاءً حاراً، وتشبَّث بها حتى أبْكى منْ حَوْله، وجاء رسُول اللّه ﷺ دامع ٱلْعيْن محزون الفؤاد، ثم قال:

ـ اغْسِلْنها ثلاثاً... واجْعَلْن في الآخرةِ كافوراً، ثم صلّى عليْها، وشَيَّعها إلى ٱلمقرِّ الأَخير.

* * *

وعاد **أبو ٱلعاص** إلى ولَدَيْه: **عليٍّ** و**أُمامة** يُقَبّلهما ويبلّلهُما بدمُوعِهِ مُسْتَذْكراً وَجْهَ الحبيبة ٱلْغائبة.

* * *

رضي اللّه عن **زينب** بنت رسول اللّه ﷺ وجزاها بما صَبَرَتْ وكافَحَتْ وجاهَدَتْ جَنَّةً وحريراً.

* * *

رقية

بنت رسول اللّه ﷺ

رضي اللّه عنهما[1]

قال اللّه تعالى:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد: 1 ـ 5].

لما أَنْزَلَ اللَّه تعالى قَوْله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214] خَرَج رسُولُ اللَّه ﷺ حتى أَتى **الصّفا** فَصَعِدَ عليْهِ وهتف:

ـ واصباحاه...

فلمّا اجتمعوا إليه قال:

ـ أرأيْتُم لوْ أَخْبَرْتُكم أن خيْلاً تَخْرُج من سَفْحِ الجبل أَكُنْتُم مُصَدِّقِيَّ؟؟

قالوا:

ـ ما جَرَّبْنا عليْك كذِباً...

قال:

ـ «فإني نذيرٌ لكم بَيْن يَدَيْ عذابٍ شديد».

فانْبرى له أبو لَهَبٍ قائلاً:

تبًّا لَكَ أَلِهذا جمعْتنا...

فأَنزل اللَّه تعالى قَولَهُ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾.

* * *

(1) ترجم لها ابن سعد في «طبقاته» (8/ 36) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 398) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 285 ـ 286) ترجمة (6930) وابن حجر في «الإصابة» (8/ 83) ترجمة (428).

وقال الشاعر الأنصاري **الأحْوص** في حَبْلِ امرأة أبي لهبٍ:

مـا ذاتُ حَبْلٍ يـراهُ النّـاسُ كُـلّهـم   وسْطَ ٱلجحيمِ ولا يَخْفى على أَحَدِ
كُلُّ الحبال، حبالُ الناس، من شَعَر   وحَبْلها وَسْط أَهْلِ النَّارِ مِنْ مَسَدِ

تـوطئة

لقد كان اللّه تعالى مانِعاً لرسُولهِ ﷺ ولمَنْ تَبِعَهُ من المؤْمنين، فلا تنالُ قريْش من إيمانِهم وقلوبِهم وعزائِمِهم، ولَئِنْ نالَتْ من أَبْدانهم.

فقد رُوِيَ أنّ **أُمّ جميل** ـ حمّالَةَ ٱلحطب ـ حين سَمِعتْ ما نَزَلَ فيها وفي زَوْجها من القُرآن، أَتَتْ رسولَ اللّه ﷺ وهو جالسٌ في ٱلمسجد عند الكعبة ومَعَهُ أبو بكْر الصديق ـ رضي اللّه عنه ـ وفي يَدِها فِهْرٌ من حجارةٍ ـ وهي قطعةٌ تَمْلأُ الكفّ ـ فلمّا وقفَتْ عَلَيْهما أَخَذَ اللّهُ ببَصَرِها عن رسول اللّه ﷺ فلم تَرَ إلاّ أَبا بكرٍ، فقالتْ:

ـ يا أبا بكر، أَيْن صاحِبُك، فَقَدْ بَلَغني أَنّه يهجوني، واللّه لوْ وجَدْتُه لَضَرَبْتُ بهذا ٱلْفِهْرِ فاهُ، أما واللّه إنّي لشاعِرةٌ، ثم قالت:

مُـذَمَّـمـاً عَـصَـيْـنـا   وأَمْـرَهُ أَبَـيْـنـا   وديـنَـهُ قـلـيْـنـا

وانصرفتْ. فقال أبو بكْرٍ:

ـ يا رسُول اللّه، أما تراها رأَتْك؟ فقال ﷺ:

ـ «ما رأَتْني، لقد أَخَذَ اللّهُ بِبَصَرِها عنِّي».

نـشـأتـهـا

وُلِدَت **رُقَيَّةُ** ـ رضي اللّه عنها ـ بَعْد أُخْتها **زَيْنَب**، فكانت قُرَّةَ عَيْنِ لوالديْها الكريميْن.

وما لَبِثَتْ أَنْ جاءَتْ بَعْدَها **أُمُّ كلثوم**، فَنَشأَتا سَويًّا، متلاصقتَيْن مُتَعاطفتيْن، ولقد ٱشْتَدَّ تقاربهما وٱنْسجامهما خُصوصاً بعد أَنْ فارَقَتْهما زَيْنَب كُبْراهُنَّ إلى منزل الزَوْجيَّة، فكانتا أَشَدَّ وثوقاً وخُلُوصاً إلى بَعْضهما، وكأَن ٱلْقدرَ كان يرسُمُ لهُما في مُسْتَقْبَلِ الأَيّام مصيراً واحداً، بدايةً ونهايةً.

وفي كُتُبِ ٱلْسِّيرة ما يَشْهَدُ على هذا التّلازُم الغريب العجيب، إذ أَجْمَعَتْ كُلّ الروايات التاريخية على وَحْدَةِ الحال التي كانَت قائمةً بين ٱلأُخْتَيْن **رُقَيَّة** و**أمّ كلثوم**.

الـخـطـبـة

بعد أَن زُوّجَتْ **زينَبُ** إلى **أبي العاص** ابن الربيع، وقد قاربت سِنُّ **رُقَيَّة**، و**أم كلثوم** من ٱلزواج، جاءَ **أَبو طالِبٍ** عمُّ النبيّ ﷺ خاطباً لهما إلى ابنيْ أَخيه **عبد العُزّى بن عبد ٱلمطلب** ـ أَبي لَهَبٍ، فقال أَبو طالب:

ـ جئناك نخطب ابنتيْنا **رقيَّة** و**أم كلثوم** وما أَراك تضِنّ بهما على ابْنَيْ عمّك... **عُتْبة** و**عُتَيبة** إبنا ٱلْعَمّ **عبد العُزّى**.

فأَجاب رسُول اللَّه ﷺ:

ـ «معاذُ القرابة والرَّحِم، ولكن هلاّ أَمْهلتني يا عَمّ حتى أَتحدَّث في هذا إلى ابنتيّ»...

* * *

وعَرَض رسُولُ اللَّه ﷺ الأَمْر على أَهْلِ بَيْتِهِ زَوْ جته **خديجة**، وابنتِه صاحبة ٱلشأن.

سكَتَتْ **خديجة** رضي اللَّه عنها قليلاً في فترة تأَمُّل، فهي تعْرِف حَقَّ ٱلمعرفة **أم جميل** زوجة **أبي لهب**، وتعرف قَسْوة قَلْبها، وشراسَةَ طَبْعها، وحدَّة لسانها، وصَلَفِها ٱلأَحْمق، وطيشها الأَهْوَج، فأَشْفَقَتْ على ٱبْنتيْها أَنْ تُسْلِمَهُما إلى هذا الجوّ المشحون بالحِقْد والكراهية والخلُق ٱلْسَّيء:

ولكنها خافَتْ إِنْ هي نَطَقَتْ برأْيها أَن تُغْضِبَ زَوْجها، فَيَظن أَنّها تريد أَن تمزّق أَواصر القُرْبى بينَهُ وبين أَهْله، فسكتَتْ، كما سكَتَتِ الفتاتان حياءً، وأَغْضتا عن الجواب رِقّةً وخَجَلاً.

وتـمَّ الأَمْر، وعُقِدَت ٱلخطبة في جوٍّ مَشُوبٍ بالْقَلَق، وبارَكَ الأَبُ الحنون ابْنَتيْهِ وتَرَكَ أَمْر رعايتهما لِلَّه عَزَّ وجَلَّ.

الـنـبـوّة

ولاحَ في سماءِ مكّة قَبَسٌ من نورٍ أضاءَها وبَدَّدَ ظُلْمتها؛ إذْ أَظلّتْها

بعثةُ رسول اللَّه ﷺ هدايةً ونوراً، وتردّد في أَسماع **خديجة** ما كان يقوله ابن عمِّها **ورقة ابن نوْفل**:

لَجِجْتُ وكُنْتُ في الذكرى لجوجاً ... لِهَمٍّ طالما بَعَثَ النشيجا
ووصْفٌ من **خديجة** بعد وصف ... فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المكّتيْن على رجائي ... حديثك أَنْ أرى مِنْه خروجا
ويظهرُ في البلاد ضياءُ نورِ ... يُقيم به البريَّة أَن تموجا
فيا لَيْتني إذا ما كانَ ذاكُم ... شهِدْتُ فكُنْت أَوَّلهم وُلُوجا

❋ ❋ ❋

وتذكرتْ **خديجة** رضي اللَّه عَنْها ابنتيْها **رقيّة وأم كلثوم** وما سيؤول إليه أَمْرهُما بَيْن يَدَيْ **أم جميل** الظالمة، وزوجها الْمِطْواع لها.

❋ ❋ ❋

واجْتَمَعَتْ قريْش وأْتمرت برسولِ اللَّه ﷺ وقال قائلها:
- إنكم قد فرْغتُم محمداً من هَمّه فرُدُّوا عَلَيْه بناته فأَشْغِلُوهُ بِهِنَّ...
وردَّ **أبو لهب** زواجَ ابنيْه من بنتيْ رسول اللَّه ﷺ قائلاً لِوَلَديْهِ:
- رأْسي من رأْسيكما حرامٌ إن لم تُطَلِّقا ابْنَتَيْ محمد...
ولم يكن الدخولُ قَدْ تَمَّ.
وعادتِ الفتاتان إلى ذويهما...

❋ ❋ ❋

ولم تكتفِ **أُمُّ جميل** و**أبو لَهَبِ** بما أَقْدَما عليْه، بل بالغا في إيذاء النبي ﷺ فكان **أَبو لهب** يَتعَرَّض له في كل مَجْلِسِ وطريقِ مُهاجماً ومقارِعاً وسابًّا شاتماً، كما أَن زَوْجتِهِ - حمَّالة الحطَب - كانت تَجمعُ الأَشْواك المؤْذية فتَرْميها في طريقه - ﷺ - فتؤْذيه.

فأَنْزَلَ اللَّه سبحانَهُ وتعالى قوْله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ مما زادَ شعورَهُما بالكراهيةِ والنُّفور، وإمْعاناً في الشِّدَّةِ والإيذاء.

البيت المثالي المجاهد

وقال **محمد** ﷺ لزوجته الوفيَّة المخلصة:

ـ لقد مضى عَهْدُ النَّوْم يا خديجة...

وأَحسَّتْ **رقيَّة** و**أم كلثوم** ـ رضي اللَّه عنهما ـ بتبدُّلٍ أَساسيٍّ في جوّ البيْت، فقد أَصْبَحَ بَيْتاً يَلُفهُ الجدُّ، وتأْخذُه القسْوةُ من كُلّ جانبٍ، فَهُو هَدَفٌ رئيسيٌّ لِلاضْطهادِ وٱلْعذابِ والسُّخْرية، وانْزاحَتْ عن أَفْيائه بَسْمَةُ السَّعادة. فتحمَّلتا صابرتيْن مع الأَبَويْن كُلَّ ذلك تَقرُّباً إلى اللَّه تعالى، واسْتَعْذَبتا الأَلَمَ وٱلْشَّقاء والتضْحية في المعركة المقدّسة.

التعويض الكريم

وخابَ فألُ قُرَيْشٍ وظَنّها، فلم يَعْنَتْ رسُولُ اللَّه ﷺ من جرَّاء ردّ ابنتيْه إليه، إذ عوَّضَهُ اللَّه تعالى خَيْراً من الزَّوْجَيْن الأَوَّلَيْن، عوَّضه زوْجاً صالحاً كريماً عزيزاً، عريق النّسَبِ؛ واسِعَ الثروةِ، لطيف الخُلُقِ، دَمِثَ الطباع، ذلكم هو **عثمان بن عفّان بن أبي العاص بن عَبْد شمس**، وكان ـ رضي اللَّه عنه ـ من أَعَزّ فتْيان قريْش حَسَباً وجاهاً وغنًى.

وزوّجَهُ ﷺ من **رُقَيَّة** وبارَكَ لهُما وفيهما وعَلَيْهما.

المحنة

واشْتَدَّ أَذى قريْشٍ بالمسلمين، ونالوا مِنْهم نيْلاً فاحشاً، فَأَذِن رسُولُ اللَّه ﷺ لِأَصحابِهِ ولِإِخوانِهِ في الهجرة إلى الحبشة فِراراً بدينهم حتى لا يُفْتَنُوا، قائلاً لهم:

ـ لو خَرجْتُم إلى أَرْضِ الحبشة فإنّ بها مَلِكاً لا يُظْلَمُ عِندَهُ أَحَدٌ، وهي أَرضُ صِدْق، حتى يجْعل اللَّهُ لكُم مَرَجاً مِمَّا أَنْتُم فيه.

فخرج **عثمان بن عفان** ـ رضي اللَّه عَنْهُ ـ مع زَوْجته **رُقَيَّة** التي كانَتْ دامعة العيْن وآلهة القلب مُعَذَّبة النّفْس، وعانَقَتْ أَباها وأُمّها وأَخواتها فتكادُ تشْرُق بِغُصَّتها، وكأَنَّ لسان حالها يُرَدِّد:

الأَهْــــلُ والأَوطـــــان فـــراقـــهـــم صَـــعْـــبُ

والـــــروحُ والأبْــــدان فَـلْـــيقْـبَـل الـــربُّ
لـــكـــنَّـــه الإيـــمـــان فـــداؤه ٱلْـــقَـــلْـــبُ
فَـلْـــيقْـبـلِ الـــربُّ

وكان **عثمان** رضي اللَّه عَنْهُ ساهماً حزيناً، فَرَنَتْ إليه **رُقَيَّةُ** المؤمنة الصابرة وقالت مُخَفِّفَةً عَنْه:

- إن اللَّه مَعَنا ومع الذين تركْناهم بِرَغْمِنا في جوارِ ٱلْبيْتِ العتيق.

فسُرِّي عنه ما أَلَّم به، ومَضَتِ القافلة...

في حمى النجاشي

وأَقام المهاجرون في حمى النّجاشي مَوْفوري الكرامة، يَتَمتَّعون بحُرِّيَّةِ العمل والعبادة، ولم يكُنْ ليُنَغِّص عليْهم مقامَهُم سوى أَمْرَيْن ٱثْنيْن: دسيسةُ قريشٍ عليهم عند النَّجاشي، وأَخبارُ أَهْليهم في مكّة بما يُلاقُونَهُ من ٱضْطهادٍ وعذابٍ ونَصَب.

العـودة

ومضَتْ بِهِمُ الحياة...

حتى سمعوا بإسلام **حَمْزَةَ بن عبد المطلب** و**عمر بن الخطاب** رضي اللَّه عنهما، فآثَرَ بَعْضُهُم العوْدة؛ رغْبَةً بالمشاركة في صُنْعِ المستقْبل، ورُؤْية الأَهْل الذين طال بُعْدهم واشْتَدّ شَوْقهم إِلَيْهم.

أما الآخرون فأَرادوا أَنْ يَسْتمروا في مقامهم حتى يأْذَنَ لهُم رسُولُ اللَّه ﷺ بالعوْدة.

وكان **عثمان بن عفان** و**رُقَيَّة** من الذين عَزَموا على ٱلْعَوْدة، وما إِنْ وطِئَتْ أَقدامهم أَرْض الوطن، وتكحَّلتْ عُيونُهم برؤْيةِ مغاني الصِّبا ومراتِعِ الشّباب حتى فاضَتْ بالدَّمْع.

ولكنّهم فُوجئوا بازْديادِ طُغْيان قريشٍ وعَنَتِها، فَطَوَوا قُلُوبَهُم وأَفْئِدَتَهُم على خَيْبَةِ الأَمَل.

وكانت **رُقَيَّة** أَكثَرَ العائدين حُزْناً، لأَنّها دَخلَتْ دارأَبيها مُسلِّمةً مُشْتاقة،

فقبَّلَتْ أخواتها وبلهفةٍ سأَلَتْ عن الأُمّ العظيمة، فسكتْن ولم يُجبْن، وكانَتْ دموعُهُنَّ أَبْلَغَ جواب، لقد لحقَتْ بالرفيق الأَعلى فبكَتْ **رُقيَّة** ونشَجتْ، ثم صَبَرتْ على قضاءِ اللَّه وقدَره.

دحـض افـتـراء

وقد أَورد بعضُهم حكايةً يجعلونها سبباً في دعوةِ مهاجري الحبشة، وهي أَنَّه بلغهم إِسلامُ قومِهم حينما قرأَ عليهم الرسولُ سورةَ النجم وتكلّم فيها كلاماً حسناً عن آلهتِهم حيثُ قال بعد ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۞ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: 19، 20] تلكَ الغرانيق جمع غرنوق وهي الطيور ويُرادُ بها الملائكة العُلى، وإِنَّ شفاعتَهنَّ لتُرتجى.

فسجدوا إعظاماً لذلكَ وفرحاً. وهذا ممَّا لا تجوزُ روايتُه إِلاّ على قليلي الإدراك الذين ينقلون كلَّ ما وجدوه غيرَ متثبتين من صحَّتِه. وأَدلَّةُ النقل والعقل تُثبِتُ بُطلانَ ما ذُكر. لأَنَّ سند الحديث ومتنَهُ فلِقان، فالسند قال فيه القاضي عياض في **الشفاء**: لم يُخرِّجه أَحدٌ من أَهلِ الصّحة، ولا رواهُ ثِقَةٌ بسنَدٍ سليم، وأَمّا المتن فليس أَصحابُ رسولِ اللَّهِ، ولا المشركون مجانين حتى يسمعوا مدحاً في أَثناءِ ذمّ ويجوزُ ذلكَ عليهم. فبعدَ ذكرِ الأَصنام قال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: 23]، فالكلامُ غيرُ منتظِم، ولو كان ذلك قد حصل لاتَّخذَهُ الكفّارُ عليهِ حجَّةً يحاجُّونَهُ بها وقتَ الخصام، وهم من نعرفُهم من العنادِ فيما ليس فيه أدنى حُجَّة، فكيفَ بهذه؟ ولم يُسمعْ عن أيِّ واحدٍ من رجالاتهم والمتصدِّرين منهم للعناد أن قال: مالكَ ذممتَ آلهتنا بعدَ أن مدحتَها، وكان ذلك أولى بهم من تجريدِ السيوفِ وبذلِ مُهَجِ الرّجال، على أولئكَ الذين ينقلون هذه العبارةَ ويجعلونها سبباً لرجوعِ مهاجري الحبشة يقولون في أَثناءِ كلامهم أَنَّ الهجرةَ كانتْ في رجب، والرجوعَ كان في شوَّال، ونزول سورة **والنجم** كان في رمضان. فالمدَّةُ بين نزولِ السورة، ورجوع المهاجرين شهرٌ واحد. والمتأمّل أدنى تأمُّل يرى أَنَّ الشهرَ كان يكفي في ذاكَ الزَّمنِ للذَّهابِ من مكّة إلى الحبشة والإِياب منها لأَنَّه لم يكنْ إِذْ ذاكَ مراكب بخاريَّة تُسهِّلُ

السَّير في البحر ولا تلغراف يُوصِلُ خبرَ إسلام قريش لمن بالحبشة. فلا غرابةَ بعدَ ذلكَ إن قلنا إنَّ هذه الخُرافةَ من موضوعاتِ أَهلِ الأَهواء الذين ابتلى اللَّهُ بهم هذا الدِّين(1).

* * *

الهجرة إلى يثرب

ولم يَطُلْ مقامها بمكة، فقد هاجَرَ المسلمون إلى يثرب وهاجَرَ معهم رسُول اللَّه ﷺ، وفي ٱلمدينة وضَعَتْ **رُقيَّة** طفلها **عبد اللَّه** تَملأَ عليها دُنْياها الجديدة أُنْساً وبَهْجةً، وعَوَّضَها عمّا لَقِيَتْ في ماضي الأَيّام مِنْ لَوْعةٍ وعذابٍ ومُصاب.

ولكن المؤمن مُمْتحنٌ مُبْتلى... ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: 2].

فَبَيْنَما كان الوليدُ الصغيرُ نائماً في مَهْدِه نَقَرهُ ديكٌ في وجْهِه، فَتَسمَّم وماتَ بَعْد أَيّام، فترنّحَتْ **رقيَّة** تحْتَ وطْأَةِ ٱلْمُصاب، ووَقَعَتْ فريسة الحُمّى.

فلازمَها الزوج الحنون الرفيق **عثمان** ـ رضي اللَّه عَنْهُ ـ يُمَرِّضُها ويَرْعاها، ويقومُ على شؤونها، ويَدْعو اللَّه تعالى أن يُخفِّفَ عَنْها ما بها، ويُذْهِب عَنْها ٱلْبَأْسُ.

الـوفـاة

وتناهى إلى سَمْع **عثمان** ـ رضي اللَّه عنه ـ صَوْتُ الدَّاعي إلى الجهاد، يستنْفِر الأَنصار والمهاجرين للتَّصَدِّي لقافِلَةِ قريْش الآيبة من الشّام، فأَرادَ الخروج مَعَهُم استجابةً لأَمْر رسولِ اللَّه ﷺ، لكنّه ﷺ أَمَرَهُ بالبقاءِ قريباً من زَوْجَتِهِ المريضة يُواسيها ويَخْدمها.

واشْتَدَّ الصراع بَيْن الموْت والحياة، ثم رَفَّتْ روحُ **رقيَّة** على شَفَتَيْها وهي تُحَشْرِج، ثم أَطْبَقَتْ جَفْنَيْها وغابَتْ عن الوعي.

وبَيْنَما كان **عُثمان** ـ رضي اللَّه عنه ـ الزَّوْجُ المفجوع بأَعَزّ زَوْجةٍ

---

(1) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين للشيخ محمد الخضري.

وحبيبَةٍ يلثُمُ جَبينها وأنامِلها ويُغَطّي وَجْهَها، كان صَوْتُ ٱلْبشير القادِمِ من **بَدْرٍ** يُعْلِنُ انْتِصارَ المؤْمنين.

الأب الثاكل

ودَخَلَ رسولُ اللَّه ﷺ بَيْت **عُثمان** وقَدْ هَزَّهُ نَبَأُ وفاةِ **رُقَيَّة** ـ رضي اللَّه عنها ـ وتَقَدَّم مِنا يُوَدّعها وقَدْ ظَهَرَ الْأَسى في عَيْنَيْه والحزن في سيماهُ، وٱنْثنى بِلُطْفٍ وَرِقّة على **فاطمة** التي كانت قد أَكَبَّت على مَضْجع أُخْتِها **رُقَيَّة** تَبْكيها، فَرَفَعَها بِتُؤَدَةٍ ولينٍ، ومَسَح دُموعَها بِطَرَفِ ثَوْبِهِ[1].

عندئذٍ علا نشيجُ النِّسْوَةُ الحاضرات، فأَرادَ (عُمَرُ بن الخطاب) ـ رضي اللَّه عنه ـ أن يمنعَهُنَّ بِسَوْطِهِ، فَأَمْسَك رسول اللَّه ﷺ بِيَدِهِ وقال لَهُ:

ـ مَهْما يكُن من ٱلْعيْن وٱلْقَلْب فمِنَ اللَّه والرَّحْمة، ومهْما يكن من اليد واللِّسان فَمِنَ الشَّيْطان.

* * *

الـدفـن

وصلى رسُول اللَّه ﷺ ـ الأبُ ٱلمفجوعُ على ابْنَتِهِ، وشَيَّعها حتى واراها الثَّرى الطيّب في البَقيع الطّاهر، وعادَ إلى ٱلْبيْتِ والمسْجد... يُتابعُ جهاده في أَداءِ الرسالة...

* * *

رضي اللَّه عنه بنت رسول اللَّه ﷺ ـ رُقَيَّة ـ ذاتِ ٱلهجرتيْن، وزوجة ذي النُّوريْن ـ عثمان ـ وجزاها عن إيمانها وجهادِها وبلائها أَحْسَنَ الجزاء وأَوْفاه.

---

(1) ذكره ابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 400 ـ 401) و«الإصابة» (8/ 83 ـ 84).

أمّ كلثوم

بنت رسول اللَّه ﷺ [حبيسة الشعب]

رضي اللَّه عنها(1)

قال اللَّه تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35].

وقال رسول اللَّه ﷺ: لـ **عُمَر بن الخطاب** رضي اللَّه عَنْهُ:

ـ يَتَزَوَّج **حَفْصة** مَنْ هُوَ خَيْرٌ من **عثمان** ويَتَزَوَّجُ **عُثمان** من هيَ خَيْرٌ من **حَفْصَة**.

وقال ﷺ:

ـ «لوْ كُنَّ عَشْراً لَزَوَّجْتُهُنَّ عُثمان».

توطئة

لِئن لم تهاجِرْ **أمّ كلثوم** ـ رضي اللَّه عَنها ـ إلى ٱلحبشةِ ٱلهجْرَةَ الأُولى فتعاني من أَلَمِ ٱلْبُعْدِ عن الوطن، إلا أَنّها عانَتْ ما هو أَشَدّ من الهجرة وٱلْغُرْبة، إذْ حُبِسَتْ مع ٱلمسلمين وبني هاشم في شِعْب **أبي طالب** يتضررون جوعاً ومَسْغبَةً وأَلَماً طوال ثلاث سنين، ذاقوا خلالها أَقْسى ما يتصوَّره إنسانٌ من متاعِبِ ٱلْقطيعة، وجفاءِ المعاملة.

---

(1) ترجم لها ابن سعد في «طبقاته» (8/ 37) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 506 ـ 507) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 486) ترجمة (7582) وابن حجر في «الإصابة» (8/ 272 ـ 273).

وإنّ فَرْحة **أبي طالب** بتمزُّقِ ٱلصحيفة ٱلتي عُلّقتْ في ٱلْكعبة توكيداً من قريشٍ على ٱلمقاطعة، تُصوِّرُها أبياتُهُ هذه:

ألا هَلْ أَتى بحربنا صُنْع ربّنا ... على نأيِهِم، واللَّه بالنّاسِ أَرْوَدُ
فيُخْبرُهم أن ٱلصحيفة مُزّقَتْ ... وأن كَلّ ما لَمْ يَرْضَه اللَّه مفْسدُ
تراوَحَها إفْكٌ وسِحْر مجمّع ... ولم يلْفَ سِحْر آخر ٱلدهر يَصْعَدُ
جزى اللّهُ رَهْطاً بالحُجُون تتابعوا ... على ملاٍ يهدي لحزْم ويرشِدُ
قُعوداً لدى خطْمِ الحُجُونِ كأنّهُم ... مقاولة، بل هُمْ أَعَزُّ وأَمْجَدُ
قضوا ما قضوا في ليلِهِم ثُمَّ أَصْبَحوا ... على مهلٍ، إذ سائر ٱلنّاس رُقّدُ

ولادتها ونشأتها

... وقيل في أَنْدية قريْشٍ: إن محمَّداً لا يلِدُ إلاّ ٱلْبنات...

قالوا ذلك غَفْلَةً عن الحكمة الإلهيَّة ٱلْعظيمة، المتعدِّدةِ الجوانب، ٱلْكثيرة ٱلأَهداف ذات المعاني الجمَّة...

إذا نسوا أَنّهم أَهْلُ جاهليَّةٍ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: 58، 59].

ونسوا أَنّهم أَهل ظُلْم ووحشيَّة يَئدون بناتهم خشية ٱلْفقْرِ والعار، وهْماً وغباءً، ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: 8، 9].

ونسوا أَنّهم أَهلُ وثنيَّةٍ يعبدون ٱلحجَرَ وٱلْمَدَر، وأَن في الكوْن إلهاً يُقَدِّر ويخلق: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: 49، 50].

ثم أَخيراً، وليس آخراً، غَفِلوا عن قول اللَّه تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 40].

* * *

وبَرزَتْ إلى الوجود طفلة جديدة لـ **محمد** ﷺ، ممتلئةً مُكْتنِزة، جميلة المحيّا، أَسيلَةَ الخدَّيْن، فسمّاها أَبَواها **أم كلثوم**.

ـ ثم نَمَتْ ودرجَتْ فكانت ـ كما علِمْت ـ نِعْم القرين لأُخْتها رُقيَّة؛ وكأنهما توْأم.

خطِبَتا إلى ولَدَيْ **أبي لَهَبٍ** معاً؛ ثم رُدَّتا معاً، ولقد كان خَيْراً لهُما.

إذ نَجَتْ **أم كلثوم** رضي اللَّه عنها من نَكَدِ ٱلْعيْش مع **حمّالة ٱلحطب**، كما نجت معها أختها الحبيبة **رُقيّةَ** التي ما لبثَتْ أن تزوّجها الشريف العفيف **عثمان بن عفان** رضي اللَّه عَنْه، وهاجرت معه إلى ٱلحبشة[1].

* * *

في قلب المعركة

بقيتْ **أم كلثوم** ـ رضي اللَّه عنها مع أُختِها الصُّغْرى **فاطمة** في بَيْتِ أَبيهما ٱلرسول بمكة، تشاركان **خديجة** أم المؤمنين عِبْء ٱلحياة وشظفها، وتُخَفِّفانِ عن الوالد الكريمِ بحنوِّهما وعطْفِهِما ما يلْقاهُ من أذى قرْيشٍ وسَفَهِها.

وعلى هذا فقد عاصرت **أم كلثوم** ـ رضي اللَّه عَنْها ـ أَشَدّ فتراتِ ٱلاضْطِهاد وأَصْعَبَ ظروف الدَّعْوة، وأَقْسى أَيّام ٱلجهاد.

وبَلَغ ٱلجهْلُ بقريْشٍ ذرْوَتَهُ فتنادى الأَرْهاطُ فيها واجْتمعوا، ثم قرَّروا مقاطعة المسْلمين وبني هاشم، مقاطَعَةً تُعَدُّ في ذلك الحين أَقصى أَلوان الحرمان والحرْب الاقتصاديّة والاجتماعيَّة، وأَكّدوا ذلك بكتابةِ وثيقةٍ ـ صحيفةٍ ـ علّقوها في الكعبة.

* * *

فخرج محمد ﷺ بأسْرتِهِ ومَنْ تَبعَهُ إلى شِعْب **أَبي طالبٍ**، ضاحية من ضواحي مكّة، وانحازَ إليْه قَوْمه بنو هاشم.

وهناك عاشوا جميعاً في ضَيق الحصار حتى إنّهم كانوا يأْكلونَ أَوراق ٱلْشَجر من شدة ٱلجوع، وأَقاموا على ذلك نَحْو ثلاث سنين، تَصِلُ إليْهم في بعض الأحيان الأَقْواتُ والأَطعمة سِرًّا، وخاصّةً من بعض ذوي قُرْباهم مِمَّن لبثوا بمكة، ولقد لَمَحَ **أبو جَهْل** يوْماً **حكيم بن حزام بن خُوَيلد** يسيرُ متخفّياً ومَعَهُ غلام يحْمِلُ قمْحاً، يريدُ به عمَّتَهُ **خديجة** رضي اللَّه عَنْها، فَأَمْسَك به **أَبو جَهْل** وجَعَلَ يصيح:

---

(1) ذكره ابن سعد في «طبقاته» (8/ 37 ـ 38).

ـ أَتَذْهبُ بالطّعام إلى **بني هاشمٍ**؟ واللَّه لا تَبْرح مكانَكَ، أَنْتَ وطعامُك، حتى أَفْضَحَك بمكّة.

***

وروى **سَعْد بن أَبي وقاص** ـ رضي اللَّه عَنْهُ فقال:

ـ لقد جُعْتُ حتى إني وطِئْتُ ذاتَ لَيْلةٍ على شَيءٍ رطْب فَوَضَعْتُهُ في فمي وبَلَعْتُه، وما أَدْري ما هُوَ إلى الآن.

وكان ذلك الشيءُ الرَّطْب ـ حَسْبَ ما حدَّثَتْ بعض الروايات ـ رَوْث بعيرٍ.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ **[الأنفال: 30]**

وكان **هشام بن عمرو بن ربيعة العامري** من أَهْلِ مكّة الذين آلمهم ما يلْقى المسلمون من ظُلْم وعذاب، فكان يأْتي ليْلاً بالبعير وقد حمّلهُ طعاماً، حتى يَصِلَ به إلى أَوّل الشِّعْب، وهناك يَخْلَعُ مِقْوَدِهِ ثم يَضْربُهُ على جَنْبِهِ، فَيَنْطلق ويَدْخُلُ إلى بني هاشم وبني عبد المطلب.. فيتلقّفونَهُ وكأَنها نِعْمَةُ السَّماء، قَدْ ساقها اللَّه إليْهم.

وكانَتْ **أَمّ كلثوم** رضي اللَّه عَنْها قد دَخَلَتْ أَقْسى تجربةٍ وأَعْظَمَ امتحان، فوالِدُها رسُول اللَّه ﷺ في همٍّ وحُزْنٍ وأَلم، وأُخْتُها **زَيْنَبُ** مع زَوْجها **أَبو العاص** في مكة لا تمْلِكُ لهُمْ حَوْلاً ولا طوْلاً، ورفيقَةُ الصّبا والعُمْر **رقيّة** في بلادٍ نائيةٍ بعيدة، وأُمُّها **خديجة** ـ أم المؤمنين ـ تُغالِبُ المرض الشديد، لا تقْوى على الحركة، والصغيرةُ **فاطمة** بحاجةٍ إلى رعايةٍ وعناية.

لقد حَمَلَتْ **أُم كلثوم** ـ رضي اللَّه عنها ـ في تلك الآونة أَكبر المسؤُولياتِ وأَعظمها، فكانت صابرةً مُحْتَسِبَة تُخَفِّفُ عن الأَبِ الرسول آلامه وأَحزانَهُ وتواسي الأُم قائلة:

ـ لا بأْس عليْكِ يا أُمّاه.

البشرى

وحَضَرَ **أَبو طالبٍ** إلى الشِّعْب وبَشّر ابن أخيه بِفَكّ الحصار، وتَمزُّق الصحيفة، وإجماع **هشام بن عمرو** و**زهير بن أُميّة** و**المطعم بن عديّ** و**زَمْعَةَ بن**

الأَسود و**أَبي البختري بن هشام** على الوقوفِ إلى جانبِ بني هاشم وبني المطّلب.

فسُرّ بذلك رسولُ اللَّه ﷺ ونَقَل النبأَ إلى أَهل بيته وإلى المسلمين، وعادوا جميعاً إلى مكة، وقد زادهم ٱلحصار يقيناً باللَّه، وزادَتْهم الْمِحْنَةُ تقرُّباً إليه تعالى، وصَقَلَتْهُم التّجْربة وشَدَّت من إيمانهم وعَزْمِهِم.

وفاة السيدة خديجة رضي اللَّه عنها

لقد أَنْهَكَ الحصارُ بَدَن السَّيِّدة المجاهدة، فرقَدَتْ في فراشها بمكّة تَتَهيّأْ لِلقاءِ اللَّه عَزَّ وجَلَّ. ثم ما لَبِثَتْ رُوحُها أَنْ فاضَتْ إِلى بارئها سبحانه، وتحلّق من حَوْلها: زينب، وأم كلثوم، وفاطمة يتزوّدْن منها قَبْل ٱلرحيل.

وكان ذلك في ٱلْيوْم ٱلْعاشر من رمضان سنة عشْرٍ من البعثة، ودفَنَها رسول اللَّه ﷺ بيديْه ٱلشريفتيْن في حُفْرتها في الحُجون، وعادَ إلى ٱلْبيْتِ محزوناً، فَضَمّ إليه **أُمّ كلثوم** و**فاطمة** وواساهُما وخَفّف عنهما ما بهما من أَلم المصاب.

وكبرت مَسْؤُوليَّة **أُمّ كلثوم** فأَضْحَتِ ٱلمسؤولة الأُولى عن ٱلْبيْتِ ٱلْنبويّ ٱلْشريف، وكانَتْ نِعْم ربَّةِ البيْتِ المثاليّة، كيف لا!! وهي ابنة سيدة نساءِ العالمين **خديجة بنت خُوَيْلد**.

الـهـجـرة

وهاجر ٱلمسلمون إلى **يَثْرِب**، وهاجَرَ مَعَهُم رسولُ اللَّه ﷺ، وكانت رحلَتُه أَعْظم مغامرةٍ عرفها تاريخ الإنسانية في سبيل اللَّه ونَصْرةِ الحقّ، وبقيَتْ **أُمُ كلثوم** و**فاطمة** في مكّة حرْصاً على سلامتهما.

وبَعْد وصولِهِ ﷺ أَرْسَلَ **زَيْد بن حارثة** إلى مكّة يَسْتَحْضرهُنّ، فخرجْن إلى الحُجون، وودّعْنَ قَبْر ٱلأُمّ الحنون، ثم مَضَيْن إلى يَثْرِب.

أَمّا ما دفعَ النبيّ إلى الهجرةِ فهو أَنّه حينما طرقَ مسامعَ قريش مُبايعةَ الأنصار للنبيّ في يثرب على الذّوْدِ عنهُ حتى الموت، اجتمعَ رؤساؤهم وقادَتُهم في دارِ النّدْوة التي كانتْ قريش لا تقضي أَمراً إلاّ فيها يتشاورونَ ما يصنعون في أمرِ رسولِ اللَّه ﷺ. فأشار بعضُهم بإخراجهِ من أَرضِهِم، ولكنَّ هذا الرأيَ رُفِض، ثمَّ أَشار آخرونَ بحبسِهِ حتّى يُدْرِكَهُ الموت، فرُفِضْ هذا الرأيُ أيضاً.

وأخيراً استقرَّ رأيُهم على أنْ يأخذوا من كلِّ قبيلةٍ شاباً جَلْداً يجتمعونَ أَمامَ دارِه، فإذا خرجَ ضربوهُ ضربةَ رجلٍ واحدٍ فيتفرَّقُ دمُهُ في القبائلِ، فلا يقدِرُ بنو عبدِ مَناف على حربِ قريشٍ كلِّهم، بل بما دبَّرهُ الأَعداءُ في سِرِّهم وأَمرهُ باللّحاقِ بدارِ هجرتِهِ التي سوفَ يكونُ فيها لرسولِ اللَّه العزَّةُ والمنَعة.

فتوجَّه من ساعتِهِ إلى حديقةِ أبي بكرٍ وأَعلمَهُ أن اللَّه قدْ أَذِنَ له في الهجرة، فسأَلهُ أبو بكر الصُّحبة فقال: نعمْ، ثمَّ عرضَ عليه إحدى راحلتيْهِ اللتيْن كانتا مُعَدَّتيْن لذلك، فجهَّزاهما أَتمَّ الجهاز. واستأْجرا عبدَ اللَّهِ بنَ أَرْقط من بني الدَّيْل بنِ بكر، وكان هادياً ماهراً وهو على دينِ كفّارِ قريش، فأَمَّناهُ ودفعا إِليهِ راحلَتيْهِما وواعداهُ غارَ ثورٍ بعد ثلاثِ ليالٍ، ثمّ فارقَ الرَّسولُ ﷺ أبا بكرٍ وواعدَه المقابلةَ ليلاً خارجَ مكّة. وكانتْ هذهِ الليلةُ هي ليلةَ استعدادِ قريشٍ لتنفيذِ ما اتّفقوا عليه.

فلمَّا جاء ميعادُ الخروج أمرَ ابنَ عمّهِ عليًّا بالمبيتِ مكانَهُ كيْ لا يقعَ الشكُّ في وجودِهِ في أَثناءِ اللّيل. ثمَّ سجَّى عليًّا بِبُردتِهِ وخرج على القومِ وهو يقرأُ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس: 9].

فأَلقى اللَّهُ النَّومَ عليهمْ حتّى لم يرَهُ أَحَدٌ، ولم يزلْ ﷺ سائراً حتّى تقابلَ مع الصِّدِّيق وسارا حتّى بلغا غارَ ثورٍ فاختفيا فيه.

أَمَّا المُشركون فلما علموا بفسادِ مكرِهم، هاجتْ عواطفُهم فأَرسلوا الطّلبَ من كلّ جهةٍ، وجعلوا الجوائزَ لمن يأْتي بمحمَّدٍ أو يدُلُّ عليه، وقد وصلُوا في طلبِهم إلى ذلكَ الغار الذي فيه طلبتهم بحيثُ لو نظرَ أَحدُهم تحتَ قدَميْهِ لنظرَهما حتّى أَبكى ذلكَ أَبا بكرٍ فقال ﷺ: «لا تحزنْ إنَّ اللَّهَ مَعَنا». فأَعمى اللَّهُ أَبصارَ المشركين حتّى لم يحِنْ لأَحدٍ منهم التفاتةٌ إلى ذلكَ الغار.

ولما انقطع الطلبُ خرجا بعدَ أَن جاءهما الدَّليل بالرّاحلتيْن صُبحَ ثلاثٍ وسارا متَّبعينَ طريقَ الساحل. وفي الطريق لحقهم سُراقةُ بنُ مالكٍ طامعاً في الجائزةِ التي جعلتْها قريشٌ لمن يقتلُ محمداً أو يأْسرُهُ.

ولمَّا دنا من الرَّسول ومَنْ مَعَهُ عثرتْ به فرسُهُ فخرَّ عنها ثمَّ ركبها ثانياً

فساخَتْ قوائمُها في الأَرض فعلِمَ أَنَّ عملَهُ ضائعٌ سُدى، وداخله رُعبٌ عظيم فناداهما بالأَمان.

وكان أَهلُ المدينةِ حينما سمعُوا بخروجِ رسولِ اللّهِ وقدومِهِ عليهم يخرُجونَ إلى الحرَّة حتّى يردَّهم حرُّ الظهيرة.

وذاتَ يومٍ أَوَوْا إلى بيوتِهم، وكان رجلٌ من اليهودِ على رابيةٍ ينظرُ فبصُرَ برسولِ اللّهِ وأَصحابِهِ يزولُ بهم السَّراب يُظهرهم تارةً ويُخفيهم أُخرى فصاح بأعلى صوته: يا معشرَ العرب هذا جَدُّكم أي حظّكم الذي تنتظرون، فثاروا إلى السّلاح، فتلقّوا رسولَ اللّهِ بظهرِ الحرَّة.

الـزواج

مضى على ٱلهجرة عامان حافلانِ بجليل ٱلأَحْداث وعِظام ٱلأُمور، شهدتْ **أم كلثوم** خلالها عَوْدة أَبيها مُنْتَصراً من **بَدْر**، كما شهِدَت وفاة شقيقتها الغالية **رقيّة** متأثرةً بمرضها.

وحين أَهَلّ العامُ الثالث كان ٱلحُزْنُ لا يزال جديداً عليها، ولكنّها كانت تلْمَحُ **عثمان بن عفان** ـ رضي اللّه عنه ـ يأْتي أَباها دائماً يلْتَمِسُ عنْدهُ ٱلْعَزاء والنُّصْح وٱلْعَوْن عن فقيدتِهِ الغالية **رقيّة**، وترى دموعَهُ في عَيْنَيْه تحدِّث عن لَوْعَتِهِ وحُزْنه.

وفي يَوم جاء **ابن الخطاب** إلى رسولِ اللّه ﷺ شاكياً مُغْضباً، فسأله النبيّ عن سببِ ذلك، فأَخْبَرَهُ بأَنّه عرض على **أبي بكرٍ** وعلى **عُثمان** الزّواج من ابنتِهِ **حفْصَة**، فَلَمْ يَرْضيا، فهدَّأَهُ ﷺ وطيّب خاطره وقال له:

ـ يتزوّجُ **حَفْصَة** من هُوَ خير من **عثمان** ويتزوّج **عثمان** من هي خَيْر من **حفصة**[1].

* * *

وتزوّج ﷺ من **حَفْصة**، فهو خَيْر من **عثمان**، ثُمّ قال لعثمان:

أُزوجُكَ **أُم كلثوم** أُخْتَ **رقيّة**، ولوْ كُنّ عَشْراً لَزَوَّجْتُكَهُنّ، وهي ـ رضي اللّه عنها ـ خَيْرٌ من **حَفْصة**.

* * *

(1) ذكره ابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 486).

وتَمَّ زواج **أم كلثوم** من **عثمان** على مِثْل صداق **رُقَيَّة** وعلى مِثْل صُحْبَتِها.

في بيت عثمان

وعاشت رضي اللَّه عنها ست سنواتٍ، رأَتْ فيها مَجْد الإسلام يبلُغُ أَوْج انتصارِهِ، وشاهَدَتْ أَباها ـ ﷺ ـ يخْرُج من معركةٍ إثر معركة، ويعودُ من غزوةٍ إثر غزوة، مؤَيّداً مُظَفَّراً، و**عثمان** مَعَهُ صاحباً ومجاهداً.

المحنة

وفي شهرِ ذي القعدة من السَّنَةِ السادسة، خرج رسول اللَّه ﷺ على راحلته القَصواء، مع نحو أَلْفٍ وخمسمائةٍ من صحابته يريدون مكّة، لأَداءِ العُمْرة ولَيْس مَعَهُم سِلاحٌ إلا السُّيُوفُ في أَغْمادِها.

وتصدَّتْ قريْش لهم وأَبَتْ عليهم أَنْ يدخلوا مكّة عَنْوةً، فقال رسولُ اللَّه ﷺ لِصْهرِهِ ذي النَّورَيْن **عثمان بن عفّان**:

ـ اذْهَبْ إلى قريْشٍ وأَخْبرْهم أَنّا لَمْ نأْتِ لِقتالِ أَحَدٍ، وإنّما جئْنا زوّاراً لهذا ٱلْبيْتِ مُعَظِّمين لحُرْمتِهِ، نَحْمِلُ معنا ٱلهدْي نَنْحَرُهُ ونَنْصَرِف.

ووجَفَ قلْبُ **أم كلثوم** ـ رضي اللَّه عنها ـ إشفاقاً وخَشْيةً على زوجها الحبيب أن تنالَهُ قريْش وتَغْدر به، كما ساورها ٱلْقَلَقُ والْهَمُّ وهي تَنْتظِرُ أَوْبَته بَعْدَ أَنْ طالَ غيابُه عن المدَّةِ ٱلمنتظرة.

وذاع في ٱلْنَّاس بعد طول انتظارٍ بأَنَّ **عثمان** قد قُتِلَ، فرُوِّعَتْ وبكَتْ وٱنْتَحَبَتْ.

وأَسْرَعَ رسُولُ اللَّه ﷺ فَدَعا ٱلمسلمين إلى **بيعةِ ٱلرّضْوان**، وفيها بايَعَ عن **عثمان** رضي اللَّه عنه، إذ ضرب بشمالِهِ على يمينِهِ وقال:

ـ إنّه ذَهَبَ في حاجةِ اللَّه وحاجةِ رسُوله.

عودة الغائب

ولم يطُلِ ٱلْحُزْنُ بأُمّ كلثوم، فقد عاد **عثمان** من مهمَّتهِ ولم يُصِبْهُ أذى، ووقّع رسُول اللَّه ﷺ مع قريش **صُلْح ٱلحُدَيْبية** ووقف **عمر بن الخطاب**

وعثمان بن عفان رضي اللَّه عنهما في طائِفَةِ المعارضين الذين لَم يرضوا شروطَ ذلك الصُّلْح.

وحين نَحَرَ رسُول اللَّه ﷺ ٱلْهَدْيَ وحَلَق رأْسَهُ، حَلَق عامَّةُ الصحابة، وقصَّرَ نَفَرٌ، منهم **عثمان بن عفان**، وسَمِعَتْ **أم كلثوم** أَباها يقول:

ـ رَحِمَ اللَّه المحلّقين...

فعَزّ عليْها ذلك، وظَهَرتْ في وجْهِها سَمةُ حُزْنٍ وعتاب، وما ٱرْتاحَتْ نفسها حتى سَمِعتْهُ ﷺ يُتَمِّم: والمقصِّرين.

الوفاة

وبَعْدَ أن تَمَّ لرسُولِ اللَّه ﷺ فَتْحُ مكّة، حَنَّ قلبُ أُمّ كلثوم لزيارَةِ قَبْرِ ٱلأُمِّ ٱلحنون، وحَدَّثت زَوْجها ووالدها بالأَمْر، فوافقاها على ذلك، لكنَّ المنيَّة عاجلَتَها.

وتوفّاها اللَّه تعالى إليه في شهْر شعبان سنة تِسْعٍ للهجرة.

ووسَّدها رسُول اللَّه ﷺ إلى جانِبِ ما تبقّى من رفاتِ أُخْتها ٱلحبيبة **رقيّة**، جمعتهما الحياةُ في بَيتِ **عثمان** وضمّهما قَبْر واحد.

ووقف النبي ﷺ على قَبْر ابنتيْه دامع العينيْن، مُثْقَلَ ٱلْقَلْب بِهَمّ الثّكْلِ المتتابع[1].

* * *

رضي اللَّه عن **أُمّ كُلْثوم** بنْت رسُولِ اللَّه ﷺ **حبيسة الشِّعْب** وأَنْزَلَها منازل ٱلأَبْرار الأَطْهار الصَّالحين من عِبادِهِ.

* * *

(1) ذكره ابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 507) بلفظ قريب.

الزهراء

فاطمة البتول

رضي اللَّه عنها[1]

تُرى: مَن هِي المسلمةُ الخالدةُ التي نُسطِّرُ تاريخَ حَياتِها ٱلْيوم؟

إنّها المرأَةُ التي حَفِظت لنا نَسْلَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ وهِي سَيدةُ نساءِ ٱلْعالمينَ وابنةُ سيدةِ نساءِ أَهلِ زَمانِها، وهِي بَضعةٌ مِن النبي ﷺ ورَيحانَتهُ.

إنّها السيدةُ ٱلْكريمةُ ٱلْفاضلةُ فاطمةُ الزهراء بنتُ رسول اللَّه ﷺ مُحمد بن عبدِ اللَّه بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصيّ بن كلاب.

وأُمُّها هي أمُّ المؤمنين السيدةُ خَديجةُ بنتُ خُوَيْلِد بن أَسدِ بن عبدِ ٱلْعُزَّى بن قُصيّ بن كِلاب.

مولدها

لَقد صَحِبَ مَولِدَ السيدةِ فاطمةَ رضيَ اللَّهُ عنها حَادِثٌ عَظيمٌ هَزَّ أَرجاء مكةَ من أَقصاها إلى أَدناها، وكادَ يُشعِلُ الحربَ بين قبائِلها وبُطُونها.

وهذا الحادثُ يتعلق بتجديدِ بناءِ ٱلْكعبةِ المشرَّفة. فقد صحَّ عزمُ قُريش على تجديدِ بِنائِها لِما أَصابَها مِن أَمطارٍ وسُيول كادت تُقوِّضُ بعض جُدرانِها.

وتمَّ ٱلْبناءُ في جدٍّ واجتهاد واشْتَرك في شَرفِ ٱلْبناءِ جَميعُ من استطاعَ تقديمَ مالٍ أَو عَمل. وما أَن وَصلوا إلى مَوضعِ الحَجَرِ الأَسودِ المقدس، حتى اختلفوا في المكانِ الَّذي يضعونهُ فِيه. وكادَ ٱلْقتال يَقع فقد جَرَّدَت ٱلْقَبائِلُ السيوفَ أَرْبَع ليالٍ استعداداً للقِتال.

---

(1) ترجم لها ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (8/ 19) وابن حجر في «الإصابة» (8/ 157) ترجمة (826)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 447 ـ 448) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 364).

وحَملَ أشرافُ مكةَ همَّ الحربِ وٱلقِتال، وأَخذوا يُفكرونَ في حلٍّ لِتلك ٱلْفِتنة التي أُثيرَت، والسُّيوف التي جُرِّدت.

وبعد تفكير، تقدَّمَ **أُميَّةُ بن المغيرةِ المخزوميّ** وهو مِن شيوخهم ٱلْعُقلاء فقالَ لهم: «يا مَعشَرَ قُريش اجعلوا بينكم حَكماً يَقضي بَيْنكُمْ فِيما تختلفونَ فيه، وهو أولُ مَن يدخل من بابِ هَذا المسجد الحرامِ»، فَقبلَ الجميعُ وقالوا:

رَضينا وسلّمنا.

وانتظَرَ الجميعُ وهُم يتطلَّعونَ إلى ٱلْباب. وبينما هُم ينتظرون إذْ أَقبلَ عليهم مُحمدٌ الأمين ﷺ بطلعتهِ ٱلْبهيَّةِ خُطواته المتَّزنة وهو يومئذٍ في الخامسةِ والثلاثينَ مِن عُمره تقريباً.

فما أن رأَوْهُ حتى فَرِحُوا وصَاحُوا: **هذا الأَمينُ محمد بن عبد اللَّه بن المطَّلب، رضينا بِحُكمهِ.**

واستمعَ الأَمينُ لِقصةِ خِلافِهم، ثمَّ طلبوا منه أَن يحكُم بينهم.

ولبث الصادقُ الأَمين بُرهةً، ثم بَسطَ رداءَهُ ووضع الحجر الأَسود فيه، ثمَّ قال: لِيأْخذ كبيرُ كلِّ قبيلةٍ بناحيةٍ من الثوب ثم ارفعوهُ جميعاً. فحملوهُ حتى وصلوا إلى مكانهِ فوضعَه الأَمينُ محمدٌ ﷺ بيده الشريفة في المكان الذيَ اختارهُ له.

وانتشر الخبر سريعاً بين أَنحاءِ مكةَ فاستبشرَ الناسُ، وفرحوا بحلِّ تلكَ المشكلةِ، وسُرُّوا بِحكمةِ الأَمين مُحمد ﷺ.

وانطلقت قرائح ٱلْعرب بالشِّعر الذي يصف ذلك الحادث ٱلْعظيم. وقد أَشار أَبو وهب المخزوميّ الشاعر العربيّ إلى قضية التحكيم حين قال:

تَشاجرتِ الأَحياءُ في فَصلِ خُطَّةٍ ... جَرَتْ بَينَهُم بالنَّحس من بعدِ أَسعَدِ
تلاقَوا بِها بالبُغْضِ بعدَ مَودةٍ ... وأَوقدَ ناراً بينهم شَرُّ مُوقِدِ
فلَمَّا رأَيْنا الأَمْرَ قد جَدَّ جِدّهُ ... ولَم يبقَ شيءٌ غيرُ سَلِّ المُهَنَّدِ
رَضينا وقلْنا ٱلْعَدْل أَول طالع ... يجيءُ من ٱلْبَطْحاءِ على غير موعِدِ
فَفَاجَأَنا هذا الأَمينُ مُحمدٌ ... فَقُلنا رَضينا بالأَمينِ مُحمدِ

فقد شَعرت مكةُ أَن النبيَّ مُحمداً ﷺ قَضَى على خِلافِهم، وأَشرك رؤساءَ ٱلْقبائِلِ جميعاً في شرفِ حَملِ الحجرِ الأَسود المُقَدَّسِ. فَكأَنَّ ٱلْقبائل كُلّها قد حَمَلَتْهُ وهذا كانَ أَحَدَ الأَدلَّة على رجاحَةِ عقلهِ وحُسْنِ تصرفه ﷺ.

وعادَ الأَمينُ مُحمدٌ ﷺ إلى منزلِهِ سَعيداً بِحلٍّ هذه ٱلْقضية التي شَغَلَت بالَ كبارِ قُريش.

وعِندَ دُخولِه تلقَّى نبأَ مَولدِ ابنتِهِ الرابعةِ، فتَهَلَّلَ له وابتهجَ بهِ، ثم دخلَ مُسْرعاً على زوجتِهِ ٱلْكريمةِ بَاشّ الأَسَارير، طلَّقَ المُحيَّا فَهنّأَها بِسلامَتِها، وفَرِحَ بميلادِ الطِّفلةِ الجميلة. فقد وُلِدَت في يوم كريم أُغْمِدَتْ فيهِ سُيوفُ الحربِ بين قبائلِ مكةَ، وٱنْفَضَّت بينهم مُشكلةٌ عظيمَة.

وسمَّاها النبي ﷺ فاطمةَ ولقَّبها الزَّهراء.

وسَعِدَ الزوجان بِمَولد فاطمةَ الزهراءِ، وكانت الإبنةَ الرابعةَ وَرأَى رسولُ اللَّه ﷺ فيها جمال الطلعةِ وتَوسَّم فيها البركةَ وٱلْيُمنَ والسعادةَ.

وجاءت الابنةُ ٱلْكريمةُ شديدةَ الشَّبَهِ بأَبيها، فجعلها ذلك أَثِيرَةً عند الأَبِ والأمِّ.

وظَلَّتِ الزهراءُ محبوبة من أَبيها وأُمّها حَتَّى آخِرِ لَحظاتِ حَياتِهمَا.

نشأتها

تَمتَّعَت السيدةُ فاطِمَةُ بِحبٍّ عَظيم مِن أَبَوَيْها، وأَخوَاتِها وَبِخاصّة أُختِها زَينب رضي اللَّهُ عنها، فقد كانت تُدَلِّلُها وتُلاطِفُها وتُلاعِبُها.

وشَبَّتْ فاطِمةُ في بيتٍ نَبَويٍّ رَحيم يَكْلأُها بعين رَعايَتِه وَيَسْهَرُ عَلى راحَتِها. فَأَقبلت على حَياتِها بِبَراءةٍ عَظيمةٍ تَأْخُذُ قِسطاً وافِراً مِن الأَدبِ والحنان والتَّوْجيهِ المحمديِّ السَّديد.

ثمَّ تزوجت زَينب التي طالما عُنيت بشؤونها وأُمورها، فَفارقتها إلى بيتِ زوجها.

وكذلك تزوجت أُختُها رُقيَّة وأُختُها أُمُّ كُلثوم فزادَ ذلكَ من شُعورِها بالوحدةِ ٱلْقاسيةِ.

رُويَ أَنَّها بكتْ حين تَزَوَّجت رُقيَّة وأُمُّ كُلثوم، فلما سأَلتها أُمُّها: ما يُبكيكِ يا فاطمة؟ فأَجابت:

لاَ تَدَعِي أحداً ينتزعُني منكِ ومِن أَبي فلستُ أُطيق فِراقَكُما!

فتبسَّمت الأُمُّ في حنانٍ ورفقٍ وقالَتْ لَها:

لَنْ تتركينا إلا إذا أردت.

وهكذا زاد تعلّقُ الزهراء وشُغِفت بِهما حُباً.

ولعلَّ صِغَرَ سِنها ساعَدها على الخروجِ مع أَبيها في أَنحاء مكةَ.

ولقد نَمَتِ السيدةُ فاطمةُ رضي اللَّهُ عنها بين حُبِّ أبيها ٱلْعَظيم وحنانِ أُمّها ٱلْفَياضِ ورَأَتْ مدى ما يتمتعُ بهِ أبوها مِن الخُلُقِ النَّبويِّ ٱلْعظيم إذْ أَدّبهُ ربُّهُ فأَحسنَ تَأْديبهُ، وهذبه مولاهُ فأَحسنَ تهذيبهُ.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: 6ـ 8].

كما تأَثرتِ السيدةُ فاطمةُ بما كانت تتمتع بهِ أُمُّها السيدةُ خَديجةُ رضيَ اللَّهُ عنها مِن صفاتٍ زكية، وسَجايا حميدةٍ.

فحاولَتْ أَنْ تنشأَ على الخُلُق ٱلْكريمِ مُتخذةً أَباها رَسولَ اللَّهِ ﷺ المثلَ الأَعلى لَها وٱلْقُدوةَ الحَسنةَ في جَميعِ تصرفاتِها.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

وبِذلك نشأَت السيدةُ فاطمةُ عَلى ٱلْعفةِ ٱلْكامِلةِ، وعِزَّة النفسِ، وحُبِّ الخيرِ، وعَلى حُسنِ الخُلقِ، فهيَ تستقي مِن تعاليمِ أَبيها نبيّ الأُمةِ، ورسولِ الرحمةِ، خير مرشدٍ وأَعظم مربٍّ وَهادٍ إلى الطريقِ المستقيمِ.

مسؤولية مبكرة

وما كادتْ تبلغُ الزهراءُ الخامسةَ من عُمرها حتى شَاهدتْ أَباها ٱلْعظيم محمداً ﷺ قد أَحبَّ الخلوةَ وأَخذ يتعبدُ في غارِ حراء، ثم نزلَ عليه ٱلْوحيُ بهذِهِ الآياتِ المُحْكَمَاتِ:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۞ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: 1 ـ 5].

وأَعلنَ رسولُ اللَّه ﷺ أَنَّهُ قد أرسلهُ اللَّهُ للناسِ شاهداً ومُبشّراً ونذيراً، وداعياً إلى اللَّه بإذنِهِ وسراجاً مُنيراً.

وأَخذت آياتُ ٱلْقرآنِ تَتوالَى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۞ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۞ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۞ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ [المدثر: 1 ـ 7].

وأَخذتِ السَّيدةُ فاطمةُ رضيَ اللَّهُ عنها تُشاهدُ هذا التطورَ التاريخيَّ الخالِدَ في حياةِ أَبيها الذي أَصبحَ مسؤولاً مَسؤولية تاريخيةً عن أُمةٍ ذاتِ قِيادةٍ ورِسالةٍ، وعن حَضارةٍ خاتِمةٍ لِحضارات، عَالَميةِ المبادئ، إنسانيةِ التعاليم.

وإذن فلا بدَّ أَن تُحسَّ السيدةُ فاطمةُ الزهراءُ بِهذا الجو الجديدِ في بيتِ أَبيها، جوِّ الوحي ٱلْعبق، وأَعباء الدعوة الثِّقال، ومُناهضَةِ كفار قريش لِرسولِ اللَّه ﷺ ظُلماً وعُدواناً.

وَكَمْ عانتِ الزهراءُ من مَكائدِ ٱلْكفارِ لأَبيها ٱلْعظيم، وكَمْ تَمنَّت لو استطاعت أَن تَفدِيَ أَباها بحياتِها وأَنْ تمنعَ عنهُ أَذى قريش ولكن أَنَّى لها ذَلكَ وهي في عُمرِها الصغير وإِهابها ٱلْغضِّ.

هَا هِي ذِي فاطمة الزهراءُ تَرى أمَّها خديجةَ تَقفُ بِجوار أَبيها رسولِ اللَّه ﷺ بعدَ أَن نزلَ عليه ٱلْوحيُ في غارِ حراء، فدخلَ عليها وهو يَرجُفُ فؤَادهُ فتقولُ له السيدةُ خديجةُ:

واللَّهِ ما يُخزيكَ اللَّهُ أَبداً، إنك تَصِلُ الرَّحِم، وتَحملُ ٱلْكَلَّ، وتُكسِبُ المعدومَ وتُقري الضَّيف، وتُعين على نَوائبِ الحقِّ.

ثم تقفُ السيدةُ خديجةُ نَفسَها وتقدِّمُ مَالَها، وتُشارك زوجَها رسولَ اللَّه ﷺ في كُلِّ ما يُواجِهُهُ من أَحداثٍ عظامٍ وخطوبٍ جِسام.

هذا الموقفُ الخالدُ من السيدةِ خَديجةَ لا يَمرُّ مُروراً عابراً على السيدةِ فاطمةَ وهِي في عُمرِها الصغير حينَ ذاك ولكنَّها تُفكر وتَتأَمَّلُ وتَرقُبُ الأَحداث.

إنَّها المَسْؤوليةُ المبكِّرةُ التي يُلقيها ٱلْقدرُ على السيدةِ فاطمة الزهراء المُسْلمة الخالدة التي شَاء اللَّهُ لَها ـ ونِعمَ ما شاء ـ أَن تَنْطِقَ بكلمةِ التوحيدِ وهي في سَنواتِها الأُولى، وأَن تنشأَ طاهرَةً مُطَهَّرَةً، بعيدةً عن رِجْسِ الأَوْثانِ، مُتعبدَةً بدينِ الإسلامِ، ذلك الدينُ الحنيفُ الذي اختارهُ اللَّهُ لِعبادهِ.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم: 30].

وأَخَذَ النَّبيُّ ﷺ يَدعُو قَوْمه إلى دينِ الإسلامِ في مضاءِ عَزمٍ وقُوةِ إيمانٍ لا يُبالي بأَذى ٱلْكفّارِ وتكذيبهم لأَنَّهُ يجدُ في آياتِ ٱلْقرآنِ تثبيتاً لفؤَادهِ وتَطميناً لِرَوعهِ ولأَنه يجدُ من زوجه الحبيبةِ إيماناً كبيراً وتثبيتاً عَظيماً يُعينهُ على أَداءِ رسالتهِ التي اصطفاهُ اللَّهُ تباركَ وتعالى لِلنُّهوض بها وتَبليغِها للناس.

وقد ذَكَرنا أَنَّ رسولَ اللَّه ﷺ أَخَذ يتعرضُ هو وأَصحابُه يوماً بعد يومٍ لاضطهادِ قريشٍ وأَذاهُم.

ولاقتِ السيدةُ فاطمَةُ آلامَ تكذيبِ ٱلْكُفارِ لأَبيها الذي أَحبَّتْهُ بكلِّ ذرَّةٍ في كِيانِها.

وكان ذروةَ ما قَاسَته من آلامِ مُنذ بدايةِ الدعوة ذلك الحصارُ الشديدُ الذي حُوصِرَ فيه المسلمونَ مع بني هاشم في شِعْب **أَبي طالب**. فقد أَثَّر الحصارُ والجوعُ والأَلمُ في صحتها فبقيتِ طَوَالَ حياتها تعاني من ضعفِ ٱلْبنْيَةِ وجهدِ ٱلْبَلاءِ.

حـزن ألـيـم

وشَهدَت الزهراءُ في حَداثةِ سِنِّها فَجيعة كُبرى مَلأَت نَفْسها حُزناً وَأَلَماً وأَسًى.

وذَلِكَ أَنَّها مَا كادَتْ تَخرجُ مِن مِحْنَة الحصار المُهْلِكِ حَتَّى فُوجِئَتْ بمَرضِ أُمِّها ولزومِها ٱلْفِراشَ فانْخلعَ قَلبُها لِتلكَ المُصِيبَة التي تزحَفُ نحو أَطهَرِ الأُمّهاتِ وأَكرَمِهنَّ.

ولَم تلْبث السيدةُ خديجةُ رضيَ اللَّهُ عنها أَنْ فارَقتِ الحياةَ فاشتدَّ

الحُزنُ على الزهراءِ وأَخواتِها. كما أحسَّ رسول اللَّهِ ﷺ بالحزنِ لِفَقد زَوجتهِ ٱلْغاليةِ ٱلْوَفيةِ.

السيدة فاطمة بعد وفاة أمها

كانت فترةُ مكةَ الثلاثةَ عَشَرَ عاماً التي سَبقت الهجرةَ قاسيةً بحقٍّ على المسلِمينَ بصفةٍ عامةٍ وعلى بيتِ النبيِّ ﷺ بصفةٍ خاصةٍ.

ولقد شهدت السيدةُ فاطمة من الأَحداثِ في تِلكُم السنوات الشيءَ ٱلْكثيرَ.

شهدت هِجرةَ أُختها السيدة رُقيَّةَ مع زَوجها سَيِّدِنا عُثمان وكثيرٍ مِن المسلمينَ إلى الحبشةِ.

وشهدَت أَباها رسولَ اللَّه ﷺ وقد وَضع عليه المشركون من الأَذَى ما جعلها تَبكي وتَشهق حتى قال لها رسولُ اللَّه ﷺ: «يا بُنَيَّةُ لا تَبكِ، فإنَّ اللَّهَ مَانِعٌ أَباكِ».

وشَهدت نزول آياتِ ٱلْقرآن، وكانت تسعدُ أَيمَّا سَعادةٍ وهي تستمعُ إلى هذا ٱلْكتاب الذي أُحكِمت آياتُه من فَم أَبيها رسولِ اللَّه ﷺ وهو يُرتِّل ٱلْقرآنَ ترتيلاً.

ووجدت السيدةُ فاطمة نَفْسها بعدَ وفاةِ أُمِّها أَمامَ مسؤولياتٍ كبيرةٍ وضخمةٍ نَحوَ أَبيها الرسولِ ٱلْعظيمِ وهو يمرُّ بظروفٍ قاسيةٍ في سبيلِ الدعوةِ الإسلاميةِ.

فضاعفتِ الجُهدَ، وتحملت الأَحداثَ في صَبرٍ، وصابرت ورابطت واحتسبت أَجْرَها عندَ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ، ووقفت بِجوارِ أَبيها، لتُقدِّم له بعض ٱلْعِوَضِ عن أُمِّها، أَغلى الأُمهاتِ وأَكرم الزَّوجاتِ.

وقدَّم رسولُ اللَّه ﷺ لبنتهِ فاطمةَ الزهراء من الحبِّ والحنانِ، والرعايةِ والإشفاقِ الزادَ ٱلْعظيم.

إن فاطمةَ في حاجةٍ إلى هذا الحبِّ، وإلى هذه الرعايةِ، وأَيُّ قلبٍ أكبر من قلبِ رسولِ اللَّهِ ﷺ؟ وأَيُّ حنانٍ أَعظَمُ من حنانِه؟

في طريق الهجرة

كَثُرَ أَذَى ٱلْكُفَّارِ لِلذِينَ آمَنُوا بِدِينِ الإِسْلامِ وامتَدَّ أَذاهُمْ لِلنبيِّ ﷺ

وبِخاصَّةٍ بَعدَ وَفاةِ عَمِّهِ أَبي طالِبٍ وَزَوْجِه السَّيِّدَةِ خَديجَةَ رضي اللَّهُ عَنها.

ولَكِنَّ دَعْوَةَ الإِسْلامَ أَخَذَت تَنْتَشِرُ في أرجاءِ مَكَّةَ، بَلْ وَصَلَت إلى يَثْرِبَ حَيْثُ آمَنَ هُناكَ كثيرٌ مِنَ المُسْلِمينَ، وَبَايَعُوا رَسولَ اللَّهِ في بَيعةِ ٱلْعَقَبَةِ الأولى والثَّانِيَة عَلى أَنْ يَحْفَظوهُ وَيَحْموهُ مِمّا يَحْمُونَ مِنْهُ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوالَهُم وأَعْرَاضَهُمْ.

وأَذِنَ رَسولَ اللَّه ﷺ لأَصْحابِهِ بالهِجْرَةِ إلى المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ.

وَكانَ لِلإِمَام عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ دَوْرٌ عَظيمٌ في هِجْرَةِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ فَقَدْ خاطَرَ بنَوْمِهِ مَكانَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ إيهاماً لِشَبابِ قُريش.

وتَمَّت هِجْرةُ النبيِّ ﷺ مَعَ صاحِبِهِ الصِّدِّيقِ أَبي بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثمَّ أَرْسَلَ الرَّسولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وتَسْليماتُهُ عَلَيْهِ إلى مَكَّةَ صَحابيًّا جليلاً وأَميناً لإحضارِ السيدةِ فاطمةَ مَعَ أُخْتِها أمِّ كُلثُوم.

وَمَا كانَ أَعظَمَ فَرَح الزَهراءِ بلقاءِ وَالِدِهَا رَسولِ اللَّهِ ﷺ وكَانَ فَرَحُهُ بها كَذلِكَ عَظِيماً.

وَبهذِهِ الرِّحْلَةِ وَدَّعَت الزَّهْراءُ مَكَّةَ بَلَدَهَا الحَبيبَ الَّذِي شَهِدَت فيهِ طُفُولَتَها ٱلْبَاكِرَةَ وَشَبَابَها ٱلْغَضَّ، فَقَدْ هَاجَرَتْ في السَّنَةِ الثَّالِثَةَ عَشرَةَ لِلْبَعْثَةِ النَّبويَّةِ وهِيَ في عَامِها الثَّامِنَ عَشَرَ. وَلَمْ تَرَ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ إلاّ في ٱلْعامِ الثَّامِنِ مِنَ الهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، أَيْ عِنْدَمَا فُتِحَتْ مَكَّة.

زواج كـريـم

وبَعد زَواجِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهُ عَنها تَقَدَّمَ كِبارُ الصَّحابةِ لِخطبَةِ الزَّهْرَاء بَعدَ أَنْ كانُوا يُحْجِمُونَ عَنْ طَلبِ يَدِهَا لِوجُودِها مَع أَبيها وخِدْمتِها إيَّاهُ.

فخطبَ الزَّهراءَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ولَكِنَّ الرَّسولَ ﷺ اعتَذَرَ في رِفْقٍ بالغ. فَأَشَارَ عُمَرُ عَلى عليٍّ كَرَّمَ اللَّه وَجْهَه شَرَفَ هَذِهِ المُصَاهَرَةِ، ولَكِن بَعدَ أَنْ رَدَّ رسولُ اللَّه ﷺ أَبا بكرٍ وعُمَرَ، تُرَى هَلْ يَقْبَله هُوَ؟

ذَلِكَ سُؤالٌ جَالَ في خَاطِرِ الإمامِ عَليٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ[1].

وَلَكِنَّ ٱلْفَارُوقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَكَرَ لَهُ سَبْقَهُ إلى الإسْلامِ وقَرابَتَهُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ ومَكانَتَهُ في قَلْبِ رسولِ اللَّهِ حتى أَقْنَعَهُ بأَنَّهُ أَهْلٌ لَها.

وذَهَبَ الإمامُ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَجَلَسَ بقُرْبِ النَّبيِّ ﷺ على اسْتِحْياءٍ لا يذكرُ سَببَ مَجيئِهِ. فَسَأَلَهُ رَسولُ اللَّهِ ﷺ:

ما حاجَةُ ابنِ أَبي طَالِبٍ؟

وَفي صَوتٍ خافِتٍ وحَياءٍ أَجابَ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ:

ذَكرتُ فَاطِمَةَ بنتَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ.

فَأَجابَ ﷺ وَهُوَ مُتَهَلِّلُ ٱلْوَجْهِ:

مَرْحَباً وأَهْلاً.

فَانْصَرَفَ الإمامُ عليٌّ. وَمَا إنْ سَأَلَهُ بَعضُ مَنْ يَعلمُ الأَمرَ عَنْ نَتيجَةِ طَلَبِهِ حَتَّى أَجابَهُم:

تَحدَّثْتُ إلى رَسولِ ﷺ في الأَمْرِ فَقالَ لي: مَرْحَباً وأَهْلاً.

فَقالُوا لَهُ: يَكْفِيكَ مِنْ رَسولِ اللَّهِ إحْدَاهُمَا.

وفي ٱلْغَدِ عَاوَدَ الإمامُ عليٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ فَسَأَلَهُ النَّبيُّ ﷺ:

وهَلْ عِنْدَكَ شَيءٌ؟

أَجابَ عَليٌّ: لاَ يَا رَسولَ اللَّهِ.

وَسَأَلَهُ النبيُّ: فَأَيْنَ دِرْعُكَ الَّتي أَعْطَيْتُكَ يومَ كَذا؟

فَأَجَابَ فَرِحاً: هِيَ عِندِي يَا رَسُولَ اللَّهِ.

فَجاءَهُ بِها فَأَمَرَهُ ﷺ بِبَيْعِها لِيُجَهِّزَ ٱلْعَرُوسَ بِثَمَنِها[2].

واشتَراها مِنهُ الصَّحابيُّ ٱلْعَظيمُ عُثمانُ بنُ عفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ

---

(1) رواه ابن سعد في «طبقاته» (8/ 19 ـ 20).

(2) ذكره ابن حجر في «الإصابة» (8/ 158) وابن سعد في «طبقاته» (8/ 20) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 364).

بأَرْبَعِمائَةِ وسَبْعِينَ دِرْهَماً. فَسَلَّمَ الإمامُ عليٌّ الثَّمَنَ لِرسولِ اللَّهِ ﷺ فَدَفَعَ جُزْءاً مِنْهُ إلى بلالِ بن رَبَاح لِيشتريَ طِيباً وعِطْراً وَدفَعَ ٱلْبَاقي إلى أمِّ سَلَمَةَ لِتَشتريَ جِهازَ ٱلْعَرُوسِ.

ثُمَّ نَظَرَ الرَّسولُ ﷺ إلَى أَنَسٍ وقَالَ لَهُ:

ٱنْطَلِقْ وٱدْعُ لي أبا بَكرٍ وعُمَرَ وعُثْمانَ وطَلحَةَ والزُّبَيرَ وَبِعِدَّتِهِمْ مِنَ الأَنْصارِ.

وَقامَ الرَّسولُ ﷺ لِيُخْبرَ ٱبْنَتَهُ ٱلْكَريمةَ بِخَبَرِ خِطْبَة الإمامِ علي كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ لَها. فقالَ لَها:

يا فاطِمةُ إنَّ عَليًّا يَذْكُرُكِ.

فَصمتَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْها حَياءً. وَكانَ ذَلِكَ عَلامَةَ ٱلْقَبُولِ عِندَ الزَّهراء[(1)].

ثُمَّ خَرَجَ الرَّسولُ ٱلْكَريمُ فَوَجَدَ كِبَارَ الصَّحابَةِ قَدْ حَضَرُوا فَقالَ:

الحمدُ للَّهِ المَحمودِ بنِعْمَتِهِ، المَعْبُودِ بقُدرتِهِ، المطاع لِسُلطانِهِ، المهروبِ إليهِ مِن عَذابهِ، النَّافِذِ أمْرُهُ في أَرْضِهِ وسَمَائِهِ، الذي خَلَقَ الخَلقَ بقُدْرَتِهِ، . . . وأَعزَّهُم بدينهِ، وَأَكْرَمَهُم بنَبيِّهِ مُحمَّد ﷺ. إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجلَّ جَعَلَ المُصاهرَةَ نَسباً لاحِقاً وأمراً مُفْترَضاً، وحُكْماً عَادِلاً وخَيْراً جامِعاً أَوْ شَجَ به الأَرْحَامَ، وأَلْزَمَها الأنَامَ فقالَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: 54].

وَأمْرُ اللَّهِ يَجري إلى قَضائِهِ وقَضاؤُهُ يَجْري إلى قَدَرِهِ وَلِكُلِّ أجَلٍ كِتَاب، يَمحُو اللَّه ما يَشاءُ ويُثْبِت، وعِنْدَهُ أُمُّ ٱلْكِتَابِ. ثُمَّ إنَّ اللَّهَ تَعالى أَمَرَني أَنْ أُزَوِّجَ **فاطِمَةَ** مِنْ **عَليٍّ** وَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي زَوَّجْتُ **فاطِمَةَ** مِن **عَليٍّ** عَلَى أَرْبَعِمائَةِ مِثْقَال فضةٍ إنْ رَضِيَ بذلكَ، عَلَى السُّنَّةِ ٱلْقَائِمةِ، وٱلْفَريضَةِ ٱلْوَاجِبَةِ، فَجَمعَ اللَّهُ شَمْلَهُمَا، وبارَكَ لَهما وأَطابَ نَسْلَهُما وجَعَلَ نَسْلَهُما مَفاتِيحَ الرَّحمةِ، ومَعَادِنَ الحِكْمَةِ، وأَمْنَ الأُمَّةِ. أَقُولُ قَولي هَذا وأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لي ولَكُمْ.

---

(1) «الطبقات» لابن سعد (8/ 20).

ثُمَّ أَمَرَ ﷺ بطَبقٍ فِيهِ تَمرٌ قَدَّمَهُ إلى ضُيوفِهِ ٱلْكِرَامِ وقَالَ لَهُم: تَخاطَفُوا.

وَبَيْنَما هُمْ كَذَلِكَ قَالَ لَهُم رَسولُ اللَّه:

ٱنْتَبِهُوا.

ونَظَرَ ٱلْقَوْمُ فَإذا ٱلإمامُ عليٌّ مُقْبلٌ نَحوَهُم. فَتَبَسَّمَ إليهِ رَسول اللَّه ﷺ وقالَ لَهُ:

يا عليّ! إنَّ اللَّهَ أَمَرَني أَنْ أُزَوِّجَكَ فَاطِمةَ، وإنّي زَوَّجتُكَها على أَربعِمَائةِ مِثقالِ فِضةٍ.

فَقَالَ عليّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ:

رَضيتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ!

ثُمَّ إنَّ عَليًا خَرَّ ساجِداً، شُكراً لِلَّهِ، فلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ قَالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ:

«بَارَكَ اللَّهُ لَكُمَا وعَلَيْكُمَا وأَسْعَدَ جَدَّكُما». وأَخرَجَ مِنْكُمَا ٱلْكَثِيرَ الطَّيِّب.

لَقد كَانتْ دَعْوَةً مُستَجابَةً، فَإنَّها دَعوةُ نَبيّ، بَلْ دَعوةُ سيّد ٱلأَنْبياءِ فَواللَّهِ لَقد أَخرجَ مِنهُما ٱلْكَثيرَ الطيِّب.

وَبهَذَا عُقِدَ قِرانِ ٱلإمام عَليّ عَلى ٱلزهراءِ رَضِيَ اللَّه عَنهما أَمامَ جَمعٍ مِنْ كِرامِ الصَّحابةِ.

وَباتَ ٱلإمامُ علي قَريرَ ٱلْعَينِ بزَوَاجِهِ على ٱبنةِ أَعْظَمِ ٱلخَلْقِ أَجْمَعِين سَيِّدِنَا رَسولِ اللَّه ﷺ.

وَفي لَيلةِ زفافِ ٱلزَّهراء إلى عَليٍّ أَمَرَ رسولُ اللَّه ﷺ السيدةَ أُمَّ سلمةَ أَنْ تَمضِيَ بالعَرُوسِ إلى دارِ الإمامِ عليّ كَرَّمَ اللَّهُ وجهَه التي جَهَّزَها لِسُكْناهُمَا وأَنْ يَنْتظِرَاهُ هُناك.

وصلَّى ٱلرسولُ صَلاةَ ٱلْعِشاء، ثُمَّ ذَهبَ إلَى عليٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ. وهُناكَ دَعا بِماءٍ فَتَوَضَّأ مِنهُ ثُمَّ دَعا بهَذَا ٱلدُّعاء:

«اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِمَا، وبَارِك عَلَيْهما، وبَارِك لَهُمَا في نَسْلِهِمَا»[1].

---

(1) رواه ابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 365) وابن سعد في «الطبقات» (8/ 21) والطبراني في «المعجم الكبير» (الحديث 2/ 1153) وهو حديث حسن.

ثُمَّ أَوْصَى ابنتَهُ بأَنَ تُكرِمَ زَوْجها وأَوْصَى الإمامَ عليًا كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ بِهَذهِ ٱلْوَصيَّة:

يَا عَليّ لاَ تَغْضَبْ! وإذا غَضِبْتَ فَٱقْعُدْ وٱذْكرْ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعالى عَلى ٱلْعِبادِ وحِلْمَهُ عَنهُمْ. وإذَا قِيلَ لَكَ: ٱتَّقِ اللَّهَ فَٱتْرُكْ غَضبَكَ عَنْكَ، وارجِع لِحِلْمِكَ.

وفَرِحَ ٱلمُسْلِمُونَ بِزوَاجِ الزهراء مِنَ ٱلإمامِ عليٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ وٱبْتَهَجوا.

فَيُرْوَى أَنَّ ٱلحَمْزَةَ عَمَّ النَّبيِّ ﷺ سُرَّ بِهذَا الزَّوَاجِ ٱلمُبارَكِ، فَجاءَ بكَبْشَينِ وذَبَحهُمَا وأَطْعَمَ مِنهُمَا أَهْلَ ٱلمَدِينةِ.

الإمام علي الزوج

ولِكَيْ نَتَحدَّثَ عَنْ زَوَاجِ الزهراء مِنَ ٱلإمام عليٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ نُحِبُّ أَنْ نَضعَ بَيْنَ يَدَي ٱلْقارئ ٱلْعَزيزِ تَرْجَمةً مُخْتَصَرةً جِداً عَنِ ٱلإمامِ عَليٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ٱلَّذي فَازَ بِمُصاهَرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وكَانَ زَوْجاً لأَحَبِّ بَناتِهِ إليْهِ.

إنَّ ٱلإمام عليَّ بنُ أَبي طَالبِ بنُ عَبدِ ٱلمُطَّلِبِ بنُ هاشِم بن عبد مَنافِ بن قُصَيٍّ بن كِلاب.

وهُوَ ابنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وأُمّهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ أَسدِ بنِ هَاشِمِ بنِ عبد مناف بنِ قُصَيّ بنِ كِلاب.

وهِيَ أَوَّلُ هَاشِمِيَّةٍ وَلَدتْ لِهاشِمِيّ.

فَهُوَ يَجمَعُ الشَّرَفَ مِنْ أَطْرَافِهِ، وهُوَ أَحَدُ ٱلْعَشْرَةِ ٱلمُبَشَّرينَ بالجَنَّةِ وأَحَدُ السِّتَّةِ أصحابِ الشُّورَى.

صَاحِبُ ٱلْقلبِ ٱلعَقولِ، وٱللِّسانِ السَّؤولِ، والأذُنِ ٱلْوَاعِي، وٱلْعَهدِ ٱلْوَافي.

دَفَعَ النَّاكِثينَ، وَوَضَعَ ٱلْقَاسِطِينَ، ودَمغَ ٱلمارِقِينَ. ذَلِكُمْ هُوَ ٱلإمامُ عَلي بنُ أبي طَالِبِ.

وُلِدَ ٱلإمامُ عَلي قبلَ ٱلْبعثةِ بعَشرِ سِنينَ، وتَربَّى في بَيتِ النبيّ ﷺ،

فَتَفَتَّحت أَكْمامهُ ومَداركهُ عَلى طُهر النُّبُوَّةِ وعَظمتِها وصِدْقِ ٱللِّسانِ، وقوَّةِ ٱلَجنانِ، وفَصاحَةِ ٱلْبيانِ.

وإذن فقد تَشَرَّبَت أَخلاقُه بأَخلاقِ النبي مُحمد ﷺ.

وعِندما بُعِثَ النبيُّ ٱلْكريمُ كانَ ٱلامامُ عَلي أوَّلَ من ٱقتبسَ مِن ذَلِكَ النُّورِ ٱلإلهيّ، فَٱنْشرحَ صَدْرُهُ لِهذهِ الدَّعوَةِ ٱلْكريمةِ، وكانَ أَوَّلَ عَربيٍّ وأَعْجَميٍّ صَلَّى مَعَ رسولِ اللَّهِ ﷺ.

وأَصبحَ بَعدَ زَواجِهِ مِنَ الزهراءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنهمَا وَالِدَ ٱلحَسَنَينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُمَا وَوالدَ زَيْنب بَطلة كَرْبَلاء.

وكانَ كرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ في عَهدِ ٱلخُلفاءِ مَحبوباً مُقَرَّباً، حَتَّى كانَ ٱلْفَاروقُ عُمرُ بنُ ٱلخطاب يَسْتَشِيرهُ فِيما يُشكِلُ عَليهِ مِنَ ٱلْقَضايا ٱلْعَظيمةِ وكانَ يقول قَضيَّةٌ ولا أبا حسنٍ لها.

وكانَ ٱلإمامُ عَلي مِثالاً نادِراً لِلزَّوْجِ ٱلْوَفيِّ الَّذِي يَحْرِصُ عَلى حُسنِ ٱلرِّعايَةِ وكَريمِ ٱلْعِنايَةِ بِبنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

هَذهِ تَرجمَةٌ مُوجَزةٌ لِلإمَام عليٍّ بن أَبي طالِب كرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَسَنَفْردُ لَهُ كِتاباً خَاصاً في سِلْسلَةِ: **مِنْ أَبطال الإسْلام** إنْ شَاءَ اللَّه.

ذرية مباركة

مَرَّ عَامٌ سَعِيدٌ عَلَى زَوَاجِ ٱلإمام عَليّ رَضِيَ اللَّهُ عنهُ وكَرَّمَ اللَّهُ وجْههُ جاءَ بَعدهُ ٱلحَفيد ٱلأَوَّل لِرسولِ اللَّهِ ﷺ فَفرحَ بهِ النبيُّ ﷺ فَرَحاً كَبيراً وحَنَّكَهُ بنَفْسِهِ وسَمَّاهُ ٱلحَسَن.

ثمَّ وُلِدَ بَعدَهُ سِبْط رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ٱلإمامُ ٱلحُسَيْنُ أبُو الشُّهَداءِ وبَطلُ كَرْبَلاء.

وَمَرَّت ٱلأَيامُ ثُمَّ وَلَدَت السَّيدَةُ ٱلْكريمةُ فاطِمَةُ وَلدَها الثالِثَ مُحْسِناً وتُوفِّيَ وَهُوَ صَغِير.

ثُمَّ مَنَّ اللَّهُ عَلى هَذا ٱلْبيتِ ٱلْكَريمِ بِزَهْرَةِ بَني هَاشِمِ السَّيدةِ زَينبَ بِنت ٱلإمامِ عليٍّ.

وَقَدْ تَزَوَّجت السَّيدةُ زَينبُ بِنت ٱلإمام علي رَضِي اللَّه عَنْهُ وكَرَّمَ وَجْهَهُ مِن ابن عَمِّها قُطبِ السَّخَاءِ عَبدِ اللَّهِ بنِ جَعفرَ الطَّيَّار.

وَقَدْ شَهِدَت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنها في ٱلْعام ٱلحادِي والسِّتِّين مِنَ ٱلهجرةِ مَأْساة كَرْبَلاء وقامَت بدَورٍ عَظيمٍ في حِفظِ نَسلِ ٱلإمامِ ٱلحُسَينِ وذُرِّيَّةِ النَّبيِّ ﷺ.

ثُمَّ رُزِقَت السَّيدةُ فَاطِمَةُ بزَهْرَةٍ أُخرَى وأَسْمَتها أُمَّ كُلثومٍ تَيمُّناً بِخالَةِ ٱلْوَليدَة.

وقَدْ تَزَوَّجَت السِّيدةُ أُمُّ كلثومَ بِنت ٱلإمامِ عَليّ مِن ٱلْفارُوقِ عُمَر بنِ ٱلخطابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنهُ فَأَنْجبت مِنْهُ زَيداً ورُقيَّة.

آل البيت

لمَّا نَزلت ٱلآيَةُ ٱلْكَريمةُ:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33].

كَانَ ﷺ عِندَ أُمِّ سَلَمةَ فَدَعَا عَلِيًّا وفَاطِمَةَ وٱلحَسَنَ وٱلحُسينَ فغَطَّاهُمْ بِكِسَاءٍ ثُمَّ قال:

«اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً».

قالَها ثَلاثَ مرَّاتٍ ثُمَّ قالَ:

«اللهم اجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

حب النبي ﷺ لابنته الزهراء

تَمتَّعتِ ٱلزهراءُ بِحُبِّ أَبيها سَيِّدنا رَسولِ اللَّهِ ﷺ لَها، فَقَدْ كانَ يُحبُّها ويُغْدِقُ عَليها ٱلحنانَ الصادقَ الَّذي يَمْلأُ نَفْسَ ٱلابنةِ ٱلأَثيرَةِ وٱلجَديرَةِ بالحبِّ ٱلْكَبيرِ وَالرِّضى وٱلحُبورِ.

وكانَ النبي ﷺ يُترجِمُ عَن حُبِّهِ لابنَتِهِ ٱلْكَريمةِ في أَشدِّ ٱلمَواقفِ وأَدَقِّ ٱلأُمُور.

ومع هذا الحُبِّ فقد بَيَّنَ رسوله اللَّه ﷺ أنّه لا بدَّ من العمل والتَّزودُّ من التقوى.

فَلَقَدْ قَامَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ يَوْماً فَنادَى:

«يا مَعشرَ قُريشٍ، اشتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لا أُغْني عَنْكُم مِنَ اللَّهِ شَيئاً».

«يا بني عبدِ مَنافٍ، لا أُغْني عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيئاً».

«يا عَبَّاسُ بنُ عبدِ المُطَّلِبِ لا أغني عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيئاً».

«يا صَفِيةُ بنتُ عبدِ المُطَّلِبِ لا أغني عَنكِ مِنَ اللَّهِ شَيئاً».

«يَا فاطِمَةُ بنتُ مُحمدٍ سَلِيني مَا شِئتِ مِن مَالي لا أُغْني عَنكِ مِنَ اللَّهِ شيئاً» (1)

ومَرَّةً أُخْرَى يَسْتَشهدُ رسولُ اللَّهِ ﷺ بأَنَّ حُبَّهُ لِرَيْحانَتِهِ الحَبيبَةِ لا يمنعهُ مِنْ إقامَةِ حُدُودِ اللَّهِ بَينَ الناس، فَقدْ جاءَ في كُتبِ السيرَةِ أَنَّ امْرَأَةً مِن قُريشٍ قَدْ سَرَقَت، فَفَزِعَ قَوْمُها إلى أسامة بن زيدٍ حبِّ رَسولِ اللَّه وابنِ حِبِّهِ يَستَشْفِعُونَ بِهِ لَدَى رَسولِ اللَّه ﷺ.

وتَوَجَّهَ أُسامَةُ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ وكَلَّمَهُ مُسْتَشْفِعاً أَن لاَ يَقطعَ يَدَ المرأةِ السارِقَةِ، فَقالَ رَسولُ اللَّه ﷺ مُغْضَباً:

«أَتُكَلِّمني في حَدٍّ مِن حُدُودِ اللَّهِ!؟».

ثُمَّ قَامَ خَطِيباً في الناسِ فَأَثْنى عَلى اللَّهِ بما هُوَ أَهلُه ثُمَّ قالَ:

أمَّا بعد، فَإنَّما أَهلك الَّذينَ مِن قَبْلِكُمْ أَنَّهمْ كانُوا إذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّريفُ تَركوهُ، وإذا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعيفُ أَقامُوا عَليهِ الحَدَّ، والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ لَو أَنَّ فَاطِمَةَ بنتَ مُحمَّدٍ سَرقَت لَقَطَعتُ يَدَها.

وَلَقَدْ عَبَّرَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ حُبِّهِ لابنتِهِ الكَريمةِ السيدةِ فاطِمةَ حِينَ قالَ لَها مَرَّةً:

---

(1) رواه البخاري (4771) ومسلم (206) وأحمد (8410 ـ 8734/ 3) والنسائي في «الكبرى» (11377/ 6) والبيهقي في «السنن» (280/ 6) والبغوي في «شرح السنة» (3744) والترمذي (3184).

« يا فاطِمةُ إنَّ اللَّهَ يَرضَى لرضاكِ ويَغْضَبُ لِغَضَبكِ » .

ومَرَّةً قالَ رَسولُ اللَّه ﷺ :

« خَيْرُ نِساءِ ٱلْعَالَمينَ أَربَعٌ : مَريمُ وآسِيَةُ وخَديجةُ وفاطِمَةُ »[1] .

وعَن أَبي ثَعلبَةَ قالَ :

كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا قَدِمَ مِن غَزْوٍ أَوْ سَفَرٍ بَدأَ بالمَسْجِدِ فَيُصلِّي رَكْعَتينِ ثُمَّ يزور بنْتَهُ فاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عنها ثُمَّ يَأْتي أَزْوَاجَهُ رضوَان اللَّهِ عَلَيْهن .

وعن المسَوّر بنِ مَخرمةَ أنهُ قالَ :

سَمِعْتُ رسُولَ اللَّه ﷺ عَلى ٱلْمِنْبَرِ يقولُ :

« فَاطمةُ بَضْعةٌ مِنِّي يُؤْذِيني مَا آذاهَا ويريبُني مَا رابَها »[2] .

هَذِهِ هِيَ ٱلمَنزلةُ الرَّفِيعةُ التي وَصَلت إليْها ٱلمُسْلِمةُ الخالدةُ عِندَ رَسولِ اللَّهِ اللَّه وعِندَ زَوجِها ٱلإمامِ عَليٍّ بَلْ وَعِند سائِرِ ٱلمُسْلمينَ وٱلمُسلِمَاتِ .

رسالة المرأة المسلمة

ضَربَت لَنا السَّيدةُ فاطِمَةُ ٱلزهْرَاءُ مَثلاً أَعلَى في حَياتِهَا ٱلزَّوْجِيَّةِ . وفي حُسنِ علاقَاتِها مَعَ جَاراتِها وقَريباتِها ، وفي ٱلْقِيامِ برسَالةِ الأُمُومَةِ وتقديمِ التوجيهاتِ التَّربَويَّةِ ٱلإسلامِيَّةِ لأَولاَدِها ، وهَذا طبعاً مَعَ مُراعاةِ ٱلْواجِبَاتِ ٱلمَنْزلِيَّة التي لا تَكادُ تَنْتَهي ، وفي نَفسِ ٱلْوَقْتِ تَحرِصُ على رضوَان اللَّهِ وطَاعَتِهِ وطَاعةِ رَسولِهِ ، فَتُصلي الصَّلاةَ في وَقْتِهَا ، وتقَدِّمُ ٱلْكَثيرَ مِن جُهْدِها ومَالِها في سَبيلِ اللَّهِ ، وتَصْدُق ٱلحديث وتَتَخلَّقُ بأَخلاقِ رَسولِ اللَّه ﷺ .

وبذلِكَ كانَت قُدوةً صَالحةً للمَرأَةِ ٱلمُسلمةِ ٱلْفَقيهَةِ ٱلمُجاهِدَةِ ٱلمُربِّيةِ في كل زمانٍ ومكان .

تقولُ السيدةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنها .

---

(1) رواه الإمام أحمد (2668/ 1) والنسائي في «الكبرى» (8364/ 5) والحاكم (3/ 4852) وابن حبان (7010) .

(2) رواه البخاري (3767) .

«مَا رَأَيتُ أَحداً مِن خَلقِ اللَّهِ أَشْبَهَ حَديثاً ومَشياً برَسولِ اللَّهِ ﷺ مِن فَاطِمَة».

وتقولُ أَيْضاً:

«مَا رَأَيتُ أَفْضَلَ مِنْ فَاطِمَةَ».

وكانت السَّيدةُ فَاطِمَةُ إذَا دَخلَتْ عَلَى رَسولِ اللَّه ﷺ أَخَذَ بيَدِهَا وأَجْلَسَها بجوَارِهِ ورَحَّبَ بها أَجْمَلَ ترحيب.

حياة حافلة بالأحداث

مرَّت السَّيدةُ فاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْها بأَحداثٍ كَثيرةٍ ومُتَشَابكةٍ.

وعَلى سَبيلِ ٱلمِثالِ نَرى السَّيدةَ فَاطِمَةَ تُواجِهُ وَفاةَ أُخْتِها السَّيدة رُقيَّةَ زوجَة عُثمانَ بنَ عفَّانٍ وصَاحِبَةَ ٱلهِجْرَتَين فَتحزنُ ويشتدُّ حُزنُها.

وتَسمعُ بانتصارِ ٱلمُسْلِمينَ في غَزوةِ بَدرٍ ٱلْكُبْرَى، فَتُحسُّ بمشَاعِرِ ٱلْبهجَةِ والسُّرُور.

ولا شَكَّ أَن صَفحاتِ ٱلجِهادِ التي سَطَّرَها زَوْجُها ٱلإمامُ عَلي كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ كانَتْ تَجدُ مَكانَها الرَّحْبَ ٱلْفسيح في قَلبِ السَّيدةِ فاطِمَة.

وَكانَت رعايةُ رسولِ اللَّهِ ﷺ للحَسنِ والحُسين تَملأ نَفْسَها بالغِبْطَةِ وٱلارتياح.

ولكنّ ساعاتِ الصفَاء لا تَدُوم.

فهَا هِيَ ٱلمَنِيَّةُ تَخْتَطفُ أُختَها الثَانِيةَ زَينبَ رَضِي اللَّهُ عَنها في السَّنةِ الثامِنةِ لِلهجْرةِ ثُمَّ تَختَطِفُ أُختَها الثَّالِثةَ أُمَّ كلثوم رَضِيَ اللَّهُ عَنها في السَّنةِ التاسِعَةِ لِلهجْرَة.

ولكنَّها لاَ تَسْتَسْلِمُ لِلأَحزَانِ، إنَّها الصَّابرة ٱلمُصَابرَة ٱلمُرابطَةُ.

بعد حجة الوداع

وحَجَّ رَسولُ اللَّهِ ﷺ حَجَّةَ ٱلْوَدَاعِ، وأَرْسَى قَواعِدَ الإِسْلام، وأَكمل اللَّه الدين، ونزل عليه قوله تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ .

ثُمَّ مَرِضَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ، وسَمِعَت ٱلزهراءُ بِمَرضِ وَالِدِها ﷺ فَهرعَت لِتَوِّها لِتَطمَئِنَّ عَلَيْهِ فلمَّا دَخلَت عَلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ هَشَّ لَها وبَشَّ ثُمّ أَخَذَ بيَدِها فَأَجْلَسَها بجَانِبِه.

ثُمَّ أَسَرَّ ﷺ حَدِيثاً لَها فَبَكَتْ ثُمَّ أَسَرَّ لَها حَدِيثاً فَضحكت، فَقالت السَّيدةُ عائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْها:

« مَا رَأَيتُ كاليومِ فَرَحاً أَقرَبَ إلى ٱلحُزْنِ ».

ثُمَّ سَأَلَت:

« يا فاطمةُ أَخْبريني مَا ٱلَّذي جَعَلكِ تَضْحَكِينَ وتَبْكينَ؟ ».

وأَجابَت السيدَةُ فاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنها:

« ما كُنْتُ لأُفْشِيَ عَلى رَسولِ اللَّهِ سِرَّهُ ».

ولَكِن بَعْدَ وَفاةِ رَسولِ اللَّه ﷺ طَلَبَت مِنها السَّيدةُ عائِشَةُ أَن تُطْلِعَها عَلى مَا أَسرَّهُ لَها النبيُّ ﷺ فَقالَت لَها:

قَالَ لي رَسولُ ﷺ:

« إنَّ جِبْريلَ كانَ يُدارسُني ٱلْقُرآنَ في كُلِّ سَنَة مَرَّة وإنَّهُ دَارَسَني هَذا ٱلْعَامَ مَرَّتَين ومَا أَراهُ إلا قَدْ حَضَرَ أَجَلي ».

قَالَت: فَبَكيتُ.

ثُمَّ قالَ لي: « وإنَّكِ أَوَّل أَهلي لُحوقاً بي ونِعمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ » فَضَحِكتُ(1).

وٱشْتَدَّ ٱلْوَجَعُ عَلَى رَسولِ اللَّهِ ﷺ فاشتد حُزنُ السيِّدة فَاطِمة عَلى أَجَلِّ ٱلآباءِ وأَكْرم ٱلأنبياء.

ثم ٱنتقلَ ٱلرسولُ ﷺ إلى ٱلرفيقِ ٱلأَعلى فما كانَ مِنَ السَّيدةِ فاطمةَ إلا أَنْ رَدَّدَت في أَسًى ولَوعَةٍ:

أَبتاهُ يا أبتاهُ يا أَبتاهْ.

---

(1) رواه البخاري (3623 ـ 3626) ومسلم (2450) وغيرهما.

أَجابَ رباً دعاهُ.

إلى جِبريلَ ننعَاهُ.

جَنَّةُ ٱلْفِرْدُوْس مَأْوَاهُ.

مِنْ رَبِّهِ ما أدْناهُ[1].

وفَاضَ ٱلحُزنُ بالزَّهراء فَجعلت تَبكِي بُكاءً مُرًّا. وحَزنَ الإمامُ عَلي حُزْناً مَريراً، وهُوَ يَرى نَبيَّهُ ٱلْكريمَ وابنَ عمِّهِ ٱلحَبيبِ وَوالدَ زَوْجَتِهِ ٱلْكريمةِ يَنْتَقِلُ إلى ٱلرَّفيق ٱلأَعلَى فَبكاهُ بُكاءً حَارًّا ثُمَّ رَثَاهُ قائلاً.

«بأَبي أنتَ وأُمِّي يا رَسولَ اللَّهِ، لَقد ٱنقطعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِموتِ غَيْرِكَ مِنَ ٱلأَنْبيَاء، وأَخْبارِ السَّمَاء، خُصِصْتَ حَتَّى صِرتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِواكَ، وعَمَمتَ حَتّى صَارَ الناسُ فِيكَ سَواء. ولَولا أنَّك أمَرْتَ بالصبّر، ونَهيتَ عن ٱلجَزَعِ، لأَنْفَدنَا عَليكَ مَاءَ الشُّؤُونِ، ولَكان الدَّاءُ مُماطِلاً، وٱلْكَمدُ مُحالِفاً،

---

(1) روى البخاري (4462)، من حديث أنس رضي اللَّه عنه، قال: لمَّا ثَقُل النبيّ ﷺ جعل يتغشاه فقالت فاطمة عليها السلام:
واكرب أباه!
فقال لها ﷺ: «ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم».
فلمَّا مات قالت:
يا أبتاه، أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه من جنَّة الفردوس مأواه. يا أبتاه إلى جبريل ننعاه.
فلمَّا دفن قالت فاطمة عليها السَّلام:
أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول اللَّه ﷺ التُّراب؟
قال في «الفتح» (8/ 498 ـ 499): وأشارت عليها السلام بذلك إلى عتابها على إقدامهم على ذلك، لأنه يدلُ على خلاف ما عرفته منهم من رقة قلوبهم عليه لشدة محبتهم له. وسكت أنس عن جوابها رعاية لها، ولسان حاله يقول: لم تطب أنفسنا بذلك. إلاَّ أنا قهرنا أنفسنا على فعله امتثالاً لأمره ﷺ.
قال: ويُستفاد من الحديث جواز التوجع للميت عند احتضاره بمثل قول فاطمة عليها السلام: واكرباه... وأبتاه... وأنه ليس من النياحة، لأنه ﷺ أقرها على ذلك. وأما قولها بعد أن قُبض ﷺ: وأبتاه... الخ، فيؤخذ منه؛ أن تلك الألفاظ إذا كان الميتُ مُتصفاً بها لا يمنع ذكره لها بعد موته، بخلاف ما إذا كانت فيه ظاهراً، وهو في الباطن بخلافه، أو لا يتحقق اتصافه بها، فيدخل في المنع. اهـ مختصراً. واللَّه تعالى أعلم.

وقَلاّ لَكَ، ولكِنَّهُ مَا لا يُملَكُ رَدُّهُ، ولا يُستَطاعُ دفعهُ! بأَبي أنْتَ وأُمِّي ٱذْكُرنا عِنْدَ رَبِّكَ وٱجْعَلْنا مِن بَالِكَ».

وبكَت ٱلزَّهراءُ، بَلْ وبكَى ٱلمُسْلِمُونَ جَمِيعاً نَبيَّهُم وَرسُولَهُم مُحمَّداً ﷺ وذَكَرُوا قولَ اللَّهِ تَبارك وتَعالَى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: 144].

وَقَوْلَه سُبْحَانَهُ:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: 34].

وفاة السيدة فاطمة

بَشَّرَ ٱلرسولُ ﷺ ٱبنَتَهُ ٱلزهراءَ بأَنّها أوّلُ أهلِهِ لُحوقاً بِهِ. وقَدْ وَجَدَتْ في هَذِهِ ٱلْبُشْرَى بَعضَ السَّلْوى.

ومَضَت ٱلأيَامُ بالزهراءِ وهِيَ تُشْرِفُ عَلَى بَيْتِها وتَرعى شُؤُونَ زَوْجِها وتُكمِلُ رِسَالَتَهَا نَحوَ أولادِها.

ومَضَى عَلَى وفاةِ رَسولِ اللَّه ﷺ حَوالَيْ سِتَّةِ أشْهُرٍ ثُمَّ مَرضَت ٱلزَّهراءُ. وٱنْتَقَلت السَّيدةُ فاطمة إلى جوارِ ربها[1].

وصَعِدَت رُوحُها الطَّاهِرَةُ إلَى بَارِئِها حَيثُ ٱلْتَقَت بروحِ أبيهَا وأمِّها وأخَواتِها في عِلِّيِّينَ. وحَلَّقَت مَعَ أرْوَاحِ ٱلنَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداء في ٱلمَلأ ٱلأعْلَى.

وصلّى عَليهَا زَوْجُها الإمامُ عليٌّ هُوَ والعَبَّاسُ رَضِيَ اللَّه عَنْهما ثُمَّ دُفِنَتْ في ٱلْبَقيع في لَيلةِ الثلاثاء لِثَلاثٍ خَلَوْنَ مِن شَهرِ رَمضانَ سَنةَ إحْدَى عَشرَةَ لِلهِجْرَةِ[2] وهِيَ ٱبنةُ تِسعٍ وعِشرينَ سَنَةً.

رَحِمَ اللَّهُ الزَّهراء، رَيحانةَ سَيِّدِ ٱلأنبياءِ، وزَوْجَةَ إمامِ ٱلأتقياء، وأمَّ ٱلحَسَنِ وٱلحُسينِ أبي الشُّهَداء، وأمَّ زَينب بطلَةِ كَرْبَلاء.

---

(1) رواه الطبراني في «الكبير» (22/ 989) «وابن سعد في طبقاته» (8/ 29).

(2) رواه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 452) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 369) وابن حجر في «الإصابة» (8/ 160) وابن سعد في «طبقاته» (8/ 29 ـ 30).



حفيدات الرسول ﷺ

السيدة زينب

بنت علي بن أبي طالب

رضي اللَّه عنها[1]

قال اللَّهُ تعالى:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: 128، 129].

ووقفت **زينب** ـ رضي اللَّه عنها ـ على قبر جَدّها المصطفى ﷺ بعد استشهاد أخيها الحسين ـ عليه السلام ـ فأنشَدَت باكيةً:

ماذا تقولون إن قالَ النبيُّ لكم ... ماذا فعلتُمْ وأنتُم آخر الأُمَم

بِعِتْرتي وبأهلي بعد مُفْتَقدي ... مِنهُم أسارى وقَتْلى ضُرِّجوا بِدَمِ

ما كانَ هذا جزائي إذ نَصَحْتُ لكُم ... أَنْ تخلفوني بسوءٍ في ذوي رحمي

نَسَبُها

هي: زَيْنَبُ بنت عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وأمها: فاطمة بنت رسُول اللَّه ﷺ.

ولادتها ونَشْأَتُها

وُلِدَتْ رضي اللَّه عنها ـ قَبْل خمس سنواتٍ من وفاة جدّها المصطفى ﷺ وسُمّيَتْ **زَيْنَب** تيمُّناً باسم خالتها **زينب** بنت رسُول اللَّه ﷺ. وَوَجَدَت من جَدّها ﷺ حناناً بالغاً، وعطفاً شديداً وحُبّاً كبيراً، هي وأخواها **الحسنُ والحسيْن** ـ رضي اللَّه عنهما.

---

(1) ترجم له ابن سعد في «طبقاته» (8/ 465) وابن حجر في «الإصابة» (8/ 100) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 300).

فقد كان ﷺ يضمُّهُم مع أُمّهم **فاطمة** في ردائه ويقول:

ـ هؤلاء هُمْ أَهْل بَيْتي وعترتي.

دَرَجَتْ في بَيْت **علي بن أبي طالب**، ونشأت وتَرَعْرَعت في حِجْر **فاطمة بنت محمد** فتغذت بالخُلقِ الرفيع، والسجايا والخلال الحميدة، وتأصّل في وجدانها الإيمانُ العميق، والجرأة في قولِ الحق، والصلابة في الرأي، إلى جانب العلْم الغزير والفضل الوفير.

زواجـــهـــا

ولم تكد تبلغ السادسة من عُمْرها حتى فُجِعَتْ على التوالي بفقد الجدّ الحبيب والنبيّ الكريم، صلوات اللّه وسلامه عليه، ثُمّ بأمّها **فاطمة البتول**، الزهراء ـ رضي اللّه عنها ـ.

فعاشَتْ في بيت أبيها **عليّ** كرّم اللّه وجهه مع أخويها السيديْن العظيمين، حتى أصبَحَتْ فتاةً، ناضجة الأنوثة، يتمناها كُبراء وعظماء أبناء المسلمين، لكن **علياً** ـ رضي اللّه عنه ـ اختار لها ابن أخيه **عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب**[1].

فَوَلَدَتْ له على التّوالي: محمداً، وعليّاً، وعبّاساً، وأم كلثوم، وعَوْناً الأكبر[2].

وكان **عبد اللّه** ـ رضي اللّه عنه ـ أوّل مَوْلودٍ للمسلمين المهاجرين في أرض الحبشة، فكان مَصْدَر خَيْر، وبُشرى فَرْحَةٍ وعِزّ.

وعُرِفَ عنه أنّه كان جواداً كريماً سخيّاً حتّى لُقِّب بِـ **بَحْرِ الجود**، وللشعراء في مَدْح كرمِهِ قصائِدُ غُرَر.

---

(1) ذكره ابن سعد في «طبقاته» (8/ 465).

(2) ذكره ابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 300).

أمامَةُ

حفيدة رسول اللّه ﷺ(1)

قال اللّه تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33].

وقال رسُولُ اللّهِ ﷺ:

اللهُمَّ هذا قَسَمي فيما أَمْلِك، فلا تؤاخذْني فيما تمْلك ولا أَمْلِك.

تَـوْطِـئـة

أُمامة ـ رضي اللّه عنها ـ ثمرةُ حُبٍّ كبيرة، تجلَّتْ فيه العواطف السامية والقلوبُ الكبيرة، وترفّعتِ النفوسُ المؤمنة عن الدنايا والصغائر، وسَمَتْ عن سَفْساف المفهوم الحيوانيّ للحُبّ والعلائق الجسديّة.

ففي قِصَّةِ أمّها **زينب** عليها السلام مع زَوْجها **أبي العاص بن الربيع** قَبْل الهجرة وَبَعْدَها دلالات واضحاتٌ على ما قدَّمنا وأَسْلَفْنا.

وفي التطوراتِ والأَحْداث بعد ذلك مواقف وأحكام، تبقى على الدَّهْر مَنهَجاً ومَعْلَماً لكُلّ مُسْلم يستهديهما في شؤون حياتِهِ وواقعه.

كما أَنَّ صاحب القلْب الكبير الذي خاطبه ربُّهُ بقوله:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159].

وقوله أَيضاً: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

---

(1) ترجم لها ابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 217) وابن حجر في «الإصابة» (8/ 15) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 351).

وقولـه جَـلَّ جـلالـه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

صاحِبَ القلْب الكبير ﷺ يَرْتفع ويرتَفِعُ في جَوِّ الأحداث، أحداث القصة، وفوقها إلى أعلى عِلِّيِّين.

نَسَبُها وولادتُها

هي: أُمامة بنت أبي العاص بن الربيع بن عبد العُزّى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصَيّ.

وأُمّـهـا: زيـنـب بـنـت أَشْرف الـخـلـق مـحـمـد ﷺ بـن عـبـد الـلّٰه بـن عبد المطلب بن هاشم.

وُلِدَتْ سنة ثمانٍ من الهجرة.

ومما تَجْدُرُ الإشارة إليه أَنْ نعرض بشيء من التفصيل لقِصَّة **أبي العاص** و**زينب** تمْهيداً للحديث عن **أُمامة** ـ رضي اللّٰه عنها ـ حفيدة النبي المصطفى ﷺ.

وُلِدَتْ **زينب**[1] ـ رضي اللّٰه عنها ـ في سنةِ ثلاثين من مولد أبيها ﷺ، فلمّا تَرَعْرَعَتْ وبلغتْ سِنّ الزواج طلبتها **هالة بنت خُويلد** من أُخْتها **خديجة بنت خويلد** لابنها **أبي العاص بن الربيع** وكان من شباب **مكة** المعدودين مالاً وأمانةً وتجارة. فَزَوّجها رسُول اللّٰه ﷺ لِـ **أبي العاص** قَبْل أن ينزل عليه الوحي.

ولما نَزَل عليه الوحي ﷺ، دعا **أبا العاص** إلى الإسلام فأبى وثبت على شِرْكه، ودخلت زوجته **زينب** ـ رضي اللّٰه عنها ـ في دين اللّٰه، فأقامت على إسلامها وَهُوَ على شِرْكه، حتى هاجر رسُول اللّٰه ﷺ؛ وبقيت **زينب** مع زوجها في **مكة**.

فلمّا سارت قريش إلى **بَدْرٍ** سار فيهم **أبو العاص** فأُصيب في الأسْرى يوم **بَدْر**، وكان بالمدينة عند رسُول اللّٰه ﷺ.

ولما بَعَثَ أهل **مكّة** في فداء أَسْراهم، بعثت **زينب** ـ رضي اللّٰه عنها ـ

(1) أعلام النساء (عمر رضا كحالة) ج (2) ص107.

في فداء زوجها **أبي العاص** بمالٍ، وبعثت فيه بقلادةٍ لها كانت أُمُّها **خديجة** ـ رضي اللَّه عنها ـ قد أَدْخلتْها بها على **أبي العاص** حين بنى عليها.

فلما رآها رسُول اللَّه ﷺ رقّ لها رِقّةً شديدة وقال:

ـ إِنْ رأَيْتُم أَنْ تُطْلِقُوا لها أسيرها وتردُّوا عليْها الذي لها فَاْفعلوا!!؟

فقالوا:

ـ نعم، يا رسُول اللَّه.

فأطلقوه وردوا عليْها الذي لها.

وأَخَذَ رسُول اللَّه ﷺ على **أبي العاص** وَعْداً بِأَنْ يُخلي سبيل **زينب** إليه؛ فلمّا خُلِّي سبيل **أبي العاص** وَخَرَجَ إلى **مكّة**، بعث رسُول اللَّه ﷺ **زيد بن حارثة** ورجُلاً من الأَنْصار، وقال لهما:

ـ كُونا ببطن يأْجَج[1] حتى تمُرَّ **زينب** فَتَصْحباها حتى تأْتياني بها.

فخرجا، وكان ذلك بعد غزوة **بَدْر** بِشَهْرٍ.

وحين وَصَلَ **أبو العاص** إلى **مكة** أمر **زينب** باللحوق بأَبيها؛ فبدأت تجهّز نفسها؛ وبينما هي على ذلك جاءتها **هند بنت عُتبة** زوجة **أَبي سُفْيان** فقالت لها:

ـ أي ابْنَةَ **محمد** ـ أَلَمْ يبلغْني أَنّك تريدين اللحوق بأبيك؟!

فقالت **زينب** ـ في وَجَلٍ وخَوْف ـ:

ـ ما أردْت ذلك...

فقالت لها **هند**:

ـ أي ابنة عمّي لا تغْلي إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سَفَرك أَوْ بمالٍ تبلغين به إلى أَبيك فإن عندي حاجتك، فلَا تضطنئي[2] مِنّي، فإِنّه لا يدخل بين النساء ما يدخُلُ بيْنَ الرجال.

وهنا نترك الحديث لِـ **زينب** ـ رضي اللَّه عنها ـ؛

تقول **زينب** عن حديثها مع **هِنْد**:

ـ واللَّه ما أراها قالت ذلك إلاّ لِتَفْعل...

---

(1) وادٍ على بُعْد ثمانية أميالٍ من مكة.

(2) أي تستحي.

ولكنّي خِفْتُها فأنكرْتُ أَنْ أكون أُريد ذلك وتجهّزتْ.

فلمّا فَرغَتْ من جهازها، قدَّم لها أَخُو زوجها **كنانة بن الربيع** بعيراً فركبَتْه؛ وأَخَذَ قوْسه وكنانته، ثُمّ خَرَج بها نهاراً يقُودُ بها وهي في هَوْدَجٍ لها.

وتحَدَّث بذلك رجالُ قريْش، فهاجوا وماجوا، ثم خَرَجوا في طلبها حتى أدركوها بـِ **ذي طُوى**، فكان أوّل من سَبَق إليها رجُلٌ يُدْعى **هَبّار بن الأسود** وآخر يُدْعى **نافع بن عبد القيْس**. . . ، فَرَوَّعَها **هَبّار** بالرُّمْح وهي في هَوْدجها؛ وكانَتْ **زينب** في أَوّل حَمْلٍ لها. . . فخافَتْ خَوْفاً شديداً وطرحت ونَزَفَتْ. . ، فَبَرَك **كنانة بن الربيع** وَنَثَرَ كنانَتَهُ وقال:

ـ واللَّه لا يَدْنو مني رَجُل إلا وَضَعْتُ فيه سَهْماً. .

فَتَكَرْكَرَ[1] الناس عنه.

فأتاهُ **أَبُو سُفْيان** في جُلَّةِ قريْش وقال له:

ـ أيها الرَّجُل كُفَّ عنّا نَبْلك حتى نُكَلِّمك. . .

فكَفَّ، فأقبل **أبو سفيان** عليه وقال له:

ـ إنّك لم تُصِبْ إذْ خَرَجْتَ بالمرأة على رؤوس الرجال علانيةً من بيْن أَظْهُرِنا، حتى ليُقال أَنَّ ذلك عن ذُلٍّ أصابنا وأَنّه ضُعْف مِنّا وَوَهَن. . .

ولَعَمْري ما لنا حاجةٌ في حَبْسها عن أَبيها، وما لنا في ذلك من ثُؤْرة، ولكن ارْجِع بالمرأة، حتى إذا هدأت الأصوات وتحدَّث الناس أَنْ قد ردَدْناها، فَسُلَّها سرّاً وأَلْحِقْها بأَبيها؛

فَفَعل.

فأقامت **زينب** ـ رضي اللَّه عنها ـ ليالي، حتى إذا هدأت الأصواتُ خَرَج بها ليْلاً حتّى أَسْلمها إلى **زيْد** وصاحبه في بَطْن يأْجج، فقدما بها على رسُول اللَّه ﷺ، فأقامت عند أبيها، وأقام **أبو العاص** في مكة، وقد فرَّق بينهما الإِسلام.

حتى إذا كان قُبيْل الفتح فَتْح مكة خَرَج **أبو العاص** تاجراً إلى الشام بمالٍ له وأموال رجال من قريش أَبْضعوها معه، فلما فرغ من تجارته وأَقْبل قافلاً

---

(1) أي تراجعوا.

إلى **مكة** لقيته سريّةُ رسُول اللّه ﷺ فأصابوا ما معه، وأَعْجَزَهُم هَرَباً. . .

فلمّا قدمت السَّريَّةُ بما أصابوا من ماله، أَقْبل **أبو العاص** تَحْت جُنْح الليْل حتى دَخَلَ على **زيْنب** رضي اللّه عنها ـ فٱستجار بها فأَجارتْه في طَلَبِ مالِهِ.

فلمّا خَرَجَ رسُول اللّه ﷺ لصلاةِ الفجر، فكبّر وكبَّر الناس معه، صَرَخَتْ **زيْنب** من صُفَّةِ النساء:

ـ أَيُّها الناس إنّي قد أَجَرْت **أبا العاص بن الربيع**. . .

فلمّا سلَّم رسُول اللّه ﷺ من الصلاة أَقْبَلَ على الناس فقال:

ـ أيها الناس هل سَمِعْتُم ما سَمِعْتُ؟

قالوا:

ـ نَعَمْ. . .

قال:

ـ أَما والّذي نفس **محمد** بيده ما علمتُ بشيْءٍ حتى سَمِعْت مثل ما سمعتم. . .،

ثم أضاف:

ـ إنَّهُ يُجير على المسلمين أدناهم.

ثم انصرف ﷺ فَدَخَلَ على ابنته **زينب** فقال لها:

ـ أَيْ بُنَيَّة. . . أكرمي مثواه، ولا يخلص إليْك، فإنك لا تحلّين له ما دام مُشْرِكاً.

وبعث رسُولُ اللّه ﷺ إلى السَّريَّة الذين أصابوا مالَ **أبي العاص** فقال لهم:

ـ إنَّ هذا الرجل مِنّا حيث قد علمتم، وقد أصبْتم له مالاً، فإن تُحْسنوا وتردوا عليه الذي له، فإنّا نحبّ ذلك، وإنْ أبيتُم فهُو فَيْء اللّه الذي أفاء عليكم، فأنتم أَحَقّ به. . .

فقالوا: يا رسُول اللّه بل نردّه عليه، فردُّوه عليه.

فاحتمله **أبو العاص** إلى **مكة** فأدى إلى كُلّ ذي مالٍ من قريْشٍ ماله، ومن كان أَبْضَعَ معه. . .

ثم قال للناس:

ـ يا معشر قريش. . . هل بقي لِأَحَدٍ منكم عندي مالٌ لم يأخذه؟

قالوا:

ـ لا . . . فجزاك اللَّه خَيْراً، فقد وجدْناك وفيّاً كريماً . . .

قال:

ـ فأنا أَشْهَد أن لا إِلٰهَ إِلاّ اللَّه، وأَنَّ محمداً رسُول اللَّه، واللَّه ما منعني من الإِسلام عنده إلاّ تخوُّف أَنْ تَظُنُّوا أني إنما أردْتُ أَنْ آكُل أموالكم، فلمّا أَدَّها اللَّه إِليْكم وفرغْت منها أسلمْت . . .

ثُمَّ خَرَج حتى قدِم على رسُول اللَّه ﷺ، فرَدَّ ﷺ لهُ زَوْجته **زينب** ـ رضي اللَّه عنها ـ على النكاحِ الأوّل، ولم يُحَدِث شيئاً.

ثَمرةُ الإِسلام والْحُبّ

وتُطِلُّ علينا **أُمامة** . . .

تُطِلُّ عَلَيْنا مولودةً صغيرة، وأُمُّها على فراشِ المرض، تُعاني من حُمّى شديدة، ثُمَّ ما تَلْبَثُ أَنْ يتوفّاها اللَّه تعالى إِليْه . . .

ولقد حَزِنَ رسُول اللَّه ﷺ على **زيْنَب** حُزْناً بالغاً، فهي كُبْرى بناتِهِ من **خديجة**، ولقد قيل إنها أَكْثَرُ أَخواتها شبهاً بأُمِّها؛ لذا كانَتْ في صُورَتِها وهيئتها وحركاتها تذكّره ﷺ بِأَحَبِّ أزواجِهِ إلى قلْبه، تلك السيِّدة العاقلة الناضجة، المؤمنة الصالحة، التي واستْه بنفسها ومالها، والتي تثبتَتْه وشَدَّت من عزيمته وقوَّتْ مِنْ يقينِهِ بربِّه . . .

ولقد سَبَقَ **زينب** إلى جوار اللَّه أُخْتَيْها **رُقَيَّة** و**أُمّ كُلْثوم** . . .، فتَرْكن في قَلْبِ أبيهنّ المصطفى ﷺ نُدوباً وحُزْناً، وقد ٱحتسبهنَّ عند اللَّه تعالى . . . الذي لا تضيعُ لديْه الأَمَانات؛ فلِلَّه ما أعطى ولِلَّه ما أَخَذَ وكُلّ شيءٍ عنده بمقدار.

أما **زينب** ـ رضي اللَّه عنها ـ فَقَدْ خَلَّفتْ من ورائها زهرةً، مطبَّقة الأَكْمام، يكادُ أَرِيجُها يبدو ويَظْهر ويتسَلَّل إلى قلب النبي ﷺ، ليرتسم من ثَمَّ على ثغره الشريف بسمة أَمَلٍ كُلّما رأى **أُمامة**، ودُعابةً طيِّبة وكلمة حُلْوةً كُلّما احتضنها في حِجْره، أَوْ أَخَذَها على عاتقه . . .

لِلَّه أَنْت يا سيدي يا رسُول اللَّه، يا سيِّد الخلْق وحبيب الحق، بك

تَشْرُف الأُبُوّة، وبك يتعاظم الحنان، ومنك يَسْتَقي نَبْع المحبَّةِ، وفي قلبك الكبير تتأصّل معاني العَطْف . . .

يُروى أنَّه ﷺ كان يَأْخُذُ **أُمامَةَ** على عاتِقِهِ وهُوَ يؤدّي صلاتَهُ، يرفعها إذا قام، ويمسك بها إذا وضَعَ راكعاً أَوْ ساجداً، وهكذا حتى يَفْرُغ من صلاته.

روى ذلك أكثر من مَصْدر، وتحدَّثت عن ذلك أكثر من جهة والكُلّ يروي بإكبارِ وإعجاب سُمُوَّ النبيِّ ﷺ ورقّته وحنانَهُ في معاملتِهِ لـ **أُمامة** ـ حفيدته ـ.

كيف لا وهو الذي تنزَّل عليه وَحْي اللَّه تعالى يخاطِبُهُ بِهِ:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: 6 ـ 9].

كيْف لا . . . وَهُو القائل في الحديث الشريف: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين . . .»[1] ثم قرن أُصبعيْه السّبابة والوسْطى.

الشَّابة والفتاة الناضِجَة

ولحق جدُّها المصطفى ﷺ بالرَّفيقِ الأَعْلى . . .

جدّها الذي دَخَلَ ذاتَ يَوْمٍ على أَهْلِ بيْتِهِ وقد جاءتْه هدية من النجاشيّ ـ ملك الحبشة ـ.

ـ قلادة من جزع[*] ـ، فقال لهُنّ، وهي في يدِهِ:

ـ لأَدْفعنَّها إلى أَحَبِّ أهلي إليّ.

فَقُلْن فيما بَيْنهن:

ـ ذَهَبَتْ بها **ابنة أبي قُحافة** . . .

أي **عائشة** ـ رضي اللَّه عنها ـ، لأنها كما هُوَ مَشْهُورٌ ومعلوم، كانت آثَرُ[2] نسائِهِ عنده ﷺ وأحبهنّ إلى قلبِهِ بعد **خديجة** ـ رضي اللَّه تعالى عَنْهُنَّ جميعاً ـ . . .

---

(1) الحديث بتمامه رواه البخاري في كتاب «الطلاق» (5304) من طريق سهل ابن سعد رضي اللَّه عنه وهو عند مسلم برقم (2983) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه بلفظ قريب.

(*) الجزع: ضرب من الخرز وقيل هو الخرز اليماني.

(2) لقد كان «عليه الصلاة والسلام» يقول في صَدَد ذلك: [اللَّهُمَّ هذا قسمي فيما أَمْلك ـ (أي القسمة الماديّة بين الزوجات) ـ فلا تُؤاخذْني فيما تَمْلِك ولا أملك ـ (أيْ عواطف القلوب ومَيْلها) ـ].

لكنه ﷺ لم يَعْطها إحداهُنَّ، ولا عائشة ـ. ، ثُمّ نادى **أُمامة** حفيدته، وكانَتْ لا تزال طفلة صغيرة، فأَعْلَقَها في عُنُقِها. . . ، وكان على إحدى عَيْنَيْ **أُمامة** غَمَصٌ فَمَسَحَهُ بيده الشريفة[1].

لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى. . .

فانْقطعت أَخْبارُ **أُمامَةَ** عَنّا تماماً. . . ، لا ندري أَيْن أَقامت؟ وفي كَنَفِ مَنْ عاشت؟ ولا من كَفلها بعد جَدِّها. . .؟

حتى تفاجئنا روايات التاريخ ومصادره بِأَنَّ **علياً** ـ رضي اللَّه عَنْه ـ تزوَّجها بعد وفاة **فاطمة** ـ رضي اللَّه عنها ـ، وأَنَّ هذا الزواج كان أَوَّل زواج لها. . .

ويبدو أَنَّ زواج **عليّ** مِنْها لم يكن بعدوفاة **فاطمة** مباشرة، لِأَنها حَسب تاريخ ولادتها لم تكن مُؤَهّلة لِسِنّ الزواج؛ وأَنّ ذلك قد تَأَخَّر بعض الوقْت. . .

ويَبْدو أَيْضاً أَنّ **أُمامَةَ** ـ رضي اللَّه عنها ـ قد أَلِفَتْ بعد وفاةِ جدِّها المصطفى ﷺ بَيْت خالتها **فاطمة**؛ فكانت تكِنُّ فيه وتحِنُّ إليْه، وتَشْعُرُ بدفءِ حنان الأُمومة في كلماتِ **فاطمة** ـ رضي اللَّه عنها ـ وحُسْن معاملتها، ومواصلتها لها. . .

ويبدو كذلك أَنَّها في كُعُوبها ونُضُوجها وأُنوثتها، وفُقْدان العائل. . . ، قد بات من الشهامة والوفاء أن يقترن بها **عليٌّ** ـ كرَّم اللَّه وجهه ـ. . .

ولكن مِمَّن يخطبها. . .؟

تقول بعض الروايات بأَنَّ أباها **أبا العاص بن الربيع** قد وصّى بها **الزُّبَيْر بن العوّام** ـ رضي اللَّه عَنْه ـ؛ لذا خطبها **عليٌّ** من **الزُّبَيْر** وليّها. . .

في بيتِ عليٍّ ـ كرَّم اللَّه وجْهَهُ ـ

رافَقَتْ **أُمامة** ـ رضي اللَّه عنها ـ **علياً** ـ كرَّم اللَّه وَجْهه ـ في أَشَدِّ فترات حياتِهِ حَرَجاً، وذلك في أَثناءِ مَوْجات الْفِتَنِ العاتية التي عَصفَتْ بحياة المسلمين السياسيَّة، من مَقْتل **عثمان** ـ رضي اللَّه عنه ـ واستشهاده؛ ثُمّ معركة **الجمل**، وبعدها **صفّين**، ثم استشهاد **عليّ** ـ كَرَّم اللَّه وَجْهَهُ ـ على يد أَحَدِ

---

(1) رواه ابن حجر في «الإصابة» (8/ 14) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 217 ـ 218).

الخوارج في **الكوفة** ـ عاصمة الدولة الإِسلامية في أثناء خلافته.

وكانت ـ رضي اللَّه عنها ـ نِعْم الزَّوْجة الصالحة، من حَيْث الطّاعة والتَّدْبير وحُسْن الْعِشْرة، رُغْمَ أَنَّها كانَتْ على علاقاتٍ أُسَرِيَّةٍ وٱجتماعيّةٍ بالَّذِين خاصمُوا **عليّاً** وعارضوه، فكانَتْ لا تُعير ٱعتباراً إِلاّ لما هِيَ عليْه من وَضْعٍ يقتضي منها خُلاصَةَ وجدانها ومحبتها وعاطفتها.

التَّـأَيُّـم

كأَنَّه قَدْ كُتِبَ على **أُمامة** أَنْ لا تَخْرج من حزْنٍ حتى تدخُل في آخر، وأَنْ لا تَنْتَهي من مِحْنةٍ حتى تعيش أُخْرى...، وهكذا المؤمن ـ عزيزي القارئ ـ، مُبْتلى دائماً، لأن الصَّبْر على لَأْواءِ المِحَن محكُّ الإِيمان ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ [العنكبوت: 3].

فكانت ـ رضي اللَّه عنها ـ تتلقّى كُلّ ذلك بقلْبٍ مُسْتَسْلِم لقضاء اللَّه وقدره...، وها هي الآن تَدْخل تجربةً جديدة...،

لقد خَرَج زوجُها أمير المؤمنين **علي بن أبي طالب** ـ كرَّم اللَّه وَجْهَهُ ـ ليؤدي بالمسلمين صلاة الفجْر، فإذا بالخارجيّ **عبد الرحمن بن مُلْجِم** يَطْعنه بخنجرٍ مَسْموم...، فيُنْقل إلى بيْته وهُوَ يُعاني سكرات الموْت.

فٱجتمع أَهْله حَوْله في بكاءٍ وحُزْنٍ وتَضَرُّع؛ وأقامَتْ **أُمامةُ** عند رأْسِهِ دامعة العيْن مُنكسرة القلْب، صابرةً مُحْتسبة...

ثم فَتَح عينيْه ـ رضي اللَّه عنه ـ ونظر إلى الجميع وأعطى لكُلٍّ وصيّته ونصيحَتهُ، وكان مما قالَهُ لِـ **أُمامة**:

ـ إِنّي لا آمن أَنْ يخطبك معاوية بن أبي سُفْيان، فإن كان لَكِ في الرجال حاجةً فقد رضيتُ لك **المغيرة بن نوفل**(1) عشيراً.

وقضى **عليٌّ** ـ كرَّم اللَّه وَجْهَه ـ، وصعدت روحه إلى بارئها...، وتأيّمت **أُمامة** ـ رضي اللَّه عنها ـ، فقالت **أُمُّ الهيْثم النخعيّة** التي كانت شاهدةً

---

(1) هو: المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب بن هاشم.

على الوفاة، وما لحق بـ **أُمامة** من الحزن والأسى:

أَشابَ ذوائبي وأَذَلَّ رَكْبي **أمامة** حين فارقتِ القرينا
تطيف به لحاجتها إليه فلمّا استيْأست رفعت رهينا

عِنْد المغيرة

ولقد كانت توقُّعاتُ **عليّ** ـ رضي اللَّه عنه ـ في مَحَلِّها، حَسْب ما جاء في بعض الروايات، من أَنّ **معاوية بن أبي سُفيان** كتب إلى **مروان بن الحكم** ـ واليه على المدينة ـ يأْمُره أَنْ يخطب لهُ **أُمامة**، ويبْذُلَ لها مائة ألف دينار؛ وكانت قد انقضَتْ عدّتها؛ وبناءً على وصيّة **عليّ** ـ رضي اللَّه عنه ـ؛ أَرْسَلَتْ إلى **المغيرة بن نَوْفَل** تَقُولُ له:

ـ إن هذا، يعني **معاوية** قد أَرْسل يخطبني فإن كان لَكَ بنا حاجة فَأَقْبِل.

ويبدو من صيغة الرواية أَنَّ **المغيرة** كان يقيم خارج المدينة، وأَنَّه كان يَرْغَبُ في **أُمامة**.

فبادَرَ إِلَيْها وهُوَ يقول: تَزَوَّجْتُك...

وفي روايةٍ أَنَّهُ لم يخطبْها إلى نَفْسها، بل خطبها من **الحسن بن عليّ** ـ رضي اللَّه عنه ـ فَزَوَّجَها إِياه؛ وهذه الرواية بعيدةٌ في نظرنا عن الواقع والحقيقة لأنه لا ولاية لِـ **الحسن** ـ رضي اللَّه عَنه ـ عليْها؛ إلاّ أَنْ تكون هي قد أَوْلَتْهُ ذلك.

تَزَوَّجَتْ ـ رضي اللَّه عنها ـ من **المغيرة بن نَوْفَل**، وأَقامَتْ عنده، وظلَّتْ كما عَهِدناها من قَبْل في عِشْرة **عليّ**، الزَّوْجَةَ الصّالِحَةَ، المخلصة الطائعة...

وكما لم تُرْزق مِنْ **عليّ** بالأَوْلاد، كذلك ظَلَّتْ عقيماً من **المغيرة** حتى توفاها اللَّه تعالى؛ واختارها إلى جواره.

رضي اللَّه عن **أُمامة** ـ حفيدة رسُول اللَّه ﷺ، والأَحَبَّ إلى قلْبه...، ورفع منزلتها ومقامها.

أُم كلثوم

بنت علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه[1]

«زوّجنيها يا أبا الحسن، فواللَّه ما على ظهْرِ الأَرْضِ رجُلٌ يرصُدُ من حُسْنِ صُحْبتها ما أَرْصُد».

عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه

سَمِعْتُ رسُولَ ٱللَّه ﷺ يقول: «كُلُّ نسَبٍ وسَبَبٍ وصِهْرٍ مُنْقَطِعٌ يوم القيامة إلا نَسَبِي وسببي وصِهْري، فكان لي بِهِ ﷺ النّسَبُ والسَّبَبُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَجْمَعَ إِلَيْهِ الصِّهْر».

عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه

توطئة

ما أزْهرتْ دَوْحَةُ النبوَّةِ إلا خَيْراً، وما أَثْمَرَتْ إلا فَضْلاً، ولِحِكْمَةٍ أرادَها ٱلباري جَلَّ وعلا، لم يَكُنْ لِرَسُولِ ٱللَّه ﷺ ذرِّيَّةٌ إلاَّ مِنْ **خديجة** الكُبرى، أُولى أزْواجه، وخَيْرُ نسائه، وسيّدَةُ **المسلماتِ المؤمنات**.

ففي أرجاء بيتها شعَّت مصابيحُ ٱلْهُدى، وفي حِجْرها تَربَّت دَوْحَةُ النُّبُوَّةِ، ومِنْ فَضْلِ إيمانِها وخُلُقِها رَضَعَتْ **الزّهْراء فاطمة** رضي اللَّه عَنْها.

وأَطْلَعَت **الزَّهْراءُ** أَقْماراً وكواكبَ مُنيرة، سَطَعَتْ في سماءِ التّاريخ، فكَشَفَتْ بِنُورِ ٱلإيمانِ وٱلمَعْرِفَةِ وَٱلبيان وٱلْفَصَاحَةِ غياهِبَ الْجَهْل وٱلاسْتِبْدادِ.

وأُمّ كلثوم بنتُ **عليٍّ** و**فاطمة** رضي ٱللَّه تعالى عَنْهُم، ثمرةٌ من ثمراتِ دَوْحَة النبُوَّة امتازَتْ: بالإِيمان، وٱلْفَصَاحَةِ، وٱلْجرأَة، وقوَّة الشَّخْصِيَّة.

---

(1) ترجم لها المصَنِّفُ ابن حجر في «الإصابة» (8/ 275) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 489 ـ 490) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 509 ـ 510).

فَأَصَالتُها في إيمانها، وبلاغَتُها في فصاحتها، وقُوَّتُها في شَخْصِيَّتِها وجُرْأَتُها في قَوْلِ الحق دونَ خَوْفٍ أَوْ وَجَلٍ عناصِرُ خُلودِها. رضِيَ ٱللَّه عَنْها وأَرْضاها.

النسب الطاهر

وضَعَتْ **فاطِمَةُ** ٱلزَّهراء رضي ٱللَّه عَنْها طِفْلَةً بَعْد مخاضٍ عَسيرٍ، وكان زوْجُها **علي** كرّم ٱللَّه وجهه غائباً عَنِ ٱلمدينة، فأُخْبِرَ بذلِكَ رسولُ ٱللَّه ﷺ، فَحَضَرَ إلى بَيْتِ **فاطمة** التي يُحِبُّها حُباً بالِغاً، فواساها في آلامِها وهَنَّأَها بِمَوْلُودَتِها، وسَمّاها **أم كلثوم** تَيَمُّناً بٱسْمِ خالَتِها، وهُوَ ٱلذي سَمّى مِنْ قَبْلُ **حسناً** و**حُسيناً** رضي ٱللَّه تعالى عنهما، كما أَنَّهُ ﷺ بارَكَ المولودَةَ بِأَنْ مَسَحَ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ عَلَيْهَا ودَعَا لَهَا بِخَيْرٍ.

الـصـبـيـة

عاد **عليٌّ** رضي اللَّه عنه من سَفَره فَبُشِّر بما وضَعَتْهُ زَوْجَتُه، وبما سمّاها بِهِ جَدُّها المصطفى ﷺ فَغَمَرَتْهُ الفَرْحَةُ، وأَغْدَقَ على الأُم وعلى الابْنَةِ مُسْتَوْدَعَ عَطْفِهِ ومَكْنونَ حُبِّهِ.

وتعاقَبَتِ ٱلأَيّام والشُّهور والطِّفْلَةُ تَكْبُرُ وتَنْمُو وتزيدُ حُسْناً وبهاءً.

وما أن بَلَغَتْ بِضْعَ سنواتٍ حتى فارَقَ رسول ٱللَّه ﷺ الدُّنيا ولحق بالرّفيق ٱلأَعْلى، فكانَت **أم كلثوم** من أَكْثَرِ النّاسِ جَزَعاً وحُزْناً، لِما كانَتْ تَلْقَى من جَدِّها.

ولَقَدِ اكْتَسَبَتْ في مُسْتَهَلِّ حياتِها الفَصَاحَةَ والبلاغَةَ، كما اكتسبت الاعْتِزازَ بالنَّفْسِ، وصلابَةَ الإيمانِ.

فَظَهَرَتْ بوادِرُ شَخْصِيَّتِها القويّة وهي لا تَزالُ صغيرةً لمّا تَبْلُغِ العاشِرة من عُمرُها.

لولا أنك أمير المؤمنين...

تولى أبو بكر الصديق رضي ٱللَّه عنه خلافةَ المسلمين بعد وفاة النبيّ ﷺ فأَدّى ٱلأَمانَةَ وقام بواجبِ المسلمين خَيْر قيام، فلما دَنَتْ ساعَتُهُ وحانَ أَجَلُهُ عَهِد من بعده بالخلافة إِلى **عُمر بن ٱلخطاب** رضي ٱللَّه عَنْهُ.

ولقد كانَتْ تَعْتَمِلُ فِي نَفْسِ **عُمر** رَغْبَةٌ لَمْ تَتَيَسَّر لها أن تَتَحقَّق في حياةِ النَّبِيّ ﷺ، وهي أَنْ يَرْتَبِطَ إِلى ٱلدَّوْحَةِ النبويّةِ الشريفةِ بِالمُصَاهَرَةِ.

وبَدَت الفُرْصَةُ سانِحَةً حين تواتَرَتْ على مَسْمَعِهِ صفاتُ **أُمّ كلثوم** الخُلُقيّة، وما تَتَحلّى بِهِ من خِلالٍ وسجايا. فَرَغِبَ رَغْبَةً أكيدَةً في الطَّلَبِ والقُربى.

وكثيراً ما كان **عُمَر** رضي ٱللَّه عَنْهُ يَسْتَقْضِي **علياً** في نزاعاتِ المسلمين التي تُرْفَعُ إِلَيْهِ، إِعْتِقاداً مِنْهُ بكفاءَتِهِ في الفَتْوى، وتَعَمُّقِه في الفِقْه.

فَبَعْدَ أن انتهى **عليٌ** يوماً من فَضّ الْخِلافِ بَيْن متداعِيَيْنِ وأراد الانصراف استَبْقَاهُ **عُمرُ** قائلاً:

- إِن لي حديثاً خاصّاً مَعَكَ يا **عليّ**.

فٱنْصَرَفَ ٱلحُضورُ، وخَلا ٱلمكانُ بِعُمر وعلي وَحْدَهُما.

قال **عمر**:

- أريدُك أن تُنكِحني **أُمّ كُلْثوم**.

فقال **علي**:

- إِنّها صغيرة...

فقال **عمر**:

- زوّجْنيها يا **أبا الحسن**، فَوَاللّه ما على ظَهْرِ ٱلْأَرْضِ رَجُلٌ يرصُدُ مِنْ حُسْنِ صُحْبَتِها ما أَرْصُدُ...

الــزواج

ثم خَرَجَ **عُمَر** من بيْتِهِ حتى أَتى مَجْلسَ المهاجرين في مَسْجد رسول ٱللَّه ﷺ بين القَبْرِ والمِنْبر، وهو المكان الذي تَعَوَّدَ أنْ يجتمع فيه إِلى أصحاب رسولِ ٱللَّه ﷺ، يُخْبرُهم الأَخبارَ، ويُبَلِّغُهم الأَحداث، ويسْتَشيرُهم في الأُمورِ، وكأَنَّ هذا المكانَ من الرَّوْضَةِ الشريفة الذي فيه يتناقشون ويتحدَّثون ويُبْرمون، مستلْهِمين رُوحَ النبي ﷺ وهَدْيَه، فلا يَضِلّون أبداً.

وقَفَ **عُمَر** في ذلك المكانِ الذي كان خِلْواً من النّاس، حتى أَخَذَت طلائِعُهم تَتَعاقَبُ.

فَحَضَر **عليٌ** أوّلاً، ثم جاءَ **عثمان بن عفان** و**الزبير بن العوام** و**طلحةُ بن عُبيْد ٱللّه** و**عَبدُ الرحمن بن عَوْف**.

وبَعْد أَنْ اكْتَمَلَ عِقْدُهم، قال لهم **عمر**:

- رفِّئُوني . . . **أَيْ هنئوني**.

فقالوا:

- بِمَنْ يا أمير ٱلمؤمنين؟؟

قال:

- بٱبنةِ **علي بن أبي طالب** إِذْ سَمِعْتُ رسُولَ ٱللّه ﷺ يقول:

«كُلُّ نسبٍ وسَبَبٍ وصِهْرٍ مُنْقَطِعٌ يَوم القيامةِ إلا نَسبي وسببي وصِهْري»، فكان لي بِهِ ﷺ النَّسَبُ والسَّبَبُ، فأَردْتُ أن أَجْمَعَ إِلَيْهِ الصِّهْر . . . فَرَفَّأوهُ، وهَنَّأُوهُ وتمنَّوْا له ٱلخَيْرَ والسَّعادة[1].

إِذَنْ لَمْ يَكُنْ طَلَبُ **عُمَر** رضي ٱللّه عنه ٱشْتِهاءً، ولم تكُنْ رغبتُهُ نَزْوةً، بل كان هَدَفاً سامياً وغَرَضاً نبيلاً.

لقد كان يُريدُ أنْ يَرْتَبِطَ بالدَّوْحَةِ النَّبَويّة ارْتباطاً وثيقاً وتاماً حتى لا يَنْفَصِم عَنْها أبداً.

ارتبط إِليها بالإِسلام أولاً.

ثم بالنّسب ثانياً، حين زَوَّج ٱبْنَتَهُ **حَفْصَةَ** إلى رسول ٱللّه ﷺ وها هُو رضي ٱللّه عنه يُريدُ أَنْ يَسْتَكْمِل جوانبَ ذلك الارتباط بالمصاهَرَة، وقَدْ فَعَلَ.

رضي ٱللّه عن **الفاروق** فقد كانَ مَثَلاً سامياً في كُلِّ ما يَصْدُرُ عَنْهُ.

الــزوجة

عاشَتْ **أُمّ كلثوم** في بيتِ **عُمَر** أمير المؤمنين زَوْجَةً طائِعَةً وفيّةً، ولقد ٱشتهَر عن **عُمَر** رضي ٱللّه عنه شِدَّتُه على نَفْسِهِ، وتَقْتيرُه على بَيْتِهِ، وحَذَرُهُ الشّديدُ على المسلمين وأَمْوالهم.

---

(1) ذكره ابن حجر في «الإصابة» (8/ 276) وابن الأثير في «أسد الغابة» (5/ 489) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (4/ 509) والحديث بتمامه رواه الحاكم في «المستدرك» (3/ 142).

فكانت **أُمّ كلثوم** بما رُكّب فيها من إيمانٍ وخُلُق، وما رُبِّيَتْ عليه من فضائلَ تتقبّل ذلك ولا تتأفّف، وترضاهُ ولا تملّ، ولقد حَدَثَت يوماً حادِثَةٌ تَدُلُّ بما لا لَبْس فيه ولا غموض على ما كانت عليه رضي اللّه عنها من قناعةٍ وطاعَةٍ.

إذ أَرْسلت يوماً مع رجُلِ البريد هديَّةً إلى زَوْجَةِ **هِرَقل** ملك الرّوم ودون أن تُخْبر **عُمَر** بذلك.

فلما وصَلتْ ٱلهديّة إلى صاحِبتها جَمَعَت وصيفاتِها ونساءَ قَصْرِها وقالت لهم: هذه هديةُ ٱمرأَةِ **مَلِكِ العرب** وبِنْتِ نبيِّهم، وإني أرى أَنْ أُبادِلها، فوافقوها.

ثم إنها كتَبَتْ رسالة شُكْرٍ لأمّ كلثوم وأَرْسَلَت مع السّاعي بعض الهدايا، وكان فيما أَرْسَلَتْ عِقْداً فاخِراً.

فلما ٱنْتهى رجلُ البريد إلى ٱلمدينة المنوَّرَةِ أَمْسَكَ **عُمَر** بالكتاب والهديَّة، وٱحْتَجزها عِنْدَهُ.

وحَدَّث **أُمّ كلثوم** مُعاتباً أَن يَحْدُثَ ذلك دون عِلْمِهِ. ثم أَمَرَ أَن يُنادى في الناس: الصلاةُ جامِعَة.

فاجتمع خَلْقٌ كثيرٌ فَصَلّى بِهم ركْعَتَيْن وقال بَعْدَ أَن حَمِدَ ٱللّه تعالى وأَثْنَى عَلَيْهِ:

- إنّه لا خَيْر في أَمْرٍ أُبْرِمَ عَن غَيْرِ شُورى من أُموري.

ثم أَخْبَرَهُم بما حَدَث، وأوقَفَهُم على التطوّرات وما آل إليه الأمْر، وٱستشارهم بشأن العقْد.

فقال قَوْمٌ: هُوَ لها بالذي لها، ولَيْسَتِ امرأةُ الملك **هرقل** بِذِمَّةٍ فَتُصانِعَ بِهِ **أيْ تداهِنْ**، ولا هي تَحْتَ يدك **أي حُكْمِك** فَتَتَّقِيك.

وقال آخرون:

كُنّا نُهدي الثِّيابَ لِنَسْتثيبَ، ونَبْعَثُ بها لتُباع ولِنُصيبَ ثَمناً...

استمع **عُمَر** إلى آراءِ الجميع، ثم قال:

ولكنَّ الرّسُول **أي ساعي البريد** رسُولُ المسلمين، والبريدُ بريدهُم، والمسلمون عظّموها في صَدْرِها.

ثُمَّ أَمَر بِرَدِّ ٱلهدية إِلى بَيْتِ المال . . .

لكِن **عُمر** كان حكيماً بالِغَ الحكمة، حاكماً يَرْعَى شُؤُون الأُمّة ويحفظ على بَيْتِهِ أَمْنَهُ وسُكونَهُ وٱسْتِقْرارَهُ ودَعَتَهُ، فأَعطى **أُمّ كلثومٍ** نَفَقَةً بقَدْرِ الْهَدِيَّة من مالِهِ ٱلخاص.

كما كانت **أُمّ كلثوم** رضي اللَّه عنها من ناحيَتِها زَوْجَةً لأَمير ٱلمؤْمنين تُقَدِّرُ التَّبِعَةَ والمسؤُولية قَبْلَ أَنْ تكونَ ٱمْرأةً تَسْتَبِدُّ بها أَنانِيتُها، فَقَبِلَتْ بحُكْم **عُمَر** ورَأْيِهِ.

الأم

ولدَت **أُمّ كلثوم** لعمر رضي اللَّه عَنهُمَا ولَدَيْن: ذَكَراً وأُنْثَى.

زيْد بن عمر الأَكْبَر، **ورُقيَّة** سَمّتْها كذلك تيمُّناً بٱسْم خالتها رضي ٱللَّه عنها، فربَّتْهُما أَحْسَن تَرْبية، ونشَّأَتْهُما أَحْسَنَ تَنْشِئَة، فاكتسبا من والديْهما صلابَةَ الرَّأْي، وتواضُعَ المؤْمِنِ، والجرْأَةَ في الْحَقّ، وقُوَّةَ الشَّخْصِيَّةِ.

الأيـــم

ٱسْتُشْهِدَ **عُمَر** رضي ٱللَّه عنه، فَبَكَتْهُ **أم كلثوم** بكاءً مُرّاً، وحَزِنَتْ لِفراقِهِ أَشَدَّ الحُزْنِ، واهْتَمَّتْ واغْتَمَّت.

ودَخَلَ عَلَيْهَا أَخواها **حَسَنٌ وحُسيْنٌ** يوماً قائليْن:

ـ إنك مِمَّن قَدْ عَرَفْتِ، سَيِّدةُ نساءِ المسلمين، وبِنْتُ سَيِّدَتِهِنّ، وإِنّكِ واللَّه إن أَمْكَنْتِ **عَلِيّاً** من رِمَّتِكِ لِيُنْكِحَنَّكِ بَعْضَ أَيْتامِهِ، ولَئِنْ أَرَدْتِ أَنْ تُصيبي بِنَفْسِكِ مالاً عظيماً لَتُصيبِنَّهُ.

وكان رضي ٱللَّه عنهما يُحَرِّضانِها على الاسْتقلال بِشَخْصِيَّتِها ورأيها، وذلك بعد أَنْ سَمِعا هَمْساً يدُورُ في بَيْت **عليٍّ** عن مَشْروع زواج، وبينما هما في تَحْريضهما، **وأُمُّ كلثوم** مُطْرِقَةٌ برأْسها تُفكّر فيما يقولان، دَخَلَ عليهم **عليٌّ** كَرَّم اللَّه وجهه يتّكئ على عصاهُ.

فاسْتَقْبَلَهُ أبناؤُه، وأَجْلَسَتْهُ **أُمّ كلثومٍ** في صَدْر الدّار.

فقال بَعْد أن حمِد اللَّه وأَثْنَى عَلَيْه:

ـ قد عَرَفْتُم مَنْزِلَتَكُمْ عِندي يا بني **فاطِمَة**، وآثَرْتُكُم على سائرِ ولَدي لمكانِكم من رسولِ ٱللَّه ﷺ وقَرابَتِكُم مِنْهُ.

فقالوا:

ـ صَدَقْتَ رَحِمك ٱللَّه، فَجزاك ٱللَّه عنّا خَيْراً.

ثم ٱلْتَفَتَ إلى **أمّ كلثوم** وقال:

ـ أيْ بُنيَّة، إن اللَّه عَزَّ وجَلَّ قَدْ جعَل أَمْرَكِ بيدِكِ، فأنا أُحبُّ أن تَجْعليهِ بِيدي...

فقالت:

ـ أيْ أَبَهْ، إني ٱمرأةٌ أرغَبُ فيما يَرْغَبُ النساء، وأُحِبُّ أن أصيب مما تصيب النِّساء من الدُّنيا، وأَنا أُريدُ أَنْ أَنْظُرَ في أَمْرِ نَفْسي.

فقال وقَدْ أَدْرَكَ الحقيقة:

ـ لا واللَّه يا بُنيّة، ماهذا من رَأْيك، ما هُو إلا من رأْيِ هَذيْن.

ثم قام غاضباً وقال:

ـ واللَّه لا أكلّمُ رَجُلاً منهما أوْ تَفْعلين.

فَشعَرَ **حَسَنٌ وحسينٌ** بِوَطْأَة غَضَبِ **عليٍّ** عَلَيْهِما، فأَخذَا بثيابِهِ وقالا:

ـ اجلس يا أَبَهْ، فواللَّه ما على هِجْرَتِكَ من صَبْرٍ، اجعلي يا **أُمّ كلثوم** أمْرَكِ بِيَدِهِ.

فقالت على التَّوِّ:

ـ قَدْ فَعَلْتُ.

وعاد الصّفاء إلى ربوعِ البَيْتِ، بَعْدَ أَن خيّمت في جوِّهِ سحابَةٌ داكنةٌ تُنْذِرُ بعَاصِفَةٍ شديدَةٍ عاتية.

زوّجها **عليٌّ** كرّم اللَّه وجهه من ٱبن أخيه **عَوْن بن جَعْفر** كما أَعطاها أربَعَة آلافِ درهمٍ لتَسْتعين بها على الحياةِ[1].

---

(1) ذكره ابن حجر في «الإصابة» (8/ 275).

عليٌّ الشهيد

مَضَتْ أَيَّامُ **أم كلثوم** مع **عَوْن بن جعفر** طَيِّبَةً سعيدةً، وما نَقّصها شيءٌ أبداً، فهو إنْسانٌ كريمٌ عاقِل ورِثَ عن أبيه **جعفر** الدَّماثَةَ والرِّقَّةَ، كما كانَت **أم كلثوم** زَوْجَةً وفيَّةً، تُقَدِّسُ حُقوقَ الزَّوْج وتَحْتَرِمُها.

وتَذْكُرُ كُتُبُ التاريخ أن **أُمَّ كلثومٍ** هي التي جرى بَيْنَها وبين **عَبْد الرحمن بن ملجم** قاتل أَبيها حوارٌ.

فَقَدْ دَخَلَتْ على أَبيها وهو مُسَجّى يُعاني من آلام السُّمِّ الذي تَسَرَّب إِلى جميع أَنْحاء جَسَدِهِ باكيةً، **وابن ملجم** مَكْتُوفٌ بَين يَدَيْه، فقالت:

- أَبي أَبي!!!! لا بأس على أَبِي. يا عَدُوّ اللَّه اللَّهُ مُخزيك.

قالت ذلك وهي لِشِدَّةِ شَفَقَتِها وحُنُوّها تَعْتَقِدُ بِأَنّ **عَلِياً** سَيُشْفى مما أَصابَهُ...

فقال لها **ٱبن ملجم**:

- على من تَبْكين؟ واللَّه لقد ٱشتَريتُهُ بأَلْفٍ **يعني السَّيف** وسَمَّمْتُهُ بأَلْفٍ، ولو كانَت هذه الضَّرْبَةُ على جميع أَهْلِ الْمِصْر ما بقِيَ مِنْهُم أَحَدٌ.

ثم فارق الإمام **علي** كرّم ٱللَّه وجهه الحياة، فَذَرَفَت **أُمُّ كلثوم** عليه أَغْلى دُموعِها وأَحَرَّ عَبَراتِها.

وأناخ الحُزْنُ بِكَلْكَلِهِ على حياتِها، ثُمّ تَوالَتْ النَّكَباتُ فزادتْها حُزْناً على حُزْنٍ، وأَلماً على أَلَم.

ولكنّها ما فَقَدَتْ أَبداً رباطَةَ جأْشِها وقُوَّةَ شَخْصِيَّتها وثباتها، فها هي تخاطِبُ أَهْلَ **الكُوفة** معاتبةً ساخِطَة، وتُجَدِّدُ من خلال كلماتها الفَواصِلَ والضَّوابِطَ بَين الإِيمانِ والنِّفاق، وكذلك المسؤُولياتِ أمام اللَّه وأَمامَ النّاس.

وتَبْدو لَك **أُمُّ كلثوم** من **المسلمات الخالدات** بهَذِهِ الكلمة البليغة مِن حَيْثُ عباراتها ومعانيها والحكم التي تَضَمَّنَتْها، وذلك بعد أَنْ جَرَتْ فَوْقَ أَرْضِ **كربلاء** أَكْبَرُ مَجْزَرَةٍ في التّاريخ، والتي لم يُراعِ ٱلمجرِمُونَ فيها حُرْمَةَ ٱلمُصْطفى ﷺ فقَتَلَوا أَحْفادَهُ، وذَبَحوا أَهْلَ بَيْتِهِ وعِتْرَتِهِ، وشَرَّدوا ذراريه من النساء.

قالت **أُمُّ كلثومٍ** تُخاطِبُ أَهْل **الكوفة**: أَبدأُ بحمْد ٱللَّه، والصَّلاة والسلام على نبيِّهِ.

أما بَعْدُ يا أَهْل **الكوفة**، يا أَهْل الخترِ والخُذْلان، فلا رَقَأَتِ العَبْرةُ، ولا هدأَت الرَّنَّةُ.

إِنما مثلُكُم كَمَثَلِ التي نَقَضَتْ غَزْلَها مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثا، تَتَّخِذُون أَيْمانَكُم دَخَلاً بَيْنَكُم ألا وهَلْ فيكم إِلا الصَّلَفُ والشّنَفُ، ومَلَقُ ٱلإِماء وغَمْزُ الأَعداء؟

وهل أَنْتُم إِلا كمرعىً على دِمْنَةٍ، وكفضَّةٍ على ملْحودةٍ، أَلا ساء ما قَدَّمَتْ أَنْفسكم أَنْ سَخِط ٱللَّه عليكم وفي العذابِ أَنْتُم خالِدون.

أَتبكُون؟؟ إِي وٱللَّه فٱبكوا، وإِنّكم وٱللَّه أَحْرياءُ بالبكاء، فابكوا كثيراً واضْحكوا قليلاً فلقد فُزْتُم بعارِها وشَنارِها، ولن تَرْحضُوها بغَسْلٍ بَعْدها أبداً.

وأنّى ترْحضون قَتْلَ سليل خاتَم النّبُوَّةِ ومَعْدِنِ الرسالة، وسيّدِ شُبّان أهل الجنّة، ومنار مَحَجَّتِكم، ومِدْرَه حُجَّتِكم ومُفْرِجَ نازِلَتِكم. فتَعْساً ونَكَداً.

لقد خابَ السَّعْيُ وخَسِرتِ الصَّفْقَةُ وبُؤْتُم بِغَضَبٍ من ٱللَّه، وضُرِبَتْ عليكُمُ الذِّلَّةُ والمسكَنَةُ، ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: 89، 90].

أَتَدْرون أيّ كَبدٍ لرسُولِ اللَّه فَرَيْتُم؟ وأيّ كريمةٍ له أبْرزتُم، وأيّ دمٍ له سَفكْتُم؟

لقد جِئْتُم بها شوْهاءَ خَرْقاءَ شرُّها طلاع الأَرضِ والسّماء، أفَعَجِبْتُمْ إن قَطَرَت السماءُ دما؟ ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: 16].

فلا يَسْتَخِفَّنَّكُم الْمُهل فإِنّه لا تَحْفِزُه المبادَرَةُ، ولا يخاف عَلَيهِ فَوتُ الثَّأْرِ. كلاّ إِنَّ ربَّكَ لنا ولهم بالمرصاد.

قالت ذلك، ثُمّ ولَّت عنهُم.

وأقامت **أُم كلثوم** على وفائها لِلْحَقّ حتى لقِيَت ربَّها. رضي ٱللَّهُ عنها، وطَيَّب ثراها.

***

فهرس المحتويات

نساء

عايشن الرسول ﷺ

بنات
الرسول ﷺ

حفيدات
الرسول ﷺ